

١٨٦

تاريخ المصريين

العقائد الدينية

في مصر المملوكية بين
الإسلام والتصوف

تأليف: د. أحمد صبحي منصور



المينة المصرية
العامة للكتاب

١٨٦

تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير

محمود الجزار

الحقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف

تأليف : د. احمد صبحي منصور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا العمل العلمى المهم عن «العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف» الذى كتبه الدكتور أحمد صبحى منصور، وهو عالم ومفكر إسلامى مشير للجدل، وله بحوث عديدة فى التاريخ الإسلامى اتسمت بقوة الحجة والبحث والاطلاع والتوفيق.

وقد تعرض بسبب بحوثه الجريئة لكثير من الاضطهاد والمضايقات من التيار المتحجر الذى يخلط بين الحدين الذى نزل من السماء لاصلاح أهل الأرض، وبين «تدين» أهل الأرض الذى يتأثر بظروف كل منطقة. وقد قاده دراساته وبحوثه، إلى أن مصر بتاريخها وحضارتها كان لها نوع من التدين الخاص بها ساعد على وجود تشابه هائل بين ملامح التدين العقيدى والسلوكى، فى مراحل التاريخ المصرى الفرعونى والقبطى والإسلامى.

والكتاب الذى بين أيدينا يشكل مراجعة من الباحث على كتابه: «التصوف والحياة الدينية» دعمها بالرجوع إلى بدايات التصوف التاريخية والعقيدية والفكرية، وحذف منها بعض الفصول، وأضاف إليها ما يحتاج إليه من أبحاث تضمنتها رسالته للدكتوراه التى نوقشت، خصوصاً فيما يتصل بعلاقة الصوفية بالفقهاء، وبعض النواحي العقلية والاجتماعية. وقد حرص على توثيق كل ما كتبه بالمصادر الأولية، التى يستطيع أن يرجع إليها القارئ للتحقق من الأمانة العلمية للباحث فى محاولته التعرف على التصوف وعقائده ورسومه، وتحديد الفجوة بينه وبين الإسلام الصحيح من خلال القرآن.

والكتاب يتناول التصوف عقيدة وتاريخاً، ويتحدث عن بداياته، وانتشاره، وسيطرته على العصر المملوكى، كما تناول مراحل العقيدة الصوفية، وتطورها فى مصر المملوكية، وصراع الفقهاء والصوفية فى القرون السابع والثامن والتاسع والعاشر الهجرية، ويعيب على الغزالي وابن عربى غموضهما ومغالطتهما، وعدم اكتفائهما بالقرآن مرجعاً.

كذلك تحدث الباحث عن الشعرانى ممثل الفقه والتصوف، وطبيعته، وتسليحه بالفقه لخدمة التصوف، وهجومه على معاصريه من الصوفية، وتحدث عن القرن العاشر «عصر المجاذيب» الذين ذكرهم الشعرانى وفرق بين المجذوب والصوفى المتطرف، وتحدث عن التلمسانى، وعن حركة ابن تيمية وما أحدثته من رد فعل

مضاد على الجانب الصوفى المتطرف، كذلك تحدث عن أدعياء النبوة فى القرنين الثامن والتاسع، وادعاء الصعود إلى السماء.

وقد تناول الباحث فى الباب الثانى تقديس الولى الصوفى فى مصر المملوكية، وتحدث عن أنواع أولياء الصوفية وكراماتهم، كما تحدث عن ولى الله فى التصوف، وتعرض لتأليه الولى الصوفى، وادعاءات الصوفية الخوارق وعلم الغيب، وناقش هذه الادعاءات مناقشة علمية.

كذلك قدم دراسة فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى، واختصاص بعض الأولياء بكرامات معينة دون غيرهم، وتطوع الناس بترويج هذه الكرامات، واختراعهم الكثير من كرامات الصوفية.

والكتاب بذلك يرتاد لأول مرة طريقاً جديداً فى البحث التاريخى، هو بحث الحياة الدينية للمسلمين فى العصر المملوكى، لتوضيح الفجوة بين الدين الحنيف الصحيح والمعتقدات الدينية البعيدة عن الدين، وهو يستعين بالدين الحقيقى فى محاربة الأوهام الدينية والسلوكيات الضالة التى أخرت المسلمين، وهو بذلك يعد من كتب التنوير المهمة التى تحارب الأباطيل، وهو جدير بالقراءة.

والله الموفق،،،

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمري إلي الله،
إن الله بصير بالعباد ..)

«غافر: ٤٤»

التمهيد

التصوف عقيدة وتاريخاً

- أولاً : ماهية التصوف :**
- تعريفات التصوف.
 - اشتقاقات التصوف.
 - مصادر التصوف.
 - هل يمكن أن يكون الإسلام مصدراً للتصوف عند المسلمين؟
- ثانياً : بداية التصوف وانتشاره في الدولة الإسلامية :**
- بين الزهد والتصوف.
 - بداية التصوف.
 - انتشار التصوف في العالم (الإسلامي).
 - سيطرة التصوف على العصر المملوكي.

التصوف مقيدة وتاريخها

أولاً : ماهية التصوف : تعريفاته - اشتقاقاته - مصادره

* هل يعتبر الإسلام من مصادر التصوف ؟

انشغل بالتصوف أصحابه ودارسوه، فكانت لهم اجتهاداتهم في تعريفه واشتقاقه ومصدره، وسنمر على ذلك مروراً سريعاً ثم نوضح رأينا في النهاية.

تعريفات التصوف :

١ - يقول القشيري (تكلم الناس في التصوف، ما معناه، وفي الصوفي من هو، فكلُّ عبَّر عما وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز، وسنذكر بعض مقالاتهم فيه على التلويح.. سئل أبو محمد الحريري عن التصوف فقال : الدخول في كل خلق سئى والخروج من كل خلق دنى، وقال أحدهم سمعت الجنيدى وقد سئل عنه فقال : هو أن يملك الحق عنك ويحييك به، وقال الحسين بن منصور عن الصوفي : وحدانى الذات لا يقبله أحد، ولا يقبل أحدًا) إلخ (١).

فالقشيري يرى أن كل صوفي عرف التصوف تعريفاً ذاتياً، أو بتعبيره (فكلُّ عبَّر بما وقع له)، ومعنى ذلك أن تعدد تعريفات التصوف، وتكاثر بتكاثُر الداخلين في ميدان التصوف، حتى أن القشيري أراح نفسه من ذكر تعريفات التصوف التي ذكرها الصوفية حتى العصر الذي عاشه فقال (واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز)، وقد مات القشيري سنة ٤٦٥ هـ.

ومن الطبيعي أن تتعاظم تعريفات التصوف كثرة بعد زمن القشيري، وقد دخل التصوف في دور الانتشار، فيقول الحلبي في القرن الحادى عشر (في كلام بعض المشايخ في بيان ماهية التصوف أقوال تزيد عن ألف قول) (٢). أى بلغت تعريفاته عند بعض المشايخ أكثر من ألف .. فكيف تبلغ عند كل المشايخ، وردد د. / عبد الحليم محمود قول الحلبي في تعريفات التصوف، وأنها (أريت عن الألف، كما يقول مؤرخو

التصوف القدماء (٣).

وأورد نيكلسون قائمة بتعريفات التصوف مرتبة ترتيباً زمنياً، وذكر بعضها بالعربية والفارسية (٤). ولا يزال الباب مفتوحاً على مصراعيه لتعريف التصوف عند الصوفية فيقول صوفي معاصر هو أبو الرفا التفتازاني (التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس أخلاقياً، وتحقق بواسطة رياضيات عملية تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى. والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقيقتها بألغاز اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع والذاتية) (٥).

٢ - وحاول دارسو التصوف أن يجدوا تعليلاً وتفسيراً لهذه الكثرة الكثيرة من التعريفات الصوفية للتصوف، والقشيري أسبق في الإشارة إلى أن كل صوفي يعبر عن ذاته في تعريفه للتصوف.

وقد أوضح أبو العلا عفيفي ما أجمله القشيري، فيقول عن تعريفات التصوف : (قد يكون للصوفي الواحد أكثر من تعريف للتصوف من غير أن يربط بينها رابط، وذلك لأن الصوفي «إبن وقته»، فهو ينطق في كل وقت بما يغلب عليه الحال في ذلك الوقت، نعم قد يقال إن الغالب على تصوف ذي النون المصري الكلام في المعرفة، وفي تصوف أبي يزيد البسطامي الكلام في الفناء، وفي تصوف رابعة العدوية الكلام في المحبة، وفي تصوف شقيق البلخي الكلام في التوكل، وفي تصوف الجنيد الكلام في التوحيد، ولكن ليس معنى هذا إن تصوف كل من هؤلاء كان منحصراً في المعرفة أو الفناء أو المحبة أو التوكل إلخ. زد على ذلك إن بين التعريفات تداخلاً جزئياً أو كلياً، وبعضها يكرر معاني البعض الآخر بعبارات مختلفة، وهو ما يجعل خضوعها للتصنيف العلمي أمراً عسيراً) (٦).

وما ذكره أبو العلا عفيفي يلخصه الباحث الإيراني «قاسم غني» القائل (التصوف أمر قلبي، وهو من مقولة الأحاسيس الشخصية، وكل واحد يعتبر التصوف هو ذلك الشيء الذي أدركه وأحس به، ولا يمكن وصف حقيقة التصوف بتعريف عام جامع مانع يتفق عليه الجميع) (٧).

ويخرج أبو الوفا التفتازانى بتعليل جديد لإختلاف الصوفية فى تعريف مذهبهم الصوفى يقول (.. على أن كلمة تصوف - وإن كانت من الكلمات الشائعة - إلا أنها فى نفس الوقت من الكلمات الغامضة، والتى تتعدد مفوماتها وتباين أحياناً، والسبب فى ذلك أن التصوف خطٌ مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة فى عصور مختلفة، ومن الطبيعى أن يعبر كل صوفى عن تجربته فى إطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار، ويخضع أيضاً لما يسود حضارة عصره من إضمحلال وإزدهار، وتبدو التجربة الصوفية واحدة من جوهرها، ولكن الإختلاف بين صوفى وآخر راجع أساساً إلى تفسير التجربة ذاتها المتأثرة بالحضارة التى ينتمى إليها كل واحد منهما) (٨).

واستعراض شتى تعريفات التصوف وتحليلها يخرج بنا عن الإلتزام بالإختصار، إذ أنها جميعاً لا تخرج عن الإطار الذى عرضنا له، ثم أن القائلين فى تعريفات التصوف وشرحها إما صوفية (يعتقدون شيئاً لا يتفقون على مجرد التعريف به)، وإما فلاسفة علمانيون كابى العلا عفيفى، وقاسم غنى - لا يفهمون الإسلام كما ينبغى، ويخلطون بين الإسلام والمسلمين على نحو ما سنوضحه فى مفهوم التصوف وحقيقته علاقته بالإسلام.

المفهوم الحقيقى

١ - وضع من العرض السابق أن تعريفات التصوف لا تنتهى كثرة وتناقضاً وإختلاًفاً. وأن كل صوفى يأتى لا يلتزم بتعريف من سبقه للتصوف فيأتى بتعريف جديد حتى أن (أبو الوفا التفتازانى) (مدُّ الله فى عمره) (*)، خرج بمفهوم يرى أنه (أكثر انطباقاً على مختلف أنواع التصوف) (٩)، مما جعله يعدل فى تعريفه المبدئى للتصوف (١٠). ويأتى بالمفهوم الجديد الذى ذكرناه.

ويقيناً فإن اشياخ التصوف الآخرين المعاصرين لن يوافقوا على تعريفه للتصوف حتى وإن كانوا أقل ثقافة (أو تصوقاً) منه، ذلك إن لكل صوفى (تجربته الخاصة) التى يعبر عنها كما يقول التفتازانى نفسه. أو بتعبير الصوفية لكل صوفى (ذوقه) أو بتعبيرنا (لكل منهم هواه).

(*) كان حياً وقت تأليف هذا الكتاب، ثم مات ١٩٩٤.

فالهوى هو الأساس فى اختلاف الصوفية فى تعريف الأشياء لديهم، وهو التصوف الذى به يدينون ويوصفون.

وقد يُسمون الهوى (ذوقًا) عند الأقدمين أو (تجربة) كما عند المحدثين، إلا أن الهوى هو المعيار الذى نفسر به حقيقة التصوف، ولنا فى ذلك دليلنا العقلى والنقلى :

أولاً : فالتصوف (عاطفة ووجدان، وليس من قبيل المعرفة البرهانية، وهو حالة سريعة الزوال)، وتلك سمات التصوف عند التفتازانى^(١١)، وقد أدخلها فى مفهومه للتصوف حيث قال (.. والعرفان بها ذوقًا لا عقلًا .. لأنها وجدانية وذاتية). فالعقل خارج دائرة التصوف. وعداء الصوفية للعقل أمر مقرر .. وإذا غلبت العاطفة (والوجدان والذوق والإحساس)، وحارب العقل تسلط الهوى وتناقض الانسان مع نفسه حتى (يكون للصوفى الواحد أكثر من تعريف للتصوف، من غير أن يربط بينهما رابط، وذلك لأن الصوفى ابن وقته، فهو ينطق فى كل وقت بما يغلب عليه الحال فى ذلك الوقت)، على حد قول أبى العلا عفيفى الذى أوردناه. ولأنه «هوى» فكل صوفى يتعصب لهواه الذى يحس به فى قلبه، أو بتعبير قاسم غنى فالتصوف (أمر قلبى، وهو من مقولة الأحاسيس الشخصية، وكل واحد يعتبر التصوف هو ذلك الشيء الذى ادركه وأحس به، ولا يمكن وصف حقيقة التصوف بتعريف عام جامع مانع يتفق عليه الجميع).

ثانيًا : وقد جعل القرآن الكريم (الهوى) نقيضًا للعقل، ودعا لاستعمال العقل للوصول به للإيمان الخالص بالله وحده، وتكرر فى القرآن الكريم (أفلا تعقلون) (لعلكم تعقلون)، ووصف المشركين بأنهم (لا يعقلون) وبأنهم يتبعون الهوى بلا عقل (أفرايت من اتخذ إلهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلاً؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) (الفرقان ٤٣ ، ٤٤).

ولأن كل منهم يعبد هواه وينكر عقله فقد تفرقوا شيعًا وأحزابًا وطرقًا، ومن الملاحظ أن الاختلاف سمة أساسية للتصوف يشمل كل شيء من تعريفه إلى اشتقاقاته ورسومه وشكلياته، حتى يحتسب عمر الشقاق بين الصوفية بعمر التصوف نفسه، بل

ومرتبطاً بعقيدة التصوف نفسها، حتى أن رومى الصوفى يقول (ما تزال الصوفية بخير ماتناقروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم) (١٢).

٢ - وما معنى سيطرة الهوى (أو الذوق أو الحال) على فكرة الصوفى وعقيدته ؟

إن التصوف كما يقول التفتازانى : (نوعان أحدهما دينى والآخر فلسفى، فالتصوف الدينى ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعاً) (١٣) .. ومعناه أن التصوف الدينى إذا سيطر عليه الهوى خالف الإسلام تبعاً لمفهوم القرآن الذى لا تقدس فيه إلا لله وحده، ولا مكان فيه للإعتقاد فى الخرافات وأنصاف الآلهة. فالقرآن يجعل الدين إما إخلاصاً فى الإيمان بالله وحده على أساس من العقل والعلم، وإما شرّاً قائماً على الهوى والتقليد والجُهل والعَمى، ولا وسطية هنا، والعاقِل بعد أن يصل بعقله وهداية ربه إلى الإيمان الخالص بالله وحده وليّاً وشفيعاً ومشرعاً فلن يكون هناك مجال للاختلاف بينه وبين إخوانه المؤمنين، طالما يتحاكمون إلى كتاب الله، ويرتضون حكم الله (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) (الشورى : ١)، أما أصحاب الهوى فهم فى اختلاف وشقاق يتكاثرون بتكاثرات الآلهة والأولياء والمشرعين الذين يشرعون ذلك الدين بالهوى والعاطفة فتتشابك الأهواء ويكون الاختلاف والتنازع هو الخير عند أصحاب ذلك الدين، كما يقول رومى (ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم).

ويقرر التفتازانى أن التصوف الدينى ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعاً سواء فى ذلك الأديان السماوية والأديان الشرقية القديمة .. أى أن التصوف وجد إلى جانب اليهودية والنصرانية وأديان الفرس والهنود والصينيين، وتلك حقيقة تاريخية نجد صدى لها فى القرآن الكريم فى حديثه عن بعض أهل الكتاب ممن حادوا عن الطريق وارتدوا من بعد ما جاءهم البينات، فاشتد بينهم الاختلاف (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة) (البينة : ٤)، ويقول عن اليهود بعد موسى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) (هود : ١١، فصلت : ٤٥)، ولمحو هذا الخلاف جاء عيسى (قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) (الزخرف : ٦٣)، ثم اختلفوا بعد عيسى (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) (مريم : ٣٧)، ثم جاءت الرسالة الخاتمة بالقرآن لتدعو إلى الإيمان الخالص بالله وحده وإلى نبذ

الخلافات والأهواء حتى بين أصحاب الكتب السابقة (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) (النمل : ٧٦). ووقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب.

والتصوف اليهودى والتصوف المسيحى كلاهما مسئول عن الزيع الذى وقع فيه أهل كتاب، فجاء القرآن ليوضح الطريق، إلا إن أحفاد أهل الكتاب فى العصر الإسلامى أبوا إلا الرجوع إلى سنن الآباء، فعاد التصوف يطل برأسه يعززه الهوى وحب التراث والمأثورات الوطنية والشعبية، وقد تنهزم العقائد الشعبية وتنحسر مؤقتاً، إلا أن الضمير الشعبى يحافظ عليها مستورة حتى تعود إلى الظهور تحت رداء جديد لتحمل عنوان الدين السائد وتجد من يدافع عنها ويربطها بالإسلام، وهكذا كان مولد التصوف فى الشام والعراق ومصر فى القرن الثالث الهجرى.

ولعل من المفيد أن نسترجع كلمات التفتازانى (إن التصوف خط مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة فى عصور مختلفة، ومن الطبيعى أن يعبر كل صوفى عن تجربته فى إطار ما يسود مجتمعه من أفكار).

اشتقاقات التصوف

* الاختلاف قائم هنا أيضاً فى اشتقاقات لفظ التصوف.

يقول القشبرى (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، والاشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى، ومن قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة، وقول من قال أنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف. ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق

اشتقاق(١٥). والقشيري أراح نفسه من الترجيح بين الآراء مع اثباته فضل الصوفية المراد من هذه الاشتقاقات. وفي نفس الوقت نفى صحة هذه الاشتقاقات من حيث اللغة.

وناقش ابن الجوزي الآراء المختلفة في اشتقاقات التصوف، ورجح أن تكون النسبة إلى رجل جاهلي اسمه صوفة اعتكفه في البيت الحرام(١٦). ومن أرجع التصوف إلى الصوف (لباس الزاهدين) : ابن تيمية(١٧) في العصر المملوكي، ثم زكي مبارك(١٨)، ونيكلسون(١٩)، والتفتازاني(٢٠) في العصر الحديث.

ويقول باحث (لا نجد علماً يشغل البحث في اشتقاق اسمه ومعناه بمثل مايشغله التصوف. هل يرد اللفظ إلى الصفاء، أو إلى الصف، أو أهل الصفة، أو إلى شخص جاهلي اسمه صوفة، أو إلى نبتة صحراوية تسمى صوفانا، أو إلى الصوف، أو إلى اللفظ اليوناني صوفيا الذي يعنى الحكمة)(٢١).

وأقول أن اشتقاق كلمة التصوف أتى من الكلمة اليونانية (Sophy)، ومن يقرأ كتاب (آباء مدرسة الاسكندرية الأوثان) يجد الدليل على أن تصوف المسلمين كان متأثراً أشد التأثير بالتصوف اليوناني المسيحي قبل الإسلام، وفي هذا الكتاب الذي أصدرته الكلية اللاهوتية بالاسكندرية توضيح - بدون قصد - للجذور التي استقى منها الغزالي وابن عربي والرواد الصوفية عناصر فلسفتهم، وفي أن كلمة غنوص تعني العارف وغنوصية تعنى المعرفة، وقد ترجمت الكلمتان واطلقتا على الولي العارف، وعلى (علم التصوف). أو المعرفة الصوفية، ويتمتع بقيت الكلمة اليونانية (Sophy) صوفى كما هي بنفس اللفظ والمعنى القريب من غنوصي.

ويعني من هذا كله أن التصوف منذ ظهوره في تاريخ المسلمين في القرن الثالث الهجري وحتى الآن، لم يجد اتفاقاً حول اشتقاقه اللغوي في لغة عربية تمتاز بأنها قياسية في قواعد النحوية والصرفية، وهذا متطقي في تدين جديد يحاول أن يصل نفسه بالدين السائد، ويعانى من خلاف مستحكم بين أتباعه في الداخل، تدين يقوم على الهوى وذوق الأشياء.

مصادر التصوف

انتقلت عدوى الاختلاف إلى دارسى التصوف من المستشرقين فى تحديد مصادر التصوف.

١ - فمنهم من رد التصوف إلى مصدر فارسى مجوسى مثل ثولك، ودليله أن كثيراً من المجوس بقى على دينه بعد الفتح الإسلامى، وظهر من أبنائهم كبار الصوفية الأوائل مثل معروف الكرخى والبسطامى، وقد رد التفتازانى على هذا رأى بأن (ازدهار التصوف لم يكن ثمرة لجهود أولئك فحسب، وإنما أبعان على ازدهار التصوف كذلك عدد ليس بالقليل من الصوفية العرب، نذكر منهم **الدارانى** وذا النون المصرى ومحيى الدين بن عربى وعمر بن الفارض وابن عطاء السكندرى) (٢٢).

والتفتازانى يغالط فى رده، فالحديث هنا عن مصدر التصوف وبدايته لا عن ازدهاره وتطوره، ثم إن ذا النون المصرى لم يكن عربياً وليس له نسب أو ولاء فى العرب وإنما هو نوبى قبطى، أما ابن عربى وابن الفارض وابن عطاء فقد جاؤا فى القرنين السابع والثامن للهجرة، حيث اختلطت الانساب وشاع انتساب الأولياء الصوفية لآل البيت ليكونوا أشرفاً ذوى نسب يصلهم بعلى ومحمد (ص)، ثم أنهم ليسوا مصدرًا ورواداً للتصوف فقد بدأ التصوف قبلهم بأربعة قرون.

٢ - ومنهم من أرجع التصوف إلى مصدر مسيحى، بحجة وجود الصلة بين النصارى والعرب قبل وبعد ظهور الإسلام ووجود الشبه بين الصوفية والرهبان، ومن أصحاب هذا رأى : «فون كويمر، وجولد زيهير، ونيكلسون ويلاتيوس، وأولييرى»، ويقول التفتازانى معلقاً (ونحن وإن كنا لا ننكر تأثير بعض الصوفية المتفلسفين بالمسيحية، على نحو ما نجد عند الحلاج الذى استخدم فى تصوفه اصطلاحات مسيحية كالكلمة واللاهوت والناسوت وما إليها، ولكن هذا لم يظهر إلا قى وقت متأخر - أواخر القرن الثالث الهجرى) (٢٣).

ومع أن التفتازانى يسلم بالتأثر بالمسيحية إلا أنه يستمر فى مغالطته، حين

يستشهد باصطلاحات العلاج المسيحية ويقول أنها لم تظهر إلا في وقت متأخر أو آخر القرن الثالث الهجري، مع أن بداية التصوف هي في القرن الثالث الهجري نفسه فكيف يعتبره وقتاً متأخراً؟ بل إنه يقول (شهد القرن الثالث بداية تكون علم التصوف بمعناه الدقيق) (٢٤)!! وتكمن الطرافة في أن التفتازاني جعل ابن عربي وابن الفارض وابن عطاء مصادر للتصوف وهم عاشوا في القرنين السابع والثامن ثم يجعل العلاج المقتول ٣٠١ هـ يظهر في وقت متأخر وليس من متقدمي الصوفية!!

٣ - ومنهم من قال بالمصدر الهندي مثل هورتن وهارتمان وكانت لهم اسانيدهم، يقول التفتازاني (ومما هو جدير بالذكر إنني لم أعثر على نصوص صريحة تدل على معرفة صوفية المسلمين بعقائد الهند ورياضتهم إلا عند الصوفي المتفلسف عبد الحق ابن سبعين) (٢٥).

٤ - وقال بالمصدر اليوناني كثرة من المستشرقين، يقول التفتازاني (ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي. فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة والأفلاطونية المحدثة خاصة إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل أو الاختلاط مع رهبان النصارى .. وليس من شك في أن فلسفة أفلوطين السكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حالة الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس كان لها أثرها في التصوف الإسلامي، فيما نجده من كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة، وكذلك كان لنظرية أفلوطين السكندري في الفيض وترتيب الموجودات عن الواحد أو الأول أثرها على الصوفية المتفلسفين من أصحاب وحدة الوجود كالسهروردي المقتول، ومحبي الدين بن عربي وابن الفارض وعبد الحق بن سبعين وعبد الكريم الجيلي ومن هنا نحوهم، ونلاحظ بعد ذلك أن أولئك المتفلسفة من الصوفية نتيجة اطلاعهم على الفلسفة اليونانية قد اصطنعوا كثيراً من مصطلحات هذه الفلسفة مثل : الكلمة، الواحد، العقل الأول، العقل الكلي، العلة والمعلول، الكلي .. الخ) (٢٦).

وحسنا إذا اعترف التفتازاني بالمصدر اليوناني بالتصوف عند المسلمين إذ أنه بذلك يشبه المصدر المسيحي الذي حاول إنكاره من قبل، إذ أن مدرسة أفلوطين السكندري تمثل المسيحية كما تمثل اليونانية.

ومن الخطأ أرجاع التصوف إلى مصدر واحد بعينه، فكل صوفي تأثر بنشأته

وثقافته، وعليه يمكن القول بأن مصادر التصوف لدى المسلمين تتعدد بتعدد ثقافتهم وبيئاتهم، وعندى أنه يمكن اعتبار الفرعونية مصدراً للتصوف للمسلمين المصريين خاصة، فقد كان لدى النون المصرى اهتمامات وتطواف بالبرابى والمعابد الفرعونية أشار إليها المقرئى (٢٧) والمسعودى (٢٨) ..

* ولكن هل يمكن أن يكون الإسلام مصدراً للتصوف عند المسلمين ؟

١ - شاع بين الناس أن التصوف فرع من الإسلام، أو هو الإسلام، أو هو ذروة الإسلام، ويقول تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً) (المائدة: ٣)، ومعناه أن دين الله قد اكتمل بتزول القرآن وتاممه، فلا مجال لأى بشر فى أن يضيف لدين أكمله الله وحياً من السماء، فالتصوف إن كان يضيف للإسلام شيئاً فذلك غير مقبول، لأن تلك الإضافة إن كانت ضمن ما قرره القرآن فلا تعد إضافة لأنها موجودة من قبل، وإن كانت تلك الإضافة مختلفة عما قرره القرآن فهى مرفوضة وليست من الإسلام فى شىء. إن التصوف إذا اتفق مع الإسلام فى شىء فلا حاجة بنا للتصوف لأن لدينا الأصل وهو الإسلام دين الله، والله سبحانه على ذلك الأصل الذى أنزله (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (الأنعام : ١٥٣)، وإن كان التصوف يختلف مع الإسلام فلا حاجة بنا لذلك التصوف الذى يبعدنا عن ديننا الذى ارتضاه لنا ربنا. إنها قضية واضحة لا تحتمل التوسط، فإما إسلام فقط وإما تصوف، إما حق وإما باطل، ولا وسطية. (فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟) (يونس ٣٤) إما قرآن فقط وإما اتباع للضلال (إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أوتياء) (الأعراف ٣).

٢ - وبداية الاختلاف بين الإسلام والتصوف تكمن فى أساس التشريع، ففي الإسلام أساس التشريع لله وحده والقرآن الكريم يحكم على النبى والمسلمين، أما التصوف فالشيخ الصوفى هو المشرع لأتباعه حسبما يوجهه هواه أو ذوقه أو حاله، وحين يصفون

على ذلك التشريع البشرى سمة الشرعية يدعون أن الصوفى أوتى الكشف أو العلم اللدنى من الله أو الوحي الالهي، مع أنه لا وحي في الدين بعد اكتمال نزول القرآن، وإضافة الوحي والكشف والكرامة إلى الصوفى معناه الدعوة إلى تقديسه والتماس بركته في الدنيا وشفاعته في الآخرة، وتلك سمة الاختلاف الرئيسية بين التصوف والإسلام، حيث يكون لله وحده علم الغيب والشفاعة والتصريف في الدنيا والآخرة، إلا أننا لا نجد صوفياً إلا وادعى لنفسه أو لشيخه لوازم التصوف من الولاية والكرامات والعلم اللدنى، ودعا الآخرين للاعتقاد فيه، مع أن الاعتقاد لا يكون إلا في الله وحده إلهاً وولياً مقدساً. نطلب منه المدد والعون، نطلب ذلك منه وحده، لا شريك له جل وعلا.

وذروة الاختلاف بين الإسلام والتصوف تكمن في العقيدة الأساسية في كل منهما، فعقيدة الإسلام لا إله إلا الله (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (محمد ١٩) والله الإله الواحد، لا يشبه أحداً من خلقه، ولا يشبهه أحد من خلقه (ليس كمثله شيء) (الشورى: ١١) وصفات الله لا يوصف بها غيره، فالله واحد في ذاته، وأحد في صفاته، إذاً هو أحد متفرد عن باقي خلقه (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد). أما عقيدة التصوف الحقيقية فهي (لا موجود إلا الله) أو ما يعرف بوحدة الوجود، والتي تعنى أن العالم جزء من الله، وأنه لا فارق بين الخالق والمخلوق، وأن الخلق امتداد وفيض من الخالق، وأن علاقة الخالق والمخلوق كمثل البحر وأمواجه، والصوفى الحق هو الذى يدرك ذلك ويهتك الحجاب يعلن اتحاده بالله أو حلول الله فيه. وبالقطع فهذه العقيدة تناقض عقيدة القرآن.

٣ - ولفظ التصوف لم يرد في القرآن الكريم، اللهم إلا إشارة للرهبة ليست في صالح المتصوفة الذين يحاولون ربط التصوف بالرهبة والزهد، يقول تعالى : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) (الحديد ٢٧)، ولم يجرؤ وضاع الأحاديث المزيفة على كتابة حديث فيه لفظ التصوف، لعلهم أن ذلك لم يكن معروفاً في الجزيرة العربية وقت ظهور الإسلام، واكتفوا بوضع أحاديث فيها لفظ الفقر والفقراء، حيث كان الفقر يذل عرفاً. على التصوف في عصرهم، مع دلالة الفقر على الاحتياج للمال في كل عصر.

وورد لفظ التصوف لأول مرة في تراث المسلمين في كتاب الجاحظ (البيان والتبيين) (٢٧). وقد كان ابن خلدون اقرب للصواب حين قال عن التصوف أنه من العلوم (الحادثة في الملة) (٣٠)، وخطأ ابن خلدون في انه اعتبر التصوف علماً، وليس التصوف بعلم، حيث لا عقل فيه ولا منهج، وإنما هو ذوق وهوى، ودين جديد يخالف الاسلام، وقد ظهر بعده بقرنين.

٤ - والتصوف نوعان : (احدهما ديني والآخر فلسفي) كما يقول التفازاني، وإذا كان التصوف الديني يناقش دين الإسلام الذي لا مجال فيه لتقديس غير الله، فإن التصوف الفلسفي مرفوض أيضاً، لأن الفلسفة الدينية للتصوف تعزز بالجدل أفكار التصوف الديني، والتصوف الديني أدخل مصطلحات دينية مستحدثة في الحياة الدينية للمسلمين لم يعرفها المسلمون الأوائل حين كان الإسلام نقياً في الجزيرة العربية، ومن المصطلحات الدينية الجديدة التي استحدثها تدين التصوف : الكرامة، المريد، المقام، الوقت، الحال، القبض، الصحو والسكر، الذوق الشرب، المحو والإنبات، الستر والتجلي، المحاضرة والمكاشفة، الحقيقة والطريقة، الوارد، الشاهد، السر، المجاهدة، الخلوة، الزهد، الولاية، .. إلخ، ولكل منها مدلول خاص في دين التصوف، وسطرت في ذلك الكتب، وبالطبع هم مختلفون في معناها وعددها.

وبعض هذه الألفاظ كان مستعملاً في الإسلام بغير ما يقصده الصوفية، إلا أنهم أوكوها واستحدثوا لها مدلولات جديدة تخرج عن الإسلام مثل (الولي والولاية)، وموضوعات التصوف الديني والفلسفي تتمثل في الشطحات، وأحوال الفناء والحلول والاتحاد والتحقيق بالحق، والاشراق، وهي تخرج عن نطاق الإسلام عقيدة وعلماً وفكراً.

٥ - وقد وضع من عرض مصادر التصوف أنه تأثر بمصادر مجوسية وهندية ومسيحية ويونانية، فكيف يكون ذلك الوليد ذو الآباء الكثيرين إنناً للإسلام الذي لا مصدر له إلا القرآن الكريم؟ وهل كان الإسلام في حاجة إلى أن يكمله المجوس وعُباد البقر والوثنيون ؟

٦ - ويرى أبو العلا عفيفي أن القرآن الكريم - عن طريق تأويل آياته - والأحاديث، مع علم الكلام، من مصادر التصوف الإسلامي (٣١). أي اصطناع مصدر

للتصوف ليكون إسلامياً، بتأويل القرآن وتأليف الأحاديث ونظريات الفلسفة أو علم الكلام، وكل ذلك جهد بشري يحاول ربط التصوف بالإسلام .. وتأويل القرآن وزر يقع على من ارتكبه، وهناك من الأحاديث الموضوعية ما يملأ حمل بعير، ولا يصح أن تكون حجة لمن يستشهد بها، وأما جهد علماء الكلام فليس حجة على الإسلام في شيء، وعلم الكلام في حقيقته يدين للفلسفة اليونانية أكثر مما يدين للإسلام، والغريب أن أبا العلا عفيفي يعود ويعترف أن الإسلام لا يمكن أن يكون ديناً صوفياً (وما كان لبصير ديناً صوفياً لو أنه ظل محصوراً في الجزيرة العربية، لأنه دين يخاطب العقل أكثر مما يخاطب الوجدان، ويدعو للنظر في خلق السماوات والأرض ليستدل الناظر بما يشاهده على قدرة الله ووحدانيته، لا ليؤديه تأمله في العلم وفي نفسه إلى انكار ذاته وفنائه في الله والاتحاد به عن طريق الفناء، كما يقول الصوفية)، ويرى أن الإسلام (بعقيدته البسيطة في الوحدانية التي يقتنع بها العقل بنطرتة لم يكن ليظهر عنه تصوف وما في التصوف نظريات معقدة .. فلم يلق الإسلام داخل الجزيرة العربية تأويلاً فلسفياً ولا صوفياً. ولكن بدخول أهل الحضارات والديانات تناوله بالتفسير والتأويل) (٣٢).

ومبعث التناقض لدى أبي العلا عفيفي هو في الخلط بين الإسلام كدين إلهي وبين المسلمين كأشخاص، وواضح أن الإسلام شيء والشعوب التي اعتنقته شيء آخر، وأرى أنه من الأنسب أن يقال (تصوف المسالمين) لا (التصوف الإسلامي) لأن التصوف والإسلام مختلفان لا ينبغي الجمع بينهما.

بداية التصوف وانتشاره في الدولة الإسلامية
(بين الزهد والتصوف - بداية التصوف - انتشاره -
سيطرتة على العصر المملوكي)

* بين الزهد والتصوف :

اعتبر الكثيرون أن الزهد مرحلة انتقالية أدت إلى ظهور التصوف في القرن الثالث الهجري، ومنهم ابن الجوزي الذي فرق بين الزهد والتصوف (.. إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال - .. والتصوف طريقة كان ابتدأها الزهد الكلي) (٣٣)

والتفتازانى - الصوفى والباحث المعاصر - جعل للزهد مراحل وصل بها إلى مرحلة اعتبرها بين الزهد والتصوف، عدّ من رواها إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض ورابعة العدوية، ولم يعتبرهم صوفية بالمعنى الدقيق للتصوف الذى ظهر فى القرن الثالث (٣٤).

ومع تمسكنا بوجود فروق أساسية بين الزهد والتصوف، إلا أننا نعتقد فى أن لكل من الزهد والتصوف عوامله الخاصة التى ساعدت على نشأته وتطوره منفرداً عن الآخر. ودليلاً فى استقلالية نشأة الزهد عن التصوف هو استمرار الزهاد بمعزل عن الصوفية، وقد عاب الغزالي على زهاد عصره مغالاتهم فى الصلاة والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتساباً وتشديدهم فى أعمال الجوارح (٣٦)، فى نفس الوقت الذى هاجم فيه الصوفية المعاصرين له بصفات تناقض ما اشتهر به الزهاد، فرمى الصوفية المنكرين للفرائض بدعوى وصولهم للحق واتحادهم به (٣٧)، مما يدل على أن الفارق جوهرى بين الطائفتين فى المعتقدات والسلوك. فالزهاد يتشدّدون فى الصلاة، والصوفية ينكرونها لأنهم جزء من الله.

وقد تميز عصر الغزالي بتقرير التصوف، ولو كان الزهد حركة انتقالية أدت للتصوف لذاب الزهاد فى الحركة الصوفية الجديدة المعترف بها ولا تنقلت حركة الزهد إلى متحف التاريخ عندما توطدت حركة التصوف، وتاريخياً فقد استمر الزهد منفصلاً عن تيار التصوف الآخذ فى الانتشار، ومع تناقص الزهاد فقد ظل وجودهم قائماً حتى بعد أن تمت للتصوف السيادة المطلقة فى العصر العثمانى، فالجبريتى مثلاً يذكر زاهداً فى القرن الثانى عشر الهجرى هو الشيخ مصطفى العزىزى ت ١١٥٤، وقال فيه (كان ازهد أهل زمانه فى الروع والتقشف فى المأكّل والملبس والتواضع وحسن الأخلاق ولا يرى لنفسه مقاماً .. ولا يرضى للتألم بتقبيل يده، ويكره ذلك، فإذا تكامل حضور الجماعة وتحلقوا حضر من بيته ودخل إلى محل جلوسه بوسط الحلقة فلا يقوم لدخوله أحد .. وإذا تم الدرس قام فى الحال وذهب إلى داره) (٣٨)، وكان أغلب الزهاد فى العصر المملوكى من العلماء الفقهاء الذين كانت لهم سمات تخالف الصفات الكلاسيكية للشيخ الصوفى، ثم إن الزهد لم يلق فى مولده ما لاقاه التصوف من انكار مما يدل على اختلاف طبيعتهما

إلى درجة لا يقبل معها أن يكون أحدهما حركة انتقالية للآخر، فقد بدأ التصوف بالسطح أو إعلان الكفر الصوفى مما أدى لإضطهاد رواد التصوف، بينما حظى رواد الزهد بإعجاب العامة وعطف الخاصة حيث تركوا متاع الدنيا الذى تقاتل حوله الجميع.

والصوفية الأوائل هم سبب الخلط بين التصوف والزهد، إذ أنهم فى اندفاعهم لتقرير مذهبهم وحمايتهم من المجتمع الذى يضطهدهم جعلوا من أوائل الزهاد المسلمين رواداً للتصوف، مع أنه لم تحفظ عن أولئك الزهاد شطحات، مثل الحسن البصرى وسفيان الثورى وسعيد بن جبير، وأولئك كانوا يتمتعون بتقدير؛ طمع الصوفية فى أن ينالهم منه شىء، ومع انتشار الزهد فقد ظل سلوكاً مجرداً حتى جاء الصوفية فاهتموا بتفصيله وتعريفه ليصلوه بالتصوف، فكان أن حلت لعنة الخلاف والاختلاف على مفاهيم الزهد طبقاً لعادة الصوفية فى (الاتفاق على الاختلاف) حول كل شىء، يقول القشيري أن الصوفية تكلموا فى معنى الزهد (فكل نطق عن وقته وأشار إلي حده) (٣٩)، وجاء الغزالي فأورد بعض أقاويلهم ثم حاول أن يوفق بينها، ثم قال كالمعتب (.. وفى الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر فى نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة) (٣٩)، وليصل الغزالي بين الزهد والتصوف قام بتقسيم الزهد إلى درجات، الأولى : زهد الخائفين من العذاب، والثانية : زهد الراغبين فى الجنة، ثم جعل الدرجة العليا : الزهد فيما عدا الله، فلا يلتفت إلى جنة أو نار بل يستغرق فى الله تعالى ويزهد ما عداه (٤٠). وذلك التقسيم الصوفى ينفى الأساس الذى قام به الزهد الذى يعنى الخوف من النار والأمل فى الجنة، مما يؤكد الفارق بين المذهبين.

على أن هناك عوامل تربط بين الزهاد والصوفية، أهمها فى أبن الرواد فى الحركتين من الموالى الذين تأثروا بالثقافة القومية لأوطانهم، ومع ذلك يبقى الخلاف قائماً بين مولد الحركتين وطبيعتهما.

والواقع أن أسباب قيام حركة الزهد فى المجتمع الإسلامى ترجع للظروف السياسية والاقتصادية والثقافية، فقد رحبت البلاد المفتوحة بالعرب المسلمين أملاً فى عهد جديد

من الحرية والمساواة والعدالة تحت شعار (إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، واتيح للموالى أن ينعموا بعدل عمر بن الخطاب، إلا أنهم فوجئوا بالفتنة الكبرى بين كبار الصحابة التي انتهت بتأسيس الملك العضوض وتحكم الأمويين وظلمهم للدوالى، مما جعلهم يعتبرون الخلفاء غير الراشدين أعداء لا يفترون عن ملوك ما قبل الفتح الإسلامى، وقابلوا الوضع الجديد بما تعودوا اسلافهم فى الماضى، فقام الزهد الفلسفى المنظم كنوع من المقاومة السلبية والاحتجاج الصامت، وزاده ما تميز به الموالى من تفوق فى العلم والثقافة بينما انشغل العرب بالحكم والسياسة والحرب، وليس من قبيل المصادفة بعد هذا أن يزدهر الزهد فى الكوفة والبصرة بينما تنعم دمشق بالحكم والثروة، ثم تمتلئ دمشق زهداً بعد تحول الحكم والثروة عنها إلى بغداد. وظل الزهد قائماً فى المجتمع الإسلامى بقيام الاسباب التى بعثته وهى استمرار الظلم والملك العضوض فى الدولة العباسية، وحتى مع تمتع بعض الموالى بوضع أفضل فإن من شأن الملك العضوض القهر والبطش وسوء توزيع الثروة وحرمان الأكثرية ومعاناتهم.

وقد حاولوا اصفاء المشروعية على الزهد، فانتشرت الأحاديث الموضوعة تبشر بالمذهب الجديد، وأورد الغزالى بعضها فى دعوته للزهد مثل (من أراد أن يؤتبه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا) (٤١) ثم تطوع الغزالى بتأويل بعض الآيات لتتمشى مع مفهوم الزهد (٤٢) وجعل عيسى ويحيى من رواد الزهد، ولم يعد محمداً (ص) منهم لأنه كان يصوم ويفطر ويصلى وينام ويتزوج النساء، وفى القرآن آيات تفيد ذلك.

ودين الإسلام ليس مسئولاً عن الظروف التى سببت قيام الزهد، ولا علاقة بين الإسلام والزهد، فلم يرد لفظ الزهد فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة (وَشَرُّهُ بَشْمَنٌ خُسْرٍ دَرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ: يوسف ٢٠). ولا تعبّر هذه الآية عن اصطلاح الزهد الدينى، ولو كان الزهد رافداً من مناهج الإسلام لفصله القرآن الكريم، إلا أن الزهد يخالف صريح القرآن الذى ينفى أساس الزهد فى قوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، خَالصة يوم

القيامة : الأعراف (٣٢). فهنا انكار على من حرم الطيبات على نفسه تمسكًا بالزهد، وذلك هو ما نهى الله تعالى النبي عنه حين قال له : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك.. التحريم (١) وقوله تعالى للمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم : المائدة ٨٧) بيد أن المؤمن مطالب بالاعتدال وعدم الاسراف (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، واكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين : الأعراف (٣١).

ثم إن التطورات السياسية الأموية لم تخرج حركة الرهينة ولم تزرعها في العراق والشام ومصر، فتلك مناطق تعودت على الزهد قبل الفتح الإسلامي، بل إنهم بابتداعهم الزهد خرجوا عن رسالة المسيح عليه السلام، يقول تعالى (.. وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم : الحديد (٢٧) فالزهد أو الرهينة ابتداع في السلوك لا في العقيدة. ونعود للتصوف، فقد بدأت جماعات الزهاد منتشرة بين الموالى تتمتع بعطف المجتمع واعجابه، فاتصل رواد التصوف بالزهاد واستفادوا منهم مع استقلالية كل حركة، ولم يقع صدام بين حركتي الزهد والتصوف وإنما وقع الصدام بين حركتي الإسلام والتصوف لأنهما حركتان متناقضتان في العقيدة.

* بداية التصوف :

لنضع الأمور في نصابها الصحيح علينا أن نبدأ بالأساس الذي يجمع التصوف والإسلام وهو العقيدة، فالإسلام دين وعقيدة والتصوف كذلك، والعقائد والأديان على اختلافها تنقسم إلى قسمين :

- ١ - دين الله الذي شرعه لخلقه وهو الإسلام الذي جاء به وحى السماء بكل اللغات (إن الدين عند الله الإسلام .. ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. آل عمران ١ ، ٨٥)، وهو يعنى الاستسلام الكامل لأوامر الله وحده ويكل اللغات.
- ٢ - الدين الأرضي الذي بخرعه البشر ويختلفون فيه حسب الهوى، فيحرفون في دين الله ويفترون عليه الكذب ويقصدون مع الله البشر من الرسل والأئمة، وهذا

هو الشرك أو الكفر، ولا فارق بينهما. ودين الله أسبق في الوجود في التاريخ
الإنساني فقد فطر الله البشر على أن يسلموا له وحده (الأعراف ١٧٢، والروم
٣٠)، وكان آدم أبو البشر رسولا لأولاده (آل عمران ٣٣) وتلاه الأنبياء يقولون
نفس العقيدة لا إله إلا الله (الأنبياء ٢٥)، ولكن باللغة التي ينطقونها، ثم
قيلت باللغة العربية في الرسالة الخاتمة.

وهناك قصة للصراع بين عقيدتي الإسلام الخالص والشرك تتكرر في تاريخ
الأنبياء، فنوح عليه السلام تحمل الأذى حتى انتصر في النهاية ومع قلة مؤمنة نجّاه
الله من الطوفان، وتدور الأيام، ويعود الشرك إلى قلوب الأحفاد من الذرية فيرسل الله
رسولا آخر يلقى نفس الأذى فيصمد، وهو يذكر قومه بما حدث من الأسلاف السابقين
(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح : الأعراف ٦٩)، ويهلك الله قوم عاد وينجي
النبي هوداً ومن آمن معه، وتدور الأيام فيكفر الأحفاد، ويأتي منهم نبي جديد هو صالح
الذي يقول لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد : الأعراف ٧٤)، وهكذا تستمر
قصة الصراع بين العقيدتين، ينتصر الرسول، ثم يعود الشرك بعده متخفياً تحت دعاوى
شتى منها حب الرسول نفسه وأصحابه، ثم يتحول الحب إلى تقديس والتقديس إلى
عبادة، إلى أن يأتي رسول جديد تكرر معه نفس القصة، ثم جاء محمد خاتم الأنبياء
معجزة القرآن الذي فصل كل ملامح الشرك وردّ عليها، وقد حفظ الله هذا القرآن ليكون
حجة على البشر إلى يوم القيامة، خصوصاً الذين كبروا مسيرة الانحراف والقرآن في
أيديهم يؤولون آياته ويخترعون مناهج أخرى للدين ما أنزل الله بها من سلطان. إن قصة
الصراع العقيدى بين الإسلام والشرك لم تنته بانتصار خاتم النبيين، وإنما استمرت
محاولات العقائد الشركية القديمة للظهور في دولة الإسلام وسطوته، ثم ما لبثت أن
انتصرت وانتزعت منه الساحة ليصبح المتمسكون بالإسلام الحقيقي أفراداً قلائل، يعانون
الإضطهاد مثلما حدث للقلّة المؤمنة في مكة أثناء ظهور الإسلام.

وقد بدأت أولى المحاولات الشركية للظهور أثناء قوة الإسلام فيما عرف بحركة
الشيعة^{١١}، ارتبطت بإدعاء النبوة والوحي وعلم الغيب، ومختلطة بعناصر جاهلية عربية

كالعصبية القبلية والانفة من سيطرة قريش وعدم دفع الزكاة، وبإخماد أبى بكر لحركة الردة كان تفكيره فى دفع العرب للفتوحات شغلاً لهم عن تكرار قصة الردة، وأسفرت الفتوحات عن ضم الشام والعراق ومصر وهى مناطق عريقة فى الفلسفات الوثنية والنزعات القومية، وبدأ عرق الردة ينبض عند الفرس أكثر الاجناس المحكومة قومية وتاريخاً وكراهية للعرب وبنى أمية، ووجد الفرس ضالتهم فى قيام الدولة العباسية بمساعدتهم فصار لهم فيها النفوذ، فتطلّعوا إلى اتمام استقلالهم بالردة عن الإسلام، فكثُر فى العصر العباسى الأول وجود الزنادقة لولا أن العباسيين فى قوتهم استأصلوا حركة الردة وقضوا عليها سياسياً.

والتفت الفرس إلى التشيع فقرروا بينه وبين عقائدهم القديمة وخطوه بأغراض سياسية قومية فواجهوا الشدة من بنى العباس، إلا أن التشيع على أية حال قد ارسى للتصوف الأسس التى يقوم عليها، وورث التصوف عقائد التشيع ورسومه وتخلف من أوزاره السياسية، فبدأ حركة دينية عقيدية أكثر، برواد من الأعاجم، تتلمذوا على يد أساطين الشيعة، (فمعروف الكرخى) الرائد الصوفى أسلم على يد الإمام على الرضى وهو من مواليد، (ومعروف) هو استاذ (السرى السقطى)، الذى هو استاذ (الجنيد) الملقب بسيد الطائفة الصوفية، وقد قال معروف لتلميذه السرى : إذا كانت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بى (٤٥)، فأرسى بذلك قاعدة التوسل بالأشخاص وجاههم عند الله، وبدأ التصوف بذلك مشواره العقيدى. ثم دخلت الخلافة العباسية فى دور الضعف حين تحكم فيهم الأتراك، فاستفاد المتصوفة من ضعف العباسيين، فتشكلت خلايا التصوف من شيخ ومريدين، وتمت الاتصالات بينهم فيما بين مصر والعراق والحجاز والشام عبر السباحة الصوفية، ورفعوا لواء الحب الإلهى ليخفوا تحته عقيدة الاتحاد الصوفية، ومع ضعف الخلفاء العباسيين فلم تمر الحركة الصوفية الجديدة بدون رد فعل فلاحقت الدولة رواد التصوف بالمحاكمات والنفى والاضطهاد حتى اضطر الجنيد لأن يعلن أن (طريقة منوط بالكتاب والسنة) (٤٦)، وفى نفس الوقت يدرس التصوف فى عقر داره بين المخلصين من تلاميذه ويعد أن يقلل باب داره (ويضع المفتاح تحت وزكه) خوفاً من أن

يتهموه بالزندقة، ومع ذلك فلم ينتج من الاتهام بسبب كلمة قالها مما جعله يتستر بالفقه ويختفى، وحوكم سمنون وذو النون المصري وسهل بن عهد الله، وبلغ اضطهاد الصوفية ذروته بقتل الحلاج ٣٠١ (٤٧).

ولا يزال الجنيذ زعيماً للمعتدلين من الصوفية بسبب ما اشتهر عنه من اعلان تمسكه بالكتاب والسنة، حتى أن من أنكر على الصوفية فيما بعد خدعته أقاويل الجنيذ التي قالها بالتقية، فابن الجوزي ت ٥٩٧ يستدل بقول الجنيذ السابق ويتخذ حجة على الصوفية (٤٨) الصرخاء الذين اعلنوا عقيدتهم فيما بعد في عصر ابن الجوزي نفسه، ومع ذلك فإن الأقوال القليلة التي حفظت عن الجنيذ تشي بعقيدته الحقيقية التي منع الخوف من ظهورها، فهو يرى أن العارف الصوفي هو (من نطق عن سره وأنت ساكت) (٤٩) أي سن للصوفية ادعاء الكشف أو علم الغيب، وسئل عن مصدره الذي يستقى منه أقواله الجديدة فقال (من جلوس بين يدي الله ثلاثين سنة أسفل تلك الدرجة، وأوماً إلى درجة - سلم - في داره) (٥٠) فأرسل مقولة العلم اللدني والوحي أي أن مسيلمة الحنفي ليس وحده الكذاب !!

فالتصوف المعتدل لا يفترق عن ادعاءات المرتدين كمسيلمة الكذاب غاية ما هنالك أن مسيلمة جاء في عصر قوة المسلمين، أما «الجنيذ» فقد جاء في عصر الوهن حيث ضعف العباسيين وقوة الشعبية وتدهور العرب، حتى أن مصرع الحلاج زعيم الصوفية المتطرفين لم يتم إلا بدوافع سياسية أكثر منها دينية، وبعد محاكمة زادت على العشر سنوات. وبمرور الزمن تغيرت الظروف أكثر لصالح التصوف فتضاءل الإنكار عليه، وزاد انتشاره وبدأ يأخذ دوره في اضطهاد خصومه من الفقهاء، فتبدلت الآية، وبدأت دورة أخرى من دورات الصراع الديني.

* انتشار التصوف في العالم الإسلامي :

عن اضطهاد الرواد الصوفية الأوائل يقول ابن الجوزي (أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن الحكم وكان رئيس مصر وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره

أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف حتى رموه بالزندقة، وقال السلمى : وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق وقالوا أنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه، وشهد قوم على أحمد بن الحواري : أنه يفضل الأولياء على الأنبياء فهرب من دمشق إلى مكة، وانكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقوله حيث أنه ذكر للحسين ابن عيسى أنه يقول : لى معراج كما كان للنبي (ص) معراج فاخرجه من بسطام، وأقام بمكة سنتين ثم رجع إلى جرجان .. وحكى رجل عن سهل بن عبد الله التستري أنه يقول أن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه وأنه يتكلم عليهم، فانكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة فمات بها .. وتكلم الحارث المحاسبي على شيء من الكلام والصفات، فهجره أحمد بن حنبل، فاختلف إلى أن مات (٥١).

لقد ساد الإسلام قرنين من الزمان تقريباً قهر فيهما العرب المسلمون الجزيرة العربية ثم الرافدين والنيل، إلا أن الوهن ما لبث أن تسرب للعرب المسلمين بعد أن استهلكتهم الصراعات السياسية والقبلية فضعفوا وضعف بهم الإسلام بينما قوى الشرك وعاد للظهور تحت رداء التصوف الذي كان منتشراً قبل الفتح الإسلامى، ثم عاد إلى دورته التالية من الانتشار والتحكم فى العصر المملوكى بحيث تعرض الفقهاء للإضطهاد من الصوفية وعصرهم، وهناك عوامل ساعدت على انتشار التصوف وقلبت الموازين لصالحه بالإضافة إلى ضعف الخلافة العباسية.

فقد كان الفقهاء فى مواجهة التصوف، إلا أن قصورهم العلمى ساعد على هزيمتهم أمام الصوفية، فقد كثر عددهم إلا أنهم كانوا تلامذة مذاهب قنعوا بالانتظام فى سلك المذاهب الأربعة وشرح الفقه المذهبى، ومع التنافس والتصارع مع المذهب الفقهي السخالف، وعموماً فشروهم الفقهية أهملت الجانِب الروحى والعوامل القلبية، بينما بالغت فى استقراء الحركات الظاهرية فى العبادات فتركوا المجال للصوفية يعيشون بالعقائد، هذا فى الوقت الذى تقاعس فيه الاتجاه العلمى الفلسفى عن دوره فى التنوير العقلى ومناقشة ادعاءات التصوف الخرافية بالجدل والمنطق، فقد انعزل القادة من الفلاسفة والمتكلمين عن الناس والمنهج العقلى الإسلامى بقدر ما اندمجوا فى الفلسفة

اليونانية وتقريب وجهات النظر بين مدرستي أرسطو وأفلاطون، وحاول بعضهم التوفيق بين الإسلام والفلسفة اليونانية على حساب الإسلام فثار عليهم الفقهاء، وتصدى الغزالي للفلسفة العقلية مثلاً للصوفية والفقهاء ومن خلفه تعاطف العامة، مما ساعده على إسقاط الاتجاه الفلسفى العقلى، فلم يعد فى الساحة إلا الغزالي والتصوف والاتجاه الوجدانى طريقاً للمعرفة، وتمت الغلبة النهائية للغزالي وللتصوف حين دعا لقفل باب الاجتهاد وحجر على العقل مناقشة الادعاءات الصوفية، وقرر الصلح بين الإسلام والتصوف فى كتابه «الأحياء» الذى بعثر فيه بمهارة فذة عقائد التصوف، وسط أكوام من الأحاديث الموضوعة بعضها كما يقول العراقي (لا أصل له) أى اخترعه الغزالي بنفسه، ثم التأويل للآيات لتشريع التصوف، بالإضافة إلى أسلوبيه الوجدانى فى المواعظ والرقائق، وكتابه أبواب الفقه فى الإحياء بمنهج جديد لم يعرفه فقهاء عصره، إذ يتحدث عن العوامل الباطنية من الخطرات والوساوس والرياء والإخلاص والتوكل والمراقبة، فبهر القارىء بهذا الفقه الجديد، ويجعله يتطلع عقائد التصوف التى تتناثر بين السطور تحت عناوين بريئة مثل التوكل والزهد والحب إلخ..

على أن الصوفية قبل الغزالي انفتحتوا على العوام يرغبونهم فى الانخراط فى التصوف بإقامة حفلات السماع والطرب، يقول ابن الجوزى (التصوف طريقة كان ابتدأها الزهد الكلى، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من الزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب) (٥٢) ولم يجعل الصوفية من العلم شرطاً فى مجال التصوف، بل وقفوا موقفاً معادياً للعلم فاعتبروه علم الظاهر، بينما ادعوا أنهم اقتصروا بالعلم الحقيقى (العلم اللدنى) الذى يأتى من الله بلا واسطة وبلا تعب أو مذاكرة. وسهل هذا الادعاء دخول الكثرة الكاثرة من العامة فى سلك التصوف فزاد بهم قوة وصار معبراً عن العامة أكثرية المجتمع، والأكثرية يصفها القرآن بأنها لا تعقل ولا تفهم ولا تؤمن بالله إلا وهى مشركة. واتصف أساطين التصوف بالمرونة الكافية التى مكنتهم من تحويل غضب الرأى العام ضد شطحات التصوف إلى غضب ضد أشخاص متفرقين من الصوفية مع عدم

المساس بسبب التصوف ذاته، فالقشيري مثلاً انتقد صوفية عصره واتهمهم بكل نقيصة ليدافع عن مبدأ التصوف ذاته، يقول في بداية رسالته (إن المحققين من هذه الطائفة - الصوفية - انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من الطائفة إلا أثرهم .. مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اعتداء، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع واشتد الطمع .. وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحرام والحلال، واستخفوا بآداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلّة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال، حتى اشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا انهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وإنهم قائمون بالحق، تجرى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله عليهم فيما يورثونه أو يزرّونه عتب ولا لوم، وإنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، وأختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، ويقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا .. إلخ إلخ) فالقشيري يرمي معاصريه في القرن الخامس بكل نقيصة بشرية، مع إهمالهم الفرائض الإسلامية وادعائهم للألوهية طبقاً لعقيدة الاتحاد الصوفية، ثم يقول (ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان، بما لوحث ببعضه من هذه القصة، وما كنت لأبسط إلى هذه الغاية لسان الانكار غيره على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لسبيلهم مساعاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة .. ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه، واغتراراً بما ارتادوه، اشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بُنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه، فعلقت هذه الرسالة إليكم .. وذكرتها فيها بعض سير الشيوخ لهذه الطريقة في آدابها وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم(٥٣). أى أن القشيري يعترف أنه لولا الانكار على التصوف لما اطلق لسانه في صوفية زمانه الذين يعتبرهم خارجين على مبدأ التصوف، ومع ذلك فإن الرسالة القشيرية تحوى من أقوال الشيوخ

المعتدلين ما يهدم التصوف ويجعله نقيضاً للإسلام.

وصارت عادة عند محققى الصوفية أن يتهموا الصوفية المعاصرين لهم ويشيدوا بمن سبقهم، حفاظاً على مبدأ التصوف وليواجهوا الإنكار عليهم من الفقهاء الأعداء التقليديين للصوفية.

وعلى نفس الطريق سار الغزالي ت : ٥٠٥ فأنكر على صوفية عصره (٥٤)، ولأنه أصبح رأساً للصوفية والعلماء والفقهاء فقد وجه اتهامه للباقيين أسوة بالصوفية، فهاجم الزهاد والعلماء والعباد عامة، والفقهاء خاصة، وأصحاب الحديث وعلماء الكلام والنحاة على وجه الخصوص (٥٥).

ومع ذلك فالغزالي يقرر عقيدة الصوفية فى الاتحاد والعشق الإلهى، ودليله الحديث المكذوب وتأويل الآيات القرآنية وكلام من سبقه من الصوفية (٥٦).

وصار (أحياء علوم الدين) قرآن الصوفية وحجتهم فى تقرير مذهبهم فى (العالم الإسلامى)، خاصة أن الغزالي عرض فيه لجانب من جوانب الفقه الممزوج بالعوامل الباطنية والروحية، وهى الناحية التى تقاصر عنها فقهاء عصره، فدان له الفقهاء بالتبعية، وانحصر انكارهم على اشخاص الصوفية المتطرفين الذين هاجمهم الغزالي فى الأحياء.

وإذا كان أئمة الصوفية قد بدأوا بالهجوم على بعض الصوفية منهم ليسدوا الطريق على خصوم مذهبهم من الفقهاء، فإن جهدهم توجه أيضاً لإجتذاب العامة ومختلف طوائف المجتمع، وتمثل ذلك فى انشاء الطرق الصوفية .. وقد بدأ انشاء الطرق الصوفية فى تاريخ مبكر، فى القرنين الثالث والرابع الهجريين. إلا أن العصر الذهبى للطرق الصوفية بدأ بعد تقرير التصوف كتدين ومذهب (فى العالم الإسلامى)، أى بعد الغزالي فى القرن السادس الهجرى، وأهم الطرق الرفاعية التى أنشأها أحمد الرفاعى ت ٥٧٠ فى القرن السابع ثم الجيلانية التى أسسها عبد القادر الجيلانى ت ٦٥١، والشاذلية لصاحبها أبى الحسن الشاذلى ت ٦٥٦.

وكان للطرق الصوفية الدور الأول فى نشر التصوف بين مختلف الطوائف، حتى أن

متطرفى الصوفية لجأوا لتكوين الطرق الصوفية للدعاية إلى مذهبهم كالطريقة الأكبرية نسبة لابن عربى الملقب بالشيخ الأكبر، والطريقة السبعينية نسبة لابن سبعين المرسى.

وفى العصر المملوكى تحول التصوف إلى مجرد ترديد لعقائد السابقين ووضع الشروح عليها وتطبيق تعاليمهم، فانصرف هم المتصوفة المملوكيين إلى إنشاء الطرق الصوفية وتفرعها بحسب شهرة الشيخ وكثرة اتباعه، فتفرعت الطريقة الشاذلية والأحمدية والسطوحية وغيرها إلى عدة طرق تفرعت بدورها وهكذا .. مع انعدام الفارق الحقيقى بين الطرق، اللهم إلا فى طريقة الأذكار ولون المرقعات ونصوص الأوراد وأسماء الشيخ، ويمضى الزمن كان يزداد انتشار التصوف ويتعظم تقديس أسيادها، وتقل فى نفس الوقت ثقافتهم وعلمهم، ويزداد تسلطهم على المنكرين عليهم من الفقهاء.

ومقارنة صغيرة تظهر الفرق بين القرن الثالث والعصر المملوكى .. فالجنيد اضطر للتستر بالفقه والاختفاء فى عقر داره لكى يقول لأتباعه المقربين (العارف هو من نطق عن سرى وأنت ساكت) وأن علم التصوف جاءه من الله أسفل درج داره، أما فى العصر المملوكى فقد كان إبراهيم الدسوقي يقول مثلاً (أنا بيدي أبواب النار أغلقتها، ويدي جنة الفردوس فتحتها، ومن زارنى أسكنته جنة الفردوس .. يا ولدى إن صح عهدك معى فأنا منك قريب غير بعيد، وأنا فى ذهنك، وأنا فى سمعك، وأنا فى طرفك، وأنا فى جميع حواسك الظاهرة والباطنة) (٥٧)، وكانوا يسجلون ذلك عنه افتخاراً به ..

وإذا كان الحلاج قد دفع حياته ثمناً لإحدى شطحاته وأودى الآخرون ونفوا بسبب الشطح، فإن العصر المملوكى ودينه التصوف - قد جعل الشطح - أو إساءة الأدب مع الله تعالى - من مستلزمات الولاية الصوفية، يقول الشعرانى عن معاصره الشيخ أبى السعود الجارحى (وكان رضى الله عنه له شطحات عظيمة) (٥٨).

سيطرة التصوف على العصر المملوكى

تكفى قراءة سريعة لبعض صفحات الحوليات التاريخية المملوكة لتتعرف على سيطرة التصوف على العصر المملوكى، ولأن التصوف العملى يعنى الاعتقاد فى الشيخ

حيًا أو مبتدأ فإن عبارة (المعتقد) بفتح القاف تتردد كثيراً في وصف الآلاف المؤلفة من الأشياء الذين حفل بهم العصر، وبنفس الطريقة يوصف الآخرون بأن أحدهم (حسن الاعتقاد) أى فى الأولياء الصوفية، وهذا ما تعارف عليه العصر ورددته المصادر التاريخية دليلاً على عمق التأثير بالتصوف وسيطرته، ومع جبروت السلطة المملوكية فقد كان السلطان يؤمن بالتصوف ويخضع للشيخ الصوفى يلتمس منه البركات، وتفصيل ذلك بخارج عن المطلوب، ولكن نكتفى ببعض الأمثلة :

فالظاهر بيبرس بدهائه وسطوته واستبداده سمح بوجود نفوذ للشيخ خضر، بل وتغاضي عن انحلاله الخلقى لأنه يعتقد فى ولايته وفى معرفته للغيب^(٥٩)، ومع حنكة برقوق السياسية فقد كان يخضع للمجاذيب حتى أن أحدهم وهو الزهوى (كان يبصق فى وجهه)^(٦٠)، وعندما افتتح مدرسته الجامعة أعطاه مجذوب (طوية) وأمره أن يضعها فى المدرسة، فوضعها برقوق فى قنديل وعلقه فى المحراب، وظلت فيه باقية، يقول عنها ابن اباس فى القرن العاشر (فهى باقية فى القنديل حتى الآن)^(٦١).

ومن دراسة بعض المصادر الصوفية يتضح إلى أى مدى كان الصوفى يتسلط على مريده الأمير، وكان ذلك عادياً لا يستوجب عجباً ولا انكاراً، وإلا ما قرأنا هذا الكلام للشعرانى فى تعقيد علاقة الشيخ بمريده إذا كان أميراً مملوكياً (وما من الله على إنى لا أحجب أحداً من الأمراء إلا إن غلب على ظنه دخوله تحت طاعنى بطيبة نفسه، بحيث يرى خروجه عن طاعنى من جملة المعاصى التى تجب التوبة عليه منها فوراً .. وكل أمير لا ينشرح صدره ويفرح بقلبه بالخروج عن جميع وظائفه وماله ونسائه ورقيقه ودوره ويساتينه إذا أمره شيخه بذلك فلا يصلح للفقير - أى الصوفى - أن يصحبه .. ومن أدب الأمير مع الفقير أن يراه فى غيبته أعظم حرمة من بعض ملوك الدنيا)، وفى مقابل خضوع الأمير الذليل لشيخه كان الشيخ لا يلتزم بشيء تجاه الأمير، يقول زكريا الأنصارى للأشياخ (إياكم أن تتحملوا عن أميركم جميع الشدة التى نزلت به فتلحقوه بالنساء فى العجز والكسل والنقص، بل أؤمروه بالتوجه إلى الله تعالى فى دفع تلك الشدة) وعد الشيخ الخواص (من جهل الأمير رضى حملته على شيخه). ومن أدب الأمير

ألا يطلب من شيخه أن يكون معه على خصمه، وألا يطلب مساعدة شيخه، وألا يرى الأمير فضلاً له على شيخه بما يرسله إلى زاويته من أصناف الأطعمة، وإذا طرده الفقير عن صحبتته ألا يبرح بابه ولا يجتمع بغيره من الفقراء، وعلى الأمير الخضوع والذلة لشيخه، وأن يوالى من يواليه ويعادى من يعاديه، (فمن عادى الشيخ فقد عادى الله)، وألا يطلب من الشيخ حاجة إلا وهو فى غاية الذل والانكسار والفاقة، وأن يأمن شيخه على عياله وحريمه ولو اختلى بهم ولا يخطر بباله أنه ينظر إلى إحداهن بشهوة، وإلا فقد أساء الأدب على الشيخ، وأن يمرض لمرض شيخه، وأن يخزن لحزنه، وأن يرى النعم التى يعيش فيها من بركة شيخه، وأن يرضى بحكم شيخه فيه كما يرضى العبد بحكم سيده، والأمير مع الفقير كعبد السوء مع سيده الكريم الواسع الخلق، وعليه أن يعرض على شيخه كل قليل أفخر ما عنده من النقود والملابس والمطاعم والمشارب إظهاراً لشدة محبته له وبياناً لكونه لا يدخر عنه شيئاً، وأن يخلص النية كلما أراد الخروج لزيارة شيخه فلا تكون لعلّة دنيوية أو أخروية^(٦٢)، لقد جعل أولئك الصوفية من أنفسهم آلهة على مرديهم من الأمراء والمماليك، وجعلوا لأنفسهم الغنم كله بلا مسئولية دينية أو إنسانية تجاه الأمير المريد، ولولا أن قلب العصر المملوكى كان ينبض بالتصوف لما جرؤ الصوفية على تععيد مثل هذه العلاقة الغريبة بين الأمير وشيخه الصوفى

والعمارة المملوكية التى لا تزال تزين القاهرة حتى الآن هى أصدق دليل على ما بلغه التصوف وأشياخه من منزلة وتأثير على المماليك مهما بلغت قسوتهم، وتلك العمارة المملوكية آية من آيات الفن المعماري وقد خصصت كلها للتصوف وأنشطته الدينية والعملية.

والحياة الفكرية والعقلية للعصر المملوكى إفراز لتأثير التصوف، حيث دارت الحركة العلمية بين شرح وتلخيص ونظم للمتون وإعادة شرح التلخيص والمتن دون ابتكار أو تجديد، وحيث فرض التصوف نفسه علماً بين المناهج، وحيث دارت الحياة العلمية فى المؤسسات الصوفية، وحيث تصوف العلماء وتقهقر مستواهم الفكرى وطورد المجتهدون منهم ممن جرؤ على الاعتراض على الصوفية، كما حدث لابن تيمية ومدرسته، وبنفس القدر الذى ازداد فيه تقديس الأولياء الصوفية الأميين، وكان تقديس

المجاذيب أكبر ما يعبر عن احتقار العصر المملوكى للعقل.

والشارع المملوكى كان أصدق ما يعبر عن سيطرة التصوف على الناس، فالتوسل بالأولياء كان أبرز نشاط دينى واجتماعى للناس، وليس مهمًا شخصية الولى النحى الذى يتوسلون به ويقصدونه من كل الجهات، فقد اشتهر (عبد اسود) بالولاية فتوافدوا عليه من كل مكان (٦٣)، بل أن (طفلة صغيرة) بقلوب اشتهرت بالولاية فتوجه إليها الناس أفواجا (فبلغ كرى - أى إيجار - كل حمار من القاهرة إلى قليبوب دينار اشرفى). وتوجه إليها جماعة من الخاصكية والأمرء والأعيان (٦٤).

ولا نجد أبلى من وصف المؤرخ ابى المحاسن فى اعتقاد الناس فى المجذوب الشيخ يحيى الصنافيرى، يقول فيه (اجمع الناس على اعتقاده وهو لا يفى من سكرته، وكان الناس يترددون إليه فوجًا فوجًا من بين عالم وقاض وأمير ورئيس ولا يلتفت إليهم، ولما زاد تردد الناس إليه، صار يرميهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه، رغبة فى التماس بركته، ففر منهم وساح فى الجبال (٦٥).

وكان شمس الدين الحنفى إذا حلق رأسه تقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه ذخيرة عندهم (٦٦)، واقتتل الناس على الشيخ الدشطوطى يتبركون به (٦٧)، وكان الشيخ محمد الديروطى لا يكاد يمشى وحده بل يتبعه الناس (ومن لم يصل إليه رمى بردائه على الشيخ حتى يمس ثياب الشيخ ثم يرده إليه ويمسح به وجهه (٦٨)، ورأى الشعرانى ذلك المنظر وعقب عليه بقوله (كما يفعل الناس بكسوة الكعبة (٦٩)، وذكر الشعرانى عن نفسه أنه دخل الجامع الأزهر فى صلاة جنازة فأكب الناس عليه يقبلون يده ويخضعون له، وشيعوه حتى الباب حتى صاروا أكثر من الحاضرين فى الجنازة (٧٠).

وإذا مات الشيخ الصوفى تنافس الناس فى الحصول على ماء غسله للتبرك به (٧١)، وشراء أثوابه التى مات فيها لأخذها حرزا (٧٢)، وحين مات الشيخ الشناوى (اقتتل

الناس على النعش، وذهلت عقولهم من عظم المصيبة بهم، وقد دفن فى غفلة عنهم (٧٣).

تعاظمت سيطرة التصوف حتى تسيد العصر المملوكى وأثر تأثيراً بالغاً فى الحياة السياسية والحضارية والدينية والأخلاقية، ومن نافلة القول أن نذكر أنه لا فاصل بين التصوف كمبدأ والصوفية كأشخاص، لأن التصوف مذهب بشرى، والبشر هم المشرعون فيه، وكل صوفى يمثل التصوف الذى يدين به، والتصوف فى النهاية هو مجموع آراء اتباعه وتشريعاتهم، وما يعيب الصوفية يعيب التصوف، أما الإسلام -شرع الله- فهو مختلف، فشرع الله يحكم على البشر، فالإسلام لا شأن له بأخطاء المسلمين، لأن خطأ المسلمين راجع إليهم وهم محاسبون عليه فى الآخرة، وعليهم أن يسيروا بحياتهم وفق كتاب الله، فإن أصابوا كان خيراً لهم، وإن أخطأوا كان عليهم. نقول هذا حتي تتضح الفوارق بين الإسلام والمسلمين والتصوف والصوفية.

وموعدنا الآن مع الحياة الدينية فى مصر المملوكية وكيف تشكلت وتأثرت بالتصوف.

المصادر

- ١ - الرسالة القشيرية ط صبيح : ٢١٧.
- ٢ - الحلبي : النصيحة العلوية مخطوط : ٨٨.
- ٣ - عبد الحلليم محمود : أبو العباس المرسى ٧ رقمه بدار الكتب ١١٢٩ تاريخ تيمورية
أعلام العرب عدد ٨٤ سنة ١٩٦٩.
- ٤ - نكلسون في التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة أبو العلا عفيفى ٢٨ : ٦٦، ٤١ : ٦٩
ط ١٩٤٧.
- ٥ - التفتازانى : مدخل إلى التصوف ١٠ دار الثقافة ١٩٧٤.
- ٦ - أبو العلا عفيفى : التصوف الشورى الروحانية فى الإسلام ٣٨ : ٣٩ دار المعارف
١٩٦٣.
- ٧ - قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الإسلام ترجمة صادق نشأت ج١/٣٧٣ : مكتبة النهضة
المصرية ١٩٧٠.
- ٨ - التفتازانى : ٣
- ٩ - التفتازانى : ٧
- ١٠ - التفتازانى : ٣
- ١١ - التفتازانى : ٥
- ١٢ - الرسالة القشيرية ٢١٨.
- ١٣ - التفتازانى : ٤
- ١٤ - الرسالة القشيرية ٢١٨.
- ١٥ - الرسالة القشيرية ٢١٧.
- ١٦ - تلبيس إبليس ١٥٦. لابن الجوزى - المطبعة المنيرية.
- ١٧ - الصوفية والفقراء ٣، الفرقان ٢٩.
- ١٨ - رسالته للدكتوراه عن التصوف ٢٤ : ٣٣.
- ١٩ - نكلسون ٦٦ : ٦٩.
- ٢٠ - التفتازانى : ٢٦.
- ٢١ - أحمد محمود صبحى عالم الفكر ٦/٢/٣٣٨.

- ٢٢ : ٢٦ التفتازاني ٣١، ٣٤، ١١٢، ٣٧، ٣٩ : ٤٠ .
- ٢٧ - الخطط ج١/٦٣، ٣٨٦، ٣٨٧ ط ١٣٢٤ .
- ٢٨ - مروح الذهب ج١/٤٠ . نشر بارتبييه ورمنيار .
- ٢٩ - ٢٣٣/١ .
- ٣٠ - المقدمة ٤٦٧ ط المكتبة التجارية .
- ٣١ - (٣٢) أبو العلا عفيفي ٥٩ : ٦٤، ٥٧ : ٥٩ .
- ٣٣ - تلبيس ابليس ١٥٥ .
- ٣٤ - التفتازاني : ١١٣، ١٠٧، ١٠٦، ١١٢ .
- ٣٥ - أبو العلا عفيفي ٥٩ : ٦٤ .
- ٣٦ - (٣٧) الإحياء ٣/٣٤١ : ٣٤٣، ١٩٩، ٣٤٤ : ٣٤٧ المطبعة العثمانية .
- ٣٨ - عجائب الآثار ٣٦/٢ ط ١٩٥٩ .
- ٣٩ - الرسالة القشيرية ٩٤ الإحياء ٩٧/٤ .
- ٤٠ - (٤١) : (٤٣) الإحياء ٤/١٩٥ : ١٩٦، ١٨٧ : ١٨٨، ١٨٩ : ١٩١، ١٩٣ .
- ١٩٨ : ،
- ٤٤ - تنتهي السلاسل الصوفية برواد الزهد ثم تصلهم بالنبي .
- ٤٥ - ٤٦ الرسالة القشيرية ١٥، ١٦، ٣٢ .
- ٤٧ - الطبقات الكبرى للشعراني ١٠، ١٣، ١٤ ط صبيح .
- ٤٨ - تلبيس ابليس ١٦٢، ١٥٨ .
- ٤٩ - ٥٠ الرسالة القشيرية ٣١ : ٣٢ .
- ٥١ - ٥٢ تلبيس ابليس ١٦١ : ١٦٢، ١٥٥ : ١٥٦ .
- ٥٣ - الرسالة القشيرية ٤، ٥ .
- ٥٤ - الإحياء ج٣/٣٤٣ وما بعدها، ١٩٩ .
- ٥٥ - الإحياء ج٣/٣٠١ : ٣٠٢، ٣٣٣، ٣٤١ : ٢٥٧ : ٢٥٨ .
- ٥٦ - الأحياء ٣/٢٣ : ٢٤٢، ٢٤٦، ج٤/١٤، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٦٨، ٧٤ : ٨٣، ٧٧ : ٨٥، ٩٤، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ٢١١ : ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٧ : ٢٢٨ : ٢٥٤ : ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٨ : ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٨ : ٢٩٩ .
- ٥٧ - الشعراني : الطبقات الكبرى ١/١٥٧، ١٥٣ .
- ٥٨ - الشعراني : ج٢/١١٨ .
- ٥٩ - النويري : نهاية الأرب مخطوط ٢٨ / ٤١، ١١٩، ١٢٠، تاريخ ابن كثير

١٧٨، ٢٦٥/١٣.

- ٦٠ - انباء الغمر: ج٢/٥٧، النجوم الزاهرة ج١٣/١٠.
- ٦١ - تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ج١/٢/٣٧٣
- ٦٢ - الشعراني: ارشاد المغفلين، مخطوط ١٣٨ : ١٣٩ ٢٣٣ : ٢٣٧، ٢٤٧ : ٢٧٢
رقمه بدار الكتب ٩٢١ تصوف طلعت.
- ٦٣ - ٦٤ - تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ج٢/٢٧٧، ١٦٥/٤.
- ٦٥ - المنهل الصافي مخطوط ج٥/٤٨١، النجوم الزاهرة ج١١٨/١١٩.
- ٦٦ - الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢/١٨٣.
- ٦٧ - شذرات الذهب ج٨/١٣٠ لابن العماد الحنبلي. ط ١٣٥١ هـ.
- ٦٨ - الغزى: الكواكب السائرة ج١/٨٤ : ٨٥ بيروت ١٩٤٥.
- ٦٩ - الشعراني تنبيه المغتربين ٩٣ : ٩٤ ط ١٢٧٨.
- ٧٠ - الشعراني: لطائف المنن ٢٦٣ ط ١٩٨٨.
- ٧١ - السخاوى: تحفة الأحياب ٣٧٠ ط ١٣٠٢.
- ٧٢ - الداودار: زبدة الفكرة مخطوط ٩ / ٤٧٥ مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨
السبكي طبقات الشافعية ١٢٧/٦ الطبعة الأولى.
- ٧٣ - الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢/١١٧.

الباب الأول

مراحل العقيدة الصوفية وتطورها في مصر المملوكية

مدخل :

- * الفصل الأول : المرحلة الأولى للعقيدة الصوفية.
- * الفصل الثاني : المرحلة الثانية للعقيدة الصوفية.
- * الفصل الثالث : وحدة الوجود وصراع الفقهاء والصوفية في القرنين السابع والثامن من الهجرة.
- * الفصل الرابع : وحدة الوجود وصراع الفقهاء والصوفية في القرنين التاسع والعاشر من الهجرة.
- * الفصل الخامس : المرحلة الثالثة للعقيدة الصوفية : رفض الإسلام صراحة.

الباب الأول

مراحل العقيدة الدينية

وتطورها فى مصر

*** الفصل الأول :**

- المرحلة الأولى للعقيدة الصوفية.
- من بداية التصوف فى القرن الثالث الهجرى إلى وفاة الغزالى سنة ٥٠٥ هـ.
- أ (مدرسة الجنيد.
- ب) الغزالى وعقيدة التصوف (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ).
- الغزالى وكتابه «الإحياء» والإنكار عليهما.
- عقيدة التصوف فى «الإحياء».

مقدمه (تحقيب على آراء الباهيين في عقائد التصوف)

- ١ - أهم عقائد التصوف هي «الاتحاد، والحلول، ووحدة الوجود» :
وقد عنى الباحثون في (عقائد التصوف) بتبيين أوجه الفرق بين تلك العقائد، وأبرزهم في ذلك المجال العلامة ابن خلدون، ويوحى حديثه عن عقائد الصوفية بأن الخلاف العقائدي بينهم يصل إلى درجة التباعد^(١). وقد تأثر به أحمد أمين في عرضه لنفس الموضوع^(٢).
- ٢ - والواقع أن الفارق «شكلي» بين العقائد الثلاثة، فأصحاب الاتحاد يعتقدون أن الصوفي إذا حسن حاله يصل «للفناء» في المعبود ويستغرق في حال (المشاهدة) ويتحقق بالحق) أو يتحد بالله واجب الوجود.
- وأصحاب «الحلول» يعتقدون أن الذات العلية تتجلى على الصوفي الثاني في ربه فتتمحى في العبد صفة العبودية ويفنى في ربه متحدًا فيه، «وأصحاب الوحدة» يعتقدون أن الوجود «بما فيه من خالق ومخلوق» واحد لا تعدد فيه، وأن المخلوقات هي صور يبدو فيها الحق وأجب الوجود، والصوفي هو الذي يصل إلى هذه الحقيقة التي لا يدركها المحجوبون من بقية البشر، فإذا زال الحجاب عن قلب امرئ رأى أن «الشاهد عين المشهود».
- ٣ - وقد يقال أن «عقيدة الاتحاد» لا تختلف في مقولتها عن «عقيدة الحلول» فالالاتحاد صعود بالعبد إلى الله، و«الحلول» نزول بالألوهية إلى العبد، فالخلاف لفظي. ويمكن القول أيضًا بأن الخلاف «كمي» بين عقيدتي «الاتحاد ووحدة الوجود»،

(١) المقدمة : ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢ المكتبة التجارية.

(٢) ظهر الإسلام : ج ١٦١ : ١٦٣.

فأصحاب الاتحاد يرون للعالم وجودين : خالق ومخلوق، ثم يتحد الصوفى العارف بالخالق ويحقق الفناء فى واجب الوجود، بينما يتوسع أصحاب الوحدة فى هذه المقولة ويجعلونها حقاً لكل البشر بل والجمادات، فهى كلها صور يتراعى فيها الخالق فى خلقه.. فعقيدة الاتحاد جزء من عقيدة «وحدة الوجود»، أو أن وحدة الوجود هى الهدف 'الأسمى للقائلين بالاتحاد : أو هى على حد قول بعضهم (الاتحاد المطلق) أى الذى يشمل الانسان والجماد.

٤ - ومعنى ذلك أن هناك درجات للعقيدة الصوفية تبدأ (بالاتحاد والحلول) وتنتهى (بوحدة الوجود) أو (الاتحاد المطلق)، وذلك ما توضحه مسيرة التاريخ الصوفى فى الدولة الإسلامية.

* موجز المراحل التاريخية للعقيدة الصوفية :

والأرضية التاريخية هى المسئلة عن ذلك التضارب المزعوم فى عقائد التصوف، فدارسو التصوف بحثوا عقائده بمعزل عن الواقع التاريخى وما يستلزمه من تغيرات ومؤثرات..

وحتى نضع الأمور فى نصابها فإن (تدين التصوف)، ظهر فى مجتمع رافض فواجه الكثير من العنت شأن المرتدين، فقتل العلاج لأنه أعلن عقيدته صراحة، فاضطر الآخرون إلى نوع من الموائمة بين عقيدتين متعارضتين (الإسلام والتصوف)، فوضعت للتوحيد درجات تبدأ (بتوحيد العوام)، ويقصدون به الإسلام، وتنتهى «بتوحيد الخاصة» أو «التوحيد المحض» ويعنون به وحدة الوجود .. وكان الجنيد «رأس الصوفية» مع «الغزالي» «حجة الصوفية» هما أبطال هذه المرحلة من مراحل التاريخ الدينى للعقيدة الصوفية، ثم تقرر التصوف مذهباً إسلامياً على يد الغزالي وتحول الإنكار من إنكار على التصوف كمبدأ إلى إنكار على الصوفية المنحرفين، وتهايم الجو بذلك للمرحلة الثانية، وفيها اكتملت العقيدة الأساسية للصوفية (وحدة الوجود) فى مؤلفات (ابن عربى) (شيخ الصوفية الأكبر)، ووجه اتباع بن عربى بكثير من الإنكار وأحرقوا كتابه (الفصوص) أكثر من مرة، ودمروا قبره مرات وأعيد بناؤه مرات، ومع ذلك تزايد أتباعه وكثرت

الشروح على القصص بمثل ما حظى به سابقه (إحياء علوم الدين) للغزالي ..

وعرف العصر المملوكى تطلعاً صوفياً لبلوغ المرحلة الثالثة وهى التحلل إسمًا وفعلاً من الإسلام على يد الصوفية الذين إدعوا النبوة أو الألوهية وطافوا البلاد دعاة لنحلتهن، إلا أنهم ووجهوا بالإضطهاد والقتل، فقد استقر فى الأذهان أنه لا تعارض بين الإسلام والتصوف، ولم يلق أولئك المتطرفون الصوفية تأييداً من أكثرية الصوفية، إذ أن التصوف قد حصل على أكثر مما يحلم به وهو يرتدى زى الإسلام، وإذا خلع عنه هذا الزى فقد الكثير دون داع، فقد اكتملت للتصوف فى هذه الفترة تحويل الإسلام عقيدة ورسوماً إلى مظاهر صوفية بحيث ليس للإسلام فيها إلا مجرد الاسم والشكل، وإذا ضاع الشكل الإسلامى الذى يندفع به الكثيرون ضاع على التصوف مكاسب حققها فى قرون وناضل فى سبيلها أعيان الصوفية، وكلهم لم يتحلل من الشكل الإسلامى للتصوف. بل وضع فى إطاره ما يريده. ونأتى للتفصيل.

الفصل الأول

المرحلة الأولى للعقيدة الصوفية من بداية التصوف في القرن الثالث الهجري إلى وفاة الغزالي سنة ٥٠٥

أ) مدرسة الجنيد :

١ - وفيها كان اضطراد الصوفية على أشده خصوصاً في عصر الجنيد والحلاج، وواجه الصوفية هذا الاضطهاد بمبدأ التقية الشيعية، أي إظهار الإسلام وإبطان التصوف، وهو نفس ما فعله المنافقون وقد قال تعالى فيهم : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون .. البقرة ١٤، ١٥) .

وعن هذا الطريق استقر في الإذهان أن هناك تصوقاً معتدلاً يتزعمه الجنيد وأعيان مدرسته يخالفون بذلك متطرفي الصوفية كالحلاج ومدرسته، والواقع أنه لا خلاف هناك في العقيدة، وإنما في صراحة الحلاج ونفاق الجنيد، ويكفي أن الجنيد خدع الكثيرين من المنكرين على الصوفية كابن تيمية وابن الجوزي والبقاعي.

٢ - وقيل في ترجمة (الجنيد) أنهم شهدوا عليه (حين كان يقرر في علم التوحيد) يقصد عقيدة التصوف) ثم أنه تستر بالفقه واختفى^(١)، أي أن محاكمة عقدت «للجنيد» فاضطر للتستر بالفقه وأخفى اجتماعاته مع الصوفية .. وفي هذه الأثناء بلغ اضطراد الصوفية ذروته بصلب الحلاج فكان الجنيد (يقول كثيراً للشبلي .. لا تُفش سر الله تعالى بين المحبوبين)^(٢). يغنى أنه كان يأمر الشبلي - وهو أشبه بالحلاج - ألا يصرح بعقيدته بين المسلمين.

(١) (٢) الطبقات الكبرى للشعراني بالترتيب ج١، ١٣، ١٤، ١٥، طبعة صبيح.

وأصدر أوامره لأتباعه بأنه (لا ينبغي للمقير (يقصد الصوفى) قراءة كتب التوحيد الخاص (يقصد التصوف) إلا بين المصدقين لأهل الطريق أو المسلمين لهم) (١) يقصد المعتقدين فيهم..

وطبق الجنيد هذا المبدأ على نفسه فكان (لا يتكلم قط فى علم التوحيد إلا فى قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحها تحت وركه ويقول : اتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرمونهم بالزندقة والكفر) (٢)، ومعنى ذلك أنه كانت للصوفية فى هذا الوقت اجتماعات سرية متفرقة، تؤمها خلايا من مریدين وشيخ، وفيها كانوا يقرأون (كتب التوحيد الخاص)، أى أن عقائد التصوف قد دوت منذ عهد الميكر، إلا أننا لم نعثر على مؤلف كامل للجنيد إذ أنه فى غمرة تمسكه بالتقية أوصى حين الموت بأن (يدفن معه جميع ما هو منسوب إليه من عمله) (٣)، فلم يحفظ عن الجنيد إلا القليل من الآراء الصوفية مع أنه سيد الطائفة، حتى أن كل الطرق الصوفية المتأخرة تنتهى إليه بالخرقه.

٣ - وإذا كان للجنيد كلام خاص مع أتباعه فى اجتماعاتهم السرية فإنه حرص على إعلان تمسكه بالإسلام، وشاع عنه إعلاؤه التقيد بالكتاب والسنة فقال (مذهبننا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)، (ومن لم يهتظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر) (٤)، أى التصوف، وإنخدع خصوم التصوف بكلام الجنيد وأبرزهم ابن الجوزى الذى رد كلمات الجنيد وهو يقول (وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة) (٥).

٤ - ومن خلال الأقوال القليلة التى حفظت عن الجنيد فى عقيدة التصوف يمكن أن نتعرف على طبيعة هذه المرحلة من مراحل الميمنة الصوفية، يقول الجنيد عن التوحيد (إفراد الدوح بتحقيق وحدانيته الكمال أحديته، بأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد، وينفى

(١) (٢) الطبقات الكبرى للشعرانى بالترتيب ج ١ / ١٤ ، ١٠ طبعة صبيح.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ٧٣ ط صبيح.

(٤) الرسالة التفسيرية ٣٧ ط. صبيح. (٥) تاليس فيلير ١٦٦ ط. المنيرية.

وعبر الجنيد عن وحدة الوجود بقوله (معنى تضمحل فيه الرسوم؛ ويقصد بالرسوم مظاهر الكون المادية من انسان وحيوان وجماد فكلها تضمحل في ذات الله (وتندرج فيه العلوم) أى أن كل العلوم والمعارف البشرية والكونية مظاهر إلهية (ويكون الله تعالى كما لم يزل) أى أن الله مع ذلك - مع وجود هذا التعدد فى المظاهر المادية والعقلية - هو كما كان وسيظل - وجوداً واحداً يشمل الرسوم المادية والأفكار المعنوية ..

٥ - واضطهد ذو النون المصرى وحمل إلى بغداد معتقلاً مهدداً بالموت متهماً بالزندقة (١) فاضطر إلى أن يجعل التوحيد الإسلامى درجة فى العقيدة الصوفية فقال الطوسى عن التعريف الذى نقله عن ذى النون (قالجوابان للذان لذى النون والجنيد فى التوحيد هما ظاهران، أجابا عن توحيد العامة) (٢). أى جعلوا دين الله (توحيد العامة)، أو الدرجة الدنيا من العقيدة..

٦ - ومهما يكن من أمر فإن مدرسة الجنيد وذى النون قد سنت طريقاً للعقيدة الصوفية سار فيه الصوفية اللاحقون حفاظاً على حياتهم وعقائدهم، بيد أن بعضهم كان مجدداً بعض الشيء فى طريقة نفاقه مع احتفاظه بالعقيدة الثابتة..

٧ - ومن أولئك كان رويم الصوفى اليفغادى، فكان ينكر على صعالبيك الصوفية - شأن استاذة الجنيد - مع الحفاظ فى نفس الوقت على سلامة الطريق الصوفى وعقيدة التصوف.

يقول رويم (ما هذا الأمر - يقصد التصوف - إلا ببذل الروح فإن امكنك الدخول فيه مع هذا وإلا فلا تشتغل بثرهات الصوفية) (٣). ويرفع من شأن التصوف الحقيقى وأصحابه فيقول (إن كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق)، ومع تمسكه بعبارات الورع والصدق (٤). فإن حقيقة عقيدته تتضح فى قوله عن التوحيد (بأنه محو آثار البشرية وتجرد الألوهية) (٥). أى أن التوحيد الصوفى ينفى وجود البشر ويجعل الوجود المجرد قاصراً على الألوهية التى انمحت فيها وفنت آثار البشر طبقاً للإلتحاد والفناء.

(١) الشعرانى : المرجع السابق بـ ١٣

(٢) المرجع السابق : اللمع ٤٩.

(٣)، (٤) الرسالة القشيرية ٣٥.

(٥) اللمع : ٥١

ويقول رويم فى موضع آخر (للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه)^(١). فالألوهية تكمن داخل الولى الصوفى، وبها يتحد بالله إذا شاء، وحينئذ تنمحي فيه آثار البشر وتوجد الألوهية فيه كاملة.

أى أنه إذا كان رويم ينكر على عامة الصوفية (ترهاتهم) نفاقاً وتقية فإن هذا الإنكار يهدف لسلامة الدين الصوفى، ومجابهة الإنكار من الآخرين مع تقرير العقيدة الصوفية.

٨ - ورويم عاش فى بغداد ومجتمع الجنيد والصوفية الأوائل، وكان يترسم طريقهم فى انكاره على الصوفية المحدثين فى عهده، إلا أن التباعد المكاني بين رواد التصوف لم يكن عائقاً فقد سهلت السياحة الصوفية والمراسلات من سبل الاتصال والتفاهم بينهم.. ويكفى أن نمثل لذلك بيوسف بن الحسين شيخ الرى فى الشرق الإسلامى، ومع ذلك فقد صاحب ذا النون المصرى^(٢). وكان يرأسل الجنيد فى بغداد^(٣).. وتأثره بالإثنين واضح.. فقد اتهم يوسف بن الحسين بالزندقة من جانب مواطنيه فى الرى^(٤)، مع أنه لم يخل على الصوفية المعاصرين له بالإنكار فقال فيهم (رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد - يقصد اللواط - ورفق النسوان - يقصد الزنا)^(٥).

وكان يوسف بن الحسين مخلصاً لعقيدته الدينية الصوفية متبعاً لأسلوب «الجنيد» فى وضع درجات للعقيدة تبدأ بالإسلام وتنتهى بالعقيدة الأسمى فى نظره: يقول الطوسى (ووجدت ليوسف بن الحسين فى التوحيد ثلاثة أجوبة منها فى توحيد العامة)، وأنتهى إلى (الجواب الثالث: توحيد الخاصة، وهو أن يكون العبد بسره ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدبيره، وتجرى عليه أحكام قدرته فى بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وذهاب حسه بقيام الحق له فى مراده منه، فيكون كما كان قبل

(١) الطبقات الكبرى للشمرانى ج١ / ٧٥.

(٢) الطبقات الكبرى للشمرانى ج١ / ٧٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٧.

(٤) الطبقات الكبرى نفس المراجع ج١ / ٧٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٧.

أن يكون، بمعنى أن جريانه احتكام الله عليه وإنفاذه شيعته فيه وبيان ذلك كما قال الجنيد^(١).. وواضح تأثير يوسف بن الحسين بالجنيد ..

٩ - وبعدهم كان يبالغ في التقية حتى تختلط عليه الأمور ويقع في التناقض في أمر واحد وسبب ذلك أنه ظل يوافق حتى نادى نفسه «فدعها» ومن هذا الصنف كان «أبو سعيد الخزاز» الذي أعرف في التقية خوفاً من الاتهام بالكفر حتى وصل به الأمر إلى اتهام المصوف نفسه دون أن يدري ..

يقول أبو سعيد (كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل)^(٢). أي أنه يحكم على التصوف - وكان مبدؤه الكتمان والتقية - بالبطلان .. وامتد هذا الحكم ليشمل أباً سبى نفسه - حيث يقول الهم - أي الصوفية - لسانان ظاهر وباطن، فلسان الظاهر يكلم أجسامهم ولسان الباطن يناجي أرواحهم^(٣).

وكان الخزاز (أول من تكلم في علم الفناء)^(٤)، أو الاسعاد، ومن أقواله (إذا أراد الله أن يراني من عباده من عبده فتح له باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليّ باب القرب، ثم رفعه إلى مجلس الأسس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب فدخله دار الفردانيذ وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بنى لا هو، فحينئذ صار العبد فانيًا فوق في حفظ الله وبري من دعاوى نفسه)^(٥). يقصد اتحاد بالله وزالت عنه البشرية - وفي ذلك النص إشارة إلى مراحل الاتحاد عند الصوفية. وقال (أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء - يعني لوازم البشرية) - (ورد الأشياء جميعاً إلى متوليها حتى يكون المتولى بالمتولى ناظرًا بالأشياء، قائماً بها مثبته كئفاً فيها ثم يخفيهم عن أنفسهم في أنفسهم ويظهرهم لنفسه سبحانه وتعالى)^(٦)، ثم هو صاحب (كتاب السر) في عقيدة الصوفية.. إلا أنه استطاع أن ينسجوا بنفاقه من حدة

(١) النسخ ٥٠ : ٥١

(٢) الرسالة ٣٨.

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ / ٧٨.

(٤)، (٥) الطبقات الكبرى ج ١ / ٧٩.

(٦) نفس المرجع ج ١ / ٧٩.

الإنكار، عمله ورسم كثرة ما قاله في علم التصوف، ويؤكد أن بقاءه شلافة، اختلافات الصوفية - والاختلاف سمة أساسية في التصوف - وقد كان بقاءه للصوفية من إخوانه أن يتجنبها الخلاف معهم يقول (ص) هـ، ته الله، قيمة ما صحتهم فما وقع بينهم وبينهم خبايا (١).

ولا شك أن المغالاة في التذوق تستلزم رد فعل للضغط الذي واجهه التصوف الأوائل.

١٠ - ومن مظاهر الضغط الذي تعرض له الصوفية الأوائل قلّة أقوالهم في عبادة (وحدة الوجود) واختاروا بالإشارة للاتحاد وتجنبوا مؤدّيًا الاسهاب في الاتحاد المطلق أو وحدة الوجود، ولما يكون دليلاً أن تعرض بسرعة لبعض أقاويلهم في الاتحاد المطلق أو وحدة الوجود.

قالوا: (الوحدانية بقاء الحق بقاء كل ما دون)، يعني أن كل ما دون الله، يظهر فائضة في ذات الله الباقية، وقالوا (ليس في الشوحيذ شيء وما وحد الله غير الله) (٢) ومعناه أن الوجود الحقيقي واحد ولا خلق هناك وإنما الخلق فقط، كل ما يستحق الله هو الله نفسه ..

ولا شك أن عبارات (الوحدة) السابقة قد صيغت في أسلوب اتحادى عرفه القهر والضغط وتحتمل - مع ذلك التأويل - عند المسائلة والعقاب ..

١١ - وغلب الصوفية مقاندهم بالرموز والمصطلحات والعبارات التي تستلزم التأويل والاختلاف، إلا أن التصوف دخل في دور الانتشار واجتذب إليه صوائف من العامة مع انعطاف مستعمر في مستوى الأشياء العبدية وترديدهم لنسبات الصوفية الأوائل واختراعهم عبارات تنقّصها المهارة الصوفية المستعانة في عبارات الاتحاد، وكان أن هبّ القشيري في القرن الخامس ينكر على إمام الصوفية أقاويلهم في الاتحاد ويؤلف لهم رسالة المشهورة، يقول في مقدمتها (مضى الذبيح أنذرني كان بهم اعتداء) ويصف صوفية عصره بشنيع الصناعات من الإهمال في الفرائض والمبالغة في الانحراف ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه القفال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق، يعني أنهم ادعوا

(١) الرسالة القشيرية ٣٨. (٢) اللع ٥٢.

الاتحاد تشبهًا بمن سبقهم من الرواد وهذا ما ينكره القشيري على أجلاف عصره، يقول فيهم (وادعوا انهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم احكامه وهم محو) .. (وانهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية . وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية)، يعنى أنهم ادعوا الاتحاد الكامل بالله .. واضطر لتأليف رسالته ليرشدهم وحتى يسلم الطريق الصوفى - بزعمه - منهم .. يقول (ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان، بما لوحث ببعضه من هذه القصة، وما كنت لأسقط إلى هذه الغاية لسان الإنكار غيرة على هذه الطريقة - أى التصوف - أن يذكر أهلها بسوء أو يجد مخالفهم لثلبهم مساعًا، إذ البلى فى هذه الدبار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة .. ولما أبى الوقت إلا استصعابًا وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تماديًا فيما اعتادوه .. اشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده .. فعلقت هذه الرسالة إليكم)^(١).

وصار تقليدًا صوفيًا أن ينكر الشيخ على معاصريه من الصوفية ويشيد بالسابقين .. فالطوسي أنكر على معاصريه واشاد بسابقيه، وجاء القشيري بعده فأشاد بمن أنكر عليهم الطوسي، ثم جاء الغزالي فأشاد بمن أنكر عليهم القشيري .. وكذلك فعل الشعراني فى نهاية العصر المملوكى .. وذلك كله حماية للطريق الصوفى ومحاولة الفصل بين التصوف كمبدأ - يحاولون حمايته من الإنكار - وأشخاص الصوفية وهم محل إنكار المعاصرين لهم.

١٢ - ثم دخلت العقيدة الصوفية فى ثوب جديد بفضل الغزالي ..

(ب) الغزالي وعقيدة التصوف (٤٠٠ - ٥٠٥ هـ)

*** الغزالي وكتابه (الإحياء) والإنكار عليهما :**

١ - أثر الغزالي فى دين التصوف لا يُطاول، فإذا كان الجنيد -وهو سيد الصوفية- قد استطاع بالنفاق والتقية أن يحفظ التصوف بمنأى عن الأعاصير المهلكة، فإن الغزالي هو الذى دخل بالتصوف عصرًا جديدًا حين أسبغ عليه الشرعية الإسلامية، وقرب بينه

(١) الرسالة القشيرية ٤ ، ٥

وبين مذهب أهل السنة. وهى خطوة جبارة لم يكن لها أن تتم إلا بشخصية الغزالي الذى تمتع فى عصره بزعامة الفقهاء والمتكلمين مع تقدير الحكام والعوام.

٢ - وقد بدأ الغزالي فقيهاً تتلمذ على يد إمام الحرمين فى المذاهب والخلاف والجدل والمنطق والحكمة والفلسفة، وصنف فى كل فن منها، وبعد موت إمام الحرمين قصد الغزالي نظام الملك وناظر العلماء بحضرته وتفوق عليهم فولاه نظام الملك تدريس المدرسة النظامية ببغداد فازدادت شهرته، ثم أصيب بالتصوف فاعتكف بالجامع الأموى بدمشق، وصنف كتابه الأشهر (الإحياء) وقضى آخر عمره فى موطنه بطوس يوزع أوقاته بين مدرسة الفقهاء خانقاة الصوفية.

٣ - ويبدو أن تعاطف الغزالي مع التصوف قد بدأ فى أخريات تلمذته لإمام الحرمين، فيقال أن إمام الحرمين كان فى آخره يمتنع من الغزالي فى الباطن وإن كان يُظهر غير ذلك .. وربما منعت هيبه إمام الحرمين الغزالي من إعلان تصوفه، خاصة وأن الجويني - إمام الحرمين - كان يحتقر الصوفية، وقد قال فيهم (ما شغل هؤلاء إلا الأكل والشرب والرقص)^(١).

وبعد موت الجويني وخلو الجو للغزالي واشتهاره فى حاضرة العالم الإسلامى -بغداد- وتصدره للعلماء فيها- أعلن الغزالي تصوفه وألف كتابه «الإحياء».

٤ - بيد أن ذلك كله لم يكن عاصماً له من ثورة الفقهاء عليه، ومع أنهم كانوا دونه علماً وشهرة ونفوذاً إلا أنهم اقتوا بتكفيره وأحرقوا كتابه «الإحياء» فى مواضع شتى فى البلاد الإسلامية^(٢)، حتى اضطر الغزالي إلى تصنيف مؤلفات يرد بها على منكرى كتابه «الإحياء» ومنها «اشكالات الإحياء»، وفيه يقول مستهيناً بخصومه (أدلة الطريق هم العلماء ورثة الأنبياء، وقد شغل منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان)^(٣).

(١) البافعى روض الرياضين ١٤.

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١٠ / ١٠.

(٣) اشكالات الإحياء ٦٨ على هامش الإحياء.

د - وواجه الصوفية الإنكار على الغزالي وكان يأمرهم بالاعتقاد وهو المناداة،
ألى يدعون بها أن الرسول عليه السلام يؤيدهم ويأمرهم، ومع أن المناهات لا
تعد دليلاً عاملاً أو دينياً إلا أن حظوظها الدعائية في مواجهة الإنكار على الصوفية أمر
مقرر، خاصة وأنها تخاطب العامة وتقنعهم وتستقر في أعماقهم قروناً ..

وفي معرض الدفاع عن الغزالي حرمت المبادئ الصوفية على أن تجعل النبي
صلى الله عليه وسلم يبارك الغزالي والإحياء ويؤمنون المعترضين^(١)، وقالوا في أحد
المناجات أن الإمام «ابن حرزهم» الفقيه المذري كان قد بالغ في الإنكار على كتاب
الإحياء وهم بإحراقه فرأى الغزالي عند الرسول عليه السلام يقول له عن ابن حرزهم : يا
رسول الله هذا خصمي فخذ لي حقي منه، وأن النبي عليه السلام تصفح كتاب الإحياء
وأثنى عليه، وأمر بجلد «ابن حرزهم»، واستبقى الفقيه وأثر الجلد على جسده، وانتهت
الأسطورة بتصفوفه^(٢).

وابن حرزهم هذا لم يكن رأس المنكرين على الإحياء كما تصوره تلك الأسطورة فقد
كان ابن رشد^(٣) خصم الغزالي وزعيم المنكرين عليه في المغرب، أما ابن حرزهم هذا
فمجهول جعله الصوفية بطلاً في منام يحقق غرضهم .. ويقول «العبدروس» معلقاً على
إحراق كتب الإحياء في المغرب (روى السمعاني أن بعضهم رأى فيما يرى النائم كأن
الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المعبرين بدعة تحدث، فحدثت في جميع
المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه)^(٤).

وبعض الصوفية عوض الغزالي عن العنت الذي لاقاه من المنكرين فجعله مجدد
الإسلام على رأس المائة الخامسة^(٥).

٦ - ووصف الغزالي ما فعله خصومه بكتابه (الإحياء) فقال (طعنوا عليه ونهوا عن
قراءته ومطالعتة، وافتوا بإطراحه ومنابذته، ونسبوا مصلية إلى ضلال وإضلال، ورموا

(١) العبدروس : التعريف بالإحياء ١٢ ، ١٣ على هامش الإحياء.

(٢) العبدروس نفس المرجع ٩ : ١٢ . (٣) الشعراني : المرجع السابق ج١ / ١٠ .

(٤) التعريف بالإحياء ٢٩ . (٥) نفس المرجع ٣٤ .

منتحليه وقراءة بزيغ عن الشريعة^(١). وفي المقابل بالغ الصوفية في تقديس الإحياء، إلى درجة المقارنة بالقرآن الكريم، فاهتموا بحفظه بلفظه وتوارثوا التوصية به عند الموت، وقيل فيه (لو قلب أوراق الأحياء كافر لأسلم، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس).. وقال الإمام النووي (كاد الإحياء أن يكون قرآنًا)^(٢).

٧ - ويظل (إحياء علوم الدين) أخطر كتب الصوفية على الإطلاق .. وتكمن خطورتهم في أنه لم يكن كتابًا مقتصرًا على التصوف وحده كما فعل الطوسي في اللمع والقشيري في الرسالة قبل الغزالي، وكما فعل ابن عربي في الفتوحات المكية والفصوص فيما بعد ..

لكن العرالي عرض لشتى العلوم الإسلامية في عهده وأوردها في خدمة هدفه الأصلي وهو التصوف والعلم اللدني الذي يتمتع به الصوفية دون العالمين، ثم يعرض لعقائد التصوف في نواح متفرقة في ثنايا بحثه لموضوعات شتى قد تبدو بعيدة الصلة بالتصوف.

وأدرك الغزالي مطاعن الفقهاء في عصره^(*)، وتفوق عليهم بالمنطق والفلسفة فعرض في كتابه للموضوعات الفقهية بنظرة روحية، أعلي فيها من شأن العوامل الباطنة في أداء العبادات كالنية والرياء والإخلاص، وفي عرضه للفقه بهذا المنهج الجدي ينس التعريض بخصوصه الفقهاء الذين غالوا في استقراء الحركات الظاهرية .. الغزالي (يتكلم الفقيه في الإسلام فيما يصح وما يفسد وشروطه، ولا يلتفت إلا للسان، أما القلب فخارج عن ولاية الفقيه .. وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أ، بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها)^(٣).

(١)، (٢) نفس المرجع ٤٩ ، ١٥ إلى ٢٢.

(*) قال ابن الجوزي (كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون يكفيننا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن وأن نعتد على الكتب المشهورة في الحديث.. ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً وصار أعددهم يحتج بآية لا يعرف معناها ويحدث لا يدرى أصحح هو أم لا، وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم .. تلبس إبليس (١١٥).

(٣) الإحياء ج١/ ١٧.

واتخذ الغزالي من هذا المطعن سبيلاً إلى أن العقيدة وبحوثها تخرج عن إمكانات الفقيه وليس من رجالها، وبالتالي فليس في وسعه أن يفهم علوم المكافحة - أو عقائد التصوف - التي انفرد بها الصوفية .. وإذا تكلم النقيض في غير الدنيا - أي تكلم في صفات القلب وأحكام الآخرة - فقد تطفل^(١).

ثم ارتدى الغزالي ثوب الفقه فهاجم المتكلمين واعتبر هذا العلم من البدع^(٢)، وعلم الكلام ألصق بالفلسفة، ومعلوم أنه ألف في الفلسفة (بهافت الفلاسفة) ينقم فيه على «ابن رشد» اتجاؤه العقلي الأرسطي مع أن العقيدة الصوفية عند الغزالي مستقاة من الفلسفات الغنوصية اليونانية التي سبقت في شرح مقالة الاتحاد بالله .. ثم أن الغزالي كان يستعير أسلوب الفلاسفة في شرحه لعقائد الصوفية ..

واحتاج الغزالي إلى سند إسلامي يعزز به عقيدة الصوفية لوجود ضالته في الأحاديث الموضوعة وتأويل الآيات القرآنية، ويمتلىء (الإحياء) بالأدب الأدبي الضعيفة والموضوعة، وهو ما يتضح في تخريج الحافظ العراقي للأحاديث الواردة في الإحياء. هذا مع تعاطف العراقي مع الغزالي واستدلال الصوفية بأقواله في هذا الشأن. والواقع أن كثرة الأحاديث الباطلة في الإحياء كانت أهم المطاعن التي ووجه بها الغزالي ولم يجده نفعاً ما دافع عنه اتباعه^(٣).

إلا أن الغزالي في نهاية الأمر وقع في التناقض مع نفسه كفقيه وكصوفي .. والتناقض سمة أساسية من سمات الفكر الصوفي، وتتجلى أكثر عند أولئك الصوفية الذين يحاولون التوفيق بين الإسلام والتصوف كالغزالي والشعراني.

وتبقى الفائدة الكبرى للإحياء للعقيدة الصوفية. فالفقيه العادي يفاحاً بكلام جديد في الفقه يخاطب وجدانه ويناقش خطرات قلبه ووساوس الشيطان في نفسه فلا يسعه بعد ذلك إلا التصديق بمزاعم الغزالي عن العلم اللدني الذي أوتيته الأولياء الصوفية، ثم يؤمن

(١) الإحياء ج١/ ١٩

(٢) الإحياء ج١/ ٢٠.

(٣) التعريف بالإحياء ٢٧ : ٢٩.

بأن العلم درجات والفقه درجات، ثم ينتهى إلى الإيمان بأن العقيدة درجات أَدانها التوحيد الإسلامى وأعلاها فى وحدة الوجود، وهو نفس التقسيم الطبقي الذى قاله الغزالى فى الإحياء متابعاً «للجنيد».

عقيدة التصوف فى (الإحياء) :

البحث فيما فصله الغزالى فى عقيدة التصوف ومناقشته يستلزم مجلداً كاملاً .. إلا أننا سنقتصر على بعض النقاط التى تظهر وحدة العقيدة بينه وبين الجنيد - قبل الغزالى، ثم ابن عربى بعد الغزالى. وفيها يظهر أسلوب الغزالى المشيع بالفلسفة القائمة على التوفيق ..

أولاً : درجات التوحيد عند الغزالى ..

(أ) تابع الغزالى استاذَه «الجنيد» فى تقسيم التوحيد إلى درجات..

١ - يقول (التوحيد : القول فيه بطول وهو من علوم المكاشفة) أى أن الغزالى يسد الطريق مقدماً على الفقهاء وهم محرومون من العلم الذى يكشف الله به أولياءه، ثم يقول (للتوحيد أربع مراتب وهو ينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر :

فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين، **والثانية :** أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام، **الثالثة :** أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو نظام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار. **والرابعة :** أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً، وهى مشاهدة الصديقين، وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه فى توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق...).

٢ - ثم يشرح الغزالى فى ضوء ما سبق أنواع الموحدين، يقول (فالأول : موحداً.

بمجرد اللسان، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف .. والثاني : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه، ولم تضعف بالمعاصي عقده ... والثالث : موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً، إذا انكشف له الحق كما هو عليه، ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً، وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا إنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين .. الرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد^(١).

(ب) ولنا على الغزالي ملاحظات :

١ - أنه جعل للنفاق درجة في التوحيد وذلك ما لم يرد في مدرسة الجنيذ، ثم جعل التوحيد الإسلامي توحيد العوام، ويلمح إلى نوع من المقارنة بين الفريقين، فالأول يعصمه الإقرار بالتوحيد من الموت بالسيف أما الثاني فيعصمه اعتقاده القلبي من العذاب في الآخرة.

أما الصوفية فلا يابهون بالجنة أو بالنار (ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للنعيم العيني، وإنما مطالبنا للقاء ومهرتنا الحجاب فقط، وقالوا ومن يعبد الله بعوض فهو لثيم كأن يعبد لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبد لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط)^(٢).

ولسنا في مجال التعليق على ذلك النص الذي يجعل الصوفية أنداداً لله ويفضلهم على الرسل الذين كانوا يعبدون الله رغبة ورهبة، ويكفي أن نقرر أن ترفع الصوفية عن الجنة وسخريتهم بالنار تردد في مواضع شتى في الأحياء^(٣) كإحدى مظاهر عقيدة

(١) الإحياء ج٤/ ٢١١ : ٢١٢.

(٢) إحياء ج٤/ ٢٢.

(٣) إحياء ج٤/ ٢٢٧ : ٢٢٨، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢٦ مجرد أمثلة.

الاتحاد التي تسبغ الألوهية على الصوفية..

٢ - ارتقى الغزالي بعقيدته الصوفية إلى المرتبتين الثالثة والرابعة .. بينما جعل المنافقين والعصاة فى المرتبة السفلى ثم جعل صالحى المسلمين هم (العوام) فى المرتبة التالية، وحرم عليهم الصعود لمرتبة العقيدة الصوفية حتى ولو كانوا من المتكلمين والفقهاء زعماء « العامة »، ذلك لأن أساس العقيدة الصوفية فى المرتبة الثالثة قائم على الكشف أى علم الغيب، وهو للصوفية خاصة من دون الناس : يقول الغزالي عن المرتبة الثالثة (ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين) وشرح ذلك الكشف بقوله (وقد أنكشفت له الحقيقة كما هى، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين) ..

٣ - لم يجد الغزالي سنداً للعقيدة الصوفية إلا الكشف أو الوحي الذى يتلقاه الصوفى من لدن ربه، ومعنى ذلك أن هناك عقيدة جديدة نزلت من السماء تعلو فوق دين الله (الإسلام) .. ومعنى ذلك أن القرآن لم يشتمل على أسرار تلك العقيدة التى اختص بها الصوفية من دون الناس، ذلك أن القرآن والإسلام هما للعامة وزعمائهم من الفقهاء والمتكلمين، وهما فى الدرجة الدنيا فى تقسيم الصوفية ..

٤ - قرر الغزالي فى المرتبة الثالثة - أو المرتبة الأولى فى عقيدة الصوفية - وحدة الفاعل، ومعنى ذلك أن كل فعل يصدر عن البشر إنما يصدر فى الحقيقة عن الله تعالى، أى يسند أفعال البشر السيئة أو الدنيئة لله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً)، مع أن الله تعالى يقول (ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك .. النساء ٧٩)، والقول بالجبرية من أساس العقيدة الصوفية التى تجعل الله الروح المسيطر والكامن فى المظاهر الحسية، وذلك يتناقض مع الإسلام والشواب والعقاب والجنة والنار، وكلها فى نهاية الأمر لا تهتم الصوفية الذى يهتمون أساساً بالاتحاد أو التأليه.

٥ - ثم قرر الغزالي فى المرتبة الأسمى وحدة الوجود، أى أن الذوات على كثرتها ليست إلا وجوداً واحداً وذاتاً واحدة حتى أن الصوفى يفنى فلا يرى نفسه، وبالطبع لن يرى غيره، لأنه يرى الله فى كل شىء.

٦ - رغم ما واجهه الغزالي من إنكار فإنه لم يتخل عن عقيدته بل جعلها من مقامات التصوف عنده في كتابه (اشكالات الاحياء) الذي رد به على المنكرين، يقول في مقام المشاهدة : إنها (ثلاثة : مشاهدة بالحق، وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة للحق، وهي رؤية الحق في الأشياء، ومشاهدة الحق، وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب)^(١). فالمشاهدة الأولى : اسلامية، والثانية : تعبر عن الاتحاد، والأخيرة : عن وحدة الوجود المطلقة.

ثانياً : وحدة الوجود في الإحياء

استخدم الغزالي مهارته في الفلسفة والمنطق في شرح عقيدة وحدة الوجود، ولم يتورع عن المغالطة.

١ - فهو أحياناً يجعل المخلوقات أفعالاً لله ويخلط بين الأفعال والصفات الإلهية ثم يخلط بينها وبين الله، وذلك كله كي يحقق وحدة الوجود بين الخالق والمخلوقات : يقول : (فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره .. المستحق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى، أو ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله تعالى وأفعاله، ومن عرف الأفعال من حيث أنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره.. فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف لله تعالى وفعله وبديع أفعاله، فمن عرفها من حيث صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كانت معرفته ومحبه مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة سواه)^(٢).

أي أنه قصر الوجود على الله تعالى وأفعاله واعتبر العالم فعلاً لله تتجلى فيه ذات الله باعتبار أن الفعل صفة الله. وتناسى أن صفات الله قائمة بذاته لا تنفصل عنه. لذا قال تعالى (قل هو الله أحد) أي في ذاته وصفاته لم يقل (قل هو الله واحد) لأن (أحد) صنع النظير في الذات والصفات معاً.

(١) اشكالات الإحياء ٦٤.

(٢) إحياء ٢/٢٤٧ : ٢٤٨.

وهو أحياناً يخلط بين المخلوقات المخلوقة بقدرة الله تعالى والقدرة كصفة إلهية، ثم يخلط بين الصفة وذات الله تعالى يقول، وجميع موجودات الدنيا أثر من آثارة قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته، يلى لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود، ووجود الأشياء كلها فور من أنوار ذات الله تعالى (١).

أى أن الموجودات هى قدرة الله، وقدرة الله هى ذات الله. فوجود الأشياء كلها من أنوار ذات الله تعالى .. ثم يخلط بين أفعال البشر وأفعال الله التى يجعلها صفات إلهية. ويرى أنها -أى الصفات- هى الأصل الذى تصدر عنه أفعال البشر المصلحين يقول (والحداد يصلح آلات الحزائة والنجار يصلح آلات الحداد، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف) (٢).

فهنا تدرج يبدأ بالحداد والنجار وينتهى بالله -وليس ثمة فارق فى النوع عنده وإنما الفارق فى الترتيب، إذ كل الموجودات صدرت عن الله وأفعالها ترجع فى النهاية إليه حسب عقيدة وحدة الوجود التى تجعل الجمال الإلهى يشمل كل الكائنات ويبدو فيها وتعبير عنه، يقول (وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة، وفى غاية الإيضاق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واخفى عن البصائر والإبصار بظهوره) (٣).

أى لأن الناس من غير الصوقية لا يقولون بهذا الرأى ولا يرون الله فى مخلوقاته الظاهرة فقد خفى عنهم بشدة ظهوره فى الموجودات، وهم لا يرونه لأنهم محجوبون، واستشهد الغزالى على ذلك بقول الشاعر الصوفى (٤).

- | | |
|---------------------|---------------------|
| (١) أحياء ج٤ / ٣٧٠. | (٢) أحياء ج٤ / ١٠٤. |
| (٣) أحياء ج٤ / ٢٧٦. | (٤) أحياء ج٤ / ٢٧٧. |

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمر
لكن بظنت بما أظهرت محتجاً فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

أما الصوفية فلا يرون في الوجود المادي والمعنوي، إلا الله ولا يرون الله إلا في هذا الوجود أو بتعبيره (فلم يروا في الكونين شيئاً سواه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم)^(١).

٢ - ولأن عقيدة وحدة الوجود لا ترى فارقاً نوعياً بين الله والمخلوقات فقد مثل الغزالي لنظريته وبرهن عليها بما في مظاهر الكون من كثرة وتعدد في الشيء الواحد ليطبق ذلك على الله باعتباره مع الكون المخلوق وجوداً واحداً..

يقول عن الإنسان (الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول أنه إنسان واحد، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أسمائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق، وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد، وباعتبارات أخرى سواء كثير)^(٢).

فهنا مقارنة بين الله والإنسان، فكما أن الإنسان واحد لمن ينظر نظرة سطحية إلا أنه أيضاً متعدد بأعضائه وجوارحه وخلاياه .. وكذلك يكون الله واحداً باعتبار وكثيراً باعتبار آخر .. هكذا يبرهن الغزالي على وحدة الوجود متمسكاً أن الله تعالى قال (ليس كمثله شيء .. الشورى ١١) ..

ويقارن الغزالي بين أفعال الله وصفاته والشمس والماء ويقول (كما أن قوام نور
(١) إحياء ج٢/٢٣٦.
(٢) إحياء ج٢/٢١٢ : ٢١٣.

الأجسام بنور الشمس المضئقة بنفسها، ومنها أن كشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه، ويمكن النفاذ إليها فيكون الماء واضطه يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها، فكذا إلى الأفعال وأسرار تشاهد فيها صفات الفاعل، ولا تنبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها: (أسطة الأفعال) (١).

٣ - ثم يتهرب الغزالي من الاستدلال على عقيدته بما جاء في كتاب الله، ويعلم أن أسرار هذه العقيدة الدينية محظور أن تسجل في كتاب، وأن من فعل ذلك فقد كفر، ثم أنها لا تتعلق بالفقه وأحكامه القنوية: (فإن قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفة، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إقتضاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المحاملة (٢) أي الفقه).

٤ - ومن خلال (وحدة الوجود) نظر الغزالي إلى عقيدة الاتحاد، والصوفي المتحد بالله، فقرر تعريف الصوفي على من يؤمن بوحدة الوجود ومن بنا قوله عن الصوفية (قلم يروا في الكونين شيئاً سواه) (٣)، وفي معرض حديثه عن شكر الله تعالى قال عن الصوفية (إن نظر بعين التوحيد المحض (يعني وحدة الوجود)، وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المصحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره) .. فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره، وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور وهو المصحب وهو المحبوب، ومن هنا نظر «حبيب ابن أبي حبيب» حيث قرأ (أنا وجدناه صابراً نعم العبد أنه أواب) فقال: وأعجابه أعطى وأثنى، إشارة إلى أنه إذا اثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني والمثنى عليه، ومن هنا نظر الشيخ أبو سعيد المهندي حيث قرىء بين يديه (يحبههم بهجونه) فقال: لعمرى يحبههم ودعه يحبههم فبحق حبهم لأنه إنما يحب نفسه، إشارة إلى أنه المحب هو المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال علي حد عقلك. فلا يفتنى عليك أن المصنّف إذا أحب

(١) احياء ج ٤ / ٣٧٠.

(٢) احياء ج ٤ / ٢١٢ : ٢١٣.

(٣) احياء ج ٢ / ٢٣٦.

تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعتة فإن أحبه فما أحب إلا نفسه^(١).

ومعنى ذلك أن الكافرين -وهم أيضاً صنعة الله- يتمتعون بحب الله باعتبارهم جزءاً منه .. وهو خطأ، لأن الله تعالى يقول لهم -مثلاً- (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون .. غافر ١٠)، ولكن الغزالي -كما أسلفنا- لإيمانه بوحدة الوجود فلا يرى بأساً فى تمثيل الله تعالى باليشر، ثم يقول الغزالي ليربط بين الاتحاد الصوفى ووحدة الوجود والإيمان بها (..) وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس، أى فنى عن نفسه، وعن غير الله، فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم^(٢).

٥ - ووحدة الوجود هى الأصل فى عقيدة الحلول، والحلول هو اتحاد الله بالصوفى، والاتحاد هو استغراق الصوفى فى الله، أى أن الحلول هو الصورة السالبة للاتحاد.. يقول الغزالي عن وحدة الوجود (وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تهوم، وتارة تطرأ، كالبرق الخاطف، وهو الأكثر، والدوام قادر عزيز^(٣))، وذلك المعنى قريب من شعور الصوفى بحلول الله فيه .. والحلول على قدر درجة الصوفى وتحمله. وقد اصطنع الغزالي أسلوب القصص فى شرح الحلول..

يقول : مثلاً (كان إبراهيم بن أدهم فى سياحته فسمع قائلاً يقول :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عني.

قد وهبنا لك ما فات فهب ما فات منّا.

فاضطرب وغشى عليه فلم يفت يوماً وليلة وطرأت عليه أحوال، ثم قال : ثم سمعت النداء من الجبل : يا إبراهيم كن عبداً. فكنت عبداً واسترحت^(١). فإبراهيم بن أدهم سمع بزعمه شعراً اتحادياً فغاب عن طبيعته البشرية (وطرأت عليه أحوال) ثم ناداه ربه

(١)، (٢) أحياء جزء ٧٤/٧٤.

(٣) أحياء جزء ٢١٣/٢١٣.

وارجعه إلى بشريته فاستراح .. فهنا حلول مستمر يوماً وليلة ..

ويقول (حكى أبو تراب النخشبى أنه كان معجباً ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه .. فقال له أبو تراب مرة : لو رأيت أبا يزيد ؟ (البسطامى) فقال : إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد. فقال : ويحك، ما أصنع بأبى يزيد؟ قد رأيت الله تعالى فأغثنى عن أبى يزيد، قال أبو تراب: فهاج طبعى ولم أملك نفسى، فقلت : وملك تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان انفع لك من أن ترى الله سبعين مرة، قال فبهت الفتى من قوله وانكره فقال : وكيف ذلك؟ قال له : وملك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك علي مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره، فعرف ما قلت فقال : احملنى إليه، وتمضى الأسطورة فيموت المريد صعباً عندما يرى أبا يزيد البسطامى، ويفسر أبو يزيد موت المريد بقوله (كان صاحبكم صادقاً واستكن فى قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، لما رآنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه فى مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك) (٢).

أى أن حلول الله فى المريد يختلف عنه فى الشيخ، فالحلول درجات، والصوفى إذا تحمل حلولاً فوق طاقته فقد يهلك أو يفقد عقله كما حدث فى رواية أخرى سبكه الغزالى (روى أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته (أى عقيدة الصوفية فى الاتحاد والحلول)، ففعل ذلك، فهام فى الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه تعالى، فقال : يارب أنقصه من الذرة بعضها، فأوحى الله إليه : إنما أعطيتناه جزءاً من مائة ألف جزء من ذرة المعرفة، وذلك أن مائة ألف عيد سألونى شيئاً من المحبة فى الوقت الذى سألنى فيه هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبته فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتهم، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عيد فهذا ما أصابه من ذلك، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين، انقصه مما أعطيتهم، فأذهب الله عنه جملة

(١٢) احياء ج٤/ ٢٨٧ : ٢٨٨

(٢) احياء ج٤/ ٣٠٥

الجزء وبقي معه عشر معشاره .. فاعتدل خوفه وحبه وسكن وصار كسائر العارفين^(١).
وبهذه الطريقة الملتوية يحاول الغزالي أن يجد سنداً لعقيدة الحلول فيما حكاه عن
ربه من وحى الله الذى اختص به الصوفية، فيسأله يزعمون، والله تعالى يقول .. (ومن اظلم
ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء .. الأنعام ٩٣).

تمحيب على الغزالي ووحدة الوجود

أ) بالغت بعض الفلسفات فى وثنيتهى إلى دجة إنكار وجود الله تعالى .. وتطرفت
لفلسفات أخرى فى الرد فادعت أن الله موجود فى كل شيء أو أنه مصدر الوجود وأن
الأعيان صور للموجود الأكبر يتراعى فيها.

ب) وكانت مصر والشام والعراق مراكز للفلسفات اليونانية والشرقية بمذاهبها
المتعددة من وثنية والهة. وقد سبق للفلسفة أن عمقت الخلاف بين المسيحيين حول
طبيعة المسيح، وأصبحت الفلسفة جزءاً من المسيحية، وعند الفتح خفت صوت الفلسفة
ثم استيقظ فى صورة جدال احتدم بين المسلمين والمسيحيين فى عصر المأمون، واضطر
المسلمون لتعلم الفلسفة كى يردوا بها على المسيحيين الذين حذقوا أساليب الفلاسفة
فى الجدال والسوفسطائية.

كان يمكن لهم الاستغناء بالقرآن الكريم، وقد حوى كثيراً من الحوار مع أهل
الكتاب، إلا أنهم وقد تعلموا الفلسفة فقد وقعوا فى هواها. وعملت الفلسفة على بعث
المذاهب الدينية القديمة وأهمها وحدة الوجود ..

وقد تعلم الغزالي الجدال والمنطق والحكمة والفلسفة وبرع فيها وصنف. وأشرب حب
الفلسفة ووجد صداها فى التصوف، فأمن به وعلا به إلى ذروة الإسلام محاولاً التوفيق
بين الحق والباطل متعللاً بشتى الحجج مستفيداً بالفلسفة وما أشاعته من أفكار خاطئة
حظيت مع الأسف بالتسليم، ومنها أن الإسلام دين وسط بين الكفر وهو إنكار وجود الله،
والشرك وهو الإيمان بتعدد الآلهة ..

يقول الغزالي (التوحيد مسلک حق بين مسلكين باطلين، أحدهما الشرك والثانى
الإلbas، وكلا الطرفين وسط، والوسط إيمان محض وهو أحد من السيف وأضيق من خط

(١) احياء ج ٤/ ٢٨٨

الظلم، ولذا قال أكثر المتكلمين بتهافت الإنسان بتبصير المؤمنين والملائكة .. إلخ^(١).
وعجيب أن شديد الغزالي برأى المتكلمين وهم أكثر الطوائف تمرداً لنقصته وكراهيته في
الإحياء .. ولكنه التأثر بالفلسفة وذلك جمع بينهما ..

ج) ونرد على الغزالي ووحدة الوجود بتقرير الحقائق التالية : عقيدة الإسلام
-لا يمكن أن تكون فيها توسط فهي شهادة بأسلوب قصور- أي قصر الإلهية على الله
تعالى وحده. وما عدا الله الحق من آلهة فهو باطل (فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد
الحق إلا الضلال؟؟ يونس ٣٢).

ففقضية التوحيد لا تحتل السرى الوسط بأي حال .. فلما إيمان كامل بالله
المسيطر على كل شيء الذي لا شريك له من ولي أو رسول .. وإما شرك أو كفر، وقيل
الشرك يحول الإيمان كله إلى شرك، فلما إيمان كامل بالله وحده إلاناً وإما لا
فالمشركون كانوا يؤمنون بالله ولكنهم اشركوا فعبدوا معه الأولياء والوسائط فخرجوا عن
عقيدة التوحيد ويؤنبهم الله تعالى في الآخرة بقوله (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم
وأن يشرك به تؤمنوا. غافر ١٢). فهم لم يؤمنوا بالله إلا مع الآلهة والأولياء كوسائط
فأصبحوا كفاراً.

٢ - الشرك لا يختلف عن الكفر في المفهوم ودليلنا بالإضافة للآية السابقة قوله
تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ..
التوبة ١٧). فاقترن اللفظان في أكثر من موضع بعبادة الله وعبادة الأولياء والأصنام
والكفر) ومعناه التغفية والستر أي أنهم ستروا بشركهم عقيدة التوحيد التي فطر الله
الناس عليها ..

٣ - الإنسان في حقيقة أمره لا يمكن أن ينكر وجود الله، قد يتنسك بالشرك ولكنه
إذا صدق مع نفسه لعظمة لايقن عهث وجوده بمعزل عن قدرة الخالق، فالله هو الأساس في
عقيدة البشر، وكل ما هنالك أنهم نسوا عهد الله الأزل فاشركوا وعبدوا معه الوسائط،
قال تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست
بربكم؟ قالوا بلى شهدنا.. الأعراف ١٧٢). فالشرك فطروا على الإحلام مذ كانوا أنفساً

(١) إشكالات الإحياء : ٧٧.

قبل الوجود الحسى. أو بمعنى آخر فطرهم على الحنيفية (أقم وجهك للدين حنيفاً، فطرت الله التي فطر الناس عليها. الروم ٣٠).

وكل إنسان يولد على الفطرة مسلماً ثم يأتى أبواه والمجتمع فيتعرف على الشرك. ولا محل لإنكار وجود الله الذي أشاعته الفلسفة اليونانية جدلاً بغير حق. فلم يحاول القرآن مطلقاً أن يدل على وجود الله، وإنما برهن على وحدانيته وعبث الإشراك به..

٤ - ومن نافلة القول أن لناقش مذهب وحدة الوجود الذى يخلط بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب ، ويجعل فى الإله صفات البشر الرذيلة والقبیحة على أساس وحدة الفاعل. ولكن نكتفى بتقرير أن جميع المذاهب قالت بشنائية الوجود أو الوجود الإلهى والوجود المخلوق .. إلا أن الصوفية خلطوا بين الوجودين وجعلوهما وجوداً واحداً أى وحدة الوجود، وهذا غاية فى الشرك والكفر إذا جعلوا الآلهة تتعدد بتعدد الموجودات من بشر وحجر وحيوان وجماد ..

ومشركو قريش أهون حالاً، فقد قالوا بالاتحاد فقط، وقصروه على الملائكة حين اعتبروها بنات الله، ونعى عليهم القرآن ذلك (وجعلوا له من عبادہ جزءاً إن الإنسان لكفور مبين، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين .. الزخرف ١٥، ١٦).

أما الصوفية فقد قصروا الاتحاد على أنفسهم ثم تكرموا مع الكون فاشركوه فى الألوهية، وجاء الغزالي ليفنعننا بأن ذلك هو التوحيد المحض الذى لم يرد فى كتاب ومحظور أن تفضى أسرارہ، وأن إسلامنا ما هو إلا الدرجة السفلى الذى لا يليق إلا بالعوام، وانتصرت دعوة الغزالي لأن الصراع بين عقيدتى الإسلام والشرك مستمر باستمرار التاريخ الإنسانى، ولكل عقيدة جولة، وقد انتصر الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم أبى بكر وعمر على اتباع الشرك وتمت نصرته بدولته، ولكن لكل شيء إذا تم نقصان ..

وبدأت حتمية الصراع تفرض نفسها، وعاد التصوف ممثلاً للشرك حاملاً رداء الإسلام وإسمه متسامحاً مع عقيدته إذ جعلها فى الدرجة السفلى، وتم النصر له بزعامة الغزالي الذى أصبح (حجة) للتصوف على (الإسلام) .. لأنه وفق بينهما لصالح التصوف..

*** الباب الأول**

مراحل العقيدة الصوفية

وتطورها في مصر

*** الفصل الثاني :**

- (المرحلة الثانية للعقيدة الصوفية).

*** مدخل : ازدهار التصوف**

أولاً : في عصر الغزالي.

ثانياً : ازدهار التصوف بعد الغزالي.

*** ابن عربي ووحدة الوجود في كتابه «الفصوص».**

*** ابن الفارض في مصر.**

الباب الأول

الفصل الثاني

المرحلة الثانية من بعد الغزالي

إلى ابن عربي ت ٦٣٨ هـ

ازدهار التصوف - إعلان ابن عربي لوحدة الوجود

« مدخل :

١ - استطاع « الجنيد » وتلاميذه الحفاظ على رفق للتصوف عاش به وسط النفوذ الحنبلي الذي سيطر على الخلافة العباسية منذ عهد المتوكل العباسي، ذلك الخليفة الذي أوسع للحنابلة في سلطانه فاضطهدوا الشيعة والصوفية وأهل الكتاب، ثم ضعفت قبضة الخلافة العباسية، وظهرت ولايات مستقلة في إطار الدولة العباسية، وتكاثر الأمراء والمتغلبون داخل بغداد وخارجها، وانتشرت الاضطرابات السياسية، وتكاثر الظلم، وبنفس القدر ازداد أتباع التصوف وكثرت مدارسهم وتشابكت وسائل الاتصال بينهم عبر الأقطار والولايات، فازدهرت السياحة الصوفية تنشر المبادئ والأفكار والأخبار والمنامات والكرامات، وتجذب طوائف العوام، وأصبح المتغلب على الحكم في الولايات والدويلات يضيق بالفقيه الحنبلي الذي يقول هذا حرام وهذا مكروه، وأضحى يميل إلى الشيخ الصوفي الذي يحرق له البخور ويرى كل الأفعال (صالحة أو طالحة) مصدرها من الله ولا سبيل للإعتراض عليها، ومن هنا بدأ التحالف بين الصوفية والحكام، ونما تيار التصوف برعاية الحكام ودخول أفراد العوام ليصيروا شيوخاً بدون تعب في طلب العلم الظاهر، وإنما بمجرد ادعاء الولاية وترديد أقوال الشطح وعقائد التصوف. ويكفيهم أن الغزالي شيخ الفقهاء والمتكلمين والصوفية هزم الفقهاء والمتكلمين، ويكفيهم أن المرحلة الأولى بدأت بنفاق « الجنيد »، ثم تحول النفاق -بالغزالي- إلى وفاق بين الإسلام والتصوف.

٢ - وشهدت المرحلة العانية تحويل الفقه بين (الإسلام والتصوف) إلى تدعيم لإنتصار التصوف بنصر آخر يتخفف من (نواقح الجنيد)، ومن (حس الغزالي) ومغالطاته ومحاولاته للتوفيق بين الإسلام والتصوف. وذلك بإعلاء عقيدة صريحة صراحة في وحدة الوجود. وهذا ما فعله ابن عربي وابن الفارض.

٣ - وكان منتظراً أن يواجه الفقهاء هذا التطور بالإشارة إلى الاحتجاج، ولكنه إنكار انتهى إلى أثر عكسي، في النهاية، إذ أصبح الفقهاء الذين يحاكمون ويضطهدون الفقهاء المنكرين، مع أن أولئك الفقهاء المنكرين ساروا على نهج الغزالي في تقرير مبدأ التصوف وقصر الاحتجاج على صرحاء الصوفية وشراحانهم. ولكن المرح السياسي والاجتماعي اختلف، فالحكام مع الصوفية، والطرق السوفية بدأت تتغلغل في الشارع والمجتمع، والأولياء الصوفية أحياء وأمواتاً صاروا مدعماً للتقديس والتوسل والتبرك، ثم إن الفقهاء في أغلبهم، أصبحوا صرعى للجهل والتمني، أصبحوا فقهاء ما اذهب، يتبعون الأئمة السابقين دون أن يظهر بينهم مجتهد كالأئمة السابقين، أي أصبحوا أسرى لدعوة الغزالي في قفل باب الاجتهاد وفي التدين بالتصوف .. وبالتالي كانوا أسرى لشيوخ التصوف، فإذا احتجوا عليهم وثاروا كان سهلاً أن يقفوا أمامهم في قصص الاتهام ليقوم فقهاء آخرون من القضاة بمحاكمتهم بتهمة العيب في الذات انصوفية، باختصار أصبح التصوف هو التدين السائد منذ العصر المملوكي، ذلك العصر الذي بدأ بعد موت ابن عربي بعشر سنوات، وفيما يلي تفصيل ذلك كله .

* ازدهار التصوف ..

أولاً : في عصر الغزالي :

مر بنا أن القشيري أنكر على عوام الصوفية مقاتلتهم في الاتحاد بالله وإتقانهم المحرمات مع تركهم المفروضات .. وإن ذلك دفعه لكتابة (الرسالة القشيرية) لهم حتى يدافع عن مبدأ التصوف الذي يواجه إنكار الأعداء من الفقهاء ..

١ - وعلى نفس الطريق سار الغزالي ينكر على أوباش الصوفية في عهده أن يتسبها بالأولياء السابقين في دعاويهم ويهمنا أن هذا التيار الصوفي كان في ازدياد في

عصر الغزالي إلى درجة أجبرته على أن يتصدى نه بالإنكار في كتابه (الإحياء)، مع أن الغزالي وهو الفيلسوف الحصري يدرك أنه بذلك يناقض نفسه، إذ كيف يقرر عقائد الصوفية في صفحة ثم ينكر على بعض الصوفية التلطف بتلك العقائد في صفحة أخرى .. ومعنى ذلك أن الغزالي قد اختار أهون الشرين ففضل الوقوع في التناقض مع نفسه -وهو ينكر على الصوفية تطبيق عقيدته- على أن يدع غيره من الأخصام يتولى الإنكار عليهم وعلى التصوف فيتجاوز بالإنكار إلى حد يخشى من الوصول إليه، وهكذا بادر الغزالي فسحب البساط من تحت أرجل الفقهاء، وأنكر على طائفة من الصوفية في عدة أسطر، بينما ملأ صفحات من كتابه في الإنكار على الزهاد والعباد والفقهاء والمتكلمين وأصحاب الحديث في أمور سلوكية لا تمس العقيدة ولا ينجو منها أى إنسان مهما كان.

٢ - يقول الغزالي عن بعض الصوفية (طائفة إدعت علم المعرفة (الاتحاد) ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب (تلك اصطلاحات الصوفية عن الاتحاد بالله)، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسمى والألفاظ، لأنه تلقف من الفاظ الطامات (يقصد الشطح) كلمات، فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوليين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته فيلازمهم أياماً معدودة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العبادة (جمع عابد) إنهم أجراء مُتَعَبُونَ (يعنى يعملون بأجر فاتعبوا أنفسهم ولو ادعوا الاتحاد لسقط عنهم التكليف واستراحوا) ويقول في العلماء أنهم بالحديث عن الله محجوبون (يعنى أن العلم الظاهر حجاب يعوق العلم اللدنى الذى يصل للصوفى من الله بلا واسطة)، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفُجَّار المنافقين(١) ..

أى أن عصر الغزالي شهد كثرة من الأولياء الصوفية جاهرُوا بعقيدتهم وتكاثر حولهم

الأتباع من جميع الطوائف (حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته) ويردد كلامهم. وإن الأمر استشرى حتى أثار الاستياء والإنكار، فاضطر الغزالي للتصدي لهم منكرًا عليهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الذي هو قصر على الأعيان دون الأرباش ..

٣ - والشمطع الذي قُتل به الحلاج في القرن الثالث واضطهد بسببه أعيان الصوفية الأوائل انتشر وأصبح ظاهرة في عصر الغزالي إلى درجة أجبرته على التعرض له، مع ما في ذلك من تخرج مبعثه اشتهاً أئمة التصوف بقول الشطحات، ونكاد نحس بالغزالي ماشيًا على الشوك وهو يقول (الشمطع : نعني به صفتين من الكلام أحدثه بعض الصوفية، أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة (يعنى دعوى الاتحاد التى تسقط التكليف)، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد بالله وارتفاع الحجاب والمشاركة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا أو قلنا كذا (يعنى ادعاء الوحي والعلم اللدني والكشف) ويتشبهون فيه بهالحسين بن منصور الحلاج الذى صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله : أنا الحق. وما حكى عن أبى يزيد البسطامي أنه قال : سبحانى سبحانى، وهذا فن من الكلام، عظيم ضرره فى العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة عن الأعمال مع تزكية النفس يدرك المقامات والأحوال، فلأ تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب والجدل عمل النفس، وهذا الحديث (يعنى الاتحاد) لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق، فهذا ومثله مما قد استنظار فى البلاد شروره، وعظم فى العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى، وإن سمع ذلك منه فلعلة كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه، كما لو سمع وهو يقول : إئتى أنا إله لا إله إلا أنا فاعبدنى، فإنه ما كان ينبغى أن يفهم منه إلا على سبيل الحكاية، الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر

رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلّة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريقة التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيفة^(١).

أي أن القسم الأول من الشطح أحدثه الصوفية، والقسم الثاني تابعهم فيه غيرهم (بكلمات غير مفهومة) لقائلها أو يفهمها ولكن لا يقدر على تفهيمها وإيرادها) بنفس ما يفعل الغزالي في تقريره لعقائد الاتحاد في كتاب الإحياء ..

والمهم أن عصر الغزالي أصيب بوباء الشطح حتى (ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم) وتصوفوا بمجرد نطق كلمات منه .. ولم يعدوا مواجهة الإنكار عليهم بما اعتناه الصوفية في الرد على المنكرين من أن (العلم حجاب والجدل عمل النفس) وأن الاتحاد (لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق) ..

ولأن وباء الشطح (استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره) فقد اضطر الغزالي إلى الإفتاء بأن قتل الواحد منهم أفضل (من أحياء عشرة) ولم يفتحه مع ذلك الاعتذار عن البسطامي بعذر هو أقبح من الذنب ..

٤ - وقد صنف الغزالي كتابه (الإحياء) وهو شاهد على عصره الذي استشرت فيه عقائد التصوف، وانطلقت فيه الألسنة بالشطح تعبر عن الاتحاد بالله وعشقه إلى درجة أفزعت الغزالي نفسه، فهب يدعو لقتلهم في سبيل المصلحة العليا، وهي الصلح والاتفاق بين الإسلام والتصوف .. ولكل صلح ضحايا ..

والغزالي كعالم وفيلسوف وأحد الخاصة المقربين من الحكام .. لا يرى بأساً في التضحية ببعض أجيال الصوفية على مذبح معاهدة الصلح التي يشهدها .. ومعنى ذلك أن حصيد التصوف من طائفة العامة قد كثر وفاض إلى حد ازعاج الغزالي نفسه، فاستنكف أن يوضع في خندق واحد مع طغام الفلاحين والحائكين، وفي نفس الوقت - ويا

(١) إحياء ج ١/ ٣٢.

للمفارقة- فقد جعل هذا الرصيد من الغزالي متحدثاً باسم هذا القطيع من البشر يفلسف لهم عقائدهم ويضفى عليهم أواصر الصلة بالإسلام .. ولا أدل على ذلك من أن الغزالي انتصر بهم على خصومه من الفقهاء الذين ثاروا عليه بعد كتابة (الإحياء)، فأصبح الغزالي بالعامّة أكثر جرأة وصنف في التصوف (مشكاة الأنوار)، الذي أعلن فيه بصراحة عقائد التصوف من خلال وحدة الوجود، وتتابع كتّاباته، ولولا العامة ما كانت شهرته وشهرة مصنفاته حتى اليوم ..

٥ - ثم انقلبت الآية وتوجه الغزالي نحو العامة، وعمل على أن تضيق الفجوة الثقافية بينه وبينهم، فعمل على إلغاء الاجتهاد وأنه (ليس من الإمكان أبدع مما كان) .. وطبق ذلك عملياً في (طوس) حين أبتنى مدرسة للفقهاء بالمفهوم الجديد إلى جانب خانقاة للصوفية، وعاش بقية عمره يشرف على المدرسة والخانقاة ليصبح الفقه والفقهاء في خدمة التصوف المعبر عن دين العامة الجديد.

وإذا دخلت العامة في التصوف .. وانقرض كبار الفقهاء بتقرير التقليد وينفى الاجتهاد وتضاؤل الفارق بين العالم والعامي - فمعنى ذلك كله دخول التصوف بالغزالي إلى عصر الإزدهار المضطرب، خاصة إذا كان ذلك التصوف لا يناقض الإسلام كما أشاع الغزالي فصدقه، وكيف لا .. والاجتهاد محرم والتقليد سيد الأخلاق ..

ثانياً . ازدهار التصوف بعد الغزالي :

١ - شهدت هذه الفترة بدايات الحروب الصليبية التي انهكت العالم الإسلامي وأتاحت في نفس الوقت الفرصة لظهور تيار التصوف متحرراً من الضغط القوي الذي اعتاده قبلاً، وقد استفاد بجهد الغزالي كما استفاد الغزالي به، وقد رأينا كيف أن عقيدة الصوفية قد استشرت حتى وصلت إلى الفلاحين والعوام فاعتنقوها، ووصل تأثيرها إلى درجة يمكن معها اعتبار الغزالي معبراً عنها وعن معتقبيها من الخاصة والعامة ..

٢ - وبديهي أن يستثمر الصوفية جهد الغزالي والإضطراب الذي خلقته الحروب الصليبية في الديار الإسلامية مع ضعف الحكام واشتداد ظلمهم واستبدادهم وحاجتهم

إلى مؤيد منافق لا إلى فقيه ورع يوصى بالحق ويامر بالشرع. وتهيأ الصوفية لوراثته المكان الذي احتله الفقهاء قبله في عصور الخلفاء الأقوياء من بني العباس. وابتدأت الصلات تتوثق بين الحكام والصوفية. وتجسد ذلك في انتشار الأريطة والخوانق للصوفية يقيمها لهم الأمراء والحكام .. ومرجعنا في التأريخ لهذه الفترة هو ابن الجوزي، الذي غاصر الصوفية فيما بعد الغزالي وصب عليهم أكثر نقمته في كتابه (تلبيس إبليس) ..

يقول بحسن نية مقارناً الصوفية السابقين وصوفية القرن السادس (كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين فصاوا أصدقاء)^(١) وابن الجوزي يحسن الظن بأوائل الصوفية ويرى في تباعدهم عن الحكام ورعاً، ولا يدرى أنه الخوف من الإضطهاد .. ثم يصف معيشة الصوفية الهانئة في البيوت التي أقامها لهم الحكام فيقول (رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأريطة من كد المعاش متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم ولا يتورعون عن عطاء ماكس، وأكثر اريطتهم قد بناها الظلمة وأوقفوا عليها الأموال الخبيثة، وأكثر زمانهم ينقض في التفكه بالحديث أو زيارة أبناء الدنيا، فإذا أفلح أحدهم أدخل رأسه في زمرانقته (يعني ياقته من الداخل) فغلبت عليه السوداء فيقول : حدثني قلبي عن ربي)^(٢) وخارج الأريطة عاش الصوفية عالة على أموال الحكام، يقول ابن الجوزي :

(ولقد بلغنا أن بعض الصوفية دخل على بعض الأمراء الظلمة، فوعظه فأعطاه شيئاً فقبله، فقال الأمير : كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف .. وقد دخلت بعض الأريطة فسألت عن شيخه فقيل لي قد مضى إلى الأمير فلان يهنئه بخلة وقد خلعت عليه، وكان ذلك الأمير من كبار الظلمة فقلت : ويحكم ما كفاكم أن فتحتم الدكان حتى تطوفون على رؤسكم بالسلع ..)^(٣)

وقد شهد عصر الغزالي تأسيس بيوت للصوفية عالة على المجتمع، وتردد ذلك في الإحياء، ومنها قوله الذي أوردناه عن الفلاحين أصحاب الشطحات .. فإن هذا الكلام

(١) تلبيس إبليس ١٦١. (٢) تلبيس إبليس ١٦٩ : ١٧٠.

(٣) تلبيس إبليس ١٧٩ : ١٨٠.

يستلذه الطبع إذ فيه البطالة عن الأعمال^(١) إلا أن بيوت الصوفية انتشرت بعد الغزالي ورعاها الحكام والمياسير..

٣ - ولا ريب أن معيشة الصوفية الهائلة في الخوانق -دون عمل أو تعرض للظلم -كان أكبر دافع للعامة في انخراطهم في سلك التصوف .. إلا أن الخوانق لم تكن الإغراء الوحيد الذي قدمه الصوفية للعامة .. فالسماعات الصوفية وما فيها من رقص ولهو احتذبت طائفة من العوام تعشق هذا اللون : يقول ابن الجوزي (التصوف طريقة كان ابتدأها الزهد الكلى، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب)^(٢).

ثم سلسلة الإباحات التي اشتقت عن عقيدة الاتحاد بالله مثل اسقاط الفرائض الإسلامية كالصلاة والصيام .. ثم لم يكتف بعضهم بذلك فأغرى النسوة والصبيان باتباعهم (واستمالوا النسوة والمردان بتصنع الصور واللباس، فما دخلوا بيتاً فيه نسوة فخرجوا إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن) (ثم يقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبى الأموال .. ويستصحبون المردان في السماعات .. يجمعونهم في الجموع مع ضوء الشموع، ويخالطون النسوة الأجانب ينصبون لذلك حجة الباسهين الخرقية) وأولوا المحرمات بغير اسمائها فنطق الكفر يسمى شطحاً (وأن قبّل امرءاً قيل رحمة، وإن خلا بأجنبية قيل بنته وقد لبست الخرقية)، وفي النهاية فالشيخ (لا يعترض عليه)^(٣). وفي هذا الجو الإباحي أسرع العامة على اختلاف طوائفهم إلى اعتناق التصوف ..

يقول ابن الجوزي (وقد اندس في الصوفية أهل الإباحة فتشبهوا بهم حفظاً لدمائهم وهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : كفار لم يجدوا شيئاً يحقنون به دماءهم ويستتروا به

(١) إحياء ٣٢/١٤. (٢) تلييس إبليس ١٥٥ : ١٥٦.

(٣) تلييس إبليس ٣٦٠ : ٣٦١.

وينالين فيه أغراض السوس كتمذهب التصوف، فاجتعلوا فيه ظاهراً، وهم في الباطن كفرة..(١).

٤ - ونلج في قوله السابق تأثراً بالوضع الذي يد الأس خلفه الغزالي حين جعل التصوف مذهباً اسلامياً .. حتى أن ابن الجوزي رغب كثره إنكاره على صوفية عده، يخاطبهم كمسلمين، فحين يحتاج عليهم تصديهم من الظلم، يزل لهم (والله إنكم أنس على الإسلام من كل مضر)(٢). أي أنهم طائفة إسلامية متصوفة يعز بالسلام انهم رافيا، وقد سار الإنكار على الصوفية في هذا الطريق في عصر ما بعد الغزالي، مجرد إنكار على الأشخاص المعاصرين، مع الإشادة بمناقب السابقين. نصح اللاعن بالناسي بهم، حتى أن ابن الجوزي كان، يستشعر الحرج في تعرضه لأشياخ التصوف المتبعين والرد عليها يقول (نحن نذكر ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم أننا لم نصد بيان غافل الغلط إلا تنزيه الشريعة والغيرة عليها من الدخ، وما علينا من القتل والناعل وإنما تؤدي بذلك أمانة العلم .. ولا اعتبار بقول جاهل يقول : كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به، لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص، قد يكون الرجل من الأوليا، وأهل الجنة، وله غلطات تمنع منزلته بيان زله أي أخطاؤه)(٣).

ومعنى ذلك أن ابن الجوزي متأثر بما شاع في عصره من تقدير للصوفية الأوائل بلغ درجة التقديس واعتبارهم أولياء لله يشرك بهم ويعتقد فيهم العصمة ..

وهذا الانقلاب الغزالي في النظرة للتصوف والصوفية أحدثت هزة نفسية للفقهاء المخضرمين الذين شهدوا العصرين، وقد حكى ابن الجوزي أن بعض الفقهاء جلس في بعض الأريطة الصوفية للعزاء في فقيه مات فأقبل الشيخ «أبو الخطاب الكلوزاني» الفقيه وقد أسن وهو يتوكل على ذراع الراوي للحكاية فقال (بعض على لو رأي بعض أصحابنا ومشايخنا القدماء وأنا أدخل هذا الرباط)، وعلق ابن الجوزي بقوله (قلت وعلى

(١) تلييس إبليس ٣٥٢.

(٢) تلييس إبليس ١٨٠.

(٣) تلييس إبليس ١٦٣.

هذا كان أشيائنا، فإننا في زماننا هذا اصطلاح الذئب والغنم^(١).

٤ - واتيح للصوفية في وضعهم الجديد أن يزاووا عقاندهم بحرية فمنعوا قراءة القرآن في الأريطة ومنعوا فيها قراءة الحديث النبوي^(٢). بل أنهم حاولوا الشار لمقتل «الحلاج» يقول ابن الجوزي (وقد تعصب للحلاج جماعة من الصوفية جهلاً منهم وقلة مبالاة بإجماع الفقهاء .. وعلى هذا أكثر قصاص زماننا وصوفية وقتنا جهلاً من الكل بالشرع وبعداً عن معرفة النقل، وقد جمعت في أخبار الحلاج كتاباً بينت فيه حيله ومخاريقه، وما قال العلماء فيه، والله المعين على قمع الجهال)^(٣).

أي أن التصوف اجتذب إلى جانبه طائفة القصاص وهم أخطر فئة تحترف الدعاية وتتحكم في مشاعر العامة في عصر بدأ طريقه نحو التدهور العلمي، فازدادت فيه مكانة القصاص على حساب العالم والمفكر. ومهما يكن في كتاب ابن الجوزي من علم واستدلال على كفر الحلاج فإن تأثيره لن يصل إلى جهد قصاص يحكي ويروي ويأخذ بالباب العامة وتنتشر رواياته محشوة بالأساطير والكرامات، وأكثر روايات القصاص تحولت فيما بعد إلى أحاديث لها أسانيد.

٥ - وهكذا أشرفنا على عصر ابن عربي .. وقد أصبحت للتصوف دولته .. وزادها أن الخطر المغولي قد بدأ يطرق أبواب الدول الإسلامية من الشرق ليضيف مع الاستعمار الصليبي في المنطقة اضطراباً جديداً، ويساعد بدوره زعيم الصوفية الجديد على إعلان العقيدة الأساسية للتصوف بكل صراحة ووضوح، وليدعوهم في ذات الوقت للإتحاد معاً للتبشير بدينهم الجديد، ولعله الوحيد القائل للصوفية (العصى والقضبان إذ تفرقت نكسرت وإذا اجتمعت لم تقوا على كسرهما، فاجتمعوا ولا تفرقوا)^(٤).

(١) تلييس ابليس ٣٥٩.

(٢) تلييس ابليس ١٧٠.

(٣) تلييس ابليس ١٦٦ : ١٦٧.

(٤) رسائل ابن عربي (كتاب التراجم ٣١) حيدر آباد ١٩٤٨ ..

ابن عربى ووحدة الوجود فى كتاب الفصوص

سنقصر الحديث على دور ابن عربى فى توضيح ما أبهمه وأجمله المتصوفة المنافقون والموفقون بين الإسلام والتصوف. وبذلك نحقق أكثر من هدف. أولاً : نثبت وحدة العقيدة الصوفية بين أقطاب التصوف جميعاً ما بين معتدل ومتطرف. ثانياً : نبرز أهمية الأرضية التاريخية فى فهم التاريخ الدينى للعقيدة الصوفية، ونؤكد على أهمية العمق التاريخى فى بحث العقائد الدخيلة التى استشرت فى التاريخ الإسلامى وأن بحثها منفردة ومن وجهة النظرة العقائدية فحسب يوقع فى الخطأ واللبس .. ثالثاً : نؤكد وجهة النظر التى نأخذ بها، وهى أن الصراع الدينى بين عقيدتى الإسلام والشرك لم ينته بانتصار الإسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلافة الرشيدة وإنما هو مستمر، وقد أتيح للشرك أن ينتصر تحت رداء التصوف، بل وأن يفرض التصوف عقيدة وحدة الوجود فى دولة تدين بالإسلام رسمياً، ومعلوم أن وحدة الوجود أكثر أنواع الكفر والشرك تطرفاً .. ومع ذلك فابن عربى هو عند الصوفية (الشيخ الأكبر) ولم يطلق عليه هذا اللقب عبثاً .. فهو الشيخ الأكبر لأنه الأجرأ ولأنه الأصرح، ولأنه الذى قال بالعقيدة الأسمى للصوفية ..

ودليلنا الأساسى فى عقيدة ابن عربى هو كتابه (الفصوص) أجزأ ما كتب فى وحدة الوجود وعقائد الصوفية.

أولاً : يقول ابن عربى فى (فص حكمة الهبة فى كلمة آدمية) :

(لما شاء الحق سبحانه من حيث اسمائه الحسنى التى لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت أن يرى عينه، فى كون جامع يحصر الأمر كله، لكونه متصفاً بالوجود ويظهر به سره إليه، فإن رؤية الشئ نفسه بنفسه ما هى مثل رؤيته نفسه فى أمر

آخر يمكن له كالمراة، فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المجال الخفاور فيه مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا السجل ولا تمييزه له. وقد كان أوجد الصالح كله وجود شبح سوى لا روح فيه، وكان كمرآة غير مبهمة. ومن شأن الحكم الإلهي إنه ما سوى (أى خلق) محال إلا ولا بد أن يقبل روحاً إلهياً، غير عنه بالنفخ فيه، وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة المسواة لقبول الفيض المستجلى الدائم الذى لا يزال ولم يزل، وما بقى إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس. فالأمر منه كله، ابتداءه وانتهاؤه، وإليه يرجع الأمر كله، كما ابتداء منه، فاقترض وجود الأمر بجلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة^(١).

فابن عربى يرى أن الإنسان هو تجسيد لأسماء الله الحسنى (التي لا يبلغها الإحصاء). أو هو عين الله (وإن شئت قلت أن يرى عينه فى كون جامع يحصر الأمر كله).

ويرد ابن عربى هذه المقالة فى موضع آخر فى الفصوص (... ولذلك فال فى خلق آدم-الذى هو البرنامج الجامع لنحوت الحضرة الإلهية التى هى الذات والصفات والأفعال- إن الله خلق آدم على صورته، وليست صورته سوى الحضرة الإلهية، فأوجدت فى هذا المختصر الشريف الذى هو الإنسان الكامل جميع الأسماء الإلهية...)^(٢). وابن عربى يوضح بجلاء نظرة الصوفية لخلق آدم .. وهو أنه -آدم- امتداد الله وصورة له ونسخة منه ..

١ - وقد سبق «للجنيد» أن عرض لهذه النقطة فى تفسيره لقوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فقال (فمن أين كان؟ وكيف كان قبل أن يكون؟ وهل أجاب إلا الأرواح الظاهرة بإقامة القدرة وإنفاذ المشيئة؟ فهو الآن فى الحقيقة كان قبل أن يكون. وهذا غاية حقيقة التوحيد. أن يكون العبد كما لم يكن، ويبقى الله تعالى كما لم يزل...)^(٣).

(١) فصوص الحكم ص ٨ : ١١ شرح القاشانى المطبعة المنجية. مصر.

(٢) الفصوص : ٢٥٢.

(٣) اللع : ٥٠.

وقال الجنيد: «بعضنا وبنواؤنا لم يمت، أني ألد الروح التي شفاها الله وأخذ عليها العهد بالتوحيد، إنما كانت جزءاً من الله، وخلص من ذلك إلى أن شفاها الله، فأمر عقيدة السونية» هي أن نفس العبد عن بشرة الظاهرة ويعود إلى أصله الإلهي (أن يكون العبد كما لم يكن ويبقى الله تعالى كما لم يزل).

ومعنى ذلك أن الجنيد والصفوية - يعتقدون بأن الروح الإنسانية جزء من الله انفصلت عنه لتدخل في الأجساد، فإذا ترى الإنسان بالرياضيات والسجادات علا على جسده الأرضي واتحد بخالقه وفنى فيه ..

٢ - وقد تعرض الخواص لهذه النقطة - حقيقة الروح الإنسانية - فأخذ يناور رواد ليوحى باستقاطات متعددة بأن الروح البشرية جزء من الله، مستخدماً في ذلك تأويل الآيات والاستشهاد بالأحاديث الباطلة، يقول في شرح (وسألوكم عن الروح قل الروح من أمر ربي) (..) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول المخلوق، وأوضح من ذلك قوله تعالى (إنا جعلناك خليفة في الأرض) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة، وإليه يرمز قوله تعالى (إن الله خلق آدم على صورته) حتى ظن انقاسون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فتشبهوا وجسموا وصوروا الله تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، وإليه الإشارة بقوله تعالى (الموسى عليه السلام: (مرضت لم تعدنى!! فقال: يارب، وكيف ذلك؟ قال: مرض عبيد فلان فلم تعده، ولو عدته وجدتنى عنده!!) هذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض، كما قال تعالى (لا يزال يتقرب إلى العبد بالنوافل حتى أحبه، فإنا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به). وهذا موضع يجب قبض عنان العلم فيه، فقد تحرب الناس فيه إلى قاصرين سالوا إلى التشبيه الظاهر، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد، وقانوناً بالحلول، حتى قال بعضهم: أنا الحق، وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون اتحد به، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشيل واستحالة الحلول والاتحاد واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر، فهم الأقول، ولعل أبا

الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر، إذ غلبا الوجد فى قول القائل : -

لا زلت أنزل من وداك منزلاً
تتجير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمه قد قطع قصبتها وبقى أصوله، حتى تشققت قدماها وتورمتا ومات من ذلك، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها، وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجوداً^(١).

ولم يصل الغزالي إلى حل حاسم، وهذا شأن من يحاول التوفيق بين عقيدتين متضادتين، وكل ما فعله هو أن أول آيات قرآنية وأستشهد بأحاديث باطلة، ثم جعل أصحاب الإتحاد من المفسرين فناقض نفسه بين التصوف والفقه ..

٣ - أما ابن عربى فقد أعلن بحسم ألوهية آدم وأنه عبد الله حلت فيه روح الله (.. ومن شأن الحكم الإلهى أنه ما سوى محلاً إلا ولا بد أن يقبل روحاً إلهياً عبر عنه بالنفخ فيه، .. فاقضى وجود الأمر جلاء مرآة العالم فكان آدم عين جلاء تلك المرأة وروح تلك الصورة) ..

٤ - ولو كان الغزالي حسن النية لأدرك القول الفصل فى حقيقة الروح فقد أبانها القرآن الكريم بما يتيح لأى عقل أن يفهم إذا خلصت عقيدته لله ..

والروح المقصودة بقوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) هى جبريل عليه السلام .. وله وظيفتان الأولى : نفخ النفس والثانية : النزول بالوحى على الرسل .. وقد تميز جبريل عليه السلام بهذا اللقب من دون الملائكة بقوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة : المعارج ٤)، وعن يوم الحساب (يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً. النبأ ٣٨). ولذا يقول تعالى عنه أنه من أمره أن يصدر عن أمره ويعمل بأمره إذا قال كن فيكون .. وعندما خلق الله آدم أمر جبريل أن ينفخ فيه، فيقول تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحه. السجدة ٩). (فيذاً سويته ونفخت فيه من روحي .. ص ٧٣). فجبريل كانت

(١) إحياء ج ٤/ ٢٦٣.

وظيفته بث النفس فى آدم.

وقد قال تعالى عن خلق المسيح بلا أب (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون .. آل عمران ٥٩) ولأن مريم عذراء لم يمسهسا بشر فقد أرسل الله لها جبريل فى هيئة بشر سوى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً .. مريم ١٧ : ١٩)، وقال تعالى عن مريم أيضاً (والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا .. الأنبياء : ١٩١). إذن فالروح هنا هو جبريل، فى خلق آدم وخلق عيسى.

والوظيفة الأخرى لجبريل هى النزول بالوحى على الرسل (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق .. غافر ١٥) وقال تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين .. الشعراء ١٩٣، ١٩٤).

والملائكة لم تسجد لآدم نفسه وإنما سجدت لخلق آدم، أى سجدت لقدرة الله تعالى إذ خلق من الطين المانع والحمأ المسنون هذا البشر. وقد أطاعت الملائكة وعصى إبليس ورد الأمر على الله واستكبر أن يسجد لمخلوق من طين محتقر بينما هو من نار السموم (قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون .. الحجر ٣٣). وخطأ إبليس فى أنه غفل عن المقصد من السجود، فظنه مقصوداً بآدم لذاته فاستكبر.. بينما أطاعت الملائكة لأن الإسلام فى حقيقته هو إطاعة أمر الله دون مناقشة. وجاء بعضهم يروج لنفس فكرته ويعتبرون سجود الملائكة لآدم تأليها لآدم حيث حلت فيه روح الله، ويخلطون بين ذات الله تعالى المنزهة عن أن يكون لها نفس كالبشر - وهو الذى ليس كمثله شىء - وسائر المخلوقات ..

٥ - بقى أن نرد على نظرية الصوفية فى خلق آدم والكون .. فمعلوم أن تلك النظرية لا تتفق حتى مع استعمال كلمة (خلق)، ففعل (خلق) يعنى وجود (خالق) و (مخلوق) وكلاهما مختلف عن الآخر .. إذ كيف تكون الصنعة عين الصانع .. والإنسان

سئلاً لا يمكن أن يخلق الله إنساناً مثله. ولم يخلق الإنسان إلا من له تمام السيطرة عليه والتحكم فيه ألا وهو الله تعالى .. فكيف يأتي المصطفون ويدعون أن الله خلق نفسه أو عينه أو وحد بين نفسه وبين موجوداته؟ وكيف يتأتى هذا من الله الأحد الذي لا شريك له وهو لم يخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه؟ وكيف يعبد الإنسان وهو يعلم أنه جزء من خالقه؟.

بيد أن القرآن الكريم لم يقتصر على لفظ (خلق) وإنما قلل أيضاً (فطر)، ويعنى أن الله خلق الأشياء على غير مثال سابق، وخلقها من لا شيء أو من العدم، يقول تعالى عن خلق البشر (فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة .. الإسراء : ٥١)، وعن خلق الكون (الحمد لله فاطر السماوات والأرض .. فاطر : ١) فلا عبرة حينئذ بتساؤل الجنيد الساذج (فمن أين كان؟ وكيف كان قبل أن يكون؟). نقول له : لم يكن شيئاً مذكوراً (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً .. الإنسان ١) ثم فطره الله أو خلقه من لا شيء ثم جعله شيئاً، وقبل أن يوجد على مستوى الحس وقبل أن تنفخ الأنفس في الأجساد، جمع الله تعالى الأنفس المخلوقة من لا شيء، وأخذ عليها العهد بتوحيده .. هكذا نفهم قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا) ..

٦ - وقد وصف ابن عربي الإنسان بأنه تجسيد لأسماء الله الحسنى ... وحول هذه النقطة أخذ الغزالي - قبل ابن عربي - يداور ويحاور .. فبدأ يصف الإنسان بصفات الربوبية ضمن صفات أخرى (فيقول تنحصر مشاركات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنّت من أخلاط مختلفة)، وجعل من الصفات الربوبية في الإنسان (الكبر والفخر والجبرية وحب الثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى ..) (١). وفي ضوء فهمه لقوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) قال عن «الصفات الربوبية» (أشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق وحب

(١) إحياء ج ٤/ ١٤.

الجهاء، فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأفكار الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) (١). ثم جعل صفة الربوبية في النفس البشرية مانعة للعبودية المفروضة على الإنسان، يقول في حديث طويل عن (قل الروح من أمر ربي) ... فإذا معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال، وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المفرد بالكمال، ولذلك قال بعض الصوفية : ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله أنا ربكم الأعلى، ولكن ليس يجد له مجالاً، وهو كما قال فإن العبودية قهر على النفس، والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك بالنسبة للربانية التي أوما إليها تعالى في قوله (قل الروح من أمر ربي) (٢).

ثم انتهى الغزالي إلى أن يجعل غاية الإنسان في أن يتحلى بصفات الله الحسنى يقول (منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له، أي يكون له من كل واحد نصيب) (٣).

وأراح ابن عربي نفسه وأراحنا من هذا العناء فقال بوضوح أن آدم (هو البرنامج الجامع لنحوت الحضرة الإلهية التي هي الذات والصفات والأفعال).

٧ - وقد سار ابن عربي على طريقة الغزالي في ضرب الأمثلة على وحدة الوجود وتمثيل الله بالبشر والعكس .. يقول ابن عربي (فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة). وسبق أن أوردنا المثل الذي ضربه الغزالي بالشمس والماء الموضوع في طشت وترى الشمس من خلاله (٤).

واستشهد الغزالي على أن (الوحدة الوجودية لا تتنافى الكثرة العددية) بأن الإنسان واحد وهو متعدد بأطرافه وجزئياته (٥). ورد ابن عربي ذلك في قوله (ولا شك أنا كثيرون

(٢) إحياء ج ٣/ ٢٤٣.

(١) إحياء ج ٤/ ٦٨.

(٣) إحياء ج ٤/ ١٧٦.

(٤) إحياء ج ٤/ ٣٧٠.

(٥) إحياء ج ٤/ ٢١٣.

بالشخص والنوع، وأنا وإن كنا على حقيقة واحدة تجمعنا فتعلم قطعاً أن ثم فارقاً به تميزات الأشخاص بعضها عن بعض، ولولا ذلك ما كانت الكثرة فى الواحد^(١).

إلا أن ابن عربى بلغ إلى منتهى الطريق فخلط بين العبد والرب فى صراحة مطلقة لا يجدى معها تأويل أو تبرير يقول عن الإنسان (هو للحق «يقصد الله تعالى» بمنزلة إنسان العين من العين الذى به يكون النظر وهو المصير لله بالعبادة، فلهذا سمي انساناً فإنه به نظر الحق إلى خلقه فرحمهم، فهو الإنسان، الحادى الأسمى والبشر الدائم الأبدى)^(٢). فوصف الإنسان بصفات الله الأزلية والدائمة الأبدية.

ويقول عن الاستدلال بوجود الله (أحالتنا تعالى فى العلم به على النظر فى الحادث، وذكر أنه أرانا آياته فيه، فاستدللنا بنا علينا، فما وصفناه بوصف إلا كنا نحن ذلك الوصف، إلا الوجوب الذاتى الخاص)^(٣). ويقصد بالوجوب الذاتى الخاص أن الله تعالى هو الأصل الذى تخرج منه الصور ثم ترجع إليه بعد العدم .. ثم اجترأ على الله تعالى فوصفه بصفات البشر ليتم نظريته فى التشابه بين الله والخلق.

يقول ^(٤) : فأنت عبد وأنت رب	لمن له فيه أنت عبد
وأنت رب وأنت عبد	لمن له فى الخطاب عهد
ويقول ^(٥) : فيحمدنى وأحمده	ويعبدنى وأعبده
ففى حال اقربه	وفى الأعيان أجده
فيعرفنى وانكره	وأعرفه فاشهد

ثانياً : ثم وصل ابن عربى إلى وحدة الوجود بين الله والكون المادى، ولم يكتف بالإنسان فقط .. يقول عن الله تعالى (فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبر له، فهو الإنسان الكبير، فلما أوجد الصور فى النفس وظهر سلطان النسب المعبر عنها بالأسماء صح النسب الإلهى للعالم)^(٦). أى أن الكون تابع للإنسان فإذا كان الإنسان إلهياً فالعالم كذلك ..

(١) الفصوص ١٩.	(٢) الفصوص ٨.	(٣) الفصوص ١٩.
(٤) الفصوص ٩٧.	(٥) الفصوص ٧٨.	(٦) الفصوص ١٣٢ : ١٣٣.

فابن عربى يلخص وحدة الوجود بأن الله هو الذى ينظر من خلال كل عينين (هو الشاهد من الشاهد)، وهو المنظور إليه فى كل ما يرى من جماد وحيوان وإنسان (والمشهود من المشهود)، وعلى ذلك (فالعالم) جميعه من حيوان وجماد هو (صورته) أى تجسيد مادى له، فهـ (هو روح العالم المدبر له)، وعلى ذلك فلا فارق نوعياً بين الله والإنسان اللهم إلا فى الوجوب الذاتى الخاص المتجدد، والذى تصدر عنه أجساد البشر وهى فى حقيقة أمرها مخلوقة من عناصر الكون وهو جزء من الله، لذا فالفارق بين الله والبشر يتلخص فى أن الله هو (الإنسان الكبير) ..

ثم يصل ابن عربى إلى نهاية الطريق فى وحدة الوجود فيخلط بين الله والكون، ولا يرى مانعاً من إطلاق أحدهما على الآخر فى تحديد صفته، فيقول (إن شئت قلت هو (أى الله) الخلق، وإن شئت قلت هو الحق، وإن شئت قلت هو الحق والخلق، وإن شئت قلت لاحق من كل وجه ولا خلق من كل وجه، وإن شئت قلت بالحيرة فى ذلك)^(١).

أى انعدمت الفوارق بين الخالق (الحق) والبشر والعالم من (الخلق). ولك مطلق الحرية فى أن تسمى أحدهما باسم الآخر أو يطلق عليها الإسمان معاً، أو تترك التسمية وتؤثر الحيرة.

وابن عربى يشرح عبارات الغزالى الفلسفية التى استتر خلفها، وهو يومئ لعقيدة وحدة الوجود، كقوله (إذ ليس فى الوجود تحقيقاً إلا الله تعالى وأفعاله .. فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله ..)^(٢). ولم يلجأ ابن عربى إلى مغالطات الغزالى فى الخلط بين الله وصفاته وأفعاله وبين البشر الحادث، بل أعلن بجرأة أن الله هو الشاهد والمشهود فى نفس الوقت، والعالم المادى هو صورة الله ..

وقول ابن عربى (فالعالم صورته) هو القول الموجز لما حاول الغزالى أن يدور حوله متذرعاً بالفلسفة والمغالطة حين يقول مثلاً (وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق

(١) الفصوص ١٣٤

(٢) احياء ٢٤٧/٢ : ٢٤٨،

والاستنارة، وفى غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض^(١).

ثالثاً : وقد قلنا أن الغزالي نظر فى عقيدة (وحدة الوجود) إلى الإنسان فى إطار (عقيدة الاتحاد) فاعتبر الصوفى هو الذى ينظر طبقاً لعقيدة وحدة الوجود إلى العالم، فإذا (شكر) يعرف قطعاً أنه (الشاكِر) وأنه المشكور، وإذا (أحب) يعلم أنه المحب، وأنه المحبوب، لأن الصوفى المعتقد فى وحدة الوجود يرى أن كل ما فى الوجود سوى الله فهو تصنيف الله وصنعتة وجزء منه ..^(٢).

وجاء ابن عربى فوسع الدائرة ونصب من نفسه متحدثاً باسم الإنسان الإلهى حيث اعتبره واسطة العقد بين الله والكون .. فروحه إلهية وجسده من ذرات الكون - (تصنيف الله) بتعبير الغزالي (وتجسيده) فى صراحة ابن عربى - يقول (وهو -الانسان- للحق بمنزلة انسان العين من العين الذى به يكون النظر، وهو المعبر عنه بالبصر، فلهذا سمي إنساناً فإنه به نظر الحق إلى خلقه فرحمهم، فهو الإنسان الحادث الإزلى والبشر الدائم الأبدى، والكلمة الفاصلة الجامعة، فتم العالم بوجوده، فهو من العالم كقص الخاتم من الخاتم، وهو محل النقش والعلامة التى يختم بها الملك على خزائنه، وسماء خليفة لأجل هذا، لأنه الحافظ خاتمه كما يحفظ بالختم الخزائن، فما دام ختم الملك عليها لا بجسر أحد على فتحها إلا بإذنه، فلا يزال ما فى العالم محفوظاً مادام فيه هذا الإنسان الكامل^(٣). فقد تطرق ابن عربى على عادته وأعلى من شأن الإنسان ورفع فوق خالقه فجعل الله ينظر به أو (هو للحق منزلة إنسان العين من العين) ثم ارتفع بالإنسان فوق الكون (فهو من العالم كقص الخاتم من الخاتم)، وفسر خلافة الإنسان فى الأرض على أنه الإله الحافظ لها المتحكم فيها باسم الله.

(١) احياء ج٤/ ٢٧٦.

(٢) احياء ج٤/ ٧٤.

(٣) الفصوص ١٣، ١٤.

وعلى نفس المنوال نظر ابن عربى إلى قضية سجود الملائكة لآدم .. وقد بينا كيف ان الغزالى عرض لها فى شرحه لآية (قل الروح من أمرى) ، أما ابن عربى فقد سار إلى نهاية الشوط يحاول إثبات الوهية آدم حتى بالنسبة للملائكة وتفضيله عليهم، يقول (.. فلا يزال ما فى العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل. ألا تراه إذا زال وفك من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اختزبه الحق فيها، وخرج ما كان فيها، والتحق بفضه ببعض، وانتقل الأمر إلى الآخرة .. فظهر جميع ما فى الصورة الإلهية من الأسماء فى هذه النشأة الإنسانية فحازت رتبة الإحاطة والجمع بهذا الوجود، وبه قامت الحجة لله تعالى على الملائكة .. فإن الملائكة لم تقف مع ما تعطيه نشأة هذا الخليفة ولا وقفت مع ما تقتضيه حضرة الحق من العبادة الذاتية .. وليس للملائكة جمعية آدم، ولا وقفت مع الأسماء الإلهية التى تحضها وسبحت الحق بها وقدرته، وما علمت أن لله أسماء ما وصل علمها إليها، فما سبحت الحق بها ولا قدرته فغلب عليها ما ذكرنا .. إلخ^(١).

فالغزالى يومئ بالقضايا ويدور حولها، وابن عربى يشرح ما أهمله الغزالى، وإن كان فى شرحه غموض وجدل ومغالطة، ولو أخلص الغزالى وابن عربى لاكتفيا بالقرآن، فليس بعده من وضوح فى شرحه لعقيدة الإسلام .. إلا أنهم لجأوا للفلسفة وفرضوا عقائدهم على القرآن بتأويل لإيات والتفتوا للأحاديث الضالة كحديث الولي (كنت سمعه الذى يسمع به ورجله ..) وكحديث خلق آدم (وأنه خلقه على صورته) وغيره ..

وكل ذلك ليجدوا سنداً إسلامياً لعقيدتهم، وكأنما ظل الإسلام ناقصاً حتى يأتى تلاميذ الفلسفة اليونانية ليكملوه ..

(١) الفصوص ١٤

ابن الفارض قرين ابن عربي

في مصر

ابن عربي هو آخر فلاسفة التصوف الكبار، ويموته انتهى التصوف النظري الفلسفي وبدأ عصر التصوف الطرقي العملي. وقد مات ابن عربي في دمشق سنة ٦٣٨ أي قبل أن يبدأ العصر المملوكي بعشر سنوات .. إلا أن نحلته استمر تأثيرها خلال هذا العصر الذي استمر نحو ثلاثة قرون، بل ولا تزال ذيول هذا العصر المملوكي تشكل حياتنا الدينية حتى الآن .. وقد شهد أصفيا ابن عربي وكبار تلاميذه بداية العصر المملوكي .. وأبرزهم «عبد الحق بن سبعين» المتوفى بمكة سنة ٦٦٧ عن خمس وخمسين عاماً، في رواية الشعراني^(١). أو عام ٦٦٩ عن خمسين عاماً في رواية المقرئ^(٢).

وعُرف «القنوي» بأنه صاحب ابن عربي، وقد ألف على طريقته مجلداً في تفسير الفاتحة (وكان مبتلى بالإتكار عليه)، وتوفي بقونية سنة ٦٧٢ وأوصى بأن يدفن إلى جانب شيخه فلم يتفق له ذلك^(٣).

وقد وفد إلى مصر من تلاميذ ابن عربي : «عفيف الدين التلمساني» ت ٦٩٠ (وهو من عظماء الطائفة القائلين بالوحدة المطلقة، وقد أثنى عليه «ابن سبعين» وفضله على شيخه القنوي)، وقد نزل «التلمساني» بخانقاه «سعيد السعداء الشهيرة» وولد له فيها ابنه الشاعر «محمد شمس الدين» المعروف بالشاب الظريف^(٤).

* ابن الفارض في مصر :

ولم تكن مصر بحاجة إلى معرفة عقيدة وحدة الوجود، فقد عاش فيها (سلطان

(١) الطبقات الكبرى ج١/١٧٧. (٢) السلوك ج١/٢/٥٩٧.

(٣) الشعراني، الطبقات الكبرى ج١/١٧٧.

(٤) الوافي بالوفيات ج٣/١٣٠، فوات الوفيات ج١/٣٦٤، شذرات الذهب ج٥/٤١٢.

الماشقين) عند الصوفية، ونعنى به عمر بن الفارض، أشهر شعراء الاتحاد ووحدة الوجود، وقد توفي سنة ٦٣٢ .. ويقول فى شعره الاتحادى وفيه يدعى الألوهية :

فبى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الد
ومنى لى قوامت بميت لقطبها الد
ولا تحسبن الأمر عنى خارجاً
فلا حى إلا عن حياتى حياته
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن
ولا قائل إلا بلفظى محادث
ثم يزعم أن الله يتحد به حتى يصير الذاتان ذاتاً واحدة فيقول :

ولا منصت إلا بسمعى أى سامع
ولا ناطق غيرى ولا ناظر ولا
وهأنا أبدى فى اتصادى مبدئى
جلت فى تجليها الوجود لناظرى
واشهدت غيبى أو بدت فوجدتنى
فوصفى - إذ لم تدع باثنين - وصفها
فإن دعيت كنت المجهوب وإن أكن
وإن نطقت كنت المناجى كذلك ان
فقد رفعت تاء المخاطب يمتنا
وزعم أن الذات الإلهية تصلى له ..

ولا غرو أن صلى الأنام إلى أن
لها صلواتى بالمقام أقيمها
كلنا مصل واحد ساجد إلى
وما كان لى صلى سوى ولم تكن

ثوت بفؤادى وهى قبله قبلتى
واشهد فيها أنها لى صلت
حقيقة بالجمع فى كل سجدة
صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة^(١).

وقد حكم علماء العصر المملوكى بتكفير ابن الفارض. ففى القرن السابع - وعصر

(١) ديوان ابن الفارض : الثانية الكبرى ص ٢٩ ، وما بعدها : مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

ابن الفارض - حكم بتكفيره عز الدين بن عبد السلام، وابن الصلاح الشافعي، وقطب الدين العسقلاني، وقام ابن حمدان الحنبلي بشرح الثانية ويُن كُفره وزندقته فيها بيتاً بيتاً، ومثله أبو علي السكوني، وابن الحاجب، ثم ابن دقيق العيد، وابن بنت الأعز، وابن جماعة، وعيسى الزواوي، والسعد الحارثي، وأبو حيان، وابن النقاش، وشمس الدين الموصلي، وتقى الدين السبكي، والزين الكتاني، وابن تيمية .. ومن يليهم الأدقوي، والسفاقي، وابن أبي حجلة، والذهبي، وابن كثير .. ومن يليهم في القرن الثامن: العيزري، والبلقيني، وعلاء الدين البخاري.

وفي القرن التاسع ابن حجر، والعيني، والبساطي، وابن الأهدل، وشهد بهذا النقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم ومصنفات غيرهم من العلماء، وهي شرح الثانية لابن حمدان وديباجة ابن الفارض ولحن العوام لابن خليل، وتفسير ابن حيان، والفرقان لابن تيمية، وكتاب أبي حجلة، والميزان ولسانه لابن حجر، والتاريخ لابن كثير، وناصحة الموحدين للعلاء البخاري، والفتاوى المالكية للعراقي، وتاريخ العيني، وشرح الثانية للبساطي، وكشف الغطاء لابن الأهدل، ثم تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي وتحذير العباد للبقاعي^(١) ..

وهؤلاء الفقهاء انكروا على ابن الفارض وتائيته، إلا أن جل إنكارهم انصب على ابن عربي زعيم القائلين بوحدة الوجود .. على أنهم لم يفرقوا بين عقيدتي الاتحاد أو وحدة الوجود .. إذ أن العصر المملوكي لم يشهد صوفياً على مثال ابن عربي في تنظيره وتعيينه لفلسفة وحدة الوجود، بل اهتم اللاحقون بدراسة كتبه أو الترويج لها أو الإنكار عليها وتبيين أوجه خروجها عن الإسلام ..

وسنعرض لأتباع ابن عربي في العصر المملوكي بترتيب القرون، مع استعراض الصراع الذي دار بينهم وبين الفقهاء من خلال مصادر التاريخ المملوكي ..

(١) تحذير العباد من أهل العناد للبقاعي ٧١٤ : ٧١٦ تحقيق عبد الرحمن الوكيل ..

*** الباب الأول ***

مراحل العقيدة الصوفية

وتطورها فى مصر.

*** الفصل الثالث :**

- وحدة الوجود وصراع الصوفية مع الفقهاء فى القرنين السابع والثامن الهجريين.

أولاً : فى القرن السابع : تلامذة ابن عربى من اعيان الصوفية المصريين فى القرن السابع وصراعهم مع الفقهاء .
ثانياً : فى القرن الثامن :

أ) ابن تيمية ونصر المنبجى، محاكمة ابن تيمية الأولى فى الشام، محاكمته الثانية فى مصر، سبب المحاكمات، التآمر على ابن تيمية فى المعتقل وخارج المعتقل.

ب) آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء فى القرن الثامن، مدرسة ابن تيمية الفقهية المناوئة للصوفية، تكفيرهم لابن عربى، تكفيرهم لابن الفارض.

ج) آثار حركة ابن تيمية على خصومه الصوفية، هجوم بعضهم على ابن عربى، أثر ابن تيمية العكسى فى ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية.

الفصل الثالث

وحدة الوجود وصراع الصوفية

- من اتباع ابن عربي - مع الفقهاء

في القرنين السابع والثامن الهجريين

أولاً: في القرن السابع ..

* تلامذة ابن عربي من أعيان الصوفية المصريين في القرن السابع وصراعهم مع الفقهاء

١ - يلفت النظر أن الشعراني أوجز في ترجمته لابن عربي، فلم تصل في الطبقات الكبرى إلا ثلثي صفحة، مع أن الشعراني شغف بابن عربي إلى درجة تلخيص آرائه في كتابي (الميراث والجواهر) و (الكبريت الأحمر) .. ويبدو أن تحرج الشعراني من الإسهاب في سيرة ابن عربي مرجعه إلى ما عاناه (الشيخ الأكبر) من إنكار في حياته وبعد مماته .. حتى أن الترجمة القصيرة التي أوردها الشعراني لم تخل من ذكر لبعض هذا الأذى وإن كان الشعراني -على عادة الصوفية- يغلّفه الكرامات ..

يقول مثلاً (وقد بُنى عليه قبة عظيمة وتكية شريفة .. واحتاج إلى الحضور عنده من كان ينكر عليه من القاصرين بعد أن كانوا يبولون على قبره، وأخبرني أخى الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبي أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محيي الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فحسب به دون القبر..^(١).. ولولا هذه الأساطير لما رويت قصص الإنكار على ابن عربي .. ذلك الإنكار الذي استمر على ابن عربي حتى عصر الشعراني في القرن العاشر ..

(١) الطبقات الكبرى ج١/١٦٣ ط صبيح.

٢ - ومعنى ذلك أن ابن عربي أصبح قضية دينية في العصر المملوكي، احتدم حولها الصراع بين مؤيدين ومعارضين، وقد انضم إلي المعارضين بعض الصوفية .. وذلك إما عن جهل وحقد على شخصية ابن عربي الفيلسوف الذائع الصيت بين صوفية يفتشرون إلى مثل علمه وشهرته .. وإما عن مكر وخداع حفاظاً علي مذهب التصوف، وحتى لا يصل إنكار الفقهاء إلى حد يؤثر على دين التصوف وأساسه ..

وطبيعى أن يكون المنكرون الحاقدون على ابن عربي من أهل عصره، وأبرزهم الصوفى ابراهيم بن معضاد الجعبرى (ت ٦٨٧) الذي اجتمع باين عربى فقال عنه (رأيت شيئاً نجساً يكذب بكل كتاب أنزله الله ويكل نبي ارسله الله) وذكر عنه أنه (يقول بقدم العالم - أى ألوهية العالم - ولا يحرم فرجاً)^(١).

ومع ذلك فالجعبرى سالف الذكر صوفى لم يسلم من الإنكار عليه، فذكر الشعرانى أن القضاة عقدوا له مجلساً لمنعه من الوعظ (وقالوا إنه يلحن فى القرآن وفى الحديث)، ويبدو من شعره وكلماته^(٢) أنه يتمتع بجهل زائد، وهذا يفسر لنا موقفه السابق من ابن عربى صاحب العشرات من المؤلفات ..

٣ - وحظى ابن عربى بنقمة عز الدين بن عبد السلام، فروى تلميذه ابن دقيق العبد أنه سأل ابن عبد السلام عن ابن عربى فقال (هو شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجاً)^(٣).

ويقول الشعرانى (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يحط كثيراً عليه، فلما صحب الشيخ أبأ الحسن الشاذلى وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان..^(٤) وهذا حقيقى فقد تناقض ابن عبد السلام مع تاريخه الطويل حين وفد إلى مصر، فاعتنق التصوف على يد الشاذلى وصار له مريداً، وسبحان الله رب العالمين ..

(١) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ج٤/٧٦، تنبيه الغبى للبقاعى ١٧٨.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/١٧٧ ط. صبيح.

(٣) البقاعى. تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى ١٥١ : ١٥٢.

(٤) الطبقات الكبرى ج١/١٦٣ ط. صبيح.

وقد عاصر العسقلاتى (ت ٦٨٦) ابن سبعين، وكان ينكر عليه بمكة كثيراً من أحواله، وقد صنف فى الاتحادية كتاباً فى الإنكار عليهم، بدأ فيه بالحلاج وختم بالعفيف التلمسانى (وقد فوضت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة) (١).

٤ - وعرف القرن السابع تلاميذ متأخرين لابن عربى، تطرف بعضهم فى محبته مثل الشيخ التيمى ت ٧١٩ (٢)، وقدم بعضهم إلى مصر ليدرس مذهب وحدة الوجود من كتب ابن عربى وحظى باعتقاد المصريين فى ولايته مثل الشيخ أبى ذر ت (٧٨٠) (٣). وحظى الشيخ أبو عبد الله الكركى ت (٨٠٠) بميل السلطان إليه، فاستغل ذلك فى الدعوة (إلى مقال ابن العربى الصوفى يناضل عنها وينظر عليها، ووقع له مع السراج البلقينى مقامات) (٤).

٥ - وقد شهد القرن السابع تكون أشهر الطرق الصوفية فى مصر وأشياخها : أحمد البدوى ت (٦٧٥) وإبراهيم الدسوقى (٦٧٦) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦) .. وتأثير ابن عربى فيهم واضح ..

فالبدوى يقول معبراً عن الاتحاد (٥) :

وباسطنى عمداً فطاب خطابه فباطبها من حضرة صمدانية
فغيبنى عنى فصرت بلا أنا دهشت بمرآة ووحدت وحدتى
وينحو فيها طريقة ابن الفارض فى الثائية ..

وفى رحلته للعراق زار البدوى ضريح الحلاج (٦) أشهر القائلين بالحلول والاتحاد ..

٦ - وقد قيل فى الدسوقى «أنه يذهب إلى أكثر ما ذهب إليه الحلاج، فهو يقول أنه عين الله فى حين أن الحلاج قد سمى نفسه الحق (٧)» وليس فى ذلك من تحامل على الدسوقى، فهو القائل فى تائيته (٨) :

(١) شذرات الذهب ج٥/٣٩٧. (٢) تحفة الأجيال ج٢. (٣) إنباء الغمر ج١/١٨١.

(٤) إنباء الغمر ج٢/٢٩ : ٣٠. (٥) عبد الصمد : الجواهر السننية : ٩٣.

(٦) عبد الصمد : الجواهر السننية : ٩ الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/١٥٦.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ج٩/٢١٨.

(٨) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/١٥٨ ط صبيح ونقلها عن جوهرة الدسوقى وقد طبعت «جوهرة الدسوقى» ونشرتها مكتبة الجمهورية ص ١١٢.

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة
 وخاطبتنى منى بكشف سرائرى
 فأنت منائى بل أنا أنت دائماً
 فقال كذلك الأمر لكننه إذا
 فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته
 فصرت فناً فى بقاء مؤبد
 وغيبنى عنى فأصبحت سائلاً
 وانظر فى مرآة ذاتى مشاهداً
 أنا ذلك القطب المبارك أمره
 أنا شمس اشراق العقول ولم أفل
 يرونى فى المرأة وهى صدىة
 وبى قامت الأنبياء فى كل أمة
 ولا جامع إلا ولى فيه منبر
 وما شهدت عينى سوى عين ذاتها
 بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة

فشاهدته فى كل معنى وصورة
 فقال اتدرى من أنا قلت منيتى
 إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
 تعينت الأشياء كنت كنسختى
 بغير حلول بل بتحقيق نسبتي
 لذات بديسومة سرمدية
 لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتي
 لذاتى بذاتى وهى غاية بغيبتي
 فإن مدار الكل من حول ذرونى
 ولا غبت إلا عن قلوب عمية
 وليس يرونى بالمرآة الصقيلة
 بمختلف الآراء والكل أمتى
 وفى حضرة المختار فزت بغيبتي
 وإن سواها لا يلسم بفكرتى
 أجدد فيها حلة بعد حلة

أ) فالدسوقى يقرر وحدة الوجود فى البيت الأول وينسب لله أنه تجلى له فرآه فى
 كل الكائنات المعنوية والمادية.

ب) وعبر عن الحلول فى البيت الثانى إذ جعل الله يحل فيه ويخاطبه من داخل
 ذاته..

ج) ثم أثبت الاتحاد العام بينه وبين الله فى البيتين الثالث والرابع، وسأوى بينه
 وبين الله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) فيقول مثلاً: (بل أنا أنت دائماً - أنت
 اليوم عين حقيقتى - إذا تعينت الأشياء كنت كنسختى).

د) ثم تطرف الدسوقى فأنكر حلول الله فيه، فجعل نفسه هو الذى يحل بالله ويتحد
 به، وإن ذلك نسبه الحقيقى كما فى البيت الخامس وما بعده إلى البيت الثامن..

هـ) ثم خاطب العالم بصفته الجديدة فأثبت وحدة الوجود لا لله وإنما لنفسه، فهو مدار الكل وشمس إشراق العلوم ولا يراه المحجوبون (ولا غبت إلا عن قلوب عمية)، وإن الأنبياء جاءت إلى الأمم من لدنه (وبى قامت الأنبياء فى كل أمة ..) والمصلون فى الحقيقة يتجهون إليه (ولا جامع إلا ولى فيه منبر).. ثم إنه طبقاً لوحدة الوجود يظهر فى كل صورة .. وتعبّر عنه كل ذات (بهذاتى تقوم الذات فى كل ذروة أجدد فيها حلة بعد حلة) ..

ولم يتوقف التسوقى عن إعلان عقيدته نثراً فهو القائل (أنا كل ولى فى الأرض، خلعت يدي، ألبس منهم من شئت، أنا فى السماء شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبت، أنا ببدي أبواب النار غلقتها، وببدي جنة الفردوس فتحتها، من زارنى اسكنته جنة الفردوس) (١).

٧ - أما الشاذلى فقد أكتسب الشهرة بالاعتدال وأنه أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب أهل السنة وأبعد عن مدرسة ابن عربى .. وفى ذلك يقول أبو الوفا التفتازانى (كان تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء - وهم أركان المدرسة الشاذلية - مبتعداً تماماً عن مدرسة ابن عربى فى وحدة الوجود، فلم يكن واحد منهم قائلًا بهذا المذهب، ولكن هذا لا يعنى أنه لم تكن هناك صلات بين مدرسة ابن عربى والمدرسة الشاذلية، فالمدرستان تفرعتا عن استاذ مغربى واحد هو «أبو مدين الغوث التلمسانى» المتوفى ٥٩٤هـ، وهو الذى يمثل مذهب الغناء فى التوحيد خير تمثيل، وتلمذ عليه ابن عربى وكثير من شيوخ الشاذلى، ثم هناك إلى جانب هذا اتصال بين الشاذلى وبين بعض أصحاب ابن عربى، وقع فى مصر، وتبادل فيه الطرفان الكلام فى حقائق التصوف) (٢).

فالكتاب يؤكد الصلات بين ابن عربى والشاذلى، وإن تلك الصلات بدأت بالأخذ عن استاذ واحد، واستمرت بين تلاميذ ابن عربى والشاذلى، ومع ذلك اختلف التصوف لدى الفريقين، وذلك فرض يعوزه الدليل النقلي عن الشاذلى الذى يؤكد أن طريقه كان مبتعداً

(١) الطبقات الكبرى : ج١/١٥٧ وجوهرة الدسوقى ٩٩.

(٢) التفتازانى : ابن عطاء الله وتصوفه ٤٦.

تماماً عن ابن عربي، وإن تلك اللقاءات بين الفريقين لا بد أن يظهر فيها التباين في الآراء الصوفية بينهما، وربما تسفر عن قطيعة شأن المختلفين في العقائد .. إلا أن الكاتب بدل أن يثبت ذلك أثبت العكس حين قال (ولم يطعن الشاذلي والمرسي وابن عطاء في القائلين بالوحدة والحلول، ولا في حكيم الإشراق السهروردي المقتول الذي كان المرسي يتمثل أحياناً ببعض شعره في الحب ولا في أبي يزيد البسطامي ..) (١).

وقد يكون من الأفضل أن نتعرف على عقيدة الشاذلي والمرسي من خلال ما كتبه تلميذهما ابن عطاء في (لطائف المنن) لنرى إلى أي حد تأثرت الشاذلية بأراء ابن عربي وعبرت عن عقيدة الاتحاد ووحدة الوجود .. يقول الشاذلي (في بعض كتب الله تعالى المنزلة على بعض أنبيائه : من أطاعني في كل شيء أطعته في كل شيء) (٢). وذلك حديث مفترى يسوى بين الخالق - وطاعته واجبة - والمخلوق وهو مطالب بالطاعة ويثاب عليها بالنجاة من النار ودخول الجنة بفضل الله وتكرمه، والمهم أن الشاذلي (وهو يفترى هذا الحديث الذي نسبه إلى بعض الكتب المنزلة ولم يعينها - على بعض الرسل - ولم يعرفنا بهم) بعد ذلك خلص إلى غرضه الأساسي، وهو شرح هذا القول في ضوء فهمه لعقيدة الصوفية في الاتحاد ووحدة الوجود .. (فقال الشيخ أبو الحسن : من أطاعني في كل شيء بهجرانه لكل شيء، أطعته في كل شيء بأن أتجلى له دون كل شيء، حتى يراني أقرب إليه من كل شيء، هذه طريقة أولى وهي طريقة السالكين، وطريقة كبرى : من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء، يحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له في كل شيء، حتى يراني في كل شيء، وإذا قد عرفت هذا فأعلم أنهما ولايتان : ولي يغني عن كل شيء فلا يشهد مع إله شيئاً، ولي يبقى في كل شيء فيشهد الله تعالى في كل شيء، وهذا أتم) (٣).

فعبر الشاذلي عن الاتحاد أو طريقة السالكين (بأن أتجلى له دون كل شيء حتى يراني أقرب إليه من كل شيء) وهو صوفي (لا يشهد مع الله شيئاً) أو بتعبير الغزالي

(١) نفس المرجع ٤٨.

(٢)، (٣) لطائف المنن ٣٩ : ٤٠ مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

(لا يرى إلا فاعلاً واحداً)، وعن وحدة الوجود قال (وطريقة كبرى .. أطعته فى كل شىء بأن اتجلى له فى كل شىء حتى يرانى فى كل شىء) والصوفى حينئذ (يشهد لله تعالى فى كل شىء، وهذا أتم) ..

وشرح الشاذلى (القرب) فى ضوء عقيدة الاتحاد فقال (حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب العظيم، القرب لمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، كلما دنا تزايد ريحها، فإذا دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه)^(١).

ويقول الشاذلى (الصوفى من يرى الخلق لا موجودين ولا معدومين ..) وقال (إنا لا نرى أحداً من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان لابد فكالهباء فى الهواء إن فتشته لم تجد شيئاً)^(٢). وهو متأثر بقول ابن عربى (إن شئت قلت هو الخلق وإن شئت قلت هو الحق وإن شئت قلت هو الخلق الحق .. وإن شئت قلت بالحيرة فى ذلك)^(٣) فقال الشاذلى (إن الخلق لا موجودين ولا معدومين) .. واعتبر وجود الخلق (كالهباء فى الهواء) ..

وقد سبق القول فى أن ابن عربى ارتفع بمكانة الإنسان حتى جعله بالنسبة لله تعالى (بمنزلة إنسان العين من العين الذى به يكون النظر) .. وقد تأثر به الدسوقى فجعل من نفسه الأصل الذى تصدر عنه مظاهر الأشياء، كما عرضنا فى شرح قصيدته السابقة، ثم ألمح الشاذلى إلى هذه النقطة حين جعل نفسه يتحد مع تلميذه المرسى فقال له (يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت)^(٤) وتأسيساً على ذلك فقد رويت أسطورة منامية بعد موت الشاذلى جعلته يحل فى شخص المرسى، يقول ابن عطاء (واخبرنى بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل

(١) نفس المرجع ٤٢.

(٢) نفس المرجع ١٩٩.

(٣) الفصوص ١٣٤.

(٤) لطائف المنن المرجع السابق ٩٦.

من السماء والشيخ أبو العباس مترقب لنزوله متأهب له، قرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجله في الأرض وتهياً لنزوله عليه فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه^(١).

أى أن الشاذلى ادعى أنه الذى يتحد بخليفته، ثم جاء اتباعه فجعلوا من الشاذلى "بعد موته- ينزل من السماء ليحل فى شخص تلميذه المرسى .. والشاذلى يرى أن شأن الولي الحقيقى -ويقصد نفسه- هو أن يكون عين الاسم الأعظم لله تعالى^(٢).

وقد كان ابن مشيش هو الشيخ المباشر للشاذلى، ولا زالت صلاة ابن مشيش هي الورد المفضل للشاذلية حتى اليوم .. وفيها يقول ابن مشيش (وزجنى فى بحار الأحدية، وانتلنى من أحوال التوحيد، واغرقنى فى بحر عين الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بك)^(٣). فابن مشيش لا يكتفى بإدعاء الوحدة وأن يكون فى عين ذات الله وإنما يعتبر التوحيد الإسلامى -دين الله- أحوالاً يترفع عن التدين به، ويبغى الفرار منه إلى الاتحاد بذات الله والفرق (فى بحر عين الوحدة) ..

ويبدو تأثير الشاذلى بصلاة ابن مشيش .. فهو يقول فى دعائه (اجعلنى عندك دائماً وبك قائماً .. واسقط البين بينى وبينك حتى لا يكون شىء أقرب إلى منك ولا تحجبني بك عنك)^(٤). ويقول (اللهم هب لي من النور الذى رأى به رسولك ما كان وما يكون، ليكون العبد بوصفى سيده لا بوصف نفسه)^(٥).

ويقول الشاذلى فى حزيه (اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضر معه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهب لى منه سرّاً لا تضر معه الذنوب شيئاً .. وأدرج اسمائى تحت اسمائك وصفاتى تحت صفاتك وأفعالى تحت أفعالك .. واغننى حتى تغنى بى وأحبنى حتى تحيا بى)^(٦).

(١) لطائف المنن المرجع السابق ١١٢.

(٢) لطائف المنن المرجع السابق ٨٨.

(٣) شرح صلاة ابن مشيش ٢٢٥ : ٢٢٦ مخطوط ..

(٤)، (٥) لطائف المنن ٢٤٧.

(٦) نفس المرجع ٢٦٥ : ٢٦٦.

٨ - ولم يتخلف ابو العباس المرسى عن ركب شيخه، يقول عن خاصة الأولياء واحسبه يقصد نفسه (إن لله تعالى عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته، وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا فى بحر الذات وتيار الصفات، فهى إذن فئات ثلاث : أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته .. فإذا افنالك عنك ابقاك به ..) (١).

ويقول المرسى يصف ألوهية الولي الصوفي المتحد بالله (لو كُشف عن حقيقة الولي لعُبد، لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته) (٢) أى لو عرف المحجوبون من البشر حقيقة ألوهية الولي الصوفي لعبدوه، لأن صفاته من صفات الله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً..)

ويقول تعليقاً على نظرة الصوفية لسجود الملائكة لآدم (اطلعنى الله تعالى على الملائكة ساجدة لآدم فأخذت بقسطى من ذلك فإذا أنا أقول :

و تجلت للسر شمس سمائي	ذاب رسمى وصح صدق فنائي
ما انطوى فى الصفات بعد صفائي	وتنزلت فى العوالم أبدى
ووجودى كالليل يخفى سوائى	فصفائى كالشمس تبدى صفها
من رآنى فساجدٌ لبهائى	أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً
أشهدونى فقد كشفت غطائى (٣)	أى نور لأهله مستبين

وفى البيتين الأخيرين عبر عن تطرف ابن عربى فى تفضيل الإنسان -أو الولي الصوفى- على الله تعالى.

ويقول التفتازانى (ولقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب صوفية مصر منذ القرن الثالث إلى القرن السابع، سواء منهم من كان مصرياً أو وافداً إلى مصر ومقيمًا بها ما يلى : ١ - لم يقل واحد منهم بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد .. ٢ - بخلو

(١) لطائف المنن ٣٢ : ٣٣.

(٢) لطائف المنن ٤٥.

(٣) لطائف المنن ٢٣٢.

تصوفهم من العناصر الأجنبية غير الإسلامية، وتصوفهم فى نظرنا بمثل التصوف الإسلامى الخالص^(١).

وهو قول مجاف للحق تماماً، فأين عمر بن الفارض والعفيف التلمسانى وغيرهما؟؟ وشهرتهم بالاتحاد والحلول لا ينكرها أحد من معاصريهم، والتفتازانى نفسه يقول (على أنه منذ القرن السادس الهجرى أيضاً نجد مجموعة أخرى من شيوخ التصوف الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة)، وذكر منهم (سلطان العاشقين الشاعر الصوفى المصرى عمر بن الفارض .. وواضح أنهم قد استفادوا من عديد من المصادر والآراء الأجنبية كالفلسفة اليونانية خصوصاً مذهب الأفلاطونية الحديثة .. وقد أثار متفلسفة الصوفية فقهاء المسلمين واشتدت الحملة عليهم لما ذهبوا إليه من القول بالوحدة الوجودية، وكان أبرز من حمل عليهم ابن تيمية^(٢)) والمهم أن دعوة التفتازانى لتأكيد الاعتدال فى الطريقة الشاذلية التى ينتمى إليها جعلته يبالغ فيسحب ذلك الاعتدال على صوفية مصر جميعاً.. وذلك ما يأباه المنطق والتاريخ معاً ..

٩ - ويتمتع أشياخ الطرق -خاصة البدوى والدسوقى والشاذلى- بتقديس اضطرد مع تتابع السنين .. بما كرسه الأتباع من تأليه وعبادة لهم طبقاً لعقيدة الصوفية .. إلا أن ذلك التقديس المضطرد لا يحجب حقيقة هامة تتمثل فى وجود الإنكار عليهم فى حياتهم مع ما كان للتصوف من دولة زاهرة فى العصر المملوكى ..

أ) فابن دقيق العيد انكر على أحمد البدوى وجاء فى الجواهر السنية (إن مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوى^(٣)). وتنتهى قصة الإنكار بكرامة تجعل ابن دقيق العيد يعتقد ولاية البدوى، ويذكر الشعرانى أن الخطباء فى طنطا انتصروا لأحد المنكرين على البدوى وبنوا له مئذنة عظيمة (فرسها سيدى عبد العال برجله فغارت إلى وقتنا هذا)^(٤)

(١) التفتازانى : ابن عطاء وتصوفه ٥٣، وحوليات آداب القاهرة ص ٦٣ مجلد ٢٥ سنة ٦٣.

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامى : ٢٣ : ٢٤.

(٣) الجواهر السنية ٤١.

(٤) الطبقات الكبرى ج ١/ ١٦٠، ١٦٢.

ب) ولا شك أن ادعاءات الدسوقي المتطرفة قد آثارت الإنكار عليه، فكان يقول (عليكم بتصديقي القوم في كل ما يدعون، فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزون، فإن الله تعالى قذف في سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل .. ما أنا قلت، هذا من عندي إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى فما للعاقل إلا التسليم وإلا حرم فوائدهم وخسر الدارين)^(١). أى أن الدسوقي يرد الإنكار بما يستوجب الإنكار، إذ فضل الولي الصوفي على النبي والملائكة ولا دليل له من كتاب أو منطق، وإنما من كلام الصوفية وأحاديثهم أو على حد قوله (إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى) ...

والطريف أن الدسوقي قد أوسع مكاناً في النار للمنكرين عليه وأحبط أعمالهم.. وذلك في معرض استعراض ألوهيته يوم القيامة يقول (ومن كراماتنا .. أنى سددت أبواب جهنم السبع بفوطى وفتحتها لأعدائى وأدخلتهم فيها، ومنها أنى فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدي وأدخلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيها، ومنها أن صنع الميزان بيدي أصبر حسنات مريدي أثقل من سيئاته، ومسيت عليها بيدي فصارت سيئات المنكرين على أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين)^(٢).

وقد لعب الإنكار على الشاذلى دوراً هاماً في حياته، مع أنه اشتهر ظاهرياً بالاعتدال ومعلوم أن الإنكار دائماً من نصيب الصوفي المتطرف في العصر المملوكى ويزداد الإنكار بإزدياد تطرف الصوفي في ادعاءاته :

يقول الشعراني عن سبب مجيء الشاذلى إلى مصر (وأخرجوا أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه من بلاد المغرب بجماعته، ثم كاتبوا نائب الاسكندرية بأنه سيقدم عليكم مغربى زنديق وقد أخرجناه من بلادنا فالحذر من الاجتماع عليه، فجاء الشيخ إلى الاسكندرية فوجد أهلها يسبون، ثم وشوا به إلى السلطان، ولم يزل فى الأذى حتى حج بالناس)^(٣).

(١) الطبقات الكبرى ج١/ ١٥٠.

(٢) طبقات الشرنوبى ٤٠٣. مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦.

(٣) الطبقات الكبرى ج١/ ١٠.

وقد فطن الشاذلى إلى نقطة الضعف في الإنكار عليه، وهى اقتصره على الصوفية المعاصرين مع تقدير وتقديس أوائل الصوفية، فاتخذ الشاذلى من ذلك تكة للهجوم عليهم يقول (صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا فى زمنهم كـمعروف والسرى والجنيد واشباههم، وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم فهى كمال قال الشيخ أبو الحسن : والله ما هى إلا إسرائيلية، صدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أدركوا زمنه)^(١). وواضح أنه يطلب الإيمان والتصديق بالأولياء الصوفية وعدم التكذيب بهم كالأنبيا. ولكن طبقاً لعقيدة التصوف فى تأليه الولي الصوفي والإيمان به إلاهاً.

وكان ابن عطاء السكندري فى بدايته ينكر على المرسى ويقول (هؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة وظاهر الشرع يأبها)^(٢).

والمرسى عبر عن طبيعة الإنكار على الصوفية فى عصره على نسق ما قاله شيخه الشاذلى فيقول (يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً، حتى إذا مات قالوا كان فلان، وربما دخل فى طريق الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها فى حياته)^(٣).

وكان جد ابن عطاء من المنكرين على الشاذلى والمرسى ومن العلماء، وقد استنسخ ابن عطاء كتاباً للمرسي، فأعجب بصيغته وإن لم ينس حقه على جد ابن عطاء، فقال فى معرض مدحه له (هذا الكتاب استنسخه لى ابن عطاء الله، والله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف)^(٤)..

وتنكب ابن عطاء طريق جده، فأصبح علماً للمدرسة الشاذلية ومؤرخاً لها، فأصبح مثلاً يجسد انتشار التصوف والطرق الصوفية، حتى أن الطريقة الأحمدية المنتمية للبدوى تخطت حدود مصر إلى الشام فاصطدمت هناك بزعيم الفقهاء ابن تيمية..

(١) ابن عطاء .. لطائف المتن ٦٦.

(٢) ابن عطاء .. لطائف المتن ١١٩.

(٣) ابن عطاء .. لطائف المتن ٩٤.

(٤) ابن عطاء .. لطائف المتن ١١٦.

ثانياً : وحدة الوجود وصراع الصوفية من أتباع

ابن عربي مع الفقهاء في القرن الثامن

(أ) ابن تيمية ونصر المنبجي :

فتح هذا القرن عينيه ليشهد ثورة الفقهاء بزعامة ابن تيمية على نفوذ أتباع ابن عربي في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ممثلاً في نصر المنبجي الذي سيطر على السلطان المملوكي بيبرس الجاشنكير، وقد اغتصب العرش من الناصر محمد بن قلاوون..

١ - محاكمة ابن تيمية الأولى في الشام ..

ونتابع المؤرخ الأمير بيبرس النواذري وهو معاصر لهذه الفترة، يقول أن مجلساً عقد لمحاكمة ابن تيمية في رجب ٥-٧ «وسألوه في مواضع خارجاً عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكاني من غير مسامحة، وانفصل الأمر بينهم على أنه أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعي المذهب، وابتهج أصحاب الشيخ وقالوا : ظهر الحق مع شيخنا، فعزروا أحدهم، ثم حبس أحد أصحاب ابن تيمية لأنه قرأ فصلاً في الرد على الجهمية من تصنيف البخاري، فظنوا أنهم المقصودون بالكفر، فأخرجوه ابن تيمية من الحبس، وتنازعوا، وكان نائب السلطان (في الشام) غائباً في الصيد، فلما جاء اعتقل من أكثر من الكلام من الطائفتين (الفقهاء والصوفية)، وهدد من تكلم في العقائد ليخمد الفتنة»..

٢ - محاكمته الثانية في مصر :

«وقد اجتمع القضاء للبحث في العقيدة وانتهى الاجتماع بين ابن الوكيل وابن الزملكاني بأن جعل القاضي نجم الدين بن صيصري قاضي القضاة يعزل نفسه رغم إلحاح الأمراء عليه، ثم ورد من مصر بعودته للحكم، ومضمون أحد الكتابين يقول : قد فرحنا بإجماع رأي العلماء على عقيدة الشيخ تقي الدين (ابن تيمية)، فباشر القاضي نجم الدين

مستهل شهر رمضان وسكنت الفتنة، ثم ورد مرسوم آخر فى (٥) رمضان بطلب نجم الدين بن صصرى وابن تيمية وابن الزملكاني، وفيه إنكار على ابن تيمية، ثم وصل مملوك ملك الأمراء (يقصد بيبرس النجاشنكير ولم يكن قد تولى السلطنة رسمياً) على البريد، وأخبر إن الطلب على ابن تيمية حثيث، وإن القاضى المالكي ابن مخلوف قد قام فى الأمر قياماً عظيماً، وإن بيبرس النجاشنكير معه فى الأمر، وأخبر بأشياء كثيرة وقعت فى مصر فى حق الحنابلة (أتباع ابن تيمية) وإن بعضهم أهيين، وإن القاضى المالكي (المنحاز للصوفية) والحنبل (المؤيد للفقهاء) جرى بينهما كلام كثير، فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم فوصلوا فى رمضان، وعقد مجلس لابن تيمية فى دار النيابة (بمصر) بحضور سلازل العلماء والأئمة والقضاة الأربعة وبيبرس، قاعدى ابن عدلان القاضى الشافعى على ابن تيمية دعوى شرعية فى عقيدته، فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل، فقالوا له : يا شيخ الذى بتقوله معلوم ولا حاجة للإطالة، وأنت قد ادعى عليك هذا القاضى بدعوى شرعية أجب عليها، فأعاد القول فى التعميد فلم يمكنه فى تتمه تحاميده، فقال عند من هى هذه الدعوى؟ فقالوا : عند القاضى زين الدين المالكي، فقال : عدوى وعدو مذهبي .. وطال الأمر، فحكم القاضى المالكي باعتقاله، فاعتقل، وسجن أخوته فى برج من أبراج القلعة .. وبلغ القاضى أن جماعة من الأمراء يترددون إليه وينفذون إليه المأكّل، فطلع القاضى للأمير ركن الدين بيبرس فى قضيته، وقال : هذا يجب عليه التضبيب إذا لم يقتل وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه هو وإخوته ليلة عيد الفطر إلى الجب بالقلعة .. ثم كتب إلى دمشق كتاباً يتضمن حل دم ومال من اعتقد عقيدة ابن تيمية، وقرأ الكتاب بجامع دمشق وألزم به الحنابلة خصوصاً (١).

٣ - سبب المحاكمات :

ويقول المؤرخ بيبرس الداودار تحت عنوان (ذكر السبب الموجب لهذه الفتنة المذكورة) يعلل السبب الحقيقى فى اعتقاله : (أحضر بعض أصحاب ابن تيمية له (فصوص الحكم) لابن عربى، فرأى فيه الشيعة مسائل تخالف اعتقاده، فشرح فى لعن

(١) ابن أبيك الداودارى : سيرة الناصر ١٣٣ : ١٣٨.

ابن العربي وسب أصحابه ممن يعتقد اعتقاده، ثم اعتكف الشيخ (ابن تيمية) في شهر رمضان وصنف نقيضه وسماه (النصوص على الفصوص)، وبين فيه الخلأ الذي ذكره ابن عربي .. وبلغه أن شيخ الشيوخ كريم الدين شيخ خانقاه محمد السعداء بالقاهرة له اشتغال بمصنفات ابن عربي وأنه يعظمه تعظيماً كبيراً، وكذلك الشيخ نصر المنبجي (ت ٧١٩)، ثم إن الشيخ صنف كتابين فيهما إنكار كثير على تأليف ابن العربي ولعنه فيهما مصرحاً ولعن من يقول بقوله، وسير الكتاب الواحد للشيخ نصر المنبجي والشيخ كريم الدين، فلما وقف عليه الشيخ نصر تألم، وكانت له منزلة عند ركن الدين بيبرس (الجاشنكير المتحكم في السلطنة) الذي لا يقوم ولا يقعد إلا به، وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يتزددون عند الشيخ نصر لأجل منزلة عند بيبرس الجاشنكير، فحضر عنده القاضي ابن مخلوف المالكي عقيب وقوف نصر على كتاب ابن تيمية، فأوقفه على الكتاب المذكور، فقال له القاضي : أوقف الأمير ركن الدين بيبرس عليه وقرر ما أحببت وأنا معك كيف شئت، وألزم الأمير ركن الدين بطلبه إلى الديار المصرية ونسأله عن عقيدته فقد بلغني أنه أفسد عقول جماعة كبيرة، وهو يقول بالتجسيم، وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر ووجب قتله .. فلما حضر الأمير ركن الدين عند الشيخ نصر على عادته أجرى له ذكر ابن تيمية وأمر عقيدته، وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة، ومن جعلتهم نائب الشام وأكبر الأمراء الشاميين، والمصلحة تقتضي طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته وتقرأ على السلاطین بالديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده سائر من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنباً آخر، حتى حرص بيبرس على طلبه^(١).

أى صار لعقيدة وحدة الوجود النفوذ والسيادة في مطلع القرن الثامن ممثلة في تسلط نصر المنبجي على عناصر السلطة المملوكية (بيبرس الجاشنكير) والقضاة، (وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يتزددون عند الشيخ نصر لأجل منزلة عند بيبرس الجاشنكير) وزين القاضي ابن مخلوف لنصر المنبجي استحضار ابن تيمية لمصر حيث يتمكن من قتله متهماً بالكفر ..

(١) ابن أبيك الداوداري : سيرة الناصر ١٤٣.

واعتبرا معاً أن دعوة ابن تيمية ضد العقيدة الصوفية بمثابة (إفساد لعقول جماعة كبيرة) .. وأثار نصر المنجي خوف بيبرس الجاشنكير من ابن تيمية، منها أنه ضم إليه (نائب الشام) (وأكبر الأُمراء)، وذكر له ذنباً آخر حتى حرص بيبرس على طلبه ..

وكان ابن تيمية قد تعرض لمحاكمة في الشام من أعوان الصوفية اتخذ صورة الخلاف الفقهي (وانفصل الأمر بينهم على أنه اشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعي المذهب) ومع أن العقائد كانت فحوى الخلاف وأساسه، إلا أنهم تجاهلوا ذلك تحرجاً من إعلان عقيدة الصوفية، حتى لا تتعرض لتفتيد ابن تيمية ومناقشته، لذا (سألوه في مواضع خارجاً عن العقيدة) ..

وكان موقف المماليك في الشام معتدلاً، فاعتقل النائب المملوكي (من أكثر من الكلام من الطائفتين وهدد من تكلم في العقائد ليخمد الفتنة) .. ثم وردت من مصر موافقة على مذهب ابن تيمية، ثم حدث الانقلاب وحملوا ابن تيمية إلى مصر، وذلك بعد أن وصل لنصر المنجي كتاب ابن تيمية في لعن ابن عربي واتباعه .. وأخبر البريد (أن الطلب على ابن تيمية حثيث، وأن القاضي ابن مخلوف قد قام في الأمر قياماً عظيماً، وأن بيبرس الجاشنكير معه في الأمر).

واستمر تجاهل الصوفية في مصر لموضوع العقيدة أثناء محاكمة ابن تيمية فاشتطوا في منع ابن تيمية من شرح عقيدته .. فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته في فصل طويل، فقالوا له : يا شيخ الذي بتقوله معلوم ولا حاجة للإطالة، بل منعه في ذلك المجلس الذي عقد لمحاكمته - من مجرد تحميد الله والبدء في الكلام .. وكان التحامل واضحاً على ابن تيمية تنفيذاً للمخطط الذي وضعه ابن مخلوف وباركه نصر المنجي ووافق عليه بيبرس الجاشنكير .. وانتهى الأمر بحكم ابن مخلوف باعتقال ابن تيمية، ثم لم يكتف بذلك فسعى لدى بيبرس الجاشنكير حتى منع الأُمراء من الاتصال به، وما زال به حتى حبسه في الجُب، وهدد اتباعه من الحنابلة بالقتل إذا انكروا على عقائد الصوفية الاتحادية ..

وأشاع الصوفية بين الناس أن خلافتهم مع ابن تيمية فقهى لا يتطرق إلى العقائد حتى أن المؤرخين اللاحقين لهذه الفترة صدقوا هذه الفرية فقال المقرئى (حبس ابن تيمية بسبب مسألة الطلاق)^(١). وأنه أفرج عنه (وشرط عليه ألا يفتى بمسألة الطلاق)^(٢). ونقل ذلك عن المقرئى المؤرخ ابن العماد الحنبلى فى القرن الحادى عشر وردد ذلك بمعناه^(٣).

واضطهد اتباع ابن تيمية وهو فى المعتقل (جرت فتن للحنابلة بمدينة بلبيس ثم انتقل الحال للقاهرة وحصل لبعض الحنابلة - (اتباع ابن تيمية) أهانة واعتقل منهم جماعة، وجرت فتن عظيمة بين الأشاعرة والحنابلة بالشام، وكان النائب غائباً للصيد فلما حضر أمر بإصلاح ذات البين، وأقر كل طائفة على حالها، وجرى فى القاهرة أيضاً على الحنابلة أمور شنيعة والزموهم بالرجوع عن العقيدة، وجرى عليهم كل مكروه)^(٤).

ولا ريب أن جهل القضاة - مع تسليمهم للتصوف وخضوعهم للصوفية والحكام - أدى إلى تباعد بين ابن تيمية وبقية الفقهاء فى مصر، مع أنهم جميعاً من أسياف الفقه أو يجب أن يكونوا كذلك ..

وقد اعترف خصمه كمال الدين الزملىكانى بأن ابن تيمية (اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها)^(٥). وقال ابن الوردى عنه (أعان أعداءه على نفسه بدخوله فى مسائل كبار لا يحتملها عقول أبناء زماننا ولا علومهم)^(٦). وعقائد الاتحاد ووحدة الوجود كانت أبرز المسائل الكبار التى لم يحتملها خصوم ابن تيمية من الفقهاء. وفى تاريخ ابن ابيك الداودار إشارات كثيرة تنم عن جهل القضاة مع مزيد التعصب، يقول مثلاً (وكان بعد قيام ابن تيمية قد تكلم ابن جماعة فى القرآن وعقيدة الشافعى، فقبل لقاضى القضاة الحنفى ما تقول ؟ قال : كذا، فقبل لشرف الدين قاض القضاة الحنبلى : ما تقول ؟ فتلجلج، فقال له شمس الدين المالكى قم جده إسلامك وإلا الحقوك بابن

(١)، (٢) السلوك ١/٢/١٨٥، ٢٩٥.

(٣) شذرات الذهب ج٦/٧٣. (٤) سيرة الناصر ١٤٥.

(٥)، (٦) تاريخ ابن الوردى ج٢/٢٨٨، ٢٨٩.

التيمية.. فنجعل فلقته القاضى بدر الدين بن جماعة القول فقال مثل قوله^(١). ويقول
(وكان القاضى شرف الدين الحنبلى قليل البضاعة فى العلم ولم يدر ما يجب به)^(٢).

ومن أمثال هؤلاء الفقهاء ننتظر منهم الحقد على ابن تيمية لأنه يذكرهم بقصورهم العلمى والعقلى حتى أن الأمير سلال (شريك بيدرس فى الحكم) جمع القضاء الأربعة وكبار الفقهاء (وتكلم معهم فى إخراج ابن تيمية فوافقوا على أن يشترط عليه أمور ويلزم بالرجوع عن العقيدة، فأرسلوا إليه من يحضره ليتكلموا معه فى ذلك، فلم يجب إلى الحضور، وتكرر إليه الرسول ست دفعات وهو مصمم على عدم الحضور، وطال عليهم المجلس فانصرفوا على غير شيء)^(٣). أى أن ابن تيمية من ناحيته كان يعاملهم باحتقار، حتى وهو فى السجن.

٤ - التآمر على ابن تيمية فى المعتقل وخارج المعتقل :

وقد مارس الصوفية الضغط على ابن تيمية وهو فى المعتقل حتى يسلم لهم بعقائدهم ويكف عن الإنكار عليهم فى نظير إخراجهم، فكان نصر المنبجى يدعوه للصلح وبعد أن يحصل على موافقته يرفض الصلح معه إلا بعد أن يتنازل عن آرائه، يقول صاحب مخطوطه (تكسير الأحجار) التى فصلت حياة ابن تيمية فى المعتقل (لما كان الشيخ فى قاعة الترسيم جاءه شمس الدين الدباهى للصلح بينه وبين نصر المنبجى، فقال ابن تيمية: أنا أجيب إلى ذلك، فذهب إلى نصر وعنده المشايخ التدامرة، وعرض عليه الأمر، فقال يا سيدى وكم كتبنا إلى الشيخ مثل هذا وما يسمع منا .. فقال له اكتب إنك أجبت إلى ذلك، فقال : إن كتب الشيخ كتبت فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح إلى ابن تيمى فكتب : أجبت إلى ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فقال الدباهى لنصر : اكتب مع الشيخ مثل ما قلت وعاهدت الله عليه، فقال ما بقيت أكتب شيء، فقال له شمس الدين : عاديتك فى الله،

(١) سيرة الناصر ١٣٨.

(٢) سيرة الناصر ١٤٥.

(٣) سيرة الناصر ١٤٦.

وكشف رأسه وقال ثم نبتهل ثم نبتهل، وقام من عنده فسير الشيخ نصر لوالى المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية ومسك (اعتقال) أصحابه واعتقالهم، فسير الوالى نائبه فكبس البيت وقصدوا اعتقال شرف الدين أخى الشيخ، ولكنه هرب وأمسك أصحاب الشيخ واعتقلهم فى بيته ومنع الناس من الدخول على الشيخ .. وفى تلك الأيام جاءت المشايخ التدامرة ابراهيم وأبو بكر إلى الشيخ وقالوا له : قد اجتمعنا بهؤلاء القاتمين عليك وقالوا قد بلشنا به والناس يتلعنا بسببه، وقد قلنا أنا قد أخذناه بحكم الشرع فى الظاهر فيبصر شيء لا يكون علينا ولا عليه فيه رد، فيكتبه لنا ونتفق نحن وهو عليه، فلما قالوا له ذلك قال لهم : أنا منشرح الصدر وما عندى قلق، وهم برا الحيس فلم يقلقون؟ .. ثم أنهم بعد أيام جاءوا إلى عنده، وقال له : قد وقفوا على الورقة، وقالوا هذا رجل محتاج خصم وماله قلب يفرع به من الملوك، وقد اجتمع بغزان (غازان الذى غزا دمشق) ملك التتر وكبار دولته وما خافهم، ومتى اجتمع بالسلطان والدولة قرأ عليهم كتاب الفصرص الذى كانت الفتنة بسببه قتلونا أو قطعونا من المناصب، ويقال عنا أنه ما خرج من الحيس حتى دخلتم تحت ما اشترط عليكم، ابعثوا أنتم اشرطوا عليه ما أردتم، فإنه ما يدخل تحته فتكونوا قد عذرتهم فيه، فلما أخبروه بذلك المشايخ التدامرة، قالوا يا سيدى قد حملونا كلام نقوله لك وحلفوا إلينا أنه ما يطلع عليه غيرنا : أن تنزل لهم عن مسألة العرش ومسألة القرآن وتأخذ خطك بذلك توقف عليه السلطان، ونقول له هذا الذى نحبس ابن تيمية عليه قد رجع عنه، ونقطع نحن الورقة، فقال لهم . بيدعوني أن أكتب خطى أن ما فوق العرش رب يعبد ولا فى المصاحف قرآن ولا لله فى الأرض كلام، ودق بعمامته الأرض، وقام واقف ورفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنى اشهدك على أنهم بيدعوني أنى أكذبك وبكتابك وبرسلك وأن هذا الشيء ما بأعمله وقالوا له كل هذا بيعملوه حتى توافقهم وهم عمالين على قتلك أو نفيك أو حبسك، فقال لهم أنا إن قتلت كانت لى شهادة وإن نفونى كانت لى هجرة وإن حبسونى كان لى معبد، وأنا مثل الغنمة كيف ما تقلبت تقلبت على صوف، فياسوا منه، وانصرفوا، فلما كان بعد صلاة المغرب جا نايب والى المدينة بدر الدين المحسنى، عماد الدين ابن العفيف، ومعه جماعته فقال يا سيدى

بسم الله، قال له الشيخ إلى أين؟ قال إلى الاسكندرية، وقد رسم السلطان بذلك الساعة^(١).

وقال ابن كثير أنهم لم يستطيعوا النيل من ابن تيمية وهو فى السجن فاشتروا فى أمره، واتفقوا على نفيه للأسكندرية، ولا نصير له هناك حتى يقتله أحد اتباع ابن عربى فيها (فيتخلصون منه دون مشاكل، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة، وصار له اتباع فيها)^(٢).

ثم توسط الأمير حسام الدين مهنا وكلم السلطان من أجله، فأمر بإطلاق سراحه، وتوجه الأمير حسام الدين بنفسه للسجن وأخرجه^(٣)، ولم يسكت الصوفية عنه، خاصة وأنه لم يسترح بعد خروجه من المعتقل فأخذ فى مباحثة الفقهاء بحضرة الأمير سلا، وعقدت مجالس أخرى بالمدرسة الصالحية^(٤) فكان أن أثار الصوفية عليه الغوغاء فامتدت أيديهم للشيخ بالضرب والأذى، فتجمع أهالى الحسينية ليثاروا للشيخ، فألح عليهم ابن تيمية بالرجوع لأنه لا ينتصر لنفسه، وفى نفس هذا الشهر رجب ٧١١ اعتدى عليه آخر بالقول المفزع، وأخيراً لجأ الصوفية للسلطان وتجهروا حول القلعة. وتزعمهم فى هذا ابن يعقوب البكرى (ت ٧٢٤) الذى (قام على ابن تيمية وأنكر ما يقوله وأذاه حين دخل مصر)^(٥) وابن عطاء الله السكندرى وكان (المتكلم على لسان الصوفية فى زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية فبالغ فى ذلك)^(٦).

ومع ذلك تزايد اتباع ابن تيمية وكان (الناس يجتمعون به ويهرعون إليه ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة ٧١٢)^(٧).

(١) تكسير الأحجار التى افتتن بها أهل الجهل والإغترار لابن برهان الدين. مخطوط بدار الكتب رقم

٤٠٤ مجاميع تيمورية.

(٢) تاريخ ابن كثير ج٤/٤٦، ٥٠.

(٣) سيرة الناصر ١٥٠.

(٤) سيرة الناصر ١٥١.

(٥) شذرات الذهب ج٦/٦٤ تاريخ ابن كثير ج٤/٤٦ : ٥٠.

(٦) شذرات الذهب ج٦/١٩.

(٧) سيرة الناصر ١٥١.

(ب) آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء

في القرن الثامن

مدرسة ابن تيمية الفقهية المناوئة للصوفية :

١ - أسفرت جهود ابن تيمية عن تكوين مدرسة فقهية ابتعدت عن خط القضاة وكبار الفقهاء الذين دانوا بالصوف ودافعوا عنه .. وتحمل أولئك التلاميذ الكثير من عنت الفقهاء والصوفية أثناء محنة أستاذهم، وبرزهم : ابن قيم الجوزية^(١) وابن مري البعلبكي وابن شاس^(٢)، وعلى عبد الله الاسكندري^(٣) ..

٢ - واستمرت مدرسة ابن تيمية بعد موته تنادى بمبادئه وتدافع عنه وعنهما وتحمل في سبيل ذلك الكثير من الأذى، ومنهم المؤرخ ابن كثير^(٤) وابن البرهان المصري^(٥) وابن ماجد^(٦) وأبو بكر الهاشمي^(٧)، وإبراهيم الآمدي^(٨) وابن المنصفي^(٩) وابن عبد الله الناسخ^(١٠) وابن المسحب الحافظ^(١١) وابن الأعمى المصري^(١٢) وصدر الدين اليوسفي^(١٣) والفزل^(١٤) والحمصي^(١٥) وابن السكري^(١٦) ..

(١) السلوك ج١/٢٧٣.

(٢) السلوك ج٢/١/٢٦٣، الدرر الكامنة ج٢/٣٢٣.

(٣) تاريخ الجزري. مخطوط ج١/١٧ : ١٨.

(٤) ذيل ابن العراقي. مخطوط ١٤٦.

(٥) عقد الجمان. مخطوط وفيات ٨٠٨، إنباء الغمر ج٢/٣٣٢ : ٣٣٣.

(٦) شذرات الذهب ج٦/٢٨٢. (٧) إنباء الغمر ج٢/٢٢٩ : ٥٢٩.

(٨) الدرر الكامنة ج١/٢٧ : ٢٧. (٩) إنباء الغمر ج٢/١٨٦ : ١٨٦.

(١٠) إنباء الغمر ج٣/٤٢ : ٤٢.

(١١) شذرات الذهب ج٦/٣٠٤ : ٣٠٥. (١٢) إنباء الغمر ج١/٤٦٤ : ٤٦٤.

(١٣) الدرر الكامنة ج٢/٢٦٢ : ٢٦٢. (١٤) إنباء الغمر ج١/١٨٧ : ١٨٧.

(١٥) إنباء الغمر ج٣/٤٩١ : ٤٩١. (١٦) تاريخ قاضي شهبة : مخطوط ج١/٢٢ : ٢٢.

تكفيرهم لابن عربى .

١ - وأثرت حركة ابن تيمية فى النشاط الفكرى لبعض فقهاء القرن الثامن فناقشوا آراء ابن عربى وحكموا بتكفيره .. ومنهم الفقيه زين الدين العراقى الذى علق على قوله فى الدفاع عن قوم نوح (إنه كلام ضلال وشرك واتحاد والحاد ، فجعل تركهم لعبادة الأوثان التى نهاهم نوح عن عبادتها جهلاً)^(١) . وقال عن تمجيد ابن عربى لعبادة بنى اسرائيل للعجل (هذا الكلام كفر من قائله، من وجوه : أحدهما أنه نسب موسى عليه السلام إلى رضا عبادة قومه للعجل، الثانى : استدلاله بقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) على أنه قدر - أى حكم - أن لا يعبد إلا هو وأن عابد الصنم عابد له، الثالث : أن موسى عتب على أخيه هارون إنكاره لما وقع وهذا كذب على موسى عليه السلام وتكذيب لله فيما أخبر به عن موسى، الرابع : قوله أن العارف يرى الحق فى كل شىء بل يراه عين كل شىء فجعل العجل عين الإله المعبود، فليعجب السامع لمثل هذه الجراءة التى لا تصدر ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان)^(٢) .

ويقول شمس الدين بن الجزرى (وحكمه بصحة عبادة قوم نوح للأصنام كفر، وقوله أن الحق المنزه هو الخلق المشبه كلام باطل متناقض وهو كفر، وقوله فى قوم هود : وحصلوا فى عين القرب افتراء على الله ورد لقوله فىهم، وقوله : زال البعد وصيرورة جهنم فى حقهم نعيماً كذب وتكذيب للشرائع، وأما من يصدقه فيما قال فحكمه كحكمه فى التضليل والتكفير إن كان عالماً، وإن كان ممن لا علم له فإن قال ذلك جهلاً عرف بحقيقة ذلك ويجب تعليمه وردعه عنه مهما أمكن)^(٣) .

وقال زين الدين الكتانى (وقوله فى قوم هود كفر، لأن الله تعالى أخبر فى القرآن العظيم عن عاد : إنهم كفروا بربهم والكفار ليسوا على صراط مستقيم، فالقول بأنهم كانوا عليه مكذب لصريح القرآن ويأثم من سمعه ولم ينكره إذا كان مكلِّفاً، وإن

(١)، (٢) تنبيه الغبى للبقاعى ١٢١، ٥٢ : ١٢٢ .

(٣) تنبيه الغبى ١٥٥ .

رضى به كفر^(١). ومنهج أولئك الفقهاء هو الرد على أقاويل ابن عربى فى الفصوص من الدفاع عن المشركين السابقين الذين ذكرهم القصص القرآنى. وقد كفروا ابن عربى لتأييده لهم، وقد بذل ابن عربى كل جهده فى الدفاع عن أولئك المشركين.

٢ - وبعضهم حكم اجمالاً بتكفير ابن عربى وخروج مذهبه عن الإسلام، ومن أولئك أبو حيان الأندلسى وهو من خلصاء ابن تيمية، وقد قال عن الاتحادية (هم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله ورسوله ويقولون بقدوم العالم وينكرون البعث.. وقد ألع جهلة ممن ينتمى إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله)^(٢)، وقال شرف الدين الزواوى عن الفصوص (وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وضلال وتحريف وتبديل، فمن صدق بذلك أو اعتقد صحته كان كافراً ملحداً صادراً عن سبيل الله...)^(٣).

وقال ابن عقيل البالى فى وحدة الوجود (من صدق هذه المقالة الباطلة أو رضيها كان كافراً بالله تعالى يراق دمه ولا تنفعه التوبة عند مالك وبعض أصحاب الشافعى، ومن سمع هذه المقالة القبيحة تعين عليه إنكارها بلسانه، بل يجب عليه منع قائلها بالضرب إن لم ينزجر باللسان، فإن عجز عن الإنكار بلسانه أو بيده وجب عليه إنكار ذلك بقلبه، وذلك أضعف الإيمان)^(٤). وهى فتوى عملية لحديث «من رأى منكم منكراً...» الذى أشاعه الحنابلة فى محنتهم السابقة عن خلق القرآن، واستطاعوا بهذا الحديث التأثير على الخليفة المتوكل العباسى، فى القرن الثالث الهجرى، ثم دبت الحياة العملية لهذا الحديث فى محنة ابن تيمية فى القرن الثامن، والعادة أن ينتشر هذا الحديث مع سيطرة الفقهاء الحنابلة. وكتب ابن هشام النحوى على نسخة من كتاب الفصوص (هذا كتاب فصوص الظلم ونقيض الحكم وضلال الأمم، كتاب يعجز الذم عن وصفه قد اكتنفه

(١) تنبيه الغبى ١٥٦.

(٢) تنبيه الغبى ١٥٧.

(٣) تنبيه الغبى ١٥٧ : ١٥٨.

(٤) تنبيه الغبى ١٦١.

الباطل من بين يديه ومن خلفه، لقد ضل مؤلفه ضللاً بعيداً وخسر خساراً مبيئاً لأنه مخالف لما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه وفطر عليه خايقته^(١). وقال شمس الدين العيزري عن الفصوص أيضاً (قال العلماء : جميع ما فيه كفر لأنه دائر مع عقيدة الاتحاد)^(٢). وقد سئل سراج الدين البلقيني عن أبي عربي فبادر بالجواب أنه كافر^(٣). وقد قيل في ترجمة ابن الصاحب من أتباع ابن عربي أنه (صرح بالاتحاد فوَقعت له محنة مع الشيخ سراج الدين البلقيني)^(٤).

تكفيرهم ابن الفارض ..

١ - وفي الناحية المقابلة عزز شهاب الدين بن أبي حجلة بحكم القاضي الصوفي السراج الهندي، وكان ابن أبي حجلة (كثير الحط على الاتحادية، وصنف كتاباً عارض به قصاد ابن الفارض، وكان يحط عليه وعلي تحلته ويرميه، ومن يقول بمقالته بالعظام.. وقد أمر ابن أبي حجلة عند موته بأن يوضع الكتاب الذي عارض به ابن الفارض وحط عليه فيه في نعشه ويدفن معه في قبره، ففعل به ذلك)^(٥).

٢ - وفعل آخرون كابن أبي حجلة فصنفوا كتباً في الرد على الفصوص مثل ابن بلبان السعودي، وبدر الدين حسين ابن الأهدل في تصنيفه المسمى (كشف الغطا عن حقائق التوحيد)، وقال عماد الدين الواسطي (أنه علق في ذم هذه الطائفة ثلاثة كراريس الأول سماه البيان المفيد في الفرق بين الإلحاد والتوحيد، الثاني : لوامع الاسترشاد في الفرق بين التوحيد والإلحاد، والثالث : أشعة النصوص في هتك أشعار الفصوص)^(٦).

٣ - وتأثر بعض خصوم ابن تيمية به فلما لبثت أن عاد فقيهاً منكرًا على ابن عربي ومن هؤلاء قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وقد قال أخيراً عن ابن عربي (ومن كان من

(١) تنبيه الغبي ١٦٥.

(٢) تنبيه الغبي ١٦٨.

(٣) تنبيه الغبي ١٧٦.

(٤) شذرات الذهب ج١/٣٠١.

(٥) شذرات الذهب ج١/٢٤٠ : ٢٤١. والدرر الكامنة ج٢/٣٥١.

(٦) تنبيه الغبي ١٥١، ١٥٣.

هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وغيره فهم ضلال جهال خارجون عن طريقة الإسلام فضلاً عن العلماء^(١).

ويذكر أن تقي الدين السبكي عاد يشن على ابن تيمية ويعترف بفضل^(٢).

(ج) آثار هوكة ابن تيمية على

خصومه الصوفية

* هجوم بعضهم على ابن عربي

١ - بعض دهاة الصوفية بادر بالهجوم على ابن عربي وابن تيمية في نفس الوقت مخافة أن يتطرق الإنكار إلى هدم مبدأ التصوف .. ومن أولئك علاء الدين البخاري، وقد كان يبالغ في الحط على ابن تيمية وتكفيره حتى ثارت فتنة بسبب ذلك في الشام^(٣).. وقد صنف البخاري رسالة في نقص مذهب الاتحاد سماها (فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين)، قال في آخرها (أنهم يسمون كفره وملاحدة وزنادقة) ووصف ابن عربي بأنه (كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش)، وقال عن الفصوص (أفتطمعون من مغربي يابس المزاج يأكل الحشيش شيئاً غير ذلك)^(٤).

وحاول البخاري أن يخرج ابن عربي وأصحابه من دائرة التصوف والأولياء، يقول (إن الملاحدة عبروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله يستترون بها في زندقته، فينبغي الحذر من ذلك، فأراد، بالفناء نفى حقائق الأشياء .. وذلك غير ما أراده العارفون فإنهم أرادوا بها معاني يصدقها الشرع)^(٥). وواضح خوفه من وصول الإنكار إلى ابن عربي إلى درجة اتهام التصوف نفسه ..

(١) تنبيه الغبي ١٥٧.

(٢) ترجمته في الدرر الكامنة ..

(٣) إنباء الغمر ج٣/ ٤٧٧.

(٤) تنبيه الغبي ١٨٢ : ١٨٣.

(٥) تنبيه الغبي ١٨٦ : ١٨٧.

٢ - والطريف أن قاضياً للقضاء متعاوناً مع الصوفية ويدين بالتصوف - وهو البساطى - قد فوجئ بموقف علاء الدين البخارى، فقد قال في مجلس عقد فى القرن التاسع - أن كلام ابن عربى يمكن تأويله - وقصد بذلك نفاق علاء الدين البخارى وكان حاضراً المجلس ومعه ابن حجر وعبد الرحمن التفهني والعينى والسيرامى وابن نصر البغدادى وأبو بكر القمنى وابن الأمانة وابن تقي المالكي، فقال له البخارى على رموس الاشهاد : كفرت .. وسلم له من فى المجلس بتكفيره، وما خلص البساطى إلا بالبراءة من اعتقاده أمامهم^(١) .. ثم تشجع البساطى فاعتبر الاتحاديين وابن عربى ضمن القائمين بقدم العالم مع ابن سينا والغارابى، وقال (واعلم أن هذه الضلالة المستحيلة فى العقول سرت فى جماعة من المسلمين، نشأوا فى الابتداء على الزهد والخلو والعبادة، فلما حصلوا من ذلك على شىء صفت أرواحهم وتجردت نفوسهم وتقدست أسرارهم، وانكشف لهم ما كانت الشواغل الشهوانية مانعة من انكشافه)^(٢).

أى أنه يسلم لابن عربى بصفاء الروح وقدسية السر وقيام الكشف أو العلم اللدنى، ويجعل ذلك كله مؤدياً للقول بالاتحاد والوحدة مع أنه وصفها بالضلالة المستحيلة .. فهو يقترب بذلك من رأى العلاء البخارى وإن كان أقل منه مهارة فى التلقيق ..

وقد قام البساطى سالف الذكر بشرح تائيد ابن الفارض بنفس المنهج الرامى إلى التوفيق بين عقيدة ابن الفارض فيها والإسلام، وذلك لصالح الاتحادية ، وقد تكلم على الأبيات على وجه يظهر منها حملها على موافقة الشرع فإن عجز صرح بإعتذارات الصوفية^(٣).

والبساطى معذور، فللبخارى نفوذ فى الدولة، وكان قد تعصب ضد البساطى فى المجلس وأقسم بالله إن لم يعزل السلطان القاضى البساطى ليخرجن من مصر، وأمر

(١) إنشاء القمر ج٣/٣ - ٤٠٣ حوادث ٨٣١.

(٢) تنبيه القبى ١٧٠.

(٣) تنبيه القبى ١٧٤.

السلطان بإحضار القضاة عنده ففتبراً البساطى من مقاله ابن عربى وكفر من يعتقدها (وذلك حتى لا يعزل، واسترضى السلطان علاء الدين وسأله ألا يسافر)^(١). وفى ذلك يقول أبو المحاسن عن البخارى (أنه عزل قاضى القضاة المالكى محمد البساطى وتشاجر معه لأنه حاول أن يؤول كلام ابن عربى ويدافع عنه)^(٢). وكان البخارى ينهى الناس عن مطالعة كتب ابن عربى، ومثله فى ذلك كان الصوفى الإتكاوى ٨٣٤ فى القرن التاسع، مع اعتقاده بعرفان ابن عربى وكمال^(٣).

٣ - ومعنى ذلك أن تأثير ابن تيمية استمر إلى نحو منتصف القرن التاسع فى الصوفية الراميين لخدمة الطريق الصوفى وانقاذه من خطر ابن تيمية ..

ومع ذلك فإن أولئك الصوفية المنكرين على ابن عربى كانوا تلاميذ لقطب الدين بن ميمون فى القرن السابع، وقد اشتهر بإنكاره على الاتحادية وكتب فيهم مبتدئاً بالحلاج، وختم بالعفيف التلمسانى، إلا أنه يقول فى شعره :

لما رأيته مشرقاً فى ذاتى بدلت من حالى ذميم صفاتى

وهى قصيدة طويلة علق عليها ابن الفرات المؤرخ بقوله (ما قال عفيف التلمسانى فى شعره إلا هذا أو ما يقاربه، وهذا هو طريق القوم الذين انكر عليهم)^(٤). أى ينكر على الصوفية الاتحادية، ويقول مثلهم.

٤ - ولولا ابن تيمية ما وجد فى القرن التاسع من ينهج منهج ابن ميمون المعاصر لابن عربى، إذ أن المنطقى فى حكم التاريخ أن يزدهر طريق التصوف باضطراب، ويقل الإنكار عليه وتجتمع آراء الصوفية على عقيدة واحدة بلا نفاق .. إلا أن حركة ابن تيمية أجبرتهم على الهجوم على ابن عربى، ولكن بهجوم صوفى يثبت العقائد الصوفية ولا ينفيها ..

(١) إنباء الغمر ج٣/٤٠٤.

(٢) المنهل الصافى. مخطوط ج٥/٢٤٩.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤٠.

(٤) تاريخ ابن الفرات ج٨/٦٠ : ٦١.

* أثر ابن تيمية العكسي في ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية :

إلا أن لابن تيمية أثراً غير مباشر في ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية، على غير قصد منه طبعاً .. وترجع هذه المفارقة إلى أن ابن تيمية -مع استكمال أدوات الاجتهاد فيه- كان إبناً لعصره الذي دان بالتصوف، وقضى على حركته بالفشل وحكم عليه بأن يعيش بين سجن ونفى ومعاناه .. وحتى لا تتشابه عناصر هذه القضية فإننا نبسطها في النقاط التالية :

أ) يرى ابن تيمية في التصوف رأياً حسناً، ويقول عن الصوفية (إن الصوفية مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين .. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق انكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره)^(١).

وواضح أن ابن تيمية مخدوع بالجنيد ومنافق للصوفية الأوائل، ويرى أن أصحاب الوحدة والاتحاد ليسوا من الصوفية، وعلى ذلك تتضاءل المسافة بينه وبين خصمه الصوفي علاء الدين البخاري فكلاهما ينشد اصلاح الطريق الصوفي من شرور (أصحاب البدع والزندقة) .. بل إن ابن تيمية يقول في الجنيد مقالة الصوفية فيه يقول (.. فإن الجنيد قدس الله روحه وكان من أئمة الهدى، فستل عن التوحيد فقال : التوحيد افراد الحدوث عن القدم)^(٢).

ب) ويعتقد ابن تيمية بكرامات الصوفية حتى ممن يعتبرهم أولياء للشيطان، يقول عنهم (وهؤلاء يأتيهم أرواح ثخاطبهم وتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة.. وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات (يعني ابن عربي) أنه ألقى إليه ذلك الكتاب .. واعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى

(١) ابن تيمية : الصوفية والفرقا ١٦

(٢) الفرقان بن أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ١٠٠ ط صبح.

مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وأنبياء به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس^(١).

(ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير به الجنى إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرها، ومنهم من يحمله عتية عرفه ثم يعيده في ليلته .. ومن هؤلاء من إذا احضر سماع المكاء والتصديه يفتزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ..)^(٢).

وذلك التصديق بإدعاءات الصوفية وإمكانية حدوثها فعلاً : هو اعتقاد العصر المملوكى الذى لم يستطع ابن تيمية الخروج عنه، وإن رده إلى فعل شيطانى يناسب رأيه فيهم باعتبارهم كفرة ..

ج) وابن تيمية حين ثار على صوفية عصره فإنما ثار على بيئته، قد ترسبت معتقاداتها فى داخل نفسه. ويتضح ذلك فى قراءة لنا لهذا النص من مخطوطه (تكسير الاحجار) عن ابن تيمية وصحبه حين قام معهم لهدم ضريح صوفى يقصده الناس بالعبادة والتفديس .. بلغه ما يفعله الناس عند العامود المخلق فشد عليه وقام واستخار الله فى الخروج إلى كسره) ويعد أن وصف الكاتب اجتماع الناس معهم ثم تراجعهم وريداً مخافة التعرض للغضب المزعوم للولى المدفون قال : (وصحنا على الحجارين (أى من يهدمون الحجارة) دونكم وهذا الصنم، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه) ثم قال (فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه، وقلنا جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وقلنا إن أصاب أحداً منه شيء نكون نحن فداه، وتناهبنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة كل صنم منها نحو شبر ونصف)^(٣).

فمع أن فقه ابن تيمية حمله على القيام لكسر ذلك العمود المقدس إلا أن روايته التصوف التى ارضعتها له البيئة الصوفية لعصره قد جعلته (يستخير الله فى الخروج)،

(١) الفرقان بين أولياء ٩٩. (٢) الفرقان بين أولياء ١٤١ : ١٤٢.

(٣) تكسير الاحجار مخطوط ١٤٠ : ١٤١.

وعندما تتهقر الناس خوفاً استمر هو، إلا أن شجاعته فى الإنقاذ لم تخل من خوف زرعته فى قلبه عقائد التصوف المتحكمة فى البيئة والعصر، وأظهره له تراجع الناس من حوله، فقال (إن أصاب أحداً منه شىء نكون نحن فداء)، أى أنه يسلم بمقدرة تلك الأصنام على الأضرار، وتشجع ليفدى الناس من ضررها بنفسه ..

(د) وإخلاص ابن تيمية لعصره وما ساه من تقديس للصوفية - جعله يفقد الطريق الصحيح فى حربه لصوفية عصره المغالين، فطاشت سهامه فى حروب متفرقة ضد متطرفى الصوفية من أتباع ابن عربى أو من فقهاء الأحمدية الذين كانوا يلعبون بالحيات ويمارسون الشعوذة.. فصرفه ذلك كله عن الهدف الأصلى المنتظر منه باعتباره مستكملاً لأدوات الاجتهاد كما قيل فيه .. فصاحب الاجتهاد يخرج باجتهاده عن إطار عصره ويسمو على تقليد المعاصرين .. فكان ينبغى على ابن تيمية أن يدرس باجتهاده عقائد الصوفية الأوائل بدءاً بالجنيد وانتهاءً بالغزالي ويحكم عليهم القرآن، ويحارب مبدأ التصوف من أساسه ويبتعد قدر الإمكان عن التعرض لأشياخ الصوفية فى عصره حتى لا يصطدم بنفوذهم، ويجعل من ذلك الاساس الذى تقوم عليه مدرسته فى حرب التصوف باعتباره عقيدة تناقض التوحيد الإسلامى، ثم يعرض عقائد الفقهاء أيضاً على القرآن ليرى ما فيها خلل.

واعتقد أن ذلك لو تم لوفر ابن تيمية كثيراً من الوقت ولأراحه من كثير من الاضطهاد وأصاب التصوف فى الصميم، ولأنقذ عصره من كثير من المعتقدات المخالفة للإسلام.

إلا أن ابن تيمية أصر على أن يشارك بثورته فى كل ميدان، وصمم على أن تصل سهامه إلى السياسة أيضاً .. فحكم على نفسه بمزيد من العنت والاضطهاد لأن مقاييس (السياسى) فى عصره لم تتوافر فيه ..

وتحليل واقع ابن تيمية لابد أن يستند على أرضية سياسية ..

فقد شهد ابن تيمية -أو شهدت محتته عصر سلطانين من المماليك .. السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير. والناصر محمد بن قلاوون .. وقد كان بيبرس الجاشنكير

مفتصباً لسلطة محمد بن قلاوون السلطان الصغير الزرعى .. ويؤيده فى ذلك الصوفية بزعامة نصر المنبجى داعية ابن عربى، وأراد الجاشنكير أن يسلط رسمياً ويعزل محمد ابن قلاوون فوافقه علماء مصر من الصوفية والمضاة، ولم يكن للجاشنكير أن يتجاهل وجود ابن تيمية فى مصر وهو فى المعتقل، وظن أنه تحت ضغطه، فاستحضره من الحبس ليوافق على مبايعته بالسلطنة، فأبى ولم يعترف، فتنازل محمد بن قلاوون عن السلطنة، وكذب الشهود الذين جاء بهم الجاشنكير وأعلن أن البيعة له باطلة (فاغتاظ الملك المظفر وقال ردوه إلى الموضع الذى كان فيه، فردوه إلى حبس الاسكندرية)، ولم ينقطع ابن تيمية عن مهاجمة الجاشنكير فى سلطنته، فكان ينال منه (ويقول : زالت أيامه، وانتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيه)^(١).

أى أن ابن تيمية ادخل نفسه فى صراع الجاشنكير مع محمد بن قلاوون بحيث بات الجاشنكير يعتقد أنه من أنصار محمد بن قلاوون. ومن الطبيعى أن يستغل الصوفية الموقف فعقدوا لهم مجلساً بإشارة نصر المنبجى، قام بالإدعاء فيه عليه ابن عطاء السكندرى.. وفى هذا المجلس كان القضاة صوفية لحماً ودماً وليسوا مجرد قضاة يعملون لصالح التصوف ..

ولم تستمر أيام الجاشنكير كثيراً إذ سقط وتفرق عنه أتباعه -والصوفية فى المقدمة- وتم الأمر للناصر محمد بن قلاوون .. وكان ابن تيمية معتقلاً بينما الصوفية يعدون العدة لاستقبال السلطان الجديد الذى تخلوا عنه سابقاً ..

وبدأ الناصر محمد عهده بالنيل ممن تألب عليه من القضاة وأخرج ابن تيمية من الحبس معزراً مكرماً إلى فترة من الزمن .. زاد فيها نفوذه السياسى حتى تم تعيين الأمير الأقرم فى نيابة طرابلس بإشارته، وعزل نائب دمشق لأنه شتم بعض فقهاء المدينة^(٢)، واستفحل خطر الشيعة فى الشام فقام ابن تيمية بقتالهم، وكتب إلى أطراف

(١) عقد الجمان : مخطوط حوادث ٧٠٨ تاريخ ابن كثير ج٤/١٤٦.

(٢) تاريخ ابن كثير ج٤/١٤٣ : ٦٢

الشام بحث على قتالهم واستمر في حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر محمد فخشى السلطان نفوذه (لأن الناس اجتمعوا عليه ولو طلب الملك ما بُعد عنه) وانتهاز الصوفية الفرصة فكادوا له عند السلطان (وأشاعوا أنه يسعى في الإمامة الكبرى وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه)^(١). أي يريد أن يقيم دولة كما فعل الفقيه ابن تومرت في شمال أفريقيا.

وكان الناصر محمد عائدًا إلى سلطنته الثالثة وقد ذاق الأمرين من تجارب الحكم وتحكم كبار الأمراء فيه مذ كان صبيًا، فحرص اشد الحرص على ألا يعلم رأس في مملكته وأن يقضى في الحكم مستبدًا، والصوفية من ناحيتهم خير معين للحاكم المستبد ولا يخشى منهم منازعة، ثم جاءت تصرفات ابن تيمية في الشام تأكيدًا لمخاوف السلطان ومساعي الصوفية.. فتم التحالف بينهما وأقام السلطان خانقاه سرياقوس؟ للصوفية وافتتحها في حفل جامع سنة ٧٢٥هـ^(٢). وفي السنة التالية ٧٢٦ أمر باعتقال صديقه السابق بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور^(٣). وهي أمور تمس الصوفية وتعب عنهم، وذكرت صريحة في دعوى الاتهام، مما ينهض دليلاً على ازدياد النفوذ الصوفي في أقل من عام.. وحمل الاعتقال الأخير كل حقد الصوفية على ابن تيمية، وقد كان يفرح بالاعتقال حيث يتوفر على العبادة والتأليف^(٤). إلا أنهم منعه في حبسه الأخير من الكتابة ونشر آرائه مما أثر على نفسيته وهو في مرحلة الشيخوخة، وقد أمضى حياته في حرب خصومه من الشيعة والصوفية والمغول، فمات بعد عامين في الحبس.

لقد أخطأ ابن تيمية في فهم قواعد اللعبة السياسية لعصره ولم يدرك أنها لم تعد تناسب فقيهاً بنفس مواصفاته.. فقد انتهى الزمن الذي كان للفقيه فيه عند الحاكم المنزلة والنفوذ.. حين كان الحاكم ينتهي عند أمر الفقيه بالمعروف ونهيه عن المنكر ويخشع لوصاياه.. وعرف القرن السادس وما تلاه أصنافاً من الحكام المتغلبين من

(١) الدرر الكامنة ج١/١٦٦. (٢) النجوم الزاهرة ج٩/٨٣.
(٣) تاريخ ابن كثير ج١٤/١٢٣. (٤) تاريخ ابن كثير ج١٤/١٢٣ : ١٢٤.

رؤساء الجند يصلون بالظلم وبه يحكمون، وقد وجدوا التشجيع من تيار التصوف الآخذ في الانتشار، وبدأت الخوانق و«بيوت التصوف» في الانتشار، واحتل الصوفية الصف الأول بين يدي الحاكم يبررون له الظلم ويضمنون له ولاء العامة المعتقدين فيهم ..

ومن شأن الحاكم حينئذ أن يضيق بالنقد وبالفقيه إذا ذكره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد اعتاد الخضوع إلى درجة السجود بين يديه، يفعل ذلك الأمراء والقضاة الصوفية، وقد كان السجود بين يدي السلطان المملوكي من الآداب المرعية حينئذ.

وهذا وضع لا يناسب ابن تيمية وليس مجاله ولا من رجاله .. فكان أجدر به الابتعاد عن السياسة خصوصاً وأن مواصفاته كفقيه تستوجب خوف الحاكم منه، فقد تمتع بقوة التأثير في الاتباع، مع الاستقامة المفرطة، والتنزه عن الغرض الدنيوي، وإيجابيته في المواجهة من الحجة الفقهية إلى السيف، وشجاعته الأدبية في أحلك المواقف بما في ذلك موقفه المجيد أمام غازان المغولي الذي دمر دمشق ..

وهكذا .. خسر ابن تيمية في السياسة وأضاف إلى رصيد أعدائه نصراً جديداً عليه حين كان يقابل من الإيذاء في عصر صديقة السلطان الناصر محمد اضعاف ما لاقاه في عصر عدوه الجاشنكير .. وتمت للصوفية دولة بجهده وأقيمت لهم أعظم الخوانق التي أنشئت في العصر المملوكي وهي (خانقاه سرياقوس) على اشلاء ابن تيمية وجهاده ..

ولا ريب أن تنعكس انتصارات الصوفية على ابن تيمية إلى ازدهار مضطرد في إعلان العقيدة الصوفية ..

هـ) وتشجع كثر من الصوفية فاعلنوا عقائدهم بصراحة .. وأبرزهم في القرن الثامن الهجري (ت سنة ٧٦٥) (اللهم اجعلني الرافئ من المدرسة الشاذلية، يقول عميدها محمد وفا (ت سنة ٧٦٥) (اللهم اجعلني عيناً لذات الذات ومشرقاً لأنوارها المشرقات ومستودعاً لأسرارها المكتتمة، ويقول : قال لي الحق أيها المخصوص: لك عند كل شيء مقدار ولا مقدار لك عندي فإنه لا يسعني غيرك وليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي وكل شيء مجازك وأنا موجود في

الحقيقة معدوم في المجاز، ياعين مطلعى أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتي، إليك يرجع الأمر كله وإلى مرجعك، لأنك منتهى كل شيء ولا تنتهي إلى شيء، طويت لك الأراضين السبع.. إلخ^(١).

وقال ابن حجر عن محمد وفا (انشأ قصائد على طريق ابن الفارض وغيره من الاتحادية واجتمع عليه خلق كثير يعتقدونه وينسبون إليه، ونشأ ابنه على طريقته ولا تباعهم فيهم غلو مفرط)^(٢).

وقيل عن علي بن محمد وفا (شعره ينق بالاتحاد المفضى إلى الإلحاد، وكذا نظم والده)^(٣). وقال علي بن محمد وفا عن والده (سيدى ووالدى صاحب الختم الأعظم، فالشاذلى وجميع الأولياء من جنود مملكته، فهو يحكم ولا يحكم عليه فى سائر الدوائر، فلا يقال لنا لم لا تقرر حزب الشاذلى لأنكم من أتباعه)^(٤). أى أنه سار فى طريق الاتحاد إلى درجة استصغر معها الشاذلى نفسه وجميع الأولياء. بل أنه استهان بابن عربى وابن سبعين فقال عنهما (أنهما سلكا الطريق معاً إلى فلك يقال له الفلك المحدث ورجعا منه ولم ينفذا عنه)^(٥). أى أنه وأباه فاقا ابن عربى وابن سبعين فى دعوى الاتحاد..

ومن أتباع الشاذلية الدعاة لابن عربى كان أبو المواهب الشاذلى ٨٨٢ ووصف بأنه (شديد المناضلة عنه والانتصار له)^(٦).. وقال الشاعر البشتكى أنه نسخ كثيراً من مصنفات ابن عربى للشيخ بهاء الدين الكارزوى ت ٧٧٤ وهو من أتباع الشاذلية^(٧).

وخارج المدرسة الشاذلية كان سراج الدين الغزنوى الهندى ٧٧٣ قاضى الحنفية متعصباً للصوفية الاتحادية وعزر ابن أبى حجلة لكلامه فى ابن الفارض^(٨).

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ / ٢٠. (٢) الدرر الكامنة ج ٤ / ٢٧٩.

(٣) شذرات الذهب ج ٧ / ٧١. (٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ / ٢٨.

(٥) مناقب الوفائية مخطوط ٩٩. (٦) شذرات الذهب ج ٧ / ٣٣٦.

(٧) إنباء الغمر ج ١ / ٥٠. (٨) شذرات الذهب ج ٦ / ٢٢٨ : ٢٢٩.

وسلك شمس الدين شيخ الوضوء السافري ت ٧٩٠ طريق الثموصوف (ومع كونه فقيهاً شافعيًا فقد كان يعتقد ابن عربي) (١). أى أن مذهب ابن عربي اجتذب إليه كثيرًا من الفقهاء والقضاء حتى أن ابن خلدون اتهم الفقيه اكعل الدين البائرى ٧٨٦ باعتقاد مذهب وحدة الوجود (٢). وفى هذا الجو درست مبادئ ابن عربي لكثير من الصوفية مثل ابن نجم الصوفى ت ٨٠١ (٣). وبالغ بعضهم فى إظهار عقيدته شطوحًا مثل ابن الصاحب ت ٧٨٨ (وكان يتعصب لابن عربي، وكان يكثر من الشطح ويتكلم بما لا يليق بأهل العلم من الفحش، ويصرح بالاتحاد) (٤). مما حدا بالياقضى إلى المجيء لمصر بعد سنة ٧٣٤ لأنه كان (من جملة المعظمين لابن عربي، وله فى ذلك مبالغة) (٥).

وانضم بعض الممالك إلى حظيرة الاتحاديين بعد أن اعتنقوا التصوف، ومنهم قجساس الصوفى (ت ٨٠٠) وكان من نقباء الدسوقية (وداعية إلى مقال ابن العربي) (٦). ومقبل من عبد الله الرومى (ت ٨٠٢) وهو عتيق الناصر محمد (طلب العلم واشتغل بالفقه وتعمق فى مقالة الصوفية الاتحادية) (٧).

* وقبل أن نودع ابن تيمية وقرنه الثامن نعقد مقارنة صغيرة بين ما لاقاه الصوفية الأوائل من اضطهاد فى القرن الثالث وما واجهه ابن تيمية من اضطهاد الصوفية المتحكمين فى القرن الثامن ..

كان أول من تكلم فى بلدته فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، ذا النون المصرى، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم، وكان رئيس مصر وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره حتى رموه بالزندقة لأنه أحدث علمًا لم يتكلم فيه السلف، وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق لأنه زعم تكليم الملائكة،

(١) شذرات الذهب ج٦/٣١٤ (٢) الدرر الكامنة ج٤/٢٥٠.

(٣) إنباء الغمر ج٢/٨٣ (٤) شذرات الذهب ج٦/١٠٣.

(٥) الشوكانى. البدر الطالع ج١/٣٧٨ (٦) إنباء الغمر ج٢/٢٨.

(٧) إنباء الغمر ج٢/١٢٩، شذرات الذهب ج٧/٢٠.

وتشهد قوم على أحمد بن أبي الحواري أنه يفضل الأولياء على الأنبياء فهرب من دمشق إلى مكة، وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد السطامي ما كان يقول فأخرجوه من بسطام، وأخرج سهل بن عبد الله التستري إلى البصرة^(١).

ومرت السنين .. وتقرر التصوف ديناً رسمياً على يد الغزالي وزاد انتشاره، فتحولت دائرة الاضطهاد تطحن المنكرين على التصوف الدين الجديد، وأصبح المنكرون على الصوفية في القرن الثامن يخرجون من حبس إلى حبس، وتعد لهم المحاكمات، مع أنهم يسلمون بالتصوف مبداءً وطريقاً، وكل ما هنالك أنهم يدعون صوفية عصرهم إلى الاعتدال وسلوك طريق المشهورين بالاعتدال من المتصوفة الأوائل .. إلا أن تاريخ العقائد لا يعرف التوسط والاعتدال .. وصراع العقائد مستمر.. وهناك فارق بين الإسلام الذي تحددت حقائقه وعقائده في القرآن وبين المسلمين الذين تتعرض قلوبهم وعقائدهم لعوامل التعرية الاجتماعية والفكرية، ويدور فيها صراع الحق والباطل، بين الإسلام والعقائد الأخرى.

على أن صراع ابن تيمية مع الصوفية لم ينته بموت ابن تيمية، إذ اشعلته الحركة الوهابية في العصر الحديث، واستطاعت الدولة السعودية (الثالثة) أن تنشره في أيامنا عبر قطار النفط السريع، فأصبحت الوهابية التيمية الحنبلية هي الممثل الشرعي للإسلام، وهي التي تنشر تزمة العصور الوسطى وتعصبها الديني المذهبي باسم الإسلام، والإسلام برىء من ذلك لأنه يدعو لحرية الرأي والعقيدة ويمنع الإكراه في الدين. ويؤجل الحكم في الاختلاف بين الناس إلى الله تعالى يوم القيامة. وقد كان ابن تيمية من ضحايا الصوفية ولكن اضطهادهم له أورثه حدة في التكفير، وهو في النهاية ابن للقرون الوسطى. ومن العريب أن تتقدم الإنسانية إلى عصر حقوق الإنسان التي قررها القرآن، ثم يطالب بعضنا بالرجوع للقرون الوسطى التي تخالف تشريعات الإسلام، والأغرب أن يفعلوا ذلك تحت اسم الإسلام!!

(١) تلبس إبليس ١٦١ : ١٦٢.

*** الباب الأول**

مراحل العقيدة الصوفية

وتطورها فى مصر

*** الفصل الرابع :**

- وحدة الوجود وصراع الصوفية مع الفقهاء. فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

* فى النصف الأول من القرن التاسع :

* فى النصف الثانى من القرن التاسع :

- حركة البقاعى سنة ٨٧٥ هـ.

- بعد موت البقاعى سنة ٨٨٥ هـ.

* فى القرن العاشر : الشعرانى ممثل الفقه والتصوف :

- طبيعة الشعرانى : صوفى تسليح بالفقه ليخدم التصوف، هجومه

على معاصريه من الصوفية، النهى عن مطالعة كتب الاتحاد

الصوفية، تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين.

- الشعرانى يشيد بالاتحاديين.

- الشعرانى يقول بالاتحاد الصوفى.

الفصل الرابع

وحدة الوجود وصواعق الصوفية والفتهاء فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين

أولاً : فى النصف الأول من القرن التاسع ..

١ - فى بداية القرن التاسع توافد إلى مصر جماعات من أوباش الاتحادية احترفت التسول فى الطرقات.. وكان صدى حركة ابن تيمية لا يزال فى الأسماع فهب علاء الدين البخارى الصوفى يهاجم ابن عربى وابن الفارض والاتحاديين ويؤيده فى ذلك السلطان ومنافقو القضاة الصوفية ..

وهكذا فإن الثلث الأول من القرن التاسع شهد خفوتاً فى صوت الاتحادية مع كثرتهم العددية الوافدة إلى مصر، ووصل الأمر إلى حد اضطهاد البارزين من أوباش الاتحادية فقبل فى ترجمة اسماعيل الرومى (ت ٨٣٤) وقد أقام بالخانقاه البيرسية أنه (امتحن بمقالة ابن العربى ونهى مراراً عن اقراءها .. وكان يقرىء العربيه والتصوف والحكمة)^(١). فى الخانقاه المذكورة، وقيل نفس الكلام عن ابن الفسرى (ت ٨٣٤) أنه (قدم مصر وله عشرون سنة وكان يعاب بنحلة ابن العربى وبأنه يقرىء الفصوص ويقرره، وكان بعض من اعتنى به أوصاه ألا يتكلم فى شىء من ذلك)^(٢).

فكان من عادة الأعاجم القادمين إلى مصر أن يقرروا عقائدهم فى الخوانق كما كان يفعل نصر العجمى^(٣) (ت ٨٣٣) إلا أن أساطين الصوفية تخرجوا من شدة الإنكار عليهم من تلاميذ ابن تيمية من ناحية وعلاء الدين البخارى من ناحية أخرى، فطالبوا

(١) إنباء الغمر ج٣/٤٦٥.

(٢) إنباء الغمر ج٣/٤٦٥.

(٣) النجوم ج١٥/ ١٦٥ : ١٦٦.

بعض الاتحادية بالتخفيف، خصوصاً دارسى عقائد الاتحاد من القادمين والعاملين فى الخوانق الصوفية حتى أن بعضهم رجع عن عقيدة الاتحاد مثل الشاعر البشتكى^(١).

بل أن بعض الأمراء المماليك من معتنقى هذه العقيدة تأثر بهذا الجو المحيط فقبل فى ترجمة يلبغا السالمى الخاصكى (ت ٨١١) أنه «كان يبالغ فى حب ابن العربى وغيره من أهل طريقته ولا يؤذى من ينكر عليه»^(٢). أى لا يؤذى خصوم ابن عربى مع أنه يبالغ فى حب ابن عربى.

وانفعل بعض الصوفية المصريين بهذا الجو فاستعاد نفاق الجنيد واقتصر فى كلامه عن الاتحاد على خواص تلاميذه، ومن أولئك أحمد الزاهد (ت ٨٢٢) «وكان يقال له جنيد القوم، وكان يتستر بالفقه، لا تكاد تسفح منه كلمة واحدة من دقائق القوم»^(٣). والتزم تلميذه الشيخ مدين الأشمونى (ت ٧٨١) بهذا الطريق - رغم تغير الأحوال فى عهده - يقول فيه الشعرانى (تفرعت عنه السلسلة المتشعبة بطريقة أبى القاسم الجنيد، وكان رضاعه على سيدى أحمد الزاهد)^(٤).

وقال السخاوى فى ترجمته (وأما فى تحقيق مذهب القوم فهو حامل رايته والمخصوص بصريحه وإشاراته، مع أنه لم يكن يتكلم فيه إلا بين خواصه)^(٥). ومع ذلك فلم يسلم من الإنكار عليهما، فقد انكر ابن حجر والسراج البلقينى على أحمد الزاهد، وأنكر على مدين (أحد أعيان السادة المالكية)^(٦).

٢ - واتفق فى هذا القرن ظهور كثير من أعلام العصر المملوكى ممن جمعوا بين 'فقه والقضاء والتاريخ مع الإنكار على الصوفية الاتحاديين، وقد تتلمذوا على مدرسة بن تيمية ومصنفاته ..

(١) أبناء العصر ٣/ ٣٩٢ : ٣٩٢.

(٢) شذرات الذهب ٧/ ٩٥ : ٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ٢/ ٧٥ ط صبيح.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ٢/ ٩٢ ط صبيح.

(٥) ترجمته فى الضوء اللامع.

(٦) الطبقات الكبرى المرحع السابق، ٢/ ٧٥ ، ٩٣

وأبرزهم المقرئى (ت ٨٤٥)، وقد صنف رسالة فى دحض مذهب الاتحاد خلص فيها إلى أن اتباع ابن عربى ليسوا بمسلمين^(١)، وهاجم صوفية عصره كلهم، فقال فيهم (ذهب والله ما هنالك، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس العمري :-

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليوم سوى ستة بفسير زيادة
وهى (ن ؛ ك) العلوق والسكر والسطلة والرقص والغنا والقيادة
وإذا ما هذى وأبدى اتحادا وحلولا من جهله وأعاده
وأنى المنكرات عقلا وشرعا فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة

ويعقب المقرئى بقوله (ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها، حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى)^(٢).

وكان ابن حجر (ت ٨٥٢) يعبر عن كراهيته لاتباع ابن عربى فى تراجمه يقول عن على وفا (شعره ينعت بالاتحاد المفضى للإلحاد)^(٣). وذكر نضال أبى عبد الله الكركى عن الاتحاديين فقال عنه (اجتمعت به وسمعت كلامه، وكنت أبغضه فى الله تعالى)^(٤). وامتدت كراهيته للصوفية جميعاً : يقول فى ترجمة ابن مفلح (اشتغل قليلاً وسمع من جماعته، ثم انحرف وسلك طريق الصوفية)^(٥).

وقد شهد ابن حجر المتوفى (سنة ٨٥٢) ازدياد نفوذ بعض الاتحاديين، وكان أحدهم مقرباً عند الظاهر برقوق فى عصر اشتدت فيه المغارم، وتجادلا فى ابن عربى فهده الصوفى بالوقية فيه عند برقوق، فخافه ابن حجر واقنعه بالمباهلة، فتباهلا، ومات الصوفى بعدها^(٦)..

(١) ذكرها جرح قنوانى فى أبحاث الندوة الألفية للقاهرة ح/٣٥٩ : ٣٦٠.

(٢) الفخط المقرئى ج/٣/٤٠١ ط دار التحرير.

(٣)، (٤)، (٥) إنباء الغمر ج/٢/٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب

(٦) تنبيه الغبى ١٥٠ للبقاعى.

وعرضنا لدور فقهاء القرن الثامن في الرد على مصنفات ابن عربي والحكم بتكفيره، وقد تابعهم بعض الفقهاء في القرن التاسع، وأهمهم الشريف الجرجاني وأحمد بن الزين العراقي وابن الأهدل وابن الجزري وإبراهيم الرقي وتقي الدين الفاسي^(١)..

وتغيرت الأحوال في النصف الثاني من القرن التاسع بموت أعلام الفقهاء وعلاء الدين البخاري.. فتحمس أصحاب الاتحاد، وقد ازدادوا كثرة وأصبحت لهم صلات بالسلطين والأمراء، فقليل أن الأمير تمر بغا (ت ٨٧٩) «يحب شياطين الصوفية حتى وصل إلى اعتقاد أهل الاتحاد فكان يقول: وماذا على الإنسان إذا قال أنا الله»^(٢). أي أنهم أثروا عليه حتى جارا هم في قول الشطط..

وبعضهم أخذ في الدعوة لمذهبه يجمع الناس على الذكر مثل خلف المشالي (٨٧٤) «وكان ممن يميل إلى ابن عربي وينظر في فتوحاته المكية، والغالب عليه الإكثار ممن نقل كلامه»^(٣).

بل كان من الاتحاديين زكريا الأنصاري شيخ الإسلام في عهده -وبالها من سخرية- وقد قال عنه السخاوي (هو أحد من عظم ابن عربي واعتقده وسماه وليًا، وعذلت في ذلك مرة بعد أخرى فما كف، بل تزايد إفصاحه بذلك بآخره، وأودعه في شرحه للروض)^(٤).

لذا لم يكن مستغربًا أن يتعود أتباع ابن الفارض انشاد كلامه يوم الجمعة عند قبره^(٥) وصارت لهم صولة وجولة أستدعت أن يقوم البقاعي بحركته التي هزت التاريخ المملوكي في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري..

في النصف الثاني من القرن التاسع: حركة البقاعي ٨٧٥هـ..
والبقاعي (٨٠٩ - ٨٨٥) تلميذ متأخر لابن تيمية هب يتازع الصوفية الاتحادية

(١) تنبيه الغبي ٧٩، ٨٠، ١٣٥، ١٥١، ١٩٦، ١٥٢، ١٨٠، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٠.

(٢) تاريخ البقاعي: مخطوط ورقة ١٥٣ ب.

(٣) الضوء اللامع ج٣/١٨٦.

(٤) الضوء اللامع ج٣/٢٣٤.

(٥) الطبقات الكبرى للمناوي ٩٩ ب.

بعد أن علا صوتهم في النصف الثاني من القرن التاسع .. ولم يكنف -كثيره- بالتصنيف^(١)، وإنما قرن القول بالعمل فيما رددته المصادر المملوكية لهذه الفترة تحت عنوان (كائنة البقاعي وابن الفارض) ..

وقد ظهر تحامل المؤرخين على البقاعي، لأنه جرؤ على تكفير ولي مقدس كابن الفارض في وقت سيطر فيه الصوفية على العصر دعاية وسياسة، إلا أن البقاعي في تاريخه عرض لتلك الحادثة بصورة يظهر فيها الصدق والترتيب المنطقي للحوادث، واتفق في بعضها مع ما أورده المؤرخون الآخرون من خصومه الذين تجاهلوا سباق الحوادث وذكرها نهايتها مبتورة ومشفوعة بالتشنيع على البقاعي. وقد حدثت كائنة البقاعي سنة ٨٧٥ في بداية حكم قايتباي، وكان الأمير يشبك من مهدي هو الداودار الكبير، وكان كاتب السر هو ابن مزهر الانصارى المتحالف مع الصوفية.

أ) ونلخص الوقائع فيما يلي حسبما أورد البقاعي نفسه في تاريخه :

- أورد البقاعي في تاريخه الخطوات التي قام بها وما واجهه من خصومه على النحو التالي :

- ١ - بعث البقاعي بخطاب مطول يثبت فيه كفر ابن الفارض بالأدلة .. وأرسله للقاضي ابن الديري يطلب رأيه حتى يلزمه بالوقوف معه في الحق.
- ٢ - لجأ الصوفية إلى المكر، حاولوا الحصول على كتاب البقاعي من ابن الديري بحجة أن كاتب السر يطلبه، ففشلوا .. ولكن البقاعي من ناحيته طلب منهم - وقد طالعوا الكتاب - أن يردوا عليه ..

٣ - عجزوا عن الرد بالحجة فلجأوا إلى أساليبهم التي تفوقوا فيها - والتي يتحرج منها البقاعي وأصحابه الفقهاء - فنشروا الإشاعات وأثاروا الجماهير.

(١) ألف البقاعي : تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي وتحذير الهباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، وقد حققها الشيخ عبد الرحمن الوكيل في كتاب واحد حمل عنوان (مصرع التصوف).

وأسحاب الجاه، حتى صاروا يؤذونهم فى الطرقات.

٤ - اقترح زعيم الصوفية الفارضية - اتباع ابن الفارض - أن يعقد مجلس ذكر تسبفه مظاهرة صوفية لإثارة الجماهير، وتمر المظاهرة على بيت البقاعى لتنهيه الغوغاء، وسقط الاقتراح خشية أن يتطور الأمر إلى غير صالحهم.

٥ - لجأوا إلى طريقة أخرى، استكتبوا أعوانهم، وأذاعوا أن البقاعى قد كفر المساعد لهم والساكت عنهم ليثيروا الفقهاء المحايدين على البقاعى، ونجحوا فى إثارة زين الدين الإقصرائى وحدثت بينهما مشادة كلامية نتجت عن سوء الفهم والوقية ..

٦ - ضاقت الحال بالبقاعى، فحاول الاتصال بالداودار الكبير ليشرح له حقيقة الحال، ثم أن البعض اجتمع بالداودار وأفهمه حقيقة الاتحادية، فخفف ذلك عن البقاعى بعض الشيء إلا أن نفوذهم كان لا يزال غالباً، وكاتب السر الصوفى يخيفه ويهدده، إلا أن البقاعى ظل على سكينته .. ثم أرسل كاتب السر للبقاعى بعض أصدقائه يشير عليه بالرجوع عن رأيه لأن السلطان فمن دونه كلهم ضده، ورفض البقاعى التراجع، وعرض من جانبه أن يقبلوا منه أحد حلول ثلاثة : - المجادلة أو المباهلة أو المقاتلة بالسيف فى حضرة السلطان والعلماء .. وقرأ البقاعى على الرسولين اللذين جاءا من طرف كاتب السر بعض كلام ابن عربى فاستمالهما إليه ووافقوه على تكفيره ..

٧ - سأل الصوفية صاحبهم كاتب السر أن يكتب إليهم ضد البقاعى إلا أنه رفض متعللاً بوجود أن يستمع إلى رأى البقاعى أولاً. فاشتراط البقاعى أن يكون ذلك بخلوة، فسعوا فى عدم اجتماعهما خوفاً من أن يستميله البقاعى إلى صفه ..

٨ - عمل البقاعى ميعاداً فى الجامع الظاهرى واستمال الحاضرين فضجوا فى الدعاء على أعدائه، وابتدأ الميزان يتحول لصالحه فقد حاول الصوفية استكتاب قاضى الحنابلة معهم ولكنه أفتى بتكفير ابن الفارض وتابعه فى ذلك

آخرون ..

٩ - لما رأت العامة أن أمر الصوفية ابتدأ في التراجع وأن البقاعى لا يزال يقرر رأيه وأنهم عجزوا عن مقابلة حججه خف الهرج منهم، وبدأ بعضهم فى التعاطف معه.

١٠ - حاول السلطان عقد مجلس فى مستهل سنة ٨٧٥ بسبب ابن الفارض فسأله كاتب السر الصوفى أن يترك ذلك، وبذل همه لدى العلماء وسعى لتأخير عقده.. إلا أن السلطان صمم فعقد المجلس وانتهى إلى لا شىء مع اقتناع البعض بأن البقاعى على حق^(١).

(ب) آراء المؤرخين الآخرين :

١ - يقول ابن الصيرفى عن ذلك المجلس (فى محرم ٨٧٥ صعد قاضى القضاة ومشايخ الإسلام لتهنئة السلطان، ولم يتكلموا فى شىء من أمر ابن الفارض لا بنفى ولا بإثبات، وطلع البرهان البقاعى فى هذا اليوم قبل كل أحد، وجلس بالجامع وصحبته كتب كثيرة، وليس راجعاً عما قاله فى كلام ابن الفارض وتكفيره، وقد أوصى (أى ترك وصيته) وعنده أن هذا الأمر ليس التكلم فيه إلا قرية محضة، فإن قُتل قُتل شهيداً^(٢)).

وواضح أن البقاعى وإن ضم إليه بعض الفقهاء إلا أن الرأى العام يميل إلى تقديس ابن الفارض ويعتبر البقاعى معتدياً على حرمة، ويمثل هذا الرأى جمهرة من الصوفية والعلماء والمعبرين عنهم، ولا ريب أن يتأثر بهم السلطان خاصة وأن كاتب السر أقربهم إليه .

٢ - يقول ابن أبياس وهو قريب من هذه الفترة (كثير القيل والقال بين العلماء بالقاهرة فى أمر عمر ابن الفارض، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته الثائية، واعترضوا عليه فى ذلك، وصرحوا بفسقه، بل وتكفيره،

(١) تاريخ البقاعى مخطوط ورقة ٨، ٩.

(٢) أبناء الهصر ١٧٦

ونسبوه إلى من يقول بالحلول والاحكام، وكان رأس المتعصبين عليه برهان الدين البقاعي وقاضي القضاة ابن الشحنة وولده عبد البر وفوز الدين المحلى، وقاضي القضاة عز الدين المحلى وتبعهم جماعة من العلماء يقولون بفسقه..^(١) أى أن البقاعي استطاع أن يضم إليه هذا الرعيل من الفقهاء.

ويقول ابن أبياس (وأما من تعصب له - أي لابن الفارسي - فهم الشيخ محي الدين الكافيجي الحنفى، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، ويذر الدين بن الغرس، وابن حجي، والجلال بن الكمال السيوطى، وزكريا الأنصارى، وتاج الدين بن شرف، فلما زاد الريح في هذه المسألة كتبت الفتاوى في أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج من فواعد الشريعة - أى أوولت عباءة ابن الفارض، لمتتمشى مع الإسلام - فكتب الشيخ الكافيجي على هذا السؤال، وألف الجلال السيوطى كتاباً سماه (قم المعارض فى الرد عن ابن الفارض)، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتاباً شافياً، وصنف بعضهم كتاباً سماه (درياق الأفاعى فى الرد على البقاعى) .. ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهما ممن تعصب على ابن الفارض، وصاروا يكتبونها ويلصقونها فى مباره - أى ضريحه - فيقول الشهاب المنصورى فى البقاعى: -

إن البقاعى بما قد قاله مطالب

لا تحسبه سالماً فقلبه يعاقب

ثم إن بعض الأمراء تعصب لابن الفارض وتعصب له السلطان أيضاً، فكتب سؤالاً وجهه الشيخ زكريا الأنصارى فيمن زعم فساد عقيدة ابن الفارض، فاستمع الشيخ زكريا عن الكتابة غابة الامتناع، فألح عليه أياماً حتى كتب بأنه يدل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته، وإن ما قاله صدر عنه حين استغراقه وغيبته، ولكن ينبغي كتم تلكه الصبراء ممن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسمر، ولكل قوم قال .. فلما كتب زكريا ذلك سكن الإضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض، وعقب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية، وحصل له عقيب ذلك فالج وذيل وسلب منه العلم وحصلت

(١) تاريخ ابن أبياس ح ١١٩/٢ ط بولاق.

[illegible]

أرى أن إيمان ابن النابلس في عديم اليقظة، إذ خاطبه ذلك الرجل في الدفاع عن
تدريسهم لابن النابلس في كاتبة المستنقعات في رابطة البلاد واليهجوم على الدولة العن
وبلغوا على مشروع ابن النابلس، ثم ضموا إليه من الذين رافقوا إلى السماط
ولمّا إلى (شيخ ابن النابلس) الأنصاري، فكانت ردة منكماء معكم في الإجماع عليه، ومن
النصير لهم على النابلس، فأنزل ابن السمحة، وأوردته العاصمة على القاعة، وأعطاه
الأمراء حشوداً إلى ... وقد تلتك الأداة إلى ابن النابلس في ردة منكماء
المتكبرين عليه ..

(ج) دور زکریا الأنجماری (شیخ الإسلام):

ولعب زكريا الأنصاري دوراً كبيراً في إقشاع حركة البقاعي .. وقد سبق أن رده على سؤال السلطان بشأن ابن الفارض قد مرّخ إيقاع الإنطواد باتباع البقاعي .. مع أن زكريا الأنصاري امتنع غاية الامتناع حسب قول ابن اياس. ثم نادر بالرد .. وبهنا أن نذكر أن زكريا - شبح الإسلام - لم يكن رأساً للصوفيّة في تلك الكائنّة، وإنما كان لهم تابلاً سمع لهم ويطيع في وقت لم يمتنع فيه السلطان عنده بهذه الخطوة .. وبكفي أنه استجاب للشيخ صوفي مجبوراً، ولكنه كان صاحب تأثير في زكريا الأنصاري يفوق تأثير السلطان عليه، يقول الشعراني (لما وقعت فتنة البقاعي ثم إنكاره على ابن الفارض أرسل السلطان إلى العلماء فكتبوا له بحسب ما ظهر لهم وامتنع الشيخ زكريا ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولي فقال له : اكتب وانصر القوم وبين في الجواب أنه لا يجوز لمن لا يعرف مع طلع القوم أن يتكلم في حقهم بشرّ لأن دائرة الولاية تبتدىء من راء طور العقل لبنائها على الكشف) (٢).

(١) نفس المرجع ١١٩/٢ : ١٢٠ ط بولاق.

(٢) الطبقات الصغرى : ٣٨.

وقد شارك زكريا في دعاية الصوفية الرامية للدفاع عن ابن الفارض، يقول المؤرخ ابن الصيرفي المعبر عن خصوم البغاعي (وقع لي من وجه صحيح أخبرني به الشيخ العلامة الرياني شيخ الإسلام زكريا النساقي إبقاء الله تعالى أن الجناح العلائي على بن خاص بك أنه ركب إلى جهة القرافة ورأى أمامه شخصاً عليه سمت وهيئة جميلة فصار يحبس لجام الفرس .. إذ وافى الرجل رجل عظيم الهيئة جداً فتحدثا وانصرف الرجل المذكور.. فسأله سيدي على من هو هذا الرجل فقال له أنت ما تعرفه ثلاث مرات وهو يقول لا فقال : هذا عمر بن الفارض في كل يوم يصعد من هذا المكان وهو يسعى أن الله يكفيه فيمن تكلم فيه)^(١).

والواقع أن زكريا الأنصاري يدين شهرته إلى دعاية الصوفية الذي جعلت منه شيخاً للإسلام .. وهو في حقيقة أمره مريد للصوفية في مجتمع الفقهاء، فقد اعتنق التصوف مذ كان شاباً أو على حد تعبير الشعراني (ومن حين كان شاباً كان يحب طريق الصوفية ويحضر مجالس ذكرهم حتى كان أقرانه يقولون : زكريا لا يجيء منه شيء في طريق الفقهاء)^(٢). إلا أنه استمر في سلك الفقهاء ليعمل لصالح الصوفية، أو حسبما يقول عن نفسه (فأشار على بعض الأولياء بالتستر بالفقهاء .. فلما أكد اتظاهر بشيء من أحوال القوم إلى وقتي هذا)^(٣).

ويدين زكريا الأنصاري بعقيدة ابن عربي ويدافع ويدخلها في شروحه ولم يلتفت لإنكار السخاوي عليه كما سبق .. وموقف السخاوي كمؤرخ يتسم بالغربة بالنسبة للبقاعي وحركته.. فالسخاوي فقيه ينكر على الاتحائية وسبق أن أوردنا إنكاره على زكريا الأنصاري لفصبه لابن عربي. بل أن السخاوي ألمح إلى الإنكار على التصوف أكثر من مرة .. يقول عن معاصره الإقصراني (انتمى إليه جماعة ووصفوه بالعارف)^(٤)، وقال في حاجي فقيه شيخ التربة الظاهرية (كان عرياً عن العلم إلا أن له اتصالاً بالتُّرب

(١) أبناء الهجر ١٩٠.

(٢) الطبقات الصغرى ٣٩.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٠٧.

(٤) الضوء اللامع ج١/ ١٧١، ٨٧/٣، ١٤٤ : ١٤٥.

كدأب غيره^(١). وقال عن الفقيه ابن صديق (وقد كان من المشتغلين بالفقه.. وبلغنى فى هذه السنين أنه تحول عن طريقته فسلكت التسليك والشيخة الصوفية، وكأنه لمناسبة الوقت)^(٢).

ثم أن للسخاوى خصماً شهيراً هو الجلال السيوطى الذى اتخذ جانب الدفاع عن ابن عربى وابن الفارض مع زكريا الأنصارى وغيره ..

ومع ذلك فالسخاوى متحامل على البقاعى فى ترجمته له فى الضوء اللامع، وإن لم يمنعه ذلك من ذكر جهوده ضد الصوفية فيقول أن البقاعى لمح بالخط على الغزالي وقال (إن قوله «ليس فى الإمكان ابداع مما كان» كلام أهل الوحدة من الفلاسفة والصوفية)، وكذلك خط على ابن عطاء السكندرى^(٣).

واعترف بدور البقاعى فى إبطال المولد الأحمدي بطنطا وإن لم يسند له الفضل كاملاً يقول عنه (قام بإنكار المولد بطنطا أو ساعد مع القائمين فى إبطاله)^(٤). واعتبر إبطال المولد الأحمدي فتنة يقول (كان للبقاعى دور فى الفتنة التى انتهت بإبطال المولد الأحمدي)^(٥).

ويمكن تفسير موقف السخاوى فى ضوء المنافسة التى تكون بين الفقهاء .. فلا نملك سوى هذا القول .. فالبقاعى خرج على تقاليد عصره وأنكر صراحة ما كان السخاوى يلمح به فى ثنايا كلامه .. فلم يبق للسخاوى إلا التحامل على منافسه ومحاولته للتشكيك والتقبيح حتى فيما يضطر إليه من ذكر أعماله الحسنة .. ثم أنه تجاهل صراعه الأساسى مع أتباع ابن الفارض ..

د) والواقع أن البقاعى كان يناضل عصره بكل ما أوتى من عنف، ويكفى أنه حين ساءت به الأمور قال لمن عرض عليه المهادنة (إنى والله قد وضعت بين عينى القتل بالسيف والضرب إلى أن أموت منه فرأيت أنه هون عندي من أن يجهر بالكفر فى بلد أنا

(١) الضوء اللامع ج١/ ١٧١، ج٢/ ٨٧، ١٤٤ : ١٤٥.

(٢) الضوء اللامع ج١/ ١٠٧.

(٣) الضوء اللامع ج١/ ١٠٨.

(٤) التبر المسبوك ١٧٧، وورد ذلك فى الجواهر السنينة فى مناقب البدوى : ٦٥

وكان أن التفتة هيذابه، والجميع حينئذٍ، والقول، باطل، أو شرك، ويؤاد حليم الشريعة
الجملة، ريثما يرى الأكثر علم، حينئذٍ لا يفتد على الله عليه وسلم، وإنما أن يحاين الذين
- ريثما سكوني بفعل أفرد به علم، الآية الأولى - هذا البلد، فإنه والله لو كان محي، مال
الجميع به ما رمت منها، وأما أن يفتاروا مني، واحدة من ثلاث يحضرة الساجدان والفضة
التيهية وسماير الإماماء وهـ : المبادئ : المبادئ ثم المقابلة، في خطبتي الساجدان سبفا
وتريسا ويعطى أشبههم (أقربهم شأنا) دة، وتروا، في خطبتي، بينما قدمه في حوض التلعة،
ويفتد ما يكون شئ على شيخوختي، وإن قتلته، كنت شهيدا، وإن قتلت، فخصم، عجلت من
أقبله في النار (١).

ويعد إفساد الحركة الداعية لم ينقطع الصوفية عن إيدانه حتى مع وجود جماعة حول
البقاعي تحميد رفول ابن الصيرفي (في رمضان ٨٧٥ عمل البرهان البقاعي ميمادا
بالجمامع الفاضلي على شادته بعد العصر فحضر إليه جماعة قصداً من معتقدي ابن
الفارسي، وأما ما عليه فشكاهم لقصوره العاجل بقلبهم ورسم هـ لهم، ثم أن البقاعي
طلب جماعة من جهته وأوقفهم في عدة مواضع ومفارق ومخارص من الطرقات وبأيديهم
الدهسي والخشب، وقرر معهم إذا مروا عليه فبعضيونهم وينكون بهم، فيبلغ ذلك ابن مزهر
الأنصاري كاتب السر فأرسل إليهم بدواوداره بركات فأطلقهم، ثم أصبح البقاعي وشكى
غصومه لبيت الأمير تمر حاجب الحجاب، فاجتمع الجمع الغفير وحضر من العلماء
والفضلاء جماعات برزوا للبقاعي وطلبوه فحضر بين يدي الأمير وأراد الطلوع من المقعد
فدما، مكنه غصومه، ووقف من تحت المقعد وجلس المشايخ المذكورون وأدعى على
الأمم، منهم شخص شريف، حضروا إليه في مسجده ليقتلوه، فقال له الشيخ بدر الدين
بن السلطان (لا تقل مسجدي فإن المساجد لله)، وترشوا عن الشيخ عمر ابن الفارض
ولعنوا وكفروا من يكفره، وحصل له بهدلة ما توصف، وانفصلوا على غير طائل، ولم
يحصا، للبقاعي مقصوده، فإنه مخذول، سيما أنه يتعرض لجناح سيدي الاستاذ العارف
بالله نصر (٢).

(١) تاريخ البقاعي : ٥٤. (٢) أبناء العصر ٢٥٦ : ٢٥٧.

رأى بعضهم دعاية المدعوية بالبرهان والشبهة، يقول المدعوى (رأى بعض المدعين في
نحوه جماعة وقتوا بين مدعى بن الفارسي وقيل له : هؤلاء المنكرون، فقلع المدعي
فانتبه مدعواً ورجع عن انكاره .. وروى بعضهم أن القضاة قاموا وجرى بهما عليه ما قبلوا
نحوه، وأن غاية في الكبر عتسى انتهى العظم والدم، فقال ما هؤلاء ؟ قال الذين ينكرون على
ابن عربي وابن الفارض . وقالوا إن الشيخ الإسلام ابن التالشي قاضى القضاة لما وصل
مصر مدار ينال من الشيخ وتمسكه زواره .. فأبطلوه به رضي فما شقوا منه حتى رجع عن
ذلك، والحكايات في معنى ذلك كثيرة) (٢).

هـ) ومع هذه البقاعى فى الإنكار على الاتحادية إلى درجة تظهر فى اختيار عنوان كتابيه (تحذير العباد من أعمال العناد ببذعة الاتحاد) (وتنبيه الضمى إلى تكفير أمين شربى) إلا أن البقاعى يدين باحترام شديد إلى أوائل الشيعة، ويتردد ذلك فى ثنايا تاريخه فى معرض إنكاره على الاتحادية بقول مثلاً (١)، وقد قال أهل الله كالجنيد وسرى

(١) تاريخ البقاعى ١٣٤ : ١٣٥ مخطوط.

(٢) الطبقات الكبرى للزناوي . مخطوط ٢٩٩ ب.

السقطى وابي سعيد الخراز وغيرهم ممن هو على طرقهم نفعننا الله بهم..^(١) . ويقول عنهم (إن المحققين منهم بنوا طريقهم على الاقتداء بالكتاب والسنة) ، واستدل ببعض أقوالهم المناقفة^(٢) مخدوعاً بهم كشأن ابن تيمية وابن الجوزي .. وفى خطابه لكتاب السر استشهد ببعض تلك الأقوال وعلق عليها بقوله (وإن قلتم مخالفين لهؤلاء الأئمة الذين هم القدوة إلى الله تعالى ..)^(٣) .

فالبقاعى أراد بإخلاص إصلاح الطريق الصوفى وأن يربطه بالإسلام الذى أدعى منافقو الصوفية الأوائل أنهم ملتزمون به . وكان نصيبه هذا العنت مما اضطره فى نهاية الأمر إلى الرحيل عن مصر متمتعاً بكرهية أهلها لمجرد دعوته للحق، بل اعتبر بعض من حاول الإنصاف - أن تلك هى سينته الوحيدة فيقول ابن اياس (فى رجب ٨٨٥ جاءت الأخبار بموت برهان الدين البقاعى فى دمشق، وكان عالماً فاضلاً محدثاً ماهراً فى الحديث ليس من مساويه سوى حظه على الشيخ عمر ابن الفارض)^(٤) .

بعد موت البقاعى سنة ٨٨٥ هـ

١ - كانت حركة البقاعى هزة فى المجتمع المصرى الراكد، وبموته عاد الهدوء وكثر تحول باقى الفقهاء إلى عقيدة الصوفية وشهدنا السخاوى (ت ٩٠٢) يقول عن ابن صديق أنه انتحل الشياخة الصوفية (وكأنه لمناسبة الوقت) .. واعترف زكريا الأنصارى للشعرانى باعتناقه للتصوف منذ بدايته واستمرت مكانته حتى القرن العاشر تتزايد ليصبح شيخ الإسلام .. وعرضنا لموقف السيوطى من كائنة البقاعى وكيف أنه صنف فى الرد عليه كتاباً يدافع فيه عن ابن الفارض، وكرر السيوطى مقالته فى (تأييد الحقيقة العلية) معتمداً على المبررات المتعادة من السكر الصوفى والتأويل إلخ^(٥) .

وقال الشعرانى عن نور الدين المحلى الشافعى (كان لديه الاعتقاد الحسن فى

(١) تاريخ البقاعى : ٨ مخطوط.

(٢) تحذير العباد ٢٠٩ وما بعدها ..

(٣) تاريخ البقاعى : مخطوط ٨ أ.

(٤) تاريخ ابن اياس ج ٢/ ١٩٧ ط. بولاق.

(٥) تأييد الحقيقة العلية ٧١، ٧٢، ٧٣.

الصوفية عكس البقاعى، وكان يعتقد حتى فى ابن عربى وابن الفارض، وكان يقول بأن الملاحظة قد دسوا كثيراً فى كلام الأئمة بغير علمهم^(١)...

وقام الصوفية وأعوانهم بالقضاء على أى أثر لحركة البقاعى بعد رحيله باضطهاد تلاميذه وملاحقتهم بالمحاكمات المتعسفة.

يقول ابن اياس فى حوادث ٨٨٨ (٢) (حضر شمس الدين الحلبى تركة يحيى بن حجي فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى، فقال : هذا الكتاب ينمى أن يحرق، وان ابن عربى كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان. فسكوا عليه ذلك وآرادوا تكفيره .. وآل أمره إلى أن عزروه وكشفوا رأسه ثم حكم بإسلامه وحقق دمه، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك، وفيه يقول أبو النجا القمنى (الصوفى) ساخراً :

أفعدت يا حبيبى	بالصنع فى ففاكا
لما ادعيت جهلاً	حرق الفصوص يا كافر
وما خلصت حتى	أقمت شاهداً

وسأل الشيخ يونس بن حسين الألواحى عن منشداً أنشد على منارة مسجد أبياتا منها :

خمرة تركها على حرام	ليس فيها إثم ولا شبهات
شربها آدم ونوح وشيث	وتحياتها غرات زاكيات
شربها عيسى فصار نبياً	وحبها وزائد البركات..

وهى طويلة، فانكر عليه طالب، فغضب واستفتى على الطالب فكتب له بعض الناس: إذا كان القصد بذلك خمرة التوحيد التى يهيم بها العارفون فليس فى ذلك خطأ ولا يجب على المنشد شيء ويؤدب المعارض عليه، وقد قال الشيخ ابن الفارض : -

(١) الطبقات الصغرى ٦٤.

(٢) تاريخ ابن اياس ج٢/ ٢١٩ : ط. بولاق.

ويعتبر هذا منسوخاً من نسخة الأصلية التي كانت في دار الكتب في القاهرة، وأن يذوق الكرم (١).

فما هو الذي غلب على انكم على طائفة الناس من أن لا تتعد على المذنة، وأنتى
له البهتة بأنه لم يخطئ طاماً أن المصنوع هو المصنوع، والمصنوعين والمستشبهين بآين الفارض
.. ومنكم على الطالب بالتعزير .. أى، منكم على الطالب في حارة المذكرة منكم على وأصبح
المطالب مطلوباً .. وقد أُلح إلى ذلك المصنوعين على عادته في الإنكار - فى
معرض روايته لما حدث من سماع الدين النابى من أمر يتعزير من وبدأت عليه بعض
نصائيف ابن عربى واعترف بكونها عنده، فأنكر استغناء ما فيها، يقول السخاوى بعد ذلك
عصره معلقاً على الحادثة (كيف لو أدركنا هذا الزمان الذى جعل به كثير من المحن
والزوايا) (٢).

ويقول الشعرانى إن الفقهاء فى التماس الأظهر عقدوا مبدئاً لمحاكمة إبراهيم
المواهبى، فجاء إليهم محمد المغربى وهم فى أثناء الكلام فقال نحن أحق بتنزيه
الحق منكم معاشرة الفقهاء، وأخذ بيد المواهبى وقام معه فلم يتبعه أحد. وقد
لحقوا بالمغربى يترضونه فقال لهم (الطريق ما هى كلام كطريقكم إنما هى طريق
ذوق، فمن أراد منكم الذوق فليأت أخليه (أى اجعله فى خلوة)، وأجوعه حتى أقطع
قلبه وأرقبه حتى يذوق، وإلا فليكنف عن هذه الطائفة (المصوفية) فإن لحومهم سم
قاتل) (٣).

(١) الذيل على رفع الأصغر ١٣٦ : ١٣٧.

(٢) الذيل على رفع الأصغر ١٣٣.

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢/ ١٠٥.

فى القرن العاشر الشعرانى مثل الفقه والتصوف

طبيعة الشعرانى : صوفى تسليح بالفقه ليخدم التصوف ..

والشعرانى هو العلم الذى تميز فى القرن العاشر وسيطر عليه وعلي ما تلاه من قرون فى العصر العثمانى. والشعرانى صوفى تسليح بالفقه ليخدم التصوف كشأن الغزالي فى القرن الخامس .. وقد عرف العصر المملوكى - وعصر الشعرانى على الأخص - طائفة من الفقهاء المتصوفة .. أو بعض الفقهاء الذين تصوفوا وأصبحت لهم بعض الدراية بالتصوف .. وقد رأى الشعرانى فيهم خطراً على التصوف إذ أنهم لدرايتهم بالتصوف وبمعرفة تفهيم باختلافه عن الشرع الإسلامى يسكنهم أن يصيبوا التصوف فى مقتل .. فالشعرانى (كصوفى فقيه) تخوف من (الفقهاء الصوفية) خشية أن يكون منهم من يعمل لصالح الفقه كما يعمل الشعرانى لصالح التصوف ..

لذا نرى الشعرانى يفضل الفقيه الصرف - رغم انكاره على الصوفية - على الفقيه الصوفى لاحتمال أن يكون منافقاً فى تصوفه وخطراً على الطريق الصوفى، فيقول (إن الفقيه الصرف الذى لم يدخل طريق القوم مقدم على الفقيه المتفعل فيها من غير اتقان علومها والمضى على طريقها، لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذى وقع فيه المتفعل مع زيادة علمه بالعلوم الشرعية)، بل تطرف الشعرانى فاعتبر العامى المعتقد فى الصوفية خيراً من ذلك الفقيه الصوفى (بل تنول العامى الذى يعبد الله تعالى ويسأل العلماء - يقصد الصوفية - عن كل شيء أشكل عليه فى دينه، أحسن حالاً من هؤلاء المتفعلين فى طريق القوم)^(١).

إلى هذا الحد يبلغ حرص الشعرانى على الطريق الصوفى الذى يدافع عنه بشتى

(١) لطائف المنن ٦٠٦ - مكتبة عالم الفكر.

الوسائل .. وطبيعي أن تمثل مسألة المذهب في الصوفية كشم من مشكلة تواجه الشعرائى كصوفى فقيه يحاول ربط التصوف بالإسلام .. ومع ذلك عظم به مهارة الشعرائى فإنه لم يوفق - كالفزائى - فى عملية التوفيق بين الإسلام والتصوف، إذ أن ذلك التوافق بين الإسلام والتصوف يستحيل على أى مهارة مؤيد للصوفية، فالتقائهم أبهى من أن لا تعرف الطريق الوسط، سيما إذا كانت العقيدة واضحة كعقيدة الإسلام، ثم هؤلاء يأتون بتفصيلاتها فى كتاب مقدس منزّه عن إمكانات التحريف والتأويل.

ويعتينا أن الشعرائى انتهى إلى النتيجة التى يرسز إليها الفزائى كالبلا، وهى حصر الإنكار على الاتحاديين فى أشخاص الصوفية المعاصرين، مع تقرير المذهب الصوفى الإلهادى فى نفس الوقت، فلم ينج من التناقض مشاء .. ويمكن أن نبلر موقف الشعرائى من هذه القضية على النحو التالى :-

* هجومه على معاصريه من الصوفية :

١ - فالشعرائى يهاجم أباش الاتحادية فى عصر .. يقرب شيهم (استحكم شىء) غالبه ضلال والفساد .. وبعضهم رأى أن كل شىء فى الوجود هو الإله، وأن عين هذا الوجود الحادث هى عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والبهائم والإنسان والملك والشيطان، ويجعلون الخلق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون ورائس ومرءوس حتى الأباليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه مجنون .. وقد نقلت هذا الكلام فى زماننا عن جماعة بالصعيد، فيعتقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة، وينكرون ذلك فى الظاهر خوف القس .. ل الذى أقوله أن إبليس نفسه لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله تعالى، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم بذلك ..

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء فقال : هؤلاء زنادقة وهم انجس الطوائف لأنهم لا يرون حساباً ولا عقاباً ولا جنة ولا ناراً ولا حلالاً ولا حراماً ولا آخرة، ولا لهم دين يرجعون إليه ولا معتقد يجتمعون عليه، وهم أخس من أن يذكروا لأنهم

خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولا نعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء، فإن طائفة من النصارى قالت : المسيح ابن الله وكفرهم القوم الآخرون، وطائفة من اليهود قالت العزيز ابن الله وكفرهم القوم الآخرون، فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى..(١).

٢ - وقال عنهم (وكان أخي الشيخ أفضل الدين يقول : لو كنت حاكماً لعزيت عنق كل من قال : لا موجود إلا الله ونحو ذلك من الألفاظ لأنه لم تأت بذلك شريعة)(٢).. ويقول الشعراني أنه سمع بعض الاتحاديين يقول (ما ثم موجود إلا الله، فقلت له ايش أنت؟ فقال كلاماً والله لو كان معي شاهد آخر يشهد لذهبت به إلى حكام الشريعة بضربون عنقه)(٣).

وينصح الشعراني بعدم الاجتماع (بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم في النصف الثاني من القرن العاشر من غير إحكام قواعد الشريعة، فإنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم، وقد دخل على منهم شخص وأنا مريض ولم يكن عندي أحد من الناس فقلت له : من تكون ؟ قال أنا الله فقلت له كذبت فقال أنا محمد رسول الله فقلت له كذبت فقال : أنا الشيطان وأنا اليهودي فقلت له : صدقت، فوالله لو كان عندي أحد يشهد عليه لرفعته إلى العلماء فضربوا عنقه بالشرع الشريف..)(٤). فالشعراني يستعدي السلطة عليهم، ولا شك أنهم يتمتعون بكراهية الشعراني وحقده لذا لم يترجم لأحد منهم في طبقاته الصغرى أو الكبرى ..

* النهي عن مطالعة كتب الاتحاد الصوفية :

١ - ويقول الشعراني عن أصحاب الاتحاد في عصره (أنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم) فهو بذلك يحقق غرضه بالهجوم على أوباش الاتحادية، وفي نفس الوقت يبريء فيه ابن عربي وغيره من مقالة الاتحاد،

(١)،(٢) لطائف المنن ٤٨٦ : ٤٨٧ ط. قديمة.

(٣) لواقح الأنوار ٧١.

(٤) لطائف المنن ٣٩٥.

وقد قال في ترجمة ابن عربي (وما انكر عليه من انكر إلا لدقة كلامه، لا غير)، وقرر أن مذهب الصوفية أنهم ينكرون (على) من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة، خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها ولا يهتدى لتأويلها على مراد الشيخ^(١).

ويقول الشعراني (أخذ علينا اليهود ألا نمكّن أحداً من إخواننا يطالع في كتب الشيخ ابن عربي في التوحيد المطلق، ولا في كتب غيره من غلاة الصوفية، وذلك لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تشبه بما ذكره فيها مما يخالف عقول الناس، وما كل ما يُعلم يقال، وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين)^(٢).

فهو مع اعترافه بأن ابن عربي من غلاة الصوفية وأن كلامه يقابل بشدة الإنكار إلا أنه يوحى بأنها لا تخالف صريح السنة ويلجأ إلى التهديد بالخسران لمن يجروء على مطالعة كتبه ..

٢ - ثم يلجأ الشعراني إلى تعميم تحذيره لتشمل مواضع التصوف في المصنفات القديمة الشهيرة لمعتدلي الصوفية (وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء، ومن كتاب النفخ والتسوية له وغير ذلك من كتب الفقه فإنها إما ممدوسة عليه أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها)، وكذلك يحذر من مواضع في كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي نحو قوله (الله تعالى قوت العالم) ومن مواضع في تفسير مكي ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي، وقد صنف الناس في الرد عليه، وليحذر من مطالعة كلام ميثاق بن سعيد، وكذلك يحذر من مطالعة كتاب خلع النعلين لابن قسي .. وكذلك تأنيدي سيدي محمد وفاء .. وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه لعلوا مراقبها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لا سيما الفصوص والفتوحات المكية)^(٣).

(١) الطبقات الكبرى ج١/ ١٨٣ ط. صبيح.

(٢) البصر المورود ٢٧٤.

(٣) لطائف المنن ٢٩٤.

(وأخذ علينا اليهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يشغل قط بأسماء السهرودي ولا سماه البوني ولا علم الحرف الأعلى...) (١).

* تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين :

١ - وقرن الشعراني كلامه بالدفاع عن ابن عربي بدعوى أن ما كتب في مصنفاته مفسوس عليه أو أن ابن عربي قام بالرد على أهل الحلول والاتحاد (٢). ثم شمل شيوخ الاتحاد الباقيين برعايته وأضفى عليهم حمايته بقول (ومما من الله تبارك وتعالى به على : عدم إصغائي بأذني إلى وقتي هذا إلى من يقول بكفر الحلاج أو غيره من القوم المذكورين في كتب الرقائق، ولم أزل أول للقوم ما صح عنهم وأنفي ما لم يصح) (٣). أي أنه يؤول ما صح نقله من كفرهم ويخفي ما لم يصح ..

٢ - وقد وقع الشعراني في المحذور وهو يؤول إحدى شطحات أبي يزيد البسطامي يقول - مسنداً الكلام لشيوخه الخواص - في تبرير قول البسطامي (سبحاني ما أعظم شاني) (إن أبا يزيد لما نزه الحق وقُدَّسه قيل له في سره : هل فينا عيب تنزهنا عنه قال : لا يارب، قال له الحق : إذن نزه نفسك عن النقائص، فلما جاهد نفسه ونزهها عن الرذائل قال : سبحاني قولاً ذاتياً ضرورياً حقاً لا دعوى فيه.. قال الخواص -أو الشعراني- وعجبت ممن يؤول أخبار الصفات كيف لم يؤول كلام العارفين مع كونهم أولى بالتأويل من الرسل لنقصهم في الفصاحة عنهم) (٤).

فالشعراني اسند لنفسه في البداية علم الغيب حين علم بحديث البسطامي لنفسه، ثم اسند الوحي للبسطامي وجعله يحاوره، ثم بعد ذلك لم يتخل عن دعوى الاتحاد فاعتبر تنزيه نفس البسطامي عن النقائص والرذائل مبرراً لقوله (سبحاني) .. وجاءت القاصمة حين طالب بتأويل كلام الصوفية قياساً على تأويل صفات الله تعالى التي قد تفيد

(١) البحر المورود ٢٧٨.

(٢) لطائف المنن ٤٨٧.

(٣) لطائف المنن ٤٧٩.

(٤) درر الغواص : ٩١.

مشابهة البشر كالوجه فى (ويبقى وجه ربك) أو اليد (يد الله فوق أيديهم).. فاعترف ضمناً بألوهيتهم واعتبرهم أولى من الرسل بالرعاية ..

٣ - وفى موضع آخر يفتخر الشعراى بتأويله لكلام الصوفية (وحمل كلامهم على أحسن الوجوه، وكذلك كلام اتباعهم، فأحمله على محامل حسنة)^(١). (وأما الجواب عن السادة الصوفية رضى الله تعالى عنهم فغالب مؤلفاتى جواب عنهم)، وبعد أن أسهب فى الدفاع عن الصوفية ضد انكار الفقهاء قال (فإن أردت يا أخى عدم الإنكار فأجلُ مرآة قلبك فإنك تشهد الصوفية من خيار الناس .. إذا علمت ذلك فمما نقل عن الشيخ أبى يزيد البسطامى قوله (طاعتك لى يارب أعظم من طاعتى لك)، أى إجابتك لى يارب دعائى .. أعظم من إجابتى أنا لامتنال أمرك واجتناب نهيك .. ومما نقل عن أبى يزيد أيضاً أنه قال (بطشى أشد من بطش الله بى، لما سمع قارئاً يقرأ «إن بطش ربك لشديد» فصاح حتى طار الدم من أنفه وقال (بطشى أشد من بطشه بى) ومراده رضى الله تعالى عنه: إن بطش الله عز وجل بى لا يكون إلا مخلوطاً بالرحمة لأن رحمته غلبت غضبه عليه.. ولا هكذا بطش أبى يزيد فإنه محض انتقام لا يشوبه رحمة .. ومما نقل عنه أيضاً أنه قال لبعض مريديه (الأن ترانى مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة)، ومراده أن المرید ليس له قدم فى معرفة الله جل وعلا فإذا رآه فإنه يراه ولا يعلم أنه هو، فلا يعرف يأخذ عنه علماً ولا أدباً، بخلاف أبى يزيد فإنه ينتفع به ويعلمه الأدب ..

ومما نقل عنه أيضاً (سافرت من الله إلى الله) ولعل مراده : سافرت فى طريق الله إلى أن عرفته، أو سافرت فى حب الله من باب قوله تعالى (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا) وقوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده) وليس مراده رضى الله تعالى عنه بذلك مسافة .. ويصح أن يكون مراده : ابتداء سفرى إلى انتهائه بحول الله وقوته لا بحولى ولا قوتى .. ومما نقل عن الجنيد رضى الله تعالى عنه قوله (العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلى دار) انكر ذلك بعضهم وقال قد قال الله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى تذوق الموت عند انتهاء أجلها فى الدنيا فكيف الحال؟ والجواب كما قال بعضهم : إن مراد الجنيد أن العارفين لما جاهدوا نفوسهم فى حال سلوكهم حتى ماتت

(١) لطائف المنن ١٨٥ ، ١٩٥

عنهم جميع تصرفاتهم وشهدت التصرف لله وحده فكأنها ماتت فى حال حياتها ، لأن حكمها إذ ذاك حكم الأموات فى عدم إضافتها الفعل إلى نفسها ..

ومما نقل عن الشبلى رضى الله عنه أنه كان يقول (إن ذلى عطل ذل اليهود) ولعل مراده رضى الله تعالى عنه أن ذلى لله تبارك وتعالى أعظم من ذلك اليهود له تعالى .. والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده ، ومما نقل عنه (الشبلى) أيضاً أنه قال (ما فى الحجة إلا الله) .. ولعل مراده رضى الله تعالى عنه ما ثم فى جسدى فاعل إلا الله تبارك وتعالى نظير قول بعضهم (ما فى الكونين إلا الله تعالى) ، فليس مراده نفى الكونين ولا أن الله سبحانه وتعالى يحل فى خلقه لأنه أثبت وجودهما كما نرى ، ولكن جعل الله تعالى خالقاً لهم ولافعالهم ، وكم فى الكتاب والسنة من كلام يحتاج إلى تقدير كما فى قوله تعالى (واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) أى اشربوا حب العجل .. ومما نقل عن الإمام الغزالى رضى الله تعالى عنه أنه قال (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) ، ولعل مراده رضى الله عنه أن جميع الكائنات أبرزها الله تعالى على صورة ما كانت فى علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة وفى القرآن العظيم (اعطى كل شىء خلقه) .. وهذا هو معنى قول الشيخ محبى الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه فى تأويل ذلك (أن كلام حجة الإسلام فى غاية التحقيق لأنه ما ثم لنا إلا رتبتان قدم وحدوث ، فالحق تعالى له رتبة القدم ، والحادث له رتبة الحدث ، فلو خلق تعالى ما خلق إلى ما لا يتناهى عقلاً فلا يرقى عن رتبة الحدث إلى رتبة القدم أبداً) ..

ومما نقل عن الشيخ محبى الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه أنه قال (حدثنى قلبى عن ربه أو حدثنى ربه عن قلبى أو حدثنى ربه عن نفسه تعالى بارتفاع الوسائط) ليس مراده أن الله تعالى كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف ببعض أحوال ، فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم (إن يكن فى أمتى محدثون - بفتح الدال المشددة - فعمرو) .. ومما نقل عن القوم رضى الله تعالى عنهم قولهم (اللوح المحفوظ هو قلب العارف) ليس مراده نفى اللوح المحفوظ وإنما مراده أن قلب العارف إذا انجلى ارتسم فيه كل ما كتب فى

اللوح المحفوظ نظير المرأة إذا قابلها لوح مكتوب فافهم، ومما نقل عن القوم رضى الله تعالى عنهم قولهم (دخلنا حضرة الله، خرجنا من حضرة الله) ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكاناً خاصاً معيناً فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما مرادهم بالحضرة حيث اطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدي الله عز وجل، فما دام يشهد أنه بين يدي ربه جل وعلاً فهو فى حضرته، فإذا احتجب عن هذا خرج من حضرة الله تعالى ..

ومما لا يصح نقله عن الإمام الغزالي رضى الله تعالى عنه وأشاعه بعضهم عنه قوله أنه قال (إن لله عباداً لو سألوه أن يقيم الساعة الآن لأقامها)، فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام رضى الله تعالى عنه وأرضاه، يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه لأنه يرد النصوص القاطعة الواردة فى مقدمات الساعة، فيؤدى ذلك إلى تكذيب الشارع فيما أخبر، وإن وجد ذلك فى بعض مؤلفات الإمام، فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة ..

وكذلك مما لم يصح عن الشيخ أبى يزيد رضى الله عنه ما نقله بعضهم من أنه قال (أن آدم عليه السلام باع حضرة ربه بلقمة)، فإن الشيخ أبى يزيد من جملة مشايخ رسالة القشيري الجامعين بين الشريعة والحقيقة فكيف يصدر عنه مثل هذا الكلام الجافى فى حق سيدنا آدم عليه السلام فافهم ..

وكذلك مما لا يصح نقله عنه رضى الله تعالى عنه ما نقله بعضهم من أنه قال (لو شفعننى الله تعالى فى الأولين والآخرين لم يكن ذلك عندى بكبير، غاية الأمر أنه شفعننى فى قطعة طين) فإن ذلك كلام من لم يشم رائحة الأدب، فإنه يبطل خصوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

٤ - والشعرانى كصوفى فقيه يتخذ علمه بالفقه سلاحاً للدفاع عن نحلة التصوف - إلا أنه ناقض نفسه بتأويله لأشياخه الصوفية بما يتنافى مع فلسفة الفقه وأسلوب

(١) لطائف المتن ١٩٧ : ٣٠١.

الإسلام .. ثم أنه تناقض مع نفسه ككاتب ومفكر حين هاجم صوفية عصره في الوقت الذي نهى فيه عن مطالعة كتب الصوفية السابقين وأول لهم كلامهم بعذر هو أقبح من الذنب ..

ويحلون لنا أن نناقش الشعرائي في تأويله لكفر الصوفية وفي مبدأ التأويل بصفة

عامية :

(أ) ونبدأ بتقرير الحقائق القرآنية الآتية : -

١ - إن الإنسان مؤاخذ بما يلفظه لسانه يقول تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .. ق ١٨) ، وقد أعظم الإسلام من مسئولية اللسان، فالإنسان يدخل الإسلام بكلمة (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .. البقرة ١٣٣) (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .. آل عمران ٥٢).

٢ - والمسلم المؤمن مطالب بالإعراض عن مجرد اللغو الذي لا يستوجب عقاباً دينيًّا (والذين هم عن اللغو معرضون .. المؤمنون ٣) (وإذا مروا باللغو مروا كراما .. الفرقان ٧٢) ..

٣ - والمسلم يتزوج بمجرد كلمة، إلا أنها كلمة مسئولة أو بتعبير القرآن الكريم عنها (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً .. النساء ٢١) .. ويطلق زوجته بمجرد لفظ الطلاق أمام شاهدي عدل، بل قد يرقعه لسانه في عقوبة القذف .. وما أسهل جريانه على اللسان (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .. النور ١٥)، ذلك أن حد القذف ثمانون جلدة يحد بها من يسبق لسانه بلفظ السب لإحدى المؤمنات، وحينئذ أما أن يعاقب وأما أن يثبت حقيقة كلامه بأربعة شهداء (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون .. النور ٤). فمن قذف إحدى المحصنات يواجبه إلى جانب العقوبة الجسدية عقوبة إضافية وهي : فقدان أهليته للشهادة وإعلان فسقه لأنه

خرج عن دائرة الالتزام .. إلى هذا الحد بلغ اهتمام الإسلام بمسئولية اللسان وأهمية الكلمة واللفظ والنطق ..

٤ - بل إن المسلم كما يدخل الإسلام بكلمة قد يخرج منه إلى دائرة الكفر بكلمة .. مجرد كلمة .. فالحق حق الله .. وحق الله أولى بالرعاية .. ودينه أحق بالنصرة والولاء .. وقد عرف تاريخ الإسلام طائفة دخلت في الإسلام نفاقاً، قالوا لا إله إلا الله فاعتبروا مسلمين بمجرد نطقهم إياها (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم. الحجرات ١٤)، ومن شأن المنافق أن يقضه لسانه وينم على مكنون قلبه .. فكما دخل في الإسلام بكلمة فمصيره أن يخرج منه أيضاً بكلمة .. وهذا ماحدث وسجله القرآن الكريم واعتبرهم كفرة لمجرد نطقهم بكلمة الكفر ولم يأبه بحلفهم وقسمهم (يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم. التوبة ٧٤) فلا عبرة هنا بأى اعتذار مهما كان (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم .. التوبة ٦٥، ٦٦).

ولكن العقوبة على الكفر مؤجلة إلى يوم القيامة، والله تعالى هو الذى يحكم بالكفر على من يموت بكفره. وتلك قضية أخرى إلا أننا نفهم من القرآن خطورة ما ينطقه اللسان، لذا يبادر المؤمن بالاستغفار باستمرار.

(ب) وقد عرف تاريخ المسلمين حركات متلاحقة للردة ولم تعرف وقتها محاولات التبرير والتأويل والاعتذار مع أن أولئك لم يدعوا اتحاداً بالله وتأليهاً للبشر وكل الموجودات، كما يقول أصحاب وحدة الوجود، فلما تسيد الصوفية وتحكموا، عرفنا لأول مرة أن القول المكفر يعنى مجرد (الشطح). وإن ذلك الشطح يمكن تأويله ليوافق الشريعة، ثم سنوا للتأويل قوانين أبرزها أن يتمتع به السابقون من الصوفية دون اللاحقين المعاصرين لفيلسوف التأويل، لأنه لا يرى فى أهل عصره من يستحق أن يعمل له مؤولاً ومدافعاً ومحامياً، وكيف ذلك وهم يناقضونه على المريدين والصيت والنذور والهدايا؟؟ وهكذا فعل القشيري ثم الغزالي ثم الشعرائى ..

(ج) وما أسهل الرد على تأويلات الشعراني وغيره .. إذ أن العبارات الواضحة تستعصى على التبرير والتأويل، بل قد يؤكد التأويل ويفضحها التبرير. كما قال الشعراني في تأويل مقالة الجنيد (العارفون لا يموتون ..) فإنه أجاب بتأويل اتحادي جعل العارفين يتحدون بالله بإماتة التصرفات البشرية وصيرورتهم جسداً تصرفه روح الله أو حسب تعبيره (ان العارفين لما جاهدوا نفوسهم في حال سلوكهم حتى ماتت عنهم جميع تصرفاتهم وشهدت التصريف لله وحده .. إلخ)، وقوله في تأويل عبارة الشبلي (ما في الجبة إلا الله) أثبت عقيدة الاتحاد حين حاول نفيها فقال (ولعل مراده .. ما ثم في جسدي فاعل إلا الله نظير قول بعضهم ما في الكونين إلا الله تعالى) ..

وبعض تأويلات الشعراني تستدعي الرثاء لضحالتها وتفاقتها .. وذلك في تبريره لمقالات البسطامي التي يفضل فيها نفسه على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً وهي (طاعتك لي يارب أعظم من طاعتي لك -بطش أبي يزد- لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة) ..

فقد أول طاعة الله لأبي يزد بأنها إجابته لدعائه أي أن الله يطيع أمر أبي يزد فيستجيب لدعائه وإن هذه الطاعة الألهمية لأبي يزد أعظم من قيام أبي يزد بطاعة الله .. فالشعراني رغم هذا التخريج المبتذل لقول البسطامي أثبت تفضيل البسطامي على الله أيضاً ..

ثم فسر الشعراني (بطش أبي يزد بالله تعالى) بأنه انتقام لا رحمة فيه .. بينما جعل بطش الله بأبي يزد مخلوطاً بالرحمة .. فكيف يتصور أي عقل أن يبطش البسطامي بالله بطشاً لا رحمة فيه بينما يبطش الله بأبي يزد بطشاً هيناً؟؟

واستدل الشعراني بآيات قرآنية في معرض التأويل والتبرير، يقول (وكم في الكتاب والسنة من كلام يحتاج إلى تقدير) .. أي أنه طالما وجدت بالقرآن آيات تحتاج إلى تأويل وتفسير فكذا يحتاج كلام الأولياء إلى تأويل وتفسير .. والشعراني بذلك يعتبر كلامهم في منزلة القرآن، هذا مع أن القرآن الكريم لم يرد فيه قول كفر يحتاج إلى تأويل، فليس

من القياس المنطقي أن يؤول كلام الصوفية حملاً على ما ورد في القرآن الكريم من استعارات وصور بيانية تعبر عن ذات الله تعالى وصفاته، إلا إذا كان أولئك الأشياخ عند المؤولين يتمتعون بنفس مكانة الله تعالى.

ومن ناحية أخرى فتأليه شيوخ الصوفية يعنى تفضيلهم على الرسل .. وتفضيل الولي على النبي أمر مقرر في العقيدة الصوفية يتجلى في نواح شتى في التفكير الصوفي حتى في معرض التأويل .. فالنبي في عقيدة الإسلام بشر يوحى إليه، وهو مكلف محاسب على ما كسبت يده ولسانه كباقي البشر، بل مسئوليته أكبر بحكم الرسالة .. وفي القرآن الكريم مواقف تعرض فيها النبي عليه السلام للوم والتأنيب لمجرد كلمة قالها ربما لو قيلت من انسان عادي لكان اللوم أقل .. ومن ذلك قوله عليه السلام لزيد بن حارثة (امسك عليك زوجك) حين أراد تطليق زينب بنت جحش. (وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله، وتخفى في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه..) (الأحزاب ٣٧).

وبعينا من هذه القصة أن الرسول عليه السلام عوّب على كلمة نطق بها. وشطح الصوفية قول فظيع فيه افتراء على الله ما بعده افتراء .. ويستحيل على الرسل الوقوع في القول على الله .. ومع ذلك فإن القرآن الكريم لم يغفل عن هذه الناحية الإفتراضية فأثبتها وبين عقوبتها بالتفصيل، يقول تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين.. الحاقة ٤٤ : ٤٧) ..

هذا مع وجود الفرق الهائل بين شطح الصوفية المغرق في البذاءة وبين الافتراء العادي الذي وقع فيه بعض المتنبئين مثل مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي ..

د) ويستدل من أسلوب الشعراني في التأويل أن عقيدة الاتحاد احكمت سيطرتها على عصره، حتى كان يؤول بعض العبارات بأسلوب اتحادي كما مر، ومعنى ذلك أن أسلوب الاتحاد انتشر في عصر الشعراني وأصبح عادياً مألوفاً بحيث يستدل به في التأويل .. ومن ذلك تأويله بكلمات ابن عربي (حدثني قلبي عن ربي أو حدثني ربي عن

قلبي أو حدثني ربي عن نفسه ..) بأن مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام ثم أفاض في توضيح الفرق بين وحى النبي ووحى الأولياء الذى شاع فى هذا العصر الإيمان به وتناسى ما فى أسلوب ابن عربى من مساواة مرفوضة بينه وبين الله .. ومن ذلك أيضاً تأويله لقولهم (اللوح المحفوظ هو قلب العارف) والقائلون لذلك من صوفية العصر المملوكى، تطرفوا فى إدعاء الاتحاد وعلم الغيب حتى اعتبروا أن قلب العارف الصوفى هو محل اللوح المحفوظ، ويرر الشعرائى ذلك بما قاله الغزالى عن المرأة واللوح، ومن ذلك تأويل الشعرائى بقول الصوفية (دخلنا حضرة الله) بالشهود .. والشهود من أوصاف الحالة الاتحادية فى العقيدة الصوفية ..

هـ) ثم أورد الشعرائى طائفة من الأقوال ادعى أنها لم تصح .. وأنها الصقت بقائلها الصوفية كذباً .. واعتذر بحجج واهية لجأ فيها إلى ما شاع فى عصره من تقديس وميل لتنزيه أولئك الأسياف .. كقول مثلاً عن الغزالى (.. فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه ... وإن وجد ذلك فى بعض مؤلفات الإمام فذلك مدهسوس عليه ..)، واعتذر عن مقالة للبسطامى أساء فيها الأدب على آدم عليه السلام بأن ذلك مما لم يصح عن أبى يزيد (فإن الشيخ أبا يزيد من جملة مشايخ رسالة القشيرى .. فكيف يصدر عنه مثل هذا الكلام الجافى فى حق السيد آدم ..) ورسالة القشيرى ليست فيصلاً يحتكم إليه إلا فى العصر المملوكى عصر السيطرة الصوفية، وإذا كان البسطامى قد شطح فى حق آدم واستنكر الشعرائى حدوث ذلك وحاول تنزيه البسطامى عنه فكيف به وهو يفضل نفسه على الله ويقول (طاعتك لى يارب اعظم من طاعتى لك .. بطشى اشد من بطش الله بى .. إلخ)، أيعتبر حق الله أقل شأنًا من (حق السيد آدم)؟؟

على أن تلك العبارات التى يشكك الشعرائى فى صدق نسبتها لأصحابها - متواترة فى كتب الصوفية ومثبتة على لسان أصحابها .. ويعيننا من ذلك أن الشعرائى الذى انكر أن يكون أبو يزيد البسطامى هو القاتل (لو شفعننى الله تعالى فى الأولين والآخرين لم يكن ذلك عندى بكبير .. إلخ) .. هو نفسه الشعرائى الذى أثبت تلك المقالة نفسها

للبسطامى فى ترجمته له فى الطبقات الكبرى يقول (دخل الهوى يوماً على أبى يزيد فقال له أبو يزيد : وقع فى خاطرى أنى اشفع لك إلى ربى عز وجل. فقال : يا أبا يزيد لو شفعك الله فى جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيراً إنما هم قطعة طين...) (١). وقال فى الأنوار القدسية (ومن هذا المقام قال أبو يزيد رضى الله عنه لو شفعنى الله يوم القيامة فى جميع الخلائق لم يكن عندى بعظيم لأنه ما شفعنى إلا فى قطعة طين) (٢).

✽ الشعرانى يشيد بأساتذته الاتحاديين :

وفى الوقت الذى هاجم فيه الشعرانى معاصريه من الاتحاديين فإنه أشاد بأساتذته منهم وأوسع لهم فى طبقاته مشيداً ومفاخرًا بعلمهم بعقائد الاتحاد، كما يقول عن محمد الصوفى (أنه كان يحل مشكلات ابن عربى بأفصح عبارة، ومن كلامه رضى الله عنه: اعلم أن السير فى الطريق سيران، سير إلى الله وسير فى الله، فما دام السالك فى المسالك الفانية التى هى طريق العدم فهو فى السير إلى الله، فإذا قطع كرة الوجود صار إلى المعبود، ولم تكن هذه الرتبة إلا من طريق الأسماء، كما أشار إلى ذلك سيدى عمر ابن الفارض بقوله : -

على سمة الأسماء تجرى أمورهم وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

ففى البداية أنت أنت والاسم الاسم، وفى وسط الطريق تارة أنت وتارة الاسم، وفى النهاية أنت ولا اسم فإن التخلق به يظهر فعله على ناسوتك لقوته فلا يرى منك إلا فعل الاسم، فالمرنى أنت لا الاسم لقصور نظر الرائيين، وأما الناقد البصر فهو يعرف قوة الأكسير .. وأطال فى ذلك بكلام يثق على العقل رضى الله عنه) (٣).

ويقول الشعرانى عن (سيده) الشيخ دمرداش المحمدي أنه رتب على فقراء زاويته كل يوم ختمًا يتناوبونه (ويهدونه في صحائف سيدى الشيخ محبى الدين بن العربى...) (٤).

(١) الطبقات الكبرى ج١/ ٦٦

(٢) الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية ج٢/ ١٦٨ : ١٦٩ على هامش الطبقات الكبرى ط. صبيح.

(٣) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٦٨. (٤) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٣٣.

وتتردد عبارات الاتحاد في تراجم اعيان الصوفية قبل وأثناء العصر المملوكي حتى أن الطبقات الكبرى للشعراني أصدق مصدر يعبر عن العقيدة الصوفية، ومعنى ذلك أن الشعراني - كمعبر عن عصره- لم يجد في ذلك تحرجاً لأنه منطق العصر وعقليته أشرت عقيدة الاتحاد .. وكل ما هنالك أن القاعدة الصوفية في الإنكار مرعية تماماً، وهي تقديس الأشياء القدامي وقبول كلامهم وتأويل شطحهم بعبارات اتحادية أهدأ، هذا مع قصر الإنكار على المعاصرين وهم بطبيعة الحال أقل شأناً من الشيوخ السابقين، فلا يستحق الشيوخ المعاصرون إلا الاحتقار من الشعراني لأنهم يتشبهون بالأكابر السابقين، وينافسونه في ادعاء الولاية وهم -حسب اعتقاده- لا يستحقونها

وقد واجه الشعراني «قضية ابن عربي» باختصار مؤلفاته، وتأويل كلامه، وما استعصى على التأويل ادعى أنه مدسوس عليه، ثم دعا إلى عدم مطالعة كلامه جملة وتفصيلاً .. ولا ريب أن شخصية الشعراني - كصوفي فقيه يهدف للتقريب بين الإسلام والتصوف - قد أملت عليه هذا الطريق، وجعلته في نفس الوقت يسلك طريق الاعتدال أو النفاق والتقية في تقريره لعقيدة الاتحاد الصوفية التي يؤمن بها ويدعو لها ...

• الشعراني يقول بالاتحاد الصوفي :

(أ) نفاق الشعراني :

بالغ الشعراني في التقية والنفاق متابعة لا شياخة أحمد الزاهد ومدين الأشموني والغمري مع قيامه بالتوفيق بين الإسلام والتصوف ..

١ - وقد حاول الشعراني -على عادته- أن يسبغ المشروعية على كتمان لعقيدة الاتحاد بشتى السبل، كالتعلق بأهداب السلف الصالح والخلط بين الفقه والتصوف والعلم والاتحاد، كقوله (ومما من الله تبارك وتعالى به على اقتدائي بالسلف الصالح في كتمان الأسرار التي مُنحتُها بفضل الله تعالى، فأعرف في كل آية أو حديث أو أثر من الأسرار ما لا يسطر في كتاب)، ويقول مستشهداً بروايات سابقة كاذبة (وقد كان الإمام على رضي الله تعالى عنه يقول : آه، بعد أن يضرب على صدره - إن هنا لعلوماً جمّة. لو

وجدنا من يحملها ؟ وكان رضى الله عنه يقول : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً لو أفضيته لخضبت هذه من هذه، وأشار إلى لحيته وعنقه، وكان أبو هريرة يقول: أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من علم فأما واحد فبثثته لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم^(١).

ومعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستحيل عليه إخفاء شىء من رسالته وعلمه، ومعلوم أن الإسلام قد تم واكتمل بانتهاء الروحى (اليوم أكملت لكم دينكم وأنمت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً .. المائدة ٣).

وتلك الروايات الكاذبة تتهم النبى بإخفاء جزء من الرسالة، وعدم تبليغ الرسالة كلها، وذلك ما يرفضه المؤمن بالله ورسوله. إلا أن الصوفية حين عجزوا عن إثبات أصل لعقيدتهم فى القرآن الكريم لجأوا إلى الإيهام بأن التصوف هو العلم الخفى الذى اختص به الرسول على الصوفية، واستشهدوا بأحاديث كاذبة.

٢ - ثم يلجأ الشعرا إلى القصص التى وجدت لها السوق الرائجة فى عصره ليثبت بها مشروعية التقية .. يقول (ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى عن الشريف الكلبي أنه أخبره أنه كان ذاهباً فى طريق العمرة ومعه فقير أعجمى، فتكلم بشىء من الأسرار، فقلعت رأسه من بين كتفيه فخفت أنهم يطالبوننى به فهرولت وتركته)^(٢). (وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفى وكان من أصحاب الشيخ إلى عبد الله القرشى أنهم قالوا للقرشى مرة ياسيدى : لم لا تحدثنا بشىء من الحقائق؟ فقال لهم : كم أصحاب اليوم؟ فقالوا : ستمائة رجل فقال : استخلصوا منهم مائة فاستخلصوا ثم قال. فاستخلصوا منهم عشرين، ثم قال استخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا له الشيخ قطب الدين العسقلانى والشيخ عماد الدين وابن الصابونى والقرطبى وكانوا أهل مكاشفات وخوارق فقال الشيخ : والله لو تكلمت بشىء من الأسرار والحقائق لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة...)^(٣).

(١) لطائف المنن ٤٨٨.

(٢)، (٣) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

ولا شك أن قصة الاضطهاد التي لازمت التصوف في بدايته ترسبت في عقل الصوفية اللاحقين، وظهرت في أقصيصهم وكراماتهم حتى في عصر تمتعوا فيه بالحرية بل وسيطروا عليه ..

٣ - ثم وصل الشعراني إلى غرضه وهو فلسفة الاخفاء وتقعيد التقية، واسباغها بالمشروعية الفقهية يقول (ووجه ذلك أن علم الحقائق والأسرار من علم سر القدرة والجبروت، وإفشاء ذلك كفر بالله عز وجل، ويجب على العلماء أن يفتوا بكفره، لأن ذلك بما تعبدهم الله تعالى به ظاهراً صيانة للشرعة المطهرة .. وأيضاً فإن الأسرار الإلهية المودعة في قلوب العارفين هي من أمانة الله عندهم، وهي العهد والعقد وهم مطلوبون بالوفاء بالعهود والعقود وآداء الأمانات إلى أهلها دون غيرهم، فلو قُطع صاحب الأسرار إرباً إرباً لما أظهرها، لكن إن أعطى الله تعالى عبداً قوة علي التلويح دون التصريح كسيدى محمد البكرى حفظه الله تعالى من عيون الحاسدين .. فعلم أن كُمل العارفين لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية، ثم لو تصور وقوع ذلك منهم في حضور أو غيبة أو غلبة حال حصل القتل، إذ الغيرة الإلهية تقتضى ذلك كما مر في أسرار الملوك وفي رمزه تعالى فواتح بعض سور القرآن العظيم مع قدرته على إظهار تلك ..^(١) أى أن الشعراني وصل في فقهه إلى اعتبار اسرار التصوف كأحدى معجزات القرآن الكريم في فواتح السور ..

٤ - والشعراني يعتبر نفسه من (كُمل العارفين) الذين (لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية) مخافة (القتل) .. فقد عد من من الله تعالى عليه (عدم إفشائي الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة الشريفة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحانه وكثرة التنكرات - أي الاختبارات - والتغريات عليه، واغضابه المرة بعد المرة، وسبه بين من يستحق منهم عادة المرة بعد المرة .. وقد جاءني مرة شخص من ذهاة فحول الرجال من معلمى دار الضرب بالقلعة يطلب منى أن اطلععه على شيء من أسرار الطريق وألح في ذلك فتنكرت عليه وتغريت مدة وصرت أكلمه بالكلام المؤذن بنقص مرتبته .. فزهقت

(١) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

نفسه منى ونفرت .. وتقدم فى هذه المنى أن شخصاً دخل على أبى عبد الله القرشى فرآه يتكلم فى الاسرار فلما شعر به قطع الكلام فقال له الشخص : أنا من المعتقدين فى أهل الطريق لا تخافوا منى ..^(١).

ففى عصر الشعرانى اكتملت سيطرة التصوف على الحياة الدينية عقيدة وسلوكاً وشرعية .. ومع ذلك أضحت (دقائق الشريعة) من الأمور الملحقة بالعقيدة الصوفية فى وجوب إخفائها عنهم خارج الإطار الصوفى، ليس خشية من الفقهاء، ولكن لإظهار تميز الأشياخ الصوفية عن غيرهم من الأويش، أو من الفقهاء الملتحقين بالتصوف، الذين يتمتعون بكرهية الشعرانى وعدم ثقته فيهم.

(ب) من أقوال الشعرانى فى الاتحاد :

ومع شدة تمسك الشعرانى بالتقية كما مر فإن لسانه سبقه فأورد عن نفسه بعض عبارات الاتحاد، ومعلوم أن عبارات الاتحاد التى أوردها الشعرانى لأشياخ التصوف السابقين تحظى برضى الشعرانى بل وتقديسه، وإلا فما الذى دعاه للإتيان بها فى معرض الفخر بأولئك الأشياخ وتعداد مناقبهم. إلا أننا نقصر القول عما قال به الشعرانى عن عقيدته وآرائه الشخصية لتكتمل الصورة ..

وقد أوردنا بعض عبارات الاتحاد التى قالها محمد الصوفى المعاصر للشعرانى والجديد هنا أن ذلك الصوفى الذى (كان يحل مشكلات ابن عربى بأفصح عبارة) كان فى نفس الوقت استاذاً ومعلماً للشعرانى أخذ عنه دقائق عقيدة ابن عربى يقول الشعرانى فى ترجمته لمحمد الصوفى (.. صحبته نحو خمس وثلاثين سنة وانتفعت بكلامه وإشاراته..)^(٢).

يقول الشعرانى (ومما من الله تبارك وتعالى به على : شهودى لقرب الحق تبارك وتعالى منى فى حال سجودى كحال قياصى على حد سواء، بالنسبة إليه سبحانه وتعالى،

(١) لطائف المنى ٥٤٥ : ٥٤٦.

(٢) الطبقات الكبرى ج٢/١٦٨.

لأن الله تعالى يقول (واسجد واقترب) ولم يقل قم واقترب^(١). أي أن الشعراني يشهد الله في قيامه كما في سجوده - ويمتاز بذلك عن بقية البشر ومعروف أن عبارة الشهود احدى صفات الصوفى المتحد بالله .. فالشعراني يعلن بطريق غير مباشر - أن اتحاده بالله ليس قصراً على السجود وإنما يشمل القيام أيضاً، ولا يكتفى بتفضيل نفسه على النبي الذي قال له ربه تعالى «واسجد واقترب» ولكنه أيضاً يجعل الاقتراب شهوداً للحق بالمفهوم الاتحادي للعقيدة الصوفية، وجعل الشعراني من الذكر الصوفى طريقاً آخر للإتحاد يقول أن غرض الذكر (هو نفى كل موجود من القلب سوى الله تعالى)^(٢)، وقد فصل مراحل الاتحاد حال الذكر الصوفى بقوله (الذاكر ينسى أفراد العالم شيئاً بعد شيء إلى أن يحجب عن شهوده ويصير لا يرى إلا الله، ثم إنه يحجب عن شهود نفسه كذلك بأن يرق ويدق حتى يصير كالذرة ثم بغيث، فإذا تحقق بالمقام قيل له ارجع إلى شهود أفراد العالم وانظر ما انطوت عليه من الحقائق فإنها كلها دلائل على ذلك، فإنك حجت عن معرفتى بقدر ما حجت عن شهود العالم، ثم يرجع بعد معرفة الله إلى أفراد العالم له، شيئاً بعد شيء إلى أن لا يغيث عنه من العالم ذرة إلا ما كان فوق دائرته)^(٣).

فقوله (الذاكر ينسى أفراد العالم شيئاً بعد شيء) تدرج في الاتحاد، وقوله (إلى أن يحجب عن شهوده) اتحاد بالله وفناء عن الطبيعة البشرية، وقوله (ويصير لا يرى إلا الله) يعنى وحدة الوجود فقد أصبح الشاهد والمشهود هو الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .. ثم أكد ذلك بقوله (ثم إنه يحجب عن شهود نفسه كذلك بأن يرق ويدق حتى يصير كالذرة ثم بغيث) ومعنى ذلك أن الوجود قد أصبح واحداً كاملاً بتحقيق فناء غير الله في الله .. (فإذا تحقق بالمقام) أى إذا عرف حقيقة الأمر وهو وحدة الوجود الإلهى المتمثلة فى كل الأعيان الموجودة (قيل له ارجع إلى شهود أفراد العالم وانظر ما انطوت عليه من الحقائق فإنها كلها دلائل على ذلك)، أى إذا عرف أن الحقيقة الكبرى هى وحدة الوجود

(١) لطائف المنن ٥٤٣.

(٢) لبس الخرقه : مخطوط ورقة ١٢.

(٣) لواقع الأنوار ١١٣.

عاد يتمثل إلهه فى كل أفراد العالم من شجر وحجر وحيوان فكلها انطوت على الحقائق الدالة على ذلك، بل وأصبحت دليلاً على معرفته بإلهه (فإنك حجبت عن معرفتى بقدر ما حجبت عن شهود العالم) ثم يرى إلهه فى كل أفراد العالم (.. ثم يرجع بعد معرفة الله إلى أفراد العالم له شيئاً بعد شيء، إلا أن لا يغيب عنه من العالم ذرة، إلا ما كان فوق دائرته) ..

فابتدأ الشعرانى بأن الذاكر ينسى أفراد العالم شيئاً فشيئاً إلى أن يتحد بالله، وحينئذ يعرف الحقيقة الكبرى عندهم وهى أن الله عين العالم، فيرجع إلى تذكر أفراد العالم حتى لا يغيب عنه منه شيء، ففى الحالة الأولى نسي كل شيء عن نفسه وعن العالم حتى صار (كالذرة) ثم غاب فى الحقيقة الإلهية، وفى الحالة الأخيرة عاد يتذكر كل شيء بعد أن عرف أن العالم هو الله فلم تغب عنه أي (ذرة) من العالم. وقد قال أيضاً (لا يزال العبد إذا وصل إلى شهود الوجود فى عينه كالذرة، فتكبر عنده أفراد الوجود شيئاً فشيئاً، حتى يرجع إلى الحالة الأولى التى كانت له قبل الترقى، ويصير يعظم الوجود بتعظيم الله تبارك وتعالى)^(١).

ومن خلال (وحدة الوجود) الحقيقة الكبرى عند الشعرانى - والصوفية التى تنتظم فى إطارها عقيدة الاتحاد - نظر الشعرانى إلى الولى الصوفى فجعله متمتعاً بصفات الله تعالى أو على حد قوله (أعلى مراتب التقليد من قلد ربه)^(٢).

وفى العصر المملوكى وعصر الشعرانى على الأخص كان التطبيق العملى لعقيدة الاتحاد حيث قدس الولى الصوفى وكانت مصنفات الشعرانى وكتب المناقب خير دليل على ذلك.

وهكذا وقع الشعرانى بلسانه فأبان عن عقيدة الاتحاد ووحدة الوجود وأثبت إخلاصه لأشياخه محمد الصوفى وابن عربى والغزالي وغيرهم .. وقد يكون المستحسن أن

(١) لطائف المنن ٢٧٦ : ٢٧٧.

(٢) الجواهر والدرر ١٧٠.

تسترجع وصف الشعراني للاتحاديين (..) وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو الإله، وأن عين هذا الوجود الحادث هي عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجبان والإنس والملك والشیطان، ويجعلون الخلق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون ورائس ومرءوس حتى الأباليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان في حبه مجنون، وقد نقلت هذا الكلام في زمننا عن جماعة بالصعيد، فيعتقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة وينكرون ذلك في الظاهر خوف القتل، بل الذي أقوله أن إبليس نفسه لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله تعالى، وإن كان هو الذي يلقى إلى نفوسهم بذلك.. وقد حكيت لسيدى على الخواص عن بعض صفات هؤلاء فقال : هؤلاء زنادقة وهم انجس الطوائف لأنهم لا يرون حساباً ولا عقاباً ولا جنة ولا ناراً ولا حلالاً ولا حراماً ولا آخرة، ولا لهم دين يرجعون إليه ولا معتقد يجتمعون عليه، وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولا نعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء (١) (١).

ونختم هذه المقالة عن القرن العاشر بإشارات -وردت في الحديث عن الشعراني- تظهر فيها سيطرة عقيدة الاتحاد على هذا العصر وما تلاه طبعاً بتأثير الشعراني الذي استمر طيلة العصر العثماني : -

١ - لا أدل على تسيد التصوف وعقيدته في هذا القرن من انعدام ثورة من الفقهاء على مثال حركتي البقاعي وابن تيمية .. بل حدث العكس وهو تصوف الفقهاء أو نفاقهم للتصوف، وذلك ما أخاف الشعراني - خير من يفتن لخطورة النفاق، وهو سيد هذا الميدان..

(١) لطائف المنن ٤٨٦ : ٤٨٧.

ويعيننا أن التاريخ يعيد نفسه وأن الكراسى قد تبدلت .. فالجنيد كان يتستر بالفقه فى زمن كان الفقه فيه هو المسيطر والصوفية مضطهدون فى القرن الثالث، ثم أصبح بعض الفقهاء فى القرن العاشر ينافقون التصوف وينتحلون عقائد الصوفية ويواجهون الإنكار من الشعرانى لأنهم غير مخلصين فى تصوفهم أو بتعبيره (متفعلون).

٢ - وعُرف هذا القرن طوائف شتى من الاتحادية .. المبتدئون الذين تمتعوا بكراهية الشعرانى وطالب براءتهم، والمعلمون الذين تلقى عنهم الشعرانى عقائد الاتحاد .. والمنافقون الموفقون الذين جمعوا بين الفقه والتصوف لخدمة التصوف وبتزعمهم الشعرانى .. وأولئك أسهبوا فى تأويل عبارات الاتحاد للسابقين وأحياناً كانوا يشرحونها بأسلوب اتحادى أخف وقعاً من سابقه .. ثم هم جميعاً أخلصوا لعقائدهم ودافعوا عنها رغم سطحية الإنكار الفقهى وتفاوته ..

*** الباب الأول ***

مراحل العقيدة الصوفية

وتطورها فى مصر

*** الفصل الخامس :**

- المرحلة الثالثة للعقيدة الصوفية : رفض الإسلام صراحة.

*** مدخل :**

- الشطح الصوفى فى العصر المملوكى طريق لنهذ الإسلام.

- الصوفية رافضو الإسلام : أبطال المرحلة الثالثة.

- الباجرى، اتباع الباجرى.

- ابن البقعى، ابن اللبان.

- ادعاء النبوة، الصعود للسماء.

- طرائف الأعاجم، الحروفية والنسيمية.

- يارب سلم، الحيلة بتتكرم. زندقة بعض الفقهاء.

- شيوع التكفير.

الفصل الخامس

المرحلة الثالثة من مراحل العقيدة الصوفية وفق الإسلام صراحة

* مدخل ..

١ - أسهنا القول في خصائص المرحلتين (الأولى والثانية) في تاريخ العقيدة الصوفية .. وقلنا أن العقيدة الصوفية بدأت (بنفاق الجنيد) الذي حافظ على عقيدة التصوف من ضغط الفقهاء الذي كان في أبان قوته، وانتهت تلك المرحلة - وقد ضعف الفقهاء - بمقد صلح بين الإسلام والتصوف، وبه أضاعى التصوف (إسلامياً) على يد «الغزالي» وتحول الإنكار على التصوف إلى إنكار على أشخاص الصوفية، وأسهم في هذا الإنكار الغزالي نفسه لحماية الطريق الصوفى..

٢ - ثم جاءت المرحلة الثانية قبيل العصر المملوكى على يد «ابن عربى» الذى أعلن صراحة ما كان الغزالي يرمز به، فأعلن عقيدة (وحدة الوجود) أو الوحدة الكاملة بين الله والعالم.

٣ - ثم عرضنا للعقيدة الدينية للعصر المملوكى وكيف انها تبعت ابن عربى وسيطر عليها اتباعه، ومع ذلك فالصراع بينهم وبين الفقهاء لم يهدأ، بل ثار الفقهاء ثورتين في القرن الثامن بزعامة ابن تيمية، وفي القرن التاسع بزعامة البقاعى .. وكل ما هدف إليه الفقهاء هو مجرد التمسك بما كان يعلنه الجنيد قبلاً وهو الإلتزام بالكتاب والسنة .. (مع أن الجنيد كان يقول ذلك تقية وخوفاً من القتل)، ووضحنا كيف اجهض التصوف المسيطر على العصر حركتى الفقهيين .. ثم استسلم العصر المملوكى فى نهايته للشعرانى الذى سار على طريق الغزالي فى توثيق أواصر القربى بين الإسلام والتصوف أو الحفاظ على الشرب الإسلامى وتقرير العقيدة الصوفية من خلاله، وبذلك خف الإنكار

عليه بل عرف عصره منافقين من الفقهاء داهنوا التصوف لأنه الغالب، بمثل ما فعل الجنيد سابقاً حين أبطن التصوف وأظهر الإسلام ..

٤ - والمرحلة الثالثة بدأ بها بعض الصوفية بقصد التحلل الكامل من الإسلام شكلاً وموضوعاً واسماً .. وقد ظهرت هذه الحركة - أو المرحلة - في العصر المملوكي - العصر الذهبي للتصوف .. إلا أنها - وقد حصرت همها في رفض الإسلام - علناً فلم تعلن بديلاً محدداً بدين واضح وبرنامج معين، وكل ما هنالك انهم اعلنوا رفضهم للإسلام واستهزؤوا به وبالأتبياء والقرآن، وادعى بعضهم النبوة صراحة وادعى آخرون الألوهية، وأعلن بعضهم شرعاً جديداً بنفى الإسلام وبحق لهم إنحلالهم العقائدي والخلقي ..

٥ - إلا أن هذه المرحلة لم يكتب لها الاستمرار، فليست فترة زمنية محددة أتت بعد مرحلة ابن عربي وانتهت .. وذلك لأكثر من سبب :

أ) ففي التاريخ العقائدي للتصوف لا تبدأ مرحلة بالإجهاز التام على سابقتها .. وإنما تبقى بعض ملامح الفترة السابقة وتكون الملامح الجديدة أوضح وأصرح .. ذلك أن العقيدة الصوفية قاسم مشترك في المراحل الثلاث، فالجنيد قال بوحدة الوجود وتابعه الغزالي ثم أعلنها ابن عربي فالذي اختلف بينهم هو الأسلوب، والفارق هو في نفاق الجنيد والغزالي وصراحة ابن عربي .. وقد يأتي في المرحلة التالية (مرحلة ابن عربي) من يتمسك بأسلوب الجنيد والغزالي كما فعل الشعرائي الذي قال (بوحدة الوجود) مع تنزيهه لابن عربي ودفاعه عن الطريق الصوفي .. إلا أنه مع ذلك يبقى الصوت العالي لابن عربي وتلاميذه في مرحلته وينفوذهم أخدمت حركات الفقهاء ..

ب) عايشت هذه المرحلة (رفض الإسلام صراحة) العصر المملوكي وهو عصر التصوف الاتحادي واتباع ابن عربي .. ومع أن اتباع المرحلة الجديدة كانوا صوفية اتحاديين استفادوا بالتصوف وعقيدته إلا أنهم وجدوا الإنكار ليس من الفقهاء فقط ولكن من الصوفية العاديين أيضاً وبعض الحكام .. ويرجع السبب في ذلك إلى الإنكار على أسلوبهم الذي يهدف إلى التحلل المطلق

من الإسلام شكلاً وموضوعاً .. وذلك الأسلوب لا يقول به ابن عربى رغم التعارض التام بين وحدة الوجود والإسلام .. فابن عربى حرص على الشكل الإسلامى وحاول أن يجد لعقيدته أصلاً فى القرن الكريم إلى درجة أنه قام بتفسير القرآن الكريم ليوافق عقيدته، وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة لأنه رأى أن الأسلوب الأمثل لا يكون بإعلان رفض الإسلام صراحة، وإنما باستخدام اسم الإسلام وهيكله لحماية عقيدة الصوفية والباسها الثوب الإسلامى، وتذويب الفوارق بينهما بتأويل القرآن ووضع الأحاديث الباطلة .. وليس غريباً بعد هذا أن يكون العصر المملوكى عصر الأحاديث الزائفة الدائعة الصيت والمتداولة حتى الآن ..

وهكذا رأى الصوفية فى العصر المملوكى الخطر كله فى أصحاب الحركة الصوفية الجديدة، فاضطهدوهم مع الفقهاء كما فعل الشعرانى حين طالب بـ«وس الاتحادية المعاصرين له حماية للطريق الصوفى ..

ج) إن المجتمع المملوكى استراح لفكرة المواءمة بين التصوف والإسلام التى قال بها الغزالى واستمرت بعده ليحافظ عليها ابن عربى مع صراحته فى إعلان عقيدته .. ومع دخول العصر المملوكى فى مرحلة التقديس للأشياخ الصوفية وسيطرة التصوف على الحياة العلمية ضعف المستوى العلمى والعقلى وآمن الناس بإشارات الصوفية فى (التفسير) وتخريجاتهم للأحاديث الموضوعة، وصار معلوماً لديهم من الدين بالضرورة أن مبدأ التصوف قرين للإسلام فالخروج على الإسلام خروج على التصوف .. فلاقى أصحابنا اضطهاد الفريقين (الصوفية والفقهاء) حين حاولوا نبذ الإسلام صراحة ..

د) ثم إن ثورات الفقهاء وإنكارهم على اتباع ابن عربى ونحلته لم تنقطع .. رغم أنه لم يرفض الإسلام شكلاً واسماً .. حتى ظهر الشعرانى فى أواخر العصر بعيد سيرة الغزالى فى اصطناع الاعتدال والهجوم على أوباش الصوفية .. وطبيعى أن يتحرج الصوفية من ظهور الدعاة الجدد الرامين لنبذ الإسلام

مطلقاً خوفاً من أن يتعرض التصوف.. من أساسه لإنكار الفقهاء المتحمسين. ذلك أن الدعاة الجدد صوفية اتحاديون استفادوا بالحرية الدينية التي كفلها لهم المجتمع المملوكى الصوفى، وقالوا بالشطحات مثلهم فى ذلك مثل الصوفية الآخرين .. فبادر الصوفية لإنكار عليهم وإعلان البراءة منهم ليسحبوا البساط من تحت أقدام الفقهاء ..

٦ - وهكذا .. بدأت المرحلة الأخيرة وانتهت فى العصر المملوكى، لا كمرحلة زمنية وإنما كمرحلة موضوعية منطقية فى تاريخ العقيدة الصوفية لم يكتب لها الاستمرار، لأن الظروف التاريخية لم تكن صالحة لاستمرارها .. وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر العصر المملوكى -وهو العصر الذهبى للتصوف- قد حفل بجميع التيارات الصوفية المعبرة عن العقيدة الصوفية فى مراحلها الثلاث : -

(فالجنيد) الذى نافق لينجو من الاضطهاد تابعه فى العصر المملوكى أحمد الزاهد ولقبه (جنيد القوم ..) و (الغزالي) الذى وفق بين الإسلام والتصوف نهج طريقة (الشعرانى) .. و(ابن عربى) الذى صرح وأعلن عقيدته سار على طريقة الكثيرون (كالتلمسانى والمنبجى والياقنى وزكريا الأنصارى ومحمد الصوفى) ثم أشياخ الطرق الصوفية (البدوى الشاذلى والدسوقى) ..

والمتحللون من الإسلام فى العصر المملوكى أبرزهم الباجرى والبققى وابن اللبان وآخرون .. وكلهم بدءوا بالشطح الصوفى واستغلوا الحرية التي يقرها المجتمع للصوفى كي يتناولوا ما شاء على الله تعالى ودينه ورسله وأنبيائه ..

الشطح الصوفى فى العصر المملوكى

طريق لنجد الإسلام

١ - أتاح الشطح الفرصة الكاملة لكل الصوفية -على اختلاف طرائقهم- فى أن يقولوا ما شاءوا بكل حرية .. وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوف .. إذ بدأ التصوف بإعلان عقيدته فيما اعتبر شطحاً .. وقد أودى الشطح بحياة بعض الصوفية الأوائل

وأشهرهم الحلاج، وبه اضطرهد الآخرون بسبب (كلمات) لهم قيلت فتعرضوا للنفي والطرده والمحاكمات..

٢ - وبقرار تدين التصوف فى العصر المملوكى لم يعد الشكل الإسلامى حائلاً للصوفية عن قول الشطحات المنافية للإسلام .. بل على العكس أصبح الشطح من سمات العقيدة الصوفية حتى لدى شيوخ التوفيق بين الإسلام والتصوف كالشعرانى، فيقول عن العارفين (منهم من تهب على قلبه نفحات إلهية لو نطقوا بها كثرهم المؤمن)^(١). فالشطح أصبح عند الشعرانى (نفحة الالهية) .. وازدهرت طوائف المجاذيب فى العصر المملوكى ولهم مطلق الحرية فى القول والفعل، فالمجذوب (لا يطالب بأدب من الآداب .. مع وجود الكشف - (علم الغيب) - وبقائه عليه)^(٢). أى أن المجذوب لا يسأل عما يفعل ومهما قال وفعل فهو متمتع بعلم الغيب مع أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

٣ - وأصبح الشطح من لوازم الولى الصوفى يحفظ عنه ويكتب فى ترجمته وإذا حدث وشذ صوفى عن هذه القاعدة قيل عنه (لم يحفظ عنه شطح) كما فى ترجمة المرشدى ٧٣٧^(٣)..

ويزداد التقدير والتقدیس للصوفى المجذوب إذا بالغ فى شطحه كما قال أبو المحاسن فى ترجمة السطوحى ٨٦٥ المجذوب (إذا بدأ فى الشطح يتغير كلامه كله بالنسفه والإساءة المفرطة الفاحشة بغير سبب، رحمه الله ونفعنا ببركة أوليائه)^(٤).

٤ - وتوصف الشطحات بالكثرة كما ورد فى ترجمة الشعرانى لعبد القادر السبكى إذ قال عنه (كان رضى الله عنه .. كثير الشطح)^(٥). وأحمد الكعكى يقول عنه الشعرانى (وكان كثير الشطح تبعاً لشيخه سيدى الشيخ محمد الكعكى .. حتى كان لا يقدر على صحبته كل أحد)^(٦). وقد قال عن أبى السعد الجازى (وكان رضى الله عنه

(١) الجواهر والدرر : ٢٧٥. (٢) البراقيت والجواهر ١٥٤.

(٣) أعيان العصر مخطوط ٤٧، ١١، ٦. (٤) حوادث الدهور ٥٦٥.

(٥)، (٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.

له شطحات عظيمة..^(١١) . فوصف شطحه بالعظيمة .. وقد كان أولئك معاصرين للشعراني.

ويقول المناوي في ترجمة الشيخ عبيد (كانت له خوارق مذهشة، وشطحات موحشة، وكان مشقوب اللسان لكثرة ما ينطق به من الشطح الذي لا يمكن تأويله)^(١٢) . فلم يمنع وصفه للشطحات من وصف صاحبها بالخوارق والكرامات ..

٥ - وفي إطار الشطحات انعدم الفارق بين الصوفى الاتحادي وأخيه الذى يعلن رفض الإسلام، طالما أن الاتحادي يدعى أنه فى حالة (وَجَدَ) أى (قوى عليه الحال) وحينئذ يباح له أن يقول ما يقول .. وقد أورد الشعراني طائفة من الشطحات فى معرض فخره بأشباخه الصوفية لا تختلف عن أقاويل الرافضين للإسلام ..

أ) منها ما استهدف الاستهزاء ببيوت الله بالقول والفعل، كما قال فى ترجمة الشيخ ابراهيم العريان (كان رضى الله عنه يطلع المنبر ويخطب عربائاً فيقول : «السلطان ودمياط وباب اللوق وبين القصرين وجامع طيلون الحمد لله رب العالمين» فيحصل للناس بسط عظيم) (وكان رضى الله إذا صحا يتكلم بكلام حلو)^(١٣) .. فصاحبنا المجذوب يتمتع بتأييد الناس حتى أنه (يحصل للناس بسط عظيم).

ب) وبعضهم كان يجد مجال الاستهزاء فى القرآن الكريم كشعبان المجذوب، يقول فيه الشعراني (كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن على كراسى المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد. وكان العامى يظنها من القرآن الكريم لشبهها بالآيات فى الفواصل وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار (على طريقة الفقهاء الذين يقرأون فى البيوت) فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول : «وما أنتم فى تصديق هود بصادقين .. ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات

^(١١) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٦٦، ١١٧، على الترتيب.

^(١٢) الطبقات الكبرى للمناوي مخطوط ورقة ٣٥٥ (ب).

^(١٣) الطبقات الكبرى ج٢/١٢٩.

بضربوننا وبأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين» ثم قال اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان إلى آخر ما قال.. وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً، لم اسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم^(١). أى تنزهه بجذبتة عن الإنكار، حتى أن الشعرائى يقول عن تخريفاته أنه (كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن) فجعلها (سوراً قرآنية) ..

ج) وبعضهم كان يسب الأنبياء كالأشيخ محمد الخضرى، وقد ترجم له الشعرائى فقال (كان يتكلم بالفرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوى عليه الحال تكلم بالفاظ لا يطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..» وأخبرنى الشيخ أبو الفضل السرسى أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال : «واشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» فقال الناس : كفر.. فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى آذان العصر وما تجرأ أحد أن يدخل^(٢). ويحس القارىء تبرة الفخر فى حديث الشعرائى عن ذلك الخضرى حين هذه المنكرين عليه بالسيف فهربوا.. ويعيننا أن نذكر أن الخضرى المتوفى ٨٩٧ كان من أصحاب الاتحاد العارفين بدقائق العلوم والمعارف ولم يجد لعقيدته مجالاً إلا فى ادعاء الجذب الوقتى أو بتعبير الشعرائى (إذا قوى عليه الحال تكلم بالفاظ لا يطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..).

٦ - ويذكر أن بداية العصر المملوكى ووسطه شهدا عقد المحاكمات لأصحاب الدعوات المتطرفة الذين وقعوا فى سب الأنبياء تبعاً لغرضهم فى التحلل من الإسلام والشرائع الإلهية ..

(١) الطبقات الكبرى ج٢/١٦٧ : ١٦٨.

(٢) الطبقات الكبرى ج٢/٩٧ : ٩٨، ونقل ذلك فى اختيار القرن العاشر مخطوط : ٥٧.

وفى عام ٨١٣ (رفع للقاضى الشافعى أن شخصاً يقال له أبو بكر المغزو يدعى المشيخة ويتكلم على الناس ويقول : الأنبياء عرايا عن العلم لقوله تعالى : « سبناك لا علم لنا » ونحو ذلك من الأشياء الشنيعة، فمنعه القاضى عن الكلام بعد أن عززه بالقول^(١)).

وفى عام ٨٤٤ (عقد مجلس حكم بإقامة دم على بن أخى قطلوخجا لأنه يثبت عليه أنه سب الأنبياء وأفحش وذلك بالتركية والعربية)^(٢). وتأثر بعض القضاة بهذا الجو ففى نفس العام ٨٤٤ (طلب قاضى دمشق الحنفى بالقاهرة بسبب ما نقل عنه أنه سئل عن الحكمة فى طواف النبى (ص) على النساء فى ليلة واحدة، فأجاب بأنه فعل ذلك ليعفهن عن الزنا. فأغرمه السلطان مائتى دينار)^(٣).

وفى القرن التاسع ازداد التصوف وتكاثر طبقة المجاذيب الصوفية، والمجذوب (لا يطالب بأدب من الآداب) فلم يطالبوا بالآداب طالما هم فى حالة جذب .. بينما تعتقد المحاكمات لغيرهم .. وهكذا أصبح ادعاء الجذب غطاء لأصحاب الدعوات المتطرفة يتخلصون به من المحاكمات ..

ويلفت النظر إلى أنه فى القرن العاشر - عصر المجاذيب الذين ذكرهم الشعرانى - عقدت محاكمة سنة ٩١٣ لعمر بن علاء الدين الحنفى وكان خطيباً بأحد الجوامع لأنه (وقع فى حق سيدنا إبراهيم، فاستتابه أحد القضاة وحكم بحرق دمه، فتعصب السلطان الغورى للخليل إبراهيم، وصمم على ضرب عنق الخطيب، وجمع القضاة والعلماء وتباحثوا، وبعد تشاجر انفصل المجلس على سجنه حتى يتوب، والسلطان مصمم على قتله فسجن ..)، والغورى الذى صمم على قتل ذلك الخطيب الفقيه المتأثر بالتصوف - هو نفسه الغورى الذى يعتقد فى الصوفية إلى درجة تقبيل أيديهم كما فعل بالصوفى المجذوب ابن عنان على مرأى من الشعرانى^(٤).

(١) إنباء الغمر لابن حجر ج ٣/٢٢٦.

(٢) (٣)، إنباء الغمر مخطوط ١١٢٨ : ١١٣١ ، ١١٣٩ بالترتيب.

(٤) قواعد الصوفية ج ١/١٩ تحقيق طه سرور ط ١.

فالفارق بين المجذوب والصوفي المتطرف أن الأول يدعى الجذب في قوله للشطح ويتمتع بالتقديس، أما الأخير فيقول له بصراحة وبلاذعاء، ويتعرض للمحاكمة أحياناً.

٧ - وهناك عامل آخر يذيب من الفوارق بين الصوفية العاديين وأصحاب الإدوات المتطرفة الرامين للتحلل من الإسلام وذلك فيما قاله أساطين الاتحاد من عبارات شطحية مقصودة تعبر عن عقيدة (وحدة الوجود) بكل وضوح وصراحة مستغلين جو الحرية الذي يتيح للصوفي أن يقول ما يشاء طبقاً لمبدأ الشطح ...

فقد قيل في ترجمة عفيف الدين التلمساني (٦٩٠) تلميذ ابن عربي أنه (نسبت إليه عظام في الأقوال والأفعال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، هذا مع أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتالية)^(١). وأنه (لا يحرم فرجاً وإن عثده مائثم (أي ليس هناك) غير ولا سوى (أي لا يوجد غير الله ولا سواء فالله هو كل شيء) بوجه من الوجوه، وإن العبد إنما يشهد السوى (أي غير الله من العالم) إذا كان محجوراً، فإذا انكشف حجابهم ورأى أن ما ثم غيره (أي غير الله) تبين له الأمر، ولهذا كان يقول : «نكاح الأم والبنت والأجنبية واحد» «وإنما هؤلاء المحجورون قالوا : حرام علينا فقلنا حرام عليكم»^(٢).. وقال عنه ابن تيمية (هو من حذاق القائلين بالاتحاد علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات، وحدثني الثقة أنه قرىء عليه فصوص الحكم لابن عربي وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما رآه يخالف القرآن قال : فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن فقال : القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول، وحدثني عن من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟ فقال : وهل ثم (هناك) شيء خارج عنها؟ نعم الجميع في ذاته)^(٣)..

(١) تاريخ ابن كثير ج٣/١٣٦٠.

(٢) شذرات الذهب ج٤/٤١٢.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ج١/١٤٥.

فالتلمساني حلقة وصل ضرورية بين ابن عربي والصوفية الرافضيين للإسلام .. ولم
يعدم العصر المملوكي من وجود تلامذة للتلمساني (قال أحدهم لرفيقه - وكان يمشى فى
الاسكندرية - إن الله تعالى هو عين كل شىء، فمر بهما حمار فقال : وهذا الحمار؟
فقال: وهذا الحمار !! فروث الحمار من دبره فقال له : وهذا الروث؟ فقال : وهذا
الروث!!)، وهذه قصة حقيقية وقعت فى القرن التاسع^(١)..

٨ - وجدير بالذكر أن بعض عتاة الجاهلين استهزأ بيوم القيامة وأعلن أنه سيعطى
فى الآخرة كما أعطى فى الدنيا المال والولد، واعتبر القرآن مقاتلة إثمًا بالغًا يستحق
مزيد العذاب، مع أن ما قاله لا يقاس بأى حال بشطح أى صوفى مهما بلغ اعتداله..
واقراً قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً. اطلع الغيب؟ أم
اتخذ عند الرحمن عهداً؟ كلا. سنكتب ما يقول ونمد له فى العذاب مداً. ونرثه ما يقول
بأتين فرداً .. مريم ٧٧ : ٨٠).

والمشركون السابقون لم يقولوا كالصوفية (واشهد أن لا إله لكم إلا إبليس
عليه الصلاة والسلام - أو أن النجاسة والكلاب السميتة والحميز والروث هى عين
الله).. وكل ما هنالك أنهم قالوا بأن الله اتخذ ولداً واعتبره القرآن هذا القول كفراً،
ولكنه لا يمكن أن يقارن بأقاويل الصوفية السابقة .. ومع ذلك فإن الله تعالى حين
سجل كفر السابقين قال (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات
يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرجمن ولداً .. مريم ٨٨ :
٩١).

فأين هذا من ذلك القائل (طاعتك لي يارب اعظم من طاعتى لك - بطشى اشد من
بطشك، لأن ترانى مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة ..).

(١) تاريخ البقاعى مخطوط : ١٢٣.

المصوفية وافتخار الإسلام شيوع

المرحلة الثالثة

* فى القرن الثامن :

شهد القرن الثامن حركة ابن تيمية الداعية لتمسك الصوفية بطريق الجنيذ المعتدل، الذى ظن ابن تيمية أنه ملتزم بالإسلام. وقد أحدثت حركة ابن تيمية رد فعل مضاد على الجانب الصوفى المتطرف الذى كان يتوق للتحرر من الشكل الرسمى الإسلامى، فظهرت حركات متفرقة تزعمها الباجريقى الصوفى فى القرن الثامن ..

* الباجريقى :

استحوذ الباجريقى (محمد بن جمال الدين) (ت ٧٢٤) على اهتمام المصادر التاريخية .. وقد كان فى الأصل فقيهاً بالمدارس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له اتباع، غير أنه كان يتفوه بالعظائم مثل أن الأنبياء والرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل (وقد حكم القاضى المالكى بضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة وكلمات شنيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر بالجامع الأزهر وتردد إليه جماعة، وكان الشيخ صدر الدين يتردد إليه ويبعث فى وجهه ويجلس بين يديه .. وكان له قوة تأثير، وشهد عليه أيضاً بما ابيح دمه منهم الشيخ مجد الدين التونسى فسافر إلى العراق ثم سعى أخوه بحماه حتى حكم الحنبلى بعصمة دمه فغضب المالكى وحده الحكم بقتله)^(١).

* اتباع الباجريقى :

وقد طوف الباجريقى بدعوته فى مصر والشام والعراق واجتمع عليه الأشياع وكان نصيبهم مثله المحاكمات والاضطهاد، يقول ابن الوردى وأبو الفدا فى حوادث سنة ٧٤١

(١) النورى : نهاية الأرب مخطوط جـ ٢٦/٣، فتح النصر مخطوط جـ ٢٠٩/٢، أعيان العصر مخطوط جـ ٢٤٠، ٢٧ : دول الإسلام للذهبي جـ ١٧٧/٢، السلوك جـ ٤/١، الدرر الكامنة جـ ٤/١٢ : ١٤، ١٣٠ : ١٣٢، شذرات الذهب جـ ٦٤/٦ : ٦٥.

(وفيهما ضربت عنق عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباقرية، سمع منه من الزندقة ما لم يسمع من غيره)^(١)، ومعنى ذلك أن (الباقرية) أصبحت طريقة صوفية تعنى التحلل الصريح من الإسلام وإعلان الزندقة بأفزع الألفاظ ..

ومن أتباعه كان ابن المرحل (ت ٧١٦) يقول فيه المقرئ أنه درس في الزاوية بجامع عمرو وكان ممن اتهم في دينه كالباجري والطوفي، وقد تعارضت آراؤه مع ابن تيمية^(٢). وقيل في ترجمة ناصر الدين ابن أبي الفضل المقتول سنة ٧٢٦ أنه (اجتمع بمحلولى العقيدة مثل ابن المعمار والباقرى والنجم بن خلکان وغيرهم، فانحلت عقيدته وتزندق من غير علم، فشهد عليه فهرب إلى بلاد الروم، ثم قدم حلب واجتمع به ابن الزملى فأكرمه واستتابه، ثم ظهر منه زندقة عظيمة فسيره إلى دمشق فضربت عنقه)^(٣).

والنجم ابن خلکان سالف الذكر كان (ابن أخى قاضى القضاة شمس الدين ابن خلکان، وقد ولى القضاء ببعض البلاد الشامسية، ونسب إلى انحلال كفى العقيدة فانقطع رزقه ومُت، فسافر للديار المصرية، وقعد مع الشهود حتى مات ٧٦٢)، ومعنى ذلك أن مصر كانت ملجأً لمنطرفى الصوفية فتقد وفد إليها الباجري .. ثم ابن خلکان بعد طردهما من الشام.. ويذكر أن ابن خلکان خدع السلطان أوهمه بمقدرته على عمل الطلسمات والسحر فلما طولب بالبرهان عجز، ومع ذلك ظل مصرًا على دعواه^(٤).

وفي سنة ٧١٥ قتل أحمد الرويس الاقباعى (لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة، وكان له كشف وأخبار عن المغيبات فضل به الجهلة، وكان يقول : أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وحدثنى، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة)^(٥).

(١) تاريخ أهر اللدا ج٤/١٣٧، تاريخ ابن الوردي ج٢/٣٣٠.

(٢) السلوك ج١/١٦٧، حاشية ١٦٧ : ١٦٨.

(٣) شذرات الذهب ج٦/٧٤ : ٧٥.

(٤) الوافى بالرفيات ج٣/٢٤٩ : ٢٥٠، الفلاكة والمفلوكون للدلبجى ٧١.

(٥) شذرات الذهب ج٦/٣٥، اليافعى : مرآة الجنان ج٤/٢٥٤.

* ابن البقي (أحمد بن محمد البقي المصري) قيل في ترجمته في الدرر الكامنة:

(ادعى عليه عند ابن مخلوف المالكي بما يقتضى الانحلال واستحلال المحرمات والاستهزاء بالدين، وقامت عليه البيعة فحبس، واعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ بالشهادتين فلم يلتفت إليه، وحكم بقتله، وقد استجار بابن دقيق العيد فلم يلتفت إليه .. ويُقال أن الشيخ المحندار سمع كلامه فقال له : «كأنى بك وقد ضربت عنقك بين القصرين وبقي رأسك معلقاً بجلدة» فكان كذلك وكان يشطح ويتفوه بعظائم عن النبوة والتنزيل وتحليل المحرمات، ولابن دانيال فيه أشعار :

يقول :

يظن فتى البقي أنه	سيخلص من قبضة المالكي
نعم سوف يسلمه المالكي	قريباً ولكن إلى مالك
وقال :	

لا تلم البقي في فعله	إن زاغ تضليلاً عن الحق
لو هذب الناموس أخلاقه	ما كان منسوباً إلى البقي

ومما ينسب لابن البقي قوله عن نفسه (لو كان لصاحب المقامات حظ لكانت مقالاته تتلى في المحارب) وأنه كان يفطر في نهار رمضان بغير عذر، وأنه كان يضع الربة (المصحف) تحت رجله ويصعد فوقها يتناول حاجة له من الرف، ويقال أنه كان يستخف بالقاضي المالكي ويسبهه ويطعن فيه فكان ذلك يبلغه ولا يهيجه إلى أن ظفر بالمحضر المكتتب عليه فطلبه طلباً عنيفاً وادعى عليه عنده فانكر، فقامت البيعة فأمر به فسجن ليبدى الدافع أي المحامي في الشهود، وحكم المالكي بزندقته وإراقة دمه، ونقل المحضر للقاضي لابن دقيق العيد فرفض قتل من ينطق بالشهادتين، فبلغ ذلك والى القاهرة ناصر الدين ابن الشجي، وكان يميل إلى ابن البقي فانتصر له وسعى في نقله من المالكي إلى الشافعي، فأشير عليه بأن يكتب محضراً بأنه مجنون، فكتب فيه جماعة، وأحضره لابن دقيق العيد فقال: معاذ الله ما أعرفه إلا عاقلاً .. ففسد بعض من يبغض البقي إلى الشهاب العزازی الشاعر أن ينظم فيه شيئاً فكتب شعراً للمالكي :

قل للإمام المالكي المرتضي وكاشف المشكل والمبهم
لا تهمل الكافر وأعمل بما قد جاء في الكافر في مسلم

فلما وقف عليهما قال : « شاعر رمكاشف قد عزمت على ذلك ». ثم نهض من وقته إلى السلطان فاستأذنه في قتله فأشار إليه على أن يتمسك في الأمر، فقال المالكي: قد ثبت عندي كفره وزندقته فحكمت بإراقة دمه ووجب على ذلك .. فلما رأى السلطان انزعاجه قال : إن كان ولا بد فليكن بمحضر الحكام. فأرسل إلى الوالي والحاجب وحضر القضاة الأربعة فتكلم المالكي بما حكم فوافقوه الحنفى وقال : اقتلوه ودمه في عنقي، فقتل^(١).

أى أن قتل البقوى يرجع إلى خصومته مع القاضى المالكي .. ولولا ذلك ما قتل.
كما حدث لابن اللبان ..

* ابن اللبان (شمس الدين محمد بن أحمد عبد بن المؤمن) (ت ٧٤٩هـ) ..

كان صوفيًا من أصحاب ياقوت العرش الشاذلى ت ٧٣٧ قال فيه المقرئى (نسبت إليه عظام منها أنه قال فى ميعاده بجامع مصر أن السجود للصنم غير محرم، وأنه يفضل الشيخ ياقوت العرشى شيخه على بعض الصحابة، واستؤذن السلطان فمكن منه، فترامى على الأمير جنكلى بن البابا والأمير الحاج آل ملك والأمير ايدمر الخطير حتى حكم بتوبته، ومنع من الوعظ هو والشيخ زكى الدين بن معضاد الجعبرى وجماعة من الوعاظ)^(٢).

وكان القاضى الذى يحاكمه هو جلال الدين القزوينى..^(٣) ويذكر ابن كثير أن كبار الصوفية حضروا مع ابن اللبان للدفاع عنه، وهم شيخ الشيوخ مجد الدين الإقصرانى، وشهاب الدين الأصبهانى، وأنه قد ادعى عليه (بأشياء منكورة من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه)^(٤). وكان المدعى عليه ابن

(١) الدرر الكامنة ٣٢٩/٩، تاريخ مصر المملوكية نشر زيرستين : ١٠٤ : ١٠٥.

(٢) السلوك ٤٠٨/٢/٢. شذرات الذهب ج٦/١٦٤. (٣)

(٤) تاريخ ابن كثير ج١٤/١٧٧.

المغربي .. ومنع أهم أصحابه من الوعظ كابن الجعبري والزركشي وجماعة آخرين^(١).

* ادعاء النبوة :

وعرف في القرن الثامن أيضاً صوفية ادعوا النبوة. وذلك قريب من القول بالاتحاد ويرى ابن خلدون أن الخروج عن الصراط أدى بأصحاب نظريات (الحلول) (والاتحاد) (والامتزاج) (والاتصال) (ووحدة الوجود) (والقطبية) (والإنسان الكامل) - أدى بهم إلى القول بأن النبوة ذاتها يمكن للإنسان اكتسابها والوصول إليها عن طريق الرياضة وصفاء القلب^(٢)..

وتأسيساً على ذلك حدث في عام ٧٨١ أن ادعى صوفى أنه محمد بن عبد الله النبي الأمي، وأن حروف القرآن الكريم تنطق له، وأن الذي يأتيه بالوحي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ورضوان ومالك ودرديائيل .. وأنه أرسل بقتل الكفرة، وقد قبض عليه وسجن بالمارستان متهماً بالجنون، وأفرج عنه بعد أن رجع عن مقالته^(٣)..

وقيل في ترجمة وضاح الخياط أنه كان يصاحب الصوفية ويحترف الخياطة فأزله الشيطان فادعى النبوة، فسجن أياماً ثم استتيب، وعزر في ذلك، وأطلق سنة ٧٥٣^(٤)..

واستمر ادعاء النبوة إلى القرن التاسع فقد ادعى سنة ٨٢٤ (شخص من عرب الصعيد يقال له عرام النبوة، وزعم أنه رأى فاطمة الزهراء في البقطة فأخبرته عن أبيها، وأنه سيبعث بعده، فأطاعه ناس وخرج في ناحيته، فقام عليه نجم الدين البكري وسعى إلى أن قبض عليه، فضربه تعزيراً وحسبه وأهانته فرجع عن دعواه وتاب ..)^(٥)..

(١) فتوح النصر مخطوط ج٢/٢٧١.

(٢) شفاء السائل ٨٤ : ٨٦.

(٣) السلوك ج٣/١/٣٦٨ : ٣٦٩. تاريخ ابن أبياس ج١/٢/٢٤٩.

(٤) الدرر الكامنة ج٤/٤٠٧.

(٥) إنباء الغمر ج٣/٢٤٣.

ووصل طوفان الإلحاد إلى المماليك، فقالوا عن طوغان الشمسى ت ٧٤١ بأنه
(بنسب إليه استهتار زائد وكلمات مؤذنة بالزندقة والانحلال...) (١).

* الصعود للسماء :

وعرف القرن الثامن برادر لإدعاء بعض الصوفية الصعود للسماء وتكليم البارى تعالى، يقول ابن اياس (ظهر بالقاهرة سنة ٧١٧ شخص يدعى أنه يصعد للسماء ويكلم البارى جل شأنه فى كل يوم مرة، فاعتقده جماعة كثيرة من عوام مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلساً بالصالحية، فاجتمع هناك القضاة الأربعة، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر فتشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللاً فسجنوه، ولم يثبت عليه الكفر...) (٢).

أى أن العصر المملوكى يحتفظ لأولئك المدعين ببعض التصديق بدليل استجوابهم وقيام البعض بنصرتهم وإدعاء الجنون للتخلص من القتل .. أما العامة فهم أسرع للإستجابة والنصرة .. إلا أن القرن التاسع حفل بحوادث كثيرة من هذا النوع ..

* القرن التاسع :

-- طوائف الأعاجم :

توافد على مصر جماعات من الصوفية الزنادقة الاتحادية وملأوا طرقات القاهرة، وقد وصفهم المقرئى بأنهم ينتحلون مذاهب الإلحاد، ويصرحون بتعطيل الصانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهرون ببإباحة المحرمات) (٣). وقد قتل السلطان أحدهم بدافع سياسى لا دينى قال فيه المقرئى أنه (من سقاط العجم قد ثبتت عليه - بشهادة جماعة- قوادح وعظائم أوجبت أراقة دمه شرعاً، وكان من جملة اشياح الأمير قرقماس المقتول، وتكلم فى السلطان وفى الأنبياء وغيرهم بما تعجل العقوبة) (٤) ..

(١) الدرر الكامنة ج٢/ ٣٢٩.

(٢) تاريخ ابن اياس ج٢/ ٤.

(٣)، (٤) السلوك ج٤/ ٣، ١٢٦.

* الخروفية أو النسيمية :

وكان أولئك الصوفية الأعاجم الأرضية التي نبتت فيها حركات الزندقة الصوفية المعلنة في القرن التاسع، وأهمها طائفة « الحروفية » أو « النسيمية »..

وترجع هذه الطائفة إلى الشيخ فضل الله التبريزي يقول فيه ابن حجر (أحد المتكشفين من المبتدعة، وكان من الاتحادية ثم ابتدع النحلة التي عرفت بالحروفية، فزعم أن الحروف هي عين الآدميين إلى خرافات كثيرة لا أصل لها، ودعا للنك (تيمور لنك) إلى بدعته فأراد قتله، فبلغ ذلك ولده أمير زاده لأنه فر مستجيراً به فضرب عنقه بيده، فبلغ النك فاستدعى برأسه وجثته فأحرقهما في هذه السنة، ونشأ من أتباعه واحد يلقب « نسيم الدين » فقتل بعد ذلك وسلخ جلده في الدولة المؤيدية سنة ٨٢١) (١) ..

وكان قتل التبريزي سنة ٨٠٤ يقول ابن اياس سنة ٨٠٤ جاءت الأخبار بأن تيمور قتل التبريزي الذي كان قاضيه ، وكان على مذهب النسيمي) (٢) وقد أخطأ ابن اياس حين اعتبر الأستاذ على مذهب تابعه .. والنسب في ذلك الخلط هو الشهرة التي حققها النسيمي بعد استأذه التبريزي حتي سميت طريقته باسمه فأصبحت (النسيمية) بعد أن كانت (الحروفية).

ويقول ابن اياس في النسيمي (نزىل حلب صاحب الأشعار التركية، افسد عقائد الأتراك بعث المؤيد شيخ بضرب عنقه وسلخه وصلبه على أحد أبواب حلب) (٣) .. وقد عرص ابن حجر لترجمته بالتفصيل فهو معاصر له، يقول في حوادث ٨٢٠ (قتل الشيخ نسيم الدين التبريزي نزىل حلب وهو شيخ الحروفية .. بعد شيخه فضل (ت ٨٠٤)، وقد قرر نسيم الدين أن الشرائع أباطيل لا حقائق، وأنه لا إله، وقد وصل في ضلاله إلى أن وطأ ابنته واتخذها كالزوجة إلى أن أولدها ولدًا. وقد سكن حلب وكثر أتباعه وشاعت بدعته، فأمر السلطان بقتله فقتل وسلخ جلده وصلب) (٤) ولعل السبب في مقتله سياسى

(١) إساء الغمر ٢١٩/٢ وفيات ٨٠٤. (٢) تاريخ ابن اياس ح ٦٥٨، ٢.

(٣) تاريخ ابن اياس ح ٣٦/٢ تحقيق محمد مصطفى.

(٤) إنباء الغمر ج ٣/١٣٦.

يرجع إلى التخوف من كثرة أتباعه واحتمال أن يؤسس له دولة في حلب - وهي بعيدة عن مركز السلطة - تتخذ قاعدة لنشر دينه الجديد ..

بيد أن دعوة النسيمية لم تمت بموت صاحبها .. يقول ابن حجر معقباً على مقتل النسيمي (وقد وقع لبعض أتباعه كائنة في سلطنة الأشرف (برسبای) وأحرقت مکتباً كان معه فيه هذا الاعتقاد، وأردت تأديبه، لحلف أنه لا يعرف ما فيه، وأنه وجده مع شخص، فظن أن فيه شيئاً من الرقائق، فأطلق بعد أن تبرأ من الكتاب المذكور، وتشهد (نطق الشهادتين)، والتزم أحكام الإسلام، وكان سبب الوقوع في ذلك أن شريكاً قدم من الشام، وذكر أنه لم يزل يسعى في الإنكار على هؤلاء إلى أن عشر علي هذا، وكتب له مرسوم بالقيام عليهم في بلاد الشام، ثم قدم علينا شخص من أهل انطاكية فذكر لنا عنهم أموراً كثيرة، وكتب له مراسيم بالقيام عليهم في سنة ٨٤١) (١).

وابن حجر كان قاضياً للقضاء وقد شهد الواقعة بنفسه وقام بمحاكمة الرجل الذي ضبطت معه كتب الدعوة النسيمية، ومهما يكن من أمر فإن سياق كلامه يدل على ما كانت عليه الحركة النسيمية من نشاط في الشام بدليل ما أثارته من فزع لدى الفقهاء فالتجأوا إلى مصر مركز الحكم المملوكي، ثم أن كتب النسيمي كانت ترد إلى القاهرة لأتباعه وضبط بعضها وحوكم من وجدت لديه ..

وقد فصل ابن حجر القول في حوادث سنة ٨٣٨ عن هذه الواقعة فقال (حضر للسلطان شريف من الشام بأوراق فيما يتعلق بالنسيمي وشيخه فضل الله، وإن بالشام ومصر جماعة على عقيدته، وأنه تصدى لتتبعهم، وأنه وجد بالقاهرة شخصاً منهم فأحضره للسلطان وكتبه، وهذه هي الحروفية، وعقد السلطان مجلساً أحضرت فيه الكتب، وهي بالفارسي فإذا هي مقالة مركبة من قول المشبهة والاتحادية وفيه «إن شعر الإنسان في رأسه ووجهه سبعة شعور، وشعر أجفانه الأربعة وحاجبه ورأسه سبعة، وإن عقد أصابع اليدين أربعة عشر فلذلك عدد حروف المعجم» ونحو هذا. وفيه أن الإلهية انتقلت من الله

(١) إنهاء الغمر ج ٣/ ١٣٦ : ١٣٧.

لآدم ومن آدم لآخر إلى أن انتقلت لفضل الله» (التبريزي). وكلام من هذا حاصله «أن الله هو الحروف». وانكر الرجل اعتقاده وكفر من يعتقد بهذا، وامتنثل لأمر الشافعي (القاضي الشافعي) وأحرق الكتب بيده، ونودي : من عرف من أهل هذا المذهب النسيمي ووجد عنده شيء من كتبه وأحضره للسلطان كان له مائة دينار، ثم أمر فنودي بأن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأسرهم ولا يتخلف منهم أحد إلى ثلاثة أيام، ثم لم يتم ذلك^(١).

والواقع أن وفود العجم الصوفية كانت بيئة انحلال عقيدية، وكان ينادى عليهم دائماً بالخروج من القاهرة ثم لا يتم من ذلك شيء .. وفي نهاية القرن التاسع - في عصر قايتباي - وجدت طائفة النمسوية - وكانوا يربون أولاد النمس - جمع نمس - يقول فيهم المناوي الصوفي (كانوا أصحاب حسين أبي على .. وضرب قايتباي رقاب بعضهم لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة)^(٢). وتابع بعضهم - من أعاجم الصوفية - ادعاء العروج للسماء ..

* ادعاء الصعود للسماء :

يقول ابن أبياس في حوادث ٨١٩ (ظهر بالقاهرة شخص أعجمي يدعى أنه يصعد إلى السماء ويكلم الباري عز وجل في كل يوم مرة، وأنه صرفه في الكون، فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان (شيخ) أن يعقد له مجلس بالمدرسة الصالحية، فاجتمع بها القضاة الأربعة فأراد المالكي أن يضرب عنقه فشهد جماعة من الأطباء بأن في عقله خللاً فسجنوه ولم يثبت عليه كفر وصار مع المجانين)^(٣). وتمتع ذلك المدعى - كسابقه - بتصديق العامة حتى اهتم السلطان بأمره وتطلب الأمر عقد جلسة للتحقيق في صدق دعوته وانتهت قصته النهاية المعروفة وهي تخليصه من القتل بحجة الجنون .. فكان الإدعاء سهلاً في بدايته وعاقبته ..

(١) إنباء الغمر ج٣/٥٤٨ : ٥٤٩.

(٢) الطبقات الكبرى للمناوي : مخطوط ٣٤٩ أ، ب.

(٣) تاريخ ابن أبياس ج٢/٢٨ : ٢٩، ٢٠٢ ج٢/٤.

وقد حضر ابن حجر محاكمة ذلك الصوفى الأعجمى، يقول أنه فى مجلس سماع الحديث بالقلعة مع السلطان سئل عن الحكم فى شخص يزعم أنه يصعد إلى السماء ويشاهد الله تعالى ويتكلم معه فاستعظموا ذلك، فأمر السلطان بإحضاره - ووصف ابن حجر الرجل - وقال أن السلطان (سأله عن أمره فأعاد ذلك وزاد بأنه كان فى اليقظة وأن الذى رآه على هيئة السلطان فى الجلوس وأن رؤيته تتكرر مراراً كثيرة، فاستفسره عن أمور تتعلق بالأحكام الشرعية فظهر أنه جاهل بأمور الديانة، ثم سئل عنه فقيل أنه يسكن خارج باب القرافة فى تربة خربة، وأن لبعض الناس فيه اعتقاداً كدأهم فى أمثاله) فاستفتى السلطان العلماء (فاتفق رأيهم على أنه إن كان عاقلاً يستتاب فإن تاب وإلا قتل. فاستتيب فامتنع، فعلق المالكى الحكم بقتله على شاهدين يشهدان أن عقله حاضر، فشهد جماعة من أهل الطب بأنه مختل العقل، فأمر السلطان به بأن يقيد فى المارستان فاستمر به، ثم اطلق بعد موت السلطان^(١)).

وحدث أن كان السلطان فى عام ٨٢١٠ يتفقد أحوال المجانين فى المارستان المنصورى، فقام إليه ذلك المدعى فكلم السلطان أن يفرج عنه فلم يجبه^(٢)..

وسهولة الإدعاء والتهاون فى العقاب شجعت البعض على إعلان التحلل من التكاليف الشرعية بدعوى المنامات، كما حدث من الشيخ شمس الدين الميمونى حين قال «قد أباح لى سيدى اللواط والخمر والحشيش والفطر فى رمضان»، وشهد عليه جماعة وثبت ذلك عليه، فاعتقل وأحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر فأفتى بأن فى عقله خللاً، وأعلن الميمونى توبته من رؤيا المنامات^(٣).

وامتد الأمر للماليك فقيل فى ازدمر الطويل أنه (كان يخوض فيما لا يعنيه مع سوء عقيدة، واستخفاف بأمور الدين، ويميل للمتصوفة)^(٤).

١) إنباء الغمر ح ٩٩/٣.

٢) إنباء الغمر ح ١٦٣/٣.

٣) إنباء الغمر ح ٣٤٩/٣.

٤) الضوء اللامع ح ٢٧٣/٢ : ٢٧٤.

* فى الريف :

وإذا كان هذا الحال فى القاهرة - حيث السلطان والقضاة والعلماء .. فالحال فى الريف أشد، ومع الأسف فإن جل اهتمام المؤرخين انصب على تتبع أخبار القاهرة دون غيرها من المدن الهامة، ولا نقول الأرياف حيث الجهل أشد إظلاماً وسيطرة التصوف أعتى استحكاماً. على أن بعض حوادث الزندقة - حين زادت وفاضت - وصل أمرها إلى علم المسئولين بالقاهرة، يقول أبو المحاسن فى حوادث سنة ٨٦٦ (ورد الخبر من كاشف الغربية وغيره بأن فى قرية ططية بالوجه الغربى من أعمال القاهرة جماعة زنادة، وفيهم من ادعى الألوهية، ومنهم من ادعى النبوة، وانضم عليهم جماعة كثيرة من أوباش الناس، ومالوا إلى معتقدهم، ووقعت منهم أمور شنيعة، وإن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفرًا، فأرسل السلطان إليهم القاضى ابن الوارث أحد نواب الحكم المالكية والناصر محمد الخازندار لينظروا فى حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع .. وأحضر الزنادقة فأنكروا أمام السلطان فحكم القاضى بتهزيرهم ..)^(١)

فأولئك كثرة ادعى بعضهم الألوهية وآخرون النبوة .. وبعث بأمرهم (كاشف الغربية وغيره)، وذلك لأن أتباعهم كثروا (ووقعت منهم أمور شنيعة) ولعل مصادمات حدثت بينهم وبين الكاشف إذ أنه (أمسك منهم نحو أربعة عشرة نفرًا) فقط .. أى لولا تجاوز حركة أولئك الزنادقة دور الدعوة القولية إلى الدور الحركى ومناوأة السلطة الحاكمة - لولا ذلك لما عرفت القاهرة بأمرهم ولما سجلت ذلك حوليات التاريخ .. ومعنى ذلك أن مدعى الألوهية والنبوة فى الريف فى مأمن من السلطان ومن الرصد التاريخى طالما اقتصر على الدعوة لأنفسهم (بالحكمة والموعظة الحسنة ..) ثم إن الزندقة تحولت بعد القرن التاسع إلى شطحات يقولها المجذوب كيفما شاء وفى أى وقت بدعوى غيابه عن الرعى فتكاثر المجاذيب فى ذلك الوقت .. وأرخ لهم الشعرائى^(٢) إلى ذلك الحد بلغ

(١) حوادث الدهور ٤١٩/٣ : ٤٢٠.

(٢) ترجم الشعرائى للأكثرية منهم فى الطبقات الكبرى فى نهاية الجزء الثانى، وهى (ظاهرة) أن يكون أكثر الصوفية المعتقدين الملاحدين فى القرن العاشر من المجاذيب.

اضطراب العقيدة الدينية في العصر المملوكي بأثر التصوف، ولنضرب بعض الأمثلة:-

١ - يارب سلم الحيطه بتتكلم سنة ٧٨١ :

ففى هذا الجو المقفر من عقيدة صحيحة حيث الناس على استعداد للإعتقاد فى أى شىء ولو كان حجراً صلباً - أتيح لبعض الصوفية أن يعبث بعقول الناس ومعتقداتهم ويتجلى ذلك فى واقعة (الحائط الذى يتكلم) ، وبطلها صوفى كان يتمتع بتقديس برقوق وهو الشيخ عمر ركن الدين (وقد كان الناس يتبركون به ويوزرونه لمدة ثلاثين عاماً) ..

وموجز الحكاية أن امرأة اشتكت لذلك الصوفى سوء معاملة زوجها لها ، فكان الصوفى يعظه ويوصيه بزوجه من خلف الحائط بحيث لا يدري من المتكلم، واشتهرت الإشاعة بأن حائطاً يتكلم، وسار الصوفى فى الطريق إلى نهايته، فافتتن الناس بالحائط الذى يتكلم وتوافدوا عليه يسمعون، يقول ابن حجر : (افتتن الناس به شهرين واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وقال قائلهم « يارب سلم الحيطه بتتكلم » وقال الشاعر ابن العطار :

يا ناطقاً من جدار وهو ليس يُرى اظهر وإلا فهذا الفعل فتان

ويقول ابن اياس «اشتدت فتنة الناس بالحائط حتى كادوا أن يعبدوه من عظم ما افتتنوا به ويتخذوه معبداً لهم..» وكانوا يقدمون للحائط النذور والقرايين .. ثم اظهر المحتسب الخيلة وعوقب الفاعلون^(١) ..

٢ - زندقه بعض الفقهاء :

وتأثر بعضهم بهذا الهجو المنحل عقيدياً فاعتاد التلفظ بالكفر مع وصفه بالعلم والفضل، ولكن وقف لهم الصوفية بالمرصاد وكأنما عز عليهم أن يتافسهم أعداؤهم فى ميدان الزندقة والشطحات .. فقد ذكر العيني فى حوادث ٧٢٠ مقتل اسماعيل الزنديق.. وقد اشتهر بين الفقهاء بالعلم والفضيلة والأدب مع كثرة الهزل والتلفظ بالكفر حتى لقب

(١) إنباء الغمر ج١/١٩٨ : ١٩٩، السلوك ج٣/١/٣٦١ : ٣٦٤. النجوم الزاهرة ج١/١٧٢ : ١٧٣، ابن اياس ج١/٢/٢٤٦ : ٢٤٧.

بالزندق، فوقع في بعض الأيام في حق النبي لوط عليه السلام، فشهد عليه جماعة وعقد له مجلس عند ابن الأخنائي المالكي فادعى اختلال عقله .. وهي الحيلة المأثورة في هذا المجال - فتوقف المالكي في أمره .. ولكن لم يسمح للصوفية له بالجنون والإنفلات من القتل. فادعى صوفى أنه رأى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره أن يقول (قل للأخنائي يضرب عنقه فإنه سب أخى لوطاً) فحكم القاضي بضرب عنقه، وفي صبيحة مقتله رأى صوفى آخر النبي ومعه لوط عليهما السلام في منام يؤكد الدعوة لمقتل اسماعيل الزنديق فتم تنفيذ الحكم في ذلك الفقيه بين القصرين^(١) ..

أى أن ذلك الفقيه تأثر بالصوفية وحاول مجاراتهم في الشطح والزندقة إلا أنهم جعلوا منها امتيازاً خاصاً لهم فعاقبوه بالقتل .. بينما نعم جهلة الصوفية بقول الشطح تأكيداً للولاية والعلم اللدنى وتقليداً للأشياخ الكبار ..

يقول فيهم البهاء زهير^(٢) :

وجاهل يدعى في العلم فلسفة	قد راح يكفر بالرحمن تقليداً .
من أين أنت وهذا الشيء تذكره	أراك تقرع باباً عنك مسدوداً
فقال إن كلامى لست تفهمه	فقلت لست سليمان بن داودا

٣ - حوادث الردة بين العامة والمماليك :

كان بعض المسيحيين يدخل الإسلام طمعاً في منصب أو تخلصاً من ورطة وقع فيها ثم اعتاد بعضهم الرجوع والارتداد إلى دينه، بل وكان يقرن رده بالسب في الإسلام والنيل من مقدساته^(٣) . بل ارتد بعض العامة المسلمين عن الإسلام ولم يوافقوا على العودة إليه^(٤) .. وفي تجريده حربية إلى جزيرة رودس ارتدت طائفة من المماليك ورجعت إلى النصرانية^(٥) ..

(١) عقد الجمان مخطوط حوادث ٧٢٠ لوحات ٢٣٩ : ٢٤١ . نهاية الأرب مخطوط ج ٣/١٣٥ .

(٢) ديوان البهاء زهير ٣٠ .

(٣) تاريخ ابن اياس ج ١/٢/٣٣٩ .

(٤) تاريخ ابن اياس ج ١/٢/٣٢٤ .

(٥) تاريخ ابن اياس ج ٢/٢٣٨ تحقيق محمد مصطفى .

إلا أن أهم أثر للإضطراب العقيدى الذى أحدثه التصوف فى العصر المملوكى يتجلى فى شيوع التكفير أو سهولة الإتهام بالكفر، على حُظوة ذلك الإتهام الذى يستوجب الحكم بالقتل عندهم.

شيوع التكفير :

١ - شاع القول بالكفر بين الصوفية وغيرهم .. وتولى القضاة عقد المحاكمات لقائلى الكفريات، وفى جو يعمه الجهل والتعصب وحدة العاطفة وكثرة الدسائس والحروب بين الصوفية والفقهاء وتدخلات السلطة المملوكية والنزاع المستمر بين القضاة - مع انعدام التقوى لدى القضاة وتأثرهم بالتصوف وانحلاله .. وحرص الصوفية على النيل من أعدائهم الفقهاء .. - فى هذه الظروف، انتشر الاتهام بالكفر، وكثر عقد مجالس الحكم وكانت تصدر أحكام القتل أو التعزير حسب الظروف السياسية أو مقتضيات الأحوال العادية من الميل أو النفور بين القاضى والمتهم وتدخلات الأطراف الخارجية من الصوفية والأمراء المملوكية، كما ظهر فى حوادث سابقة عرضنا لها، وسنعرض الآن لشيوع التكفير فى العصر المملوكى بين العامة وفى مجتمع الفقهاء.

٢ - وقد كان أحدهم يقرأ فى رياض الصالحين، فشك فى البعث وكيفياته فشهد عليه وعُقد له مجلس فجدد إسلامه وحقق دمه^(١). وقال البرهان بن جماعة فى مجلس: قال الله فى كتابه العزيز : ضعيفان يغلبان قوياً .. فعقد له مجلس، ولم يصبه بضرر^(٢) وقال آخر إن الثوراء والإنجيل بحالهما لم يبدلا، فعز^(٣). واعتبر الشريف المكرانى الزاهد من قال أن الرؤيا خيال باطل فهو كافر^(٤)، وكُفّر بعضهم الصوفى بار على المحتسب لأنه كتب فى عقد الآية الشريفة «وانظر إلى حمارك» وصور الحمار^(٥). وكُفّر

(١) حوادث الدهور ٣٩.

(٢) تاريخ البقاعى ٣٧ مخطوط.

(٣) تاريخ الجزرى ج١/١٧.

(٤) الثبر المسبوك ٣٧٠.

(٥) حوادث الدهور ج٢/٣٨٣.

ابن القاياتي لأنه وجد في مجمع لهو^(١). وكُفّر صوفى آخر لمعاذته النصارى مع تهاونه في الدين^(٢).

٣ - وكان يرمى بالكفر في الأحاديث العادية والاجتماعات. وقد قال ابن الكركى أن لبس الطيلسان سنة اليهود فقال السيوطى : بل هو يكفر لكونه ردّ سنة عن النبى^(٣). وعن مناقشات الصوفية والقراء أثناء قراءة ميعاد البخارى قيل «وربما كفر بعضهم بعضاً»^(٤). وكان الأمير بيبيغا مغرمًا بتعظيم جنسه من التتر فمزح أحدهم معه وقال «إيش هو چنكيز خان» فبادره بيبيغا وقال له كفرت^(٥)، ومزح المعصرانى وقال عن الخضيرى لما قال إن اللحم علي عجين لا يحتاج إلى سريح : هذا كفر فتدارك وقال : هذا كفر فى مذهب الأكالين فقبل له هذا الكلام أيضًا يقتضى الكفر فقال أنا ما قلت كفرًا بالله^(٦).

يقول صاحب الألفاظ المكفرة : «وكننت اسمع من الخواص المتسمين بالعلم والمتخرفين فى السلك .. والمكرمين بالمناصب والموصوفين بالدرس والإقتاء ما لا يليق بالأراذل الجهلة وبالعوام السفلة أن يتلفظ به من الألفاظ، وأظن أنها توجب كفرًا»، «وقد جمعت الألفاظ المكفرات ليعلم كل مسلم ومسلمة ويعلم غيره ويحفظ لسانه ولا يحبط أعماله، وهذه لا تخرج عن الأشياء الثلاثة، أما الاستهزاء أو بالإستخفاف أو بالإستحلال».

٤ - وذلك المؤلف فى رسالته يمثل الفقيه المتزمت المتعصب ازاء عصر منحل بالتصوف عقائديًا وسلوكيًا، فهو يكفّر من يسمّل عند أكل الحرام، أو الزنا، أو من أخذ أجرًا على مصحف، أو من ضاق بالصلاة، أو مجلس العلم، أو ضاق بأوامر العلماء (ومن

(١) حوادث الدهور ج٣/٤٢٤.

(٢) تاريخ البقاعى ١٥٢.

(٣) الطبقات الصغرى ٣٣.

(٤) السلوك ج٤/١٠٣١ : ١٠٣٢.

(٥) النجوم ١٤، ٣٢٠.

(٦) تاريخ ابن طولون ج١/١٢٧.

قال أنا مؤمن إن شاء الله أو أنا مسلم إن شاء الله من غير تأويل (كفر) إلخ.. وهكذا كانت طريقة المؤلف في الحصر بحيث أن من يقرأ رسالته يخيّل إليه أنه لن يرى مسلماً أبداً^(١).

ومع أن البقاعى يرى أن التكفير أمر عظيم لا ينبغي الإقدام عليه إلا بنص صريح^(٢). فإنه أسرف في تكفير الاتحادية من الصوفية^(٣). بل أنه يرى أنه لا شيء على من يكفر ابن الفارض^(٤). ومع ذلك فإن خصوم البقاعى رموه بالكفر، يقول السخاوى عن البقاعى : «ولما علم مقت الناس له وأسماعهم إياه كل مكروه من تكفير فما دونه»^(٥).

٥ - واحتاط زعماء الصوفية لأنفسهم من التكفير وهم أقوى بواعثه، فمن مقامات الشريعة : حفظ اللسان من عموم الألفاظ المكفرة^(٦). ويقول الشعرانى : ومن حق الأخ على الأخ ألا يكفره بذنب ولو لاث الناس به، إذ لا يخفى قلة ورع الناس فى الكلام وعسر معرفة جميع الألفاظ التى يكفر بها الإنسان^(٧).

وفى الأمثال الشعبية ما يعبر عن سهولة وكثرة الوقوع فى الكفر «أهل الميت سكتوا والمعزين كفروا» «أول القصيدة كفر»^(٨).

٦ - والقضاة - كمثلى التصوف بين الفقهاء وكحكام فى قضايا التكفير - كانوا من أكثر الطوائف وقوعاً فى التكفير.. فبعض القضاة كان يكفر زملاءه فى الأحاديث والمجادلات العلمية (فى عصر التقليد العلمى) فقد عَزَلَ قاضى القضاة تاج الدين السبكي وادّعى عليه بالكفر بسبب قوله فى غصون كلامه «فبطل دين الإسلام»^(٩).

(١) الألفاظ المكفرة ١٠٢ : ١٢١.

(٢) الضوء اللامع ج١/ ١٠٨.

(٣) تاريخ البقاعى مخطوط ٨، ٩.

(٤) تحذير العباد للبقاعى ٢٥١.

(٥) الضوء اللامع ج١/ ١٠٦.

(٦) النفحات الأحمدية ١٧٢.

(٧) صحبة الأخيار ٦١.

(٨) الأمثال الشعبية تيمور ١٢٣، ١٢٤.

(٩) ذيل ابن العراقى ٧٦٩.

والبساطي كان صوفياً يميل إلى ابن عربي حتى أنه قال بتأويل كلامه فقال له علاء الدين البخاري : كفرت ووافقه من بالمجلس^(١). وفي مجادلة علمية قال السبكي للأخنائي: لو كان الإمام مالك حياً لناظرته في هذه المسألة فعد ذلك الأخنائي خروجاً على الدين وقال : ايش أنت حتى تناظر الإمام مالك في هذه المسألة، والله لو كان غيرك لفعلت به كذا يعني ضربت عنقه^(٢). وتجادل السراج البلقيني مع ابن الصاحب إلى أن كفر البلقيني ابن الصاحب، وعقد بينهما مجلس حضره القضاة الأربعة، حكم بعدم كفر ابن الصاحب وبقائه على دين الإسلام^(٣). ويذكر أن برقوقاً قال بالتركية لمن حوله : إن القضاة ليسوا بمسلمين^(٤).

٧ - بل إن بعض القضاة استخدم سلاح التكفير لإتهام الأبرياء به والتخلص منهم بالقتل. وقد كانت هناك خصومة بين قاضي الحنابلة وأحد الفقهاء، فعقد له مجلساً وحكم بقتله، فأعلن الفقيه أن بينه وبين القاضي خصومة وطعن في الشهود، وطلب عقد مجلس عند السلطان، فلما رأى القاضي ذلك خشى أن أصبح دافع عن نفسه فطلبه في الحال وقتله بيده، ثم جعله في تابوت ونادى عليه بالكفر^(٥). وقد استفتى على شخص بدعوى أنه انكر البعث، واتضح الأمر بأنه كان يسعى للقضاء بهال فلفقت له هذه القضية^(٦). ونظير ذلك ما وقع للشيخ مصطفى الفرمانى من كاتبة عظيمة وتعصب عليه بعض الفقهاء ونسب إليه كفر حتى حكم بإسلامه ثانياً^(٧).

«وعزل الوزير ابن السلعوس قاضي القضاة ابن بنت الأعز وعمل محاضرة بكفره، وأخذ خط الجماعة إلا خط ابن دقيق العيد» الذي رفض التوقيع عليها لأن إمضاءه ستكون السبب الأقوى في قتله^(٨).

(١) البقاعي. تكفير ابن عربي ١٣٩.

(٢) تاريخ ابن أبياس ج١/١٠٧ / ١٠٧.

(٣) تاريخ ابن أبياس ج١/٢/٣٢٤، تزهة النفوس ج١/٥٢.

(٤) تاريخ ابن أبياس ج١/٢/٢٩٩.

(٥) حوادث الدهور ج٢/٢٠٣، النجوم الزاهرة ج١٦/١٧٢.

(٦) تاريخ البقاعي ١٢ ب.

(٧) تاريخ ابن أبياس ج١/٢/٤٧٣.

(٨) أعيان العصر. مخطوط ج١/٩١.

وأراد علاء الدين الرومى السعى فى مشيخة الخانقاه الشيخونية عوضًا عن الشيخ باكير فامتنع السلطان رغم الإلحاح عليه، فشرع علاء الدين فى الحط على الشيخ باكير، وفى مجلس علم بحضرة السلطان جادله باكير وكثره، وطلب باكير من السلطان الإذن للشافعى أن يأخذ حقه من علاء الدين فأذن له، وعقد المجلس وادعى على الرومى أنه كثره بحضرة السلطان فأنكر الرومى، واستمرت المنازعات إلى أن أصلح بينهما السلطان^(١).

وكان التفهنى صاحب حدة، وقد حكم بتكفير الميمونى وإراقة دمه فى الملاء فقال ابن حجر : «قاضى القضاة متغاط حتى يسكن خلقه، وانفض المجلس وتلاشى حكم التفهنى بعد أن أوسع الميمونى إساءة فى المجلس، والتفهنى يكرر حكمه بإراقة دمه^(٢)».

(١) إنباء الغمر مخطوط حوادث ٨٤٠ ورقة ٩٨٠، ٩٨١.
(٢) النجوم الزاهرة ١٥، ١٧٥ : ١٧٦.

الباب الثاني

تقديس الولي الصوفي

في مصر المملوكية

- * الفصل الأول : ولي الله في الإسلام من خلال آيات القرآن الكريم.
- * الفصل الثاني : ولي الله في التصوف : تأليه الولي الصوفي.
- * الفصل الثالث : أنواع الأولياء الصوفية، ومهامهم، وكراماتهم.

* الباب الثاني

تقديس الولي الصوفي

في عصر المملوكية

* الفصل الأول :

(ولى الله فى الإسلام من خلال آيات القرآن الكريم).

أ (معنى ولى الله وصفاته الإجمالية.

ب) تحليل صفات الولي فى القرآن الكريم :

١ - العمومية.

٢ - صفات عرضية تقبل الزيادة والنقص.

٣ - صفات غيبية لا يعرف حقيقتها إلا الله تعالى.

٤ - المؤمن لا يدعى الولاية.

٥ - هل يوجد ولى حى بمفهوم الإسلام ؟

* مدخل :

تعرض الباب الأول لعقائد التصوف التى سادت العصر المملوكى على مستوى الفكر والتنظير والتأليف، ويتعرض هذا الباب للعقيدة الصوفية التى اشترك العوام والخواص فى التدين بها، وهى تقديس الولي الصوفى وتأليهه باعتباره أنه ولى الله إذا كان حياً أو إذا كان ميتاً.

ويستلزم البحث فى هذا الباب أن نبدأ بالتعرف على «ولى الله» من خلال القرآن، وذلك ما تعرض له الفصل الأول، ثم نتعرض لتقديس الولي الصوفى وملامح هذا التقديس فى عقيدة العصر المملوكى واختلاف ذلك مع الإسلام، وهذا ما تعرض له الفصل الثانى، أما الفصل الأخير من هذا الباب فقد عرض لملامح وخصوصيات ومهام الولي الصوفى فى معتقدات مصر المملوكية.

ونبدأ الفصل الأول من هذا الباب الثانى بتتبع «ولى الله» فى الإسلام وتحليل

صفاته.

الباب الثاني

الفصل الأول

ولى الله فى الإسلام من خلال آيات القرآن الكريم

* معنى ولى الله .. صفات الولى الإجمالية :

١ - (الوكيل) بفتح الواو وكسر اللام ضد العنوّ. يقال (تولاه) يعنى وكل أمره إليه فدافع عنه فهو (وكيله) أى نصيره، ومنها (الموالاته) أى المناصرة والمدافعة، ومنها (الولاية) بفتح الواو وبكسرهما يعنى النصرة، وتسمية الولى لله تعالى على هذا المعنى تعنى أن الله ناصره وحاميه، وأن شأن من يدافع الله عنه هو الأمن من الخوف والحزن، لذا قال تعالى فى حق ولى الله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يونس ٦٢).

والموالاته من المفاعلة كالمدافعة والمقاتلة أى تفيد الإشتراك فى الفعل تقول (قاتل محمد عليا) فالقتال وقع من الفاعل والمفعول معًا. والموالاته بمعنى المفاعلة تفيد أن الله ينصر وليه والولى ينصر ربه وعلى ذلك التسق جرى حديث القرآن الكريم. فالمؤمن يوالى ربه أى يتولى الله أى ينصر الله (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. المائدة ٥٦). والمؤمن يطلب موالاته ربه أى نصرته، فيقول محمد عليه السلام (إن ولى الله الذى نزل الكتاب .. الأعراف : ١٩٦)، ويقول يوسف عليه السلام (أنت ولىي فى الدنيا والآخرة .. يوسف ١٠١)، ويقول موسى عليه السلام (أنت ولىنا فاعفر لنا وارحمنا .. الأعراف ١٥٥)، ويقول المؤمنون عامة (واعف عنا واعفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .. البقرة ٢٨٦)، فهم من واقع موالاتهم لله يطلبون منه النصرة، والله سبحانه وتعالى يعطى حمايته لأولياته المؤمنين ونصرته لهم،

بل إنه لا نصير لهم سواء ولا ولى - أى مدافع عنهم غيره (ومالككم من دون الله من ولى ولا نصير .. البقرة ١٤٨، العنكبوت ٢٢، النورى ٣١). ويقول لهم على لسان ملائكته (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. فصلت ٢١)، ويقول (ذلك بأذن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم .. ممتحن ١١) أى لا مدافع ولا نصير للكافرين.. وبأمر اتباعه بالاعتصام به فلا نصير سواء تعالى (واعصوا بأمر الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير .. الحج ٧٨) (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين .. آل عمران ١٥٠) ..

٢ - وشرط من يوالى الله ويواليه الله أن يتصف بالإيمان الكامل والتقوى والصلاح.. وقد وردت تلك الصفات صريحة ومرتبطة بالولاية لله تعالى ..

أ) يقول تعالى عن المؤمنين (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور .. البقرة ٢٥٧)، ويقول (.. والله ولى المؤمنين .. آل عمران ٦٨).

ب) ويقول عن ارتباط ولايته تعالى بالمتقين (والله ولى المتقين. الباقية ١٩)، ويذكر ذلك بأسلوب القصر (إن أولياءه إلا المتقون .. الأنفال ٣٤) يعنى لا يوالى تعالى إلا من كان تقياً .. والتقوى منزلة تعلو على مجرد الإيمان، لذا قد يُضاف شرط التقوى لصفة الإيمان فيقول تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون .. يونس ٦٢، ٦٣).

ج) والصلاح صفة مرادفة للإيمان والتقوى، فجاءت مرادفة لصفات الولى فى حديثه تعالى عن رسوله الكريم (إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .. الأعراف ١٩٦) فالرسول عليه السلام خير من يتصف بالإيمان الكامل والتقوى، والصلاح من لوازمهما ..

د) وهكذا فإن صفات الولى هى النصرة لله، ومن كان شأنه كذلك ينصره الله (إن ننصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .. محمد ٧). (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .. الحج ٤) .. أى أن صفات الولى فى الإسلام تتجمع فى التقوى والإيمان مع العمل الصالح ..

• تحليل لصفات الولي في

القرآن الكريم

(الولي) أو (الولاية) صفة كالمتقى والتقوى والمؤمن والإيمان والصالح والصلاح، وإن كانت التقوى - ومثلها الإيمان - تتضمن داخلها صفات قلبية وسلوكية فإن المولى أو الولاية تستلزم تنوع تلك الصفات فى إطارها، وسنحاول الآن تلمس ملامح الولي وتحليل صفاته لنجيب على السؤال الكبير وهو : هل يوجد فى الحياة الواقعية ولي بمفهوم الإسلام؟

إن فهما لصفات الولي - من إيمان وتقوى - ينبع أساساً من الرؤية الإسلامية كما فصلها القرآن الكريم، فليس ذلك اجتهاداً شخصياً وإنما هو أخذ مباشر عن كتاب الله. وهناك فرق بين التعلم من كتاب الله والاسترشاد به وبين محاولة اخضاع النص القرآنى لفكرة مسبقة ولوى عنق الآية وتأويلها .. لذا أكترت من الاستشهاد بالآيات القرآنية، إذ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ويؤكد بعضه بعضاً ..
والآن إلى سمات الولي فى الإسلام :

١ - العمومية : صفات عمومية

ونعنى بها أن الولي أو الولاية ليست خاصة بشخص بعينه أو طائفة أو جنس من البشر، أو بزمان أو مكان على التحديد، وإنما هى صفات عامة مطروحة أمام البشر دائماً فى دنيا التعامل ومطلوب منهم جميعاً أن يتحلوا بها. فالخطاب موجه للبشر جميعاً بأن يبادروا بالإيمان والتقوى وعمل الصالحات فى كل عصر وكل زمان، رجالاً ساءاً عرباً أو عجماً أغنياء وفقراء علماء وعامة، بل مسلمين وأهل كتاب ..

ومعروف أن الله تعالى قال عن أوليائه (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، وهذا وصف لا يتردد فى القرآن الكريم إلا لمن سلك طريق الله ووالاه وأتبع طريقه مؤمناً تقياً وصالحاً من كل الملل والنحل.

* عمومية الإيمان :

أ) وكل البشر مطالب بالإيمان. منذ هبط آدم إلى الأرض وحتى الآن، ويقول تعالى مخاطباً عامة البشر من بنى آدم منذ تلك اللحظة حتى الآن (قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإذا يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. البقرة: ٣٨)، فكل من اتبع هدى الله فقد والى الله وصار من أوليائه الذين هم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

* عمومية الإيمان والعمل الصالح :

ب) وعن الإيمان والعمل الصالح يقول تعالى للبشر جميعاً (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. الأنعام ٤٨). فمن آمن وأصلح فهو من الأولياء، ويقول تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. البقرة: ٢٧٧)، أى من كان مؤمناً صالحاً مؤدياً للزكاة والفرائض فجزاؤه كجزاء الولي (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). وذلك فى كل عصر وأوان حتى بين أهل الملل الأخرى من أهل الكتاب والصابئة، يقول تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. البقرة: ٦٢). فبغض النظر عن الأسماء فمن آمن بالله إيماناً كاملاً وأصلح أصبح ولياً من الأولياء الذين هم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). وتكرر نفس المعنى فى سورة المائدة (آية ٩٦).

والإنفاق فى سبيل الله من ضمن الصفات الإسلامية الأساسية للولى المؤمن المتقى، فقال تعالى بصيغة العموم عن كل من ينفق فى سبيل الله (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، ثم لا يتبعون ما انفقوا متاً ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. البقرة: ٢٦٢، ٢٧٤). أى أن كل البشر مطالبون بأ:

يكونوا من (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) حتى يكونون من الأولياء الذين هم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ..
* عمومية التقوى :

ج) والتقوى مطالب بها البشر جميعاً، ويأتي ذلك باقتران التقوى والصالح، كما في قوله تعالى (يا بني آدم إنا يأتينكم رسل منكم يفتنون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الأعراف : ٣٥). فبنوا آدم مطالبون جميعاً باتباع الرسل حتى يصيروا أولياء لله متقين صالحين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأهل الكتاب مطالبون - كسائر البشر - بالإيمان الكامل والتقوى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم، ولأدخلناهم جنات النعيم. المائدة ٦٥).

والتقوى كسلوك عملي يؤكد الإيمان، طوبى به الناس جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين، فيقول تعالى للبشر جميعاً (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة.. النساء ١)، ويقول (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم .. الحج : ١) وفي سورة الشعراء كان كل رسول يدعو قومه في كل عصر بكلمة واحدة (فاتقوا الله وأطيعون) ..

والمؤمنون من باب أولى مطالبون بالتقوى ليتحقق لهم سمو الإيمان ويكفر عنهم سيئاتهم فيقول تعالى (واتقوا الله إن كنتم مؤمنين - واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.. المائدة ٥٧، ٨٨). (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون .. آل عمران ١٠٢). وليس الخطاب خاصاً بالمؤمنين من أمة محمد عليه السلام بل يشمل من سبقهم من أهل الكتاب، يقول تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله.. النساء ١٣١)، وقال تعالى عن الأمم السابقة ممن أهلكوا بالعصيان (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. الأعراف ٩٦). بل أن النبي عليه السلام كمؤمن مطالب بالتقوى كقدوة لأتباعه فيقول تعالى (يا أيها النبي اتق الله) - (أمسك عليك زوجك واتق الله .. الأحزاب ١، ٢٧) ..

ويؤكدنا .. فكل إنسان بإمكانه أن يوالي ربه فيتمسك بالآيمان والتقوى وعمل الصالحات، فولاية الله ليست حكرًا على طائفة أو جماعة، وكل من دخل الجنة فهو ولي الله بعمله الصالح التقى في الدنيا (لهم دار السلام عند ربهم، وهو وليهم بما كانوا يعملون . الأنعام : ١٢٧).

٢ صفات عرضية تقبل الزيادة والنقص

هذا يعني أن الولاية - بالإيمان والتقوى - ليست صفات لازمة للمرء طول حياته.. بل تتميز بزيادة ونقصًا حسب مجاهدة الهوى والنفس الأمارة بالهوى والشيطان، وقد خلق الله تعالى النفس البشرية وسواها على أساس أن تحتوى على الفجور والتقوى معًا بل وقدم الفجور فيها على التقوى، إذ أنها أمارة بالسوء (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها .. النسس ٧، ٨)، وصراع الشيطان مع عوامل الخير في الإنسان مستمر باستمرار الحياة، والحياة جولات بين الخير والشر ينتصر فيها الشيطان حينًا وينهزم أحيانًا، وبعض الناس أسلم قيادته للشيطان فأصبح له عليه السلطان والتحكم، وبعض الناس لم يسلم للشيطان زمانه فهو في حالة صراع مستمر معه لا يهدأ .. نفهم ذلك منذ حكى تعالى قصة آدم ورفض الشيطان السجود وطرده : (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط علي مستقيم، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين.. الحجر ٣٩ : ٤٣). والمؤمن يستعين في صراعه المستمر مع الشيطان بالاستعاذة بالله ليقوى بالله على الشيطان (.. فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون .. النحل ٩٨ : ١٠٠).

وعليه فإن حدة الصراع تتجلى أكثر في نفس المؤمن دون الكافر، فالكافر أسلم نفسه للشيطان، فحققت لديه حدة الصراع، بل ربما يقال عنه أن الصراع في نفسه مات .. أما المؤمن فالصراع حي قائم مستمر داخله يزكيه الهوى والنفس والشهوات والجسد ومتطلباته، والشيطان من وراء ذلك كله بالرسوسة والتلجيس والتبرير والتلهوين والتعني، كل ذلك مع محاولات التمسك بالتقوى فيصبح المؤمن قابضًا على الجمر، ومن الطبيعي أن تنعكس حدة الصراع على صفات الإيمان والتقوى فتتأثر زيادة ونقصًا حسب

درجة الإقتراب من الخير أو الشر، والتمسك بشرع الله أو الانحراف عنه، والوقوع فى المعصية أو التوبة منها.

ويزيد من حدة الصراع أن المؤمن مطالب أن يكون فى معمرة الحياة، أى فى خضم الصراع، فلا انزال ولا رهبانية ولا انقطاع عن التعامل مع المجتمع فى مفهوم الإسلام، فالمسلم متفاعل مع الحياة مطالب ليس فقط بمراعاة التقوى بل وأن يؤثر فى مجتمعه بالخير. ومن الطبيعى - وهو بشر غير معصوم - أن تؤثر فيه المحن والفتن وأن يستسلم حيناً للهوى وحظ النفس وحيل الشيطان - وهو فى كل ذلك فى صراع لا يهدأ بين الخير والشر فى نفسه وفى مجتمعه، صراع لا ينتهى إلا بنهاية حياته، وحتى الموت فإن إيمانه وتقواه وجهاده فى تغير مستمر بالزيادة والنقص ..

(أ) الإيمان صفة عرضية متغيرة :

١ - ومرجع ذلك التغير فى الإيمان لدى المؤمن هو فى السلوك والعمل، وذلك كله متأثر طبعاً بنوازع النفس وحظ الهوى ومكر الشيطان، فالمؤمن مثلاً إذا ركن إلى المعاصى واعتاد عليها تغير إيمانه وشابت عقيدته الشوائب بتكرار المعاصى، وفى ذلك يقول تعالى عن بعضهم (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .. المطففين ١٤). والران هو ما يشبه الصدأ الذى يتراكم على الحديد فيحوّله إلى طبيعة أخرى .. وهكذا المعصية التى يكسبها الإنسان بعمله، إذا أدمنها، تظل تتراكم فيصدأ القلب وتتحول العقيدة إلى رياء لمصانعة الناس وإيهامهم بعكس المعاصى التى ترتكب، والشرك يبدأ بالرياء ثم ينتهى باتخاذ الوسائط والشفعاء للتخلص من الذنوب والآثام ..

أى أن المعصية والإثم تنقص من الإيمان إذا أهملت التوبة والاستغفار أو بمعنى أصح إذا أهمل الإنسان المؤمن (التقوى)، فالتقوى صمام الأمن للمؤمن وعلى أساسها يدخل الجنة. فلا عبرة بإيمان قلبى يضعف عن عمل الصالحات ويبعد عن فعل الإثم ..

والقرآن الكريم هو جلاء القلوب التى ران عليها الإثم، فبالقرآن يعود الإنسان المؤمن لربه ويتوب، لذا يقول تعالى فى صفات المؤمنين الذى يزداد إيمانهم بسماع القرآن (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .. الأنفال ٢) فإيمانهم يزداد بتلاوة القرآن. وروى القرآن الكريم موقفاً للمؤمنين والمنافقين عند سماع القرآن، فهو يزداد المؤمنين إيماناً ويزيد المشركين غيظاً وكفراً،

يقول فى ذلك تعالى (وإذا ما انزلت سورة فعنهم من يقول أيكّم زادته هذه إيمانًا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .. التوبة ١٢٤ ، ١٢٥) ، أى أن الشرك والكفر يزدادان أيضًا ويتناقصان - كالإيمان ، باعتبار أن الإيمان عنصر لا يخلو منه قلب أى مشرك .

ويزداد إيمان المؤمن الحقيقي ويتألق حين تشتد الأزمات فى الجهاد ، ففى هزيمة أحد قال تعالى عن طائفة من المؤمنين طاردوا العدو رغم جراحهم (.. الذين قال الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانًا ، وقالوا حسينا الله ونعم الوكيل .. آل عمران ١٧٣) ، فى حصار الأحزاب قال تعالى عن المؤمنين ورسوله (وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا .. الأحزاب ٢٢) .

وإذا كان بعض المؤمنين يزداد إيمانه وقت الشدة كما حدث من بعض صحابة الرسول عليه السلام فى أحد والأحزاب فإن البعض الآخر يتناقص إيمانه ويفتن عن دينه ، يقول تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم .. العنكبوت ١٠) . فصاحبنا حين واجه الأذى فى سبيل عقيدته كبر على نفسه أن يصيبها الأذى واعتبر إيذاء الناس له عظيمًا يساوى عذاب الله للعصاة فى الآخرة .. فهو لم يصمد فى الأذى مع أن الإيمان الحقيقي يسطع فى الأزمات ، بل أن الإيمان الحقيقي لا يتجلى إلا فى الشدائد ، ونعود إلى صاحبنا الذى خذله إيمانه وقت الفتنة والشدة ، فنجده وقت النصرة يظهر بمظهر آخر ينسب النصرة إليه وإلى جهده (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) فشأنه أن يعبد الله على حرف أو كما قال تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .. الحج ١١) .

هذا .. والتلازم بين الإيمان والصبر على الشدائد والفتن بدأ به تعالى سورة العنكبوت فقال (آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا؟ وهم لا يفتنون ..) . نخلص من ذلك إلى أن الإيمان صفة عرضية متغيرة . فهو مع قلمته فى عقيدة المشرك إلا أنه يتعرض للتغير فيصير المشرك أكثر كفرًا وطغيانًا .. ومع كثرته فى عقيدة المؤمن إلا أن الفاصل النهائى هو فى السلوك والعمل أى (التقوى) فى الأحوال

العادية.. وفى الصبر على الشدائد والفتن فى أوقات الأزمات التى تلازم صاحب العقيدة الصحيحة .. والمؤمن إذا ظهر زيف إيمانه فى تلك الموقف أشبه الكافر وواجه نفس نهايته.. فليس هناك مؤمن ثابت على طول الخط، وإنما الإيمان يتأرجح حسب المواقف والتجارب، -معرضاً فى الجهاد، وقد قال تعالى عن المنافقين القاعدين عن الجهاد (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان .. آل عمران ١٦٧). أى أن الكفر والإيمان محطات تتأرجح بينها الإنسان فى مواقفه حسب درجة التزامه طالما ظل حياً، وهذا مالا يعلمه إلا علام الغيوب.

ب) التقوى صفة عرضية متغيرة :

والتقوى أكثر صفات الولى تغيراً، تُسمى بطبيعتها صفة عرضية، لأنها نتيجة المجاهدة وصراع المؤمن مع نوازغ الشر فى نفسه، ومن طبيعة هذا الصراع المستمر المحتدم أن تتفاوت النتيجة فتنتصر التقوى حيناً، وتفوز المعصية حيناً آخر ..

والمتقى الذى يخشى الله ليس هو المعصوم الذى لا يقترب المعصية وإنما هو الذى يتوب إذا وقع فى المعصية، فهو بين حالين : عاصٍ مقترب للمعصية .. وحينئذ ليس متقياً وليس ولياً. ثم هو تائب عازم على عدم العودة للمعصية مصمم على أن يكون بعد ذلك أكثر حزمًا فى مواجهة الشيطان فى نفسه، وحينئذ يحقق تقواه حين يفلح فى السيطرة على جوارحه فيرعى عن فعل الإثم حين يهجم بالوقوع فيه، وليس معنى ذلك أن التقوى ستلزمه بالعصمة، فالصراع مستمر محتدم، ولايد للشيطان من أن يفوز فى بعض الجولات، ولكن النتيجة النهائية هى فى المحاولة المستمرة للحد من المعاصى وفعل الصالحات وكثرة التوبة والاستغفار وحصر الذنوب فى مجرد الصغائر دون الكبائر .. وتظل حياة المؤمن نهبا لتلك الصراعات حتى ينتصر فيها ويفوز فى نهايتها بمجموع الدرجات أى بمجموع حسناته على سيئاته .. وإلى أن تنتهى حياة المؤمن تظل تقواه حالة عرضية وقعية. يقول تعالى فى صفات المتقين (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .. الأعراف ٢٠١) .. «والمس» يزيد على «اللمس». فاللمس هو ما على الجلد والجسد .. أى أن الشيطان يمس المتقى أى يصل إلى ما فوق درجة اللمس .. وذلك تعبير قرأنى بليغ يصور مبلغ تمكن الذنب والشيطان فى نفس الإنسان المتقى .. ومع أن المتقى يمسّه طائف الشيطان بالذنب إلا أنه يبادر بالتوبة

والاستغفار لذا كان تعبير القرآن هو العطف بالفاء.. والفاء كحرف عطف يفيد التتابع السريع تقول (جاء محمد فعلى) أى أن محمداً جاء فتبعه على فى المجيء مباشرة، فالمتقى قد يقع فى الذنب فيسارع بالتذكر أى فيستغفر ويتوب ويصبر ما حاول الشيطان أن يعميه ويوقعه فى الذنب، لذلك يقول تعالى فى معرض صفات المتقين (..والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم. ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار .. آل عمران ١٣٥ : ١٣٦). وفى الآيتين تفصيل وتصريح .. فالمتقى ليس هو المعصوم الذى لا يقع فى المعصية وإنما هو الذى إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه بادر بذكر الله تعالى وأسرع بالاستغفار لذنبه ولم يقع عنده إصرار على المضى فى فعل الإثم وهو عالم بجرمة وحرمة ما يفعله .. وجزاؤه هو الغفران والجنة..

ونلاحظ فى الآيتين السابقتين أن المتقى كثير الذكر لله، وذكر الله يجعله على حذ من فعل المعصية، وحتى إذا فعلها فإنه حين يبادر بذكر الله يتوب. فذكر الله يجعل المتقى قريباً دائماً من ربه، ويعيد بنفس القدر عن الشيطان .. فيحقق معنى الموالاة لله.. حينئذ يقدر الإمكان.

وصرحت الآية الأخيرة بالغفران للمتقى فيما وقع فيه من ذنوب طالما يتوب ويثوب.. والغفران يعنى تكفير الذنوب المستغفر عنها. فيقول تعالى عن المتقين (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا .. الزمر ٣٣، ٣٤، ٣٥). فالله تعالى الغفور الرحيم يكفر عن المتقين أسوأ الذى عملوا ويدخلهم جنته .. أو كما يقول تعالى فى موضع آخر (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.. الطلاق ٥).

وهكذا .. فالتقوى لا تعنى العصمة من الذنب .. وإنما هى محاولة التقليل من الوقوع فى الذنب .. والاستغفار بسبب الوقوع فى ذلك الذنب .. كل ذلك فى إطار جهاد النفس الأمارة بالسوء والشيطان الذى يزين ويغوى .. والصراع قائم مستمر باستمرار الحياة فى نفس المؤمن وجسده ودمه، وعند الموت يعرف الإنسان نتيجة نهائية إذا كان ممن اتقى أو ممن عصى .. وحتى هذا الوقت فطالما ظل المؤمن حياً يرزق فتقواه صفة عرضية فيه، ولا يمكن أن يوصف بها وهو يقترب الإثم ويفعله، أو حين يحتمل أنه

سيقع فى الإثم، أو حين يكون مصممًا على الإثم، ولا يخلو إنسان مهما بلغ صلاحه وإيمانه من ذلك.

(ج) الصلاح كصفة متغيرة عرضية :

١ - والأعمال الصالحة تقابلها الأعمال السيئة، والأعمال الإنسانية مزيج من الصالحات والسيئات. والمؤمن المتقى هو من تزيد أعماله الصالحة وتغلب على أعماله السيئة أو يغلب عليه فعل الصالحات .. ومن لطف الله بعباده الصالحين أنه يكفر عنهم ذنوبهم السيئة بتوبتهم الصادقة فلا يبقى لهم إلا أعمالهم الصالحة وهى كثيرة فيدخلهم الجنة .. ومن ذلك أنه تعالى جعل الحسنه بعشرة أمثالها وجعل السيئة بمثلها لكى ينعم المؤمنون المتقون برحمة ربهم الغفور الرحيم .. ومنه أنه جعل الحسنات مكفرات للذنوب إذا زادت وربت فأصبحت شيمة المؤمن يقول تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين .. هود ١١٤)، بل أن فضله تعالى على عبادة المؤمنين الصالحين بلذ إلى درجة أنهم إذا تركوا فعل الكبائر من الذنوب كفر الله تعالى عنهم ما ارتكبوه من الذنوب الصغائر وأدخلهم الجنة (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلًا كريمًا .. النساء ٣١).

إن النفس البشرية قد خلقت على أساس من الفجور والتقوى، والإنسان لا يخلو من الوقوع فى الإثم، ولا بد للمتقى من التوبة والاستغفار. فأعمال الإنسان المتقى المؤمن مزيج من الخير والشر إلا أن الخير فيه أغلب، لذا جعل سبحانه وتعالى تلك المزايا التى أوردناها فرصة للمتقين لكى يفوزوا برحمة الله وغفرانه وجنته .. ومعنى ذلك أن الصلاح - إذا غلب على امرئ - لا يعنى نقاء كلية من الإثم. بل يعنى أنه حالة متغيرة لا لازمة .. بل يقال أنها تغلب عليه بكثرة حسناته وفعله للصالحات.

٢ - وقد ورد فى القرآن الكريم أن الله تعالى يغفر للمؤمنين الكبائر من الذنوب إذا تابوا وعملوا الصالحات، فيقول تعالى عن صفات عباد الرحمن (.. ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا، ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا .. الفرقان ٦٨ : ٧١). فالزانى جزاؤه كالكاfer يضاعف له العذاب ويخلد فى النار. أما إذا تاب الزانى من جريمة الزنا وصحح إيمانه وغلب عليه

فعل الصالحات فإن الله يبذل سيئاته ويجعلها حسنات، ويغفر له لأن من تاب وأقلىع وغلب عليه عمل الصالح فإن توبته مقبولة من الله (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) ويصبح تائباً وليس زانياً.

ويقول تعالى عن جريمة قذف المحصنات البريات العفيفات (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم .. النور ٥٤). فرمى المحصنات عقابه الجلد ثمانون جلدة. والقاذف للمحصنات فاسق لا تقبل شهادته .. ومع ذلك فإذا تاب بعدها وأصلح فإن الله يغفر له ويرحمه ..

ونفس الحال مع اليهود والنصارى وكل البشر، فمجال التوبة والرجوع إلى الله مفتوح أمامهم إذا آمنوا وأصلحو مهما بلغ عظم ما اقترفوه من ذنوب .. يقول تعالى عن الذين جاءوا بعد الرسل (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً .. مريم ٥٩، ٦٠). فأولئك تنكبوا الطريق وتركوا الصلاة وركنوا للشهوات ومع ذلك فمن تاب منهم وآمن وأصلح فإن ذنبه مغفور ..

بل إن المسلم إذا ارتد ثم تاب وآمن وعمل صالحاً فالله يغفر ذنبه .. يقول تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين. كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم .. آل عمران ٨٥ : ٨٩).

فمن كفر بعد إيمان وشهادة ويقين بالله ورسوله فجزاؤه اللعنة والخلود فى النار، إلا من تاب بعد تلك الردة واقتربت توبته بعمل الصالحات فإن الله غفور رحيم. أى أن المؤمن الصالح قد يقع فى الكفر ويستحق اللعن والخلود فى النار ثم يتوب ويرجع لحظيرة الإيمان فيتوب الله عليه ويغفر له ويكفر عنه سيئاته. أى أن الصلاح حالة نسبية متغيرة لكل البشر مهما أتوا من عظيم الذنوب مسلمين كانوا أم يهوداً مرتدين أو نصارى فى كل وقت وفى كل حين .. المهم أن يتوبوا ويعودوا إلى طريق الله وموالاته

تعالى.

٣ - وهكذا يتبين أن الإيمان والتقوى والصلاح صفات عرضية متغيرة تزيد وتنقص لدى كل شخص بل وفي الشخص الواحد في حياته العادية بل اليومية .. وإذا سرنّا مع أحد الأشخاص في حياته اليومية لوجدنا في يومه ألف احتمال واحتمال بين أن يكون تقياً نقياً أو وسطاً أو عاصياً .. ونبدأ معه يومه، فهو يفتح عينيه وهو نائم على آذان الفجر (وهنا احتمال لأن ينهض ليصلي الفجر في الجامع، واحتمال لأن ينهض ليصلي في بيته، واحتمال أن يتكاسل ويكتفى بصلاة الفجر قبل أن تطلع الشمس، واحتمال أن تفوته الصلاة الحاضرة ويستغرق في النوم)، وفي كل احتمال تتغير منزلته في الإيمان والتقوى والصلاح. وبعد صلاة الفجر أو الصبح يتناول إفطاره (ناهيك عن مكسبه وعيشه ومدى نسبية الحرام أو الحلال فيه)، ويذهب لعمله فيركب الأتوبيس وقد يجبره الزحام على أن يلتصق بفتاه أو تلتصق به فتاه (وهنا احتمال أن ينأى بنفسه بقدر الإمكان عن الالتصاق بها، واحتمال أن يصبر ويصابر ويشغل فكره بأشياء تبعده عن تلك الفتاه، واحتمال أن يسعد بذلك الالتصاق الذي لا يد له فيه، واحتمال أن يتمدّد فيه، ثم هنالك درجات متنوعة في ذلك كله، كونه متزوجاً محصناً، أو كونه عزباً، أو مراهقاً، ولذلك أثره في تلك الاحتمالات) ..

ثم قيامه بعمله فيه أكثر من احتمال (بعد استبعاد منزلة العمل نفسه من الحلال والحرام) فهناك احتمال أن يخلص في العمل بهدف ارضاء الله تعالى الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، واحتمال أن يجتهد في عمله ليرضى رؤساءه فيرقى، واحتمال أن يجتهد في عمله لكسب المزيد من المال، واحتمال أن يجتهد في عمله لشخص دون آخر نظير مال أو رتبة، واحتمال أن يتوسط في تأدية العمل أو يتكاسل أو يتهاون، مع احتمال تغيير النية في التكاسل والتوسط في الأداء) ..

ونفس الحال في علاقاته الأسرية مع زوجته وأولاده وأبيه وأمه وإخوته وإخوانه، ومحيط العمل والحي والمجتمع .. فيه أكثر من احتمال واحتمال في القلة والكثرة وحقيقة النية في ذلك كله .. وعلاقته بذكر الله تعالى هل يواظب على تذكر الله تعالى في سره وجهره، في عمله وراحته، في يقظته ومنامه، وقراءته للقرآن هل يقرؤه بتدبر أو بإعراض وانشغال تم مقصده من أعماله الصالحة كلها، هل يقصد به وجه الله خالصاً أم

يرأى الناس ويستجدي رضاهم عنه، ثم أثر ذلك كله فى تعرضه للإثم ووقوعه فيه. كلها احتمالات .. وكلها متشابكة، وكلها تدور مع الإنسان فى كل وقته وفى كل صغيرة وكبيرة- من كل حركة من حركاته .. والإنسان بينها متأرجح دائماً بين قوة الإيمان وضعفه، وكثرة التقوى وقلتها والعمل الصالح والعمل السيء .. وكل هذه الاحتمالات لا يعرف حقيقتها وظروفها وتقديرها إلا الله تعالى.

٣ - صفات غيبية لا يعرف حقيقتها

إلا الله تعالى

١ - اختص الله تعالى نفسه بعلم الغيب اجمالاً وتفصيلاً .. والإيمان والتقوى والصلاح صفات قلبية وسبحان من يعلم (خاتمة الأعين وما تُخفى الصدور) (غافر: ١٩). والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه أعلن أنه لا يعلم الغيب (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء .. الأعراف ١٨٨)، وكان يكفى أن نقرر تلك الحقائق القرآنية العقلية لنتبين أن إيمان شخص ما وتقواه جزء من سريره ولا يطلع على السرائر إلا علام الغيوب. ولا عبرة بمظهر الأعمال الصالحة أو السيئة أيضاً. فقد تصدر عن رياء وتظاهر أو عن خوف ومداورة، أقول كان يكفى تقرير ذلك لولا أن القرآن الكريم فصل فى تلك الناحية بما يغرى بالاستزادة فى عرض الموضوع .. ومما لا شك فيه أن الإيمان القلبى هو الأساس الذى تصدر عنه التقوى والبعد عن المعصية وإتيان الصالح من الأعمال .. فإذا ضعف الإيمان قلت التقوى والعمل الصالح وزاد الرياء والتظاهر، وإذا زاد الإيمان فى قلب امرئ زادت تقواه وأعماله الصالحة، وربما أخفى عمله الصالح خوف الرياء وطلباً للإخلاص مع الله، وربما أظهر عمله الصالح ليكون قدوة يقتدى بها الآخرون، وهو واثق من نفسه أنه لا يأبه برأى الناس فيه ومدحهم له، لذا فإن الله تعالى -مثلاً- فى حديثه عن الصدقات صرح ببطلان صدقة من يتصدق بالمن والأذى والرياء، وجعل الرياء فى الصدقة مساوياً للأذى والكفر، يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين .. البقرة ٢٦٤)، ويقول (الذين ينفقون أموالهم رياء الناس، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يكن

الشیطان له قریناً فساء قریناً .. النساء ٣٨).

وفى نفس الوقت أجاز سبحانه وتعالى للمؤمنين - إذا وثق أحدهم من إيمانه - أن يظهر الصدقة أو أن يخفيها طالما قصد بها وجه الله تعالى وحده، يقول تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير .. البقرة ٢٧١)، نالله سبحانه وتعالى خبير بعمل عباده، خبير بقلوبهم وإيمانهم، عالم بدوافعهم حين يظهرون الخير وحين يخفونه .. والمنافقون كانوا يصلون رياء ومداينة فقال فيهم تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .. النساء ١٤٢).

وقرر سبحانه وتعالى الويل للمرائي في صلاته (ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون، ويمنعون الماعون .. الماعون ٤ : ٧).

٢ - وبعض المنافقين فضحتهم تصرفاتهم في النهاية، وبعضهم أظهرها الصلاح والإيمان حتى خدعوا بمظهرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه؛ أو بتعبير القرآن الكريم (مردوا على النفاق)، يقول تعالى في نوعي المنافقين (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم .. التوبة ١٠١). أى أن بعضهم تغلب عليه حقه فتصرف وتكلم بحقيقة مشاعره، أما الذين مردوا على النفاق فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يتعرف على حقيقة إيمانهم ولم يدرك غيب سرائرهم وظل أمرهم مكتوماً عليه لم يخبره به بهم، لأن أولئك المنافقين مردوا أو تعودوا على النفاق، فلم يقوموا بعداء أو ما من شأنه الإضرار بالمسلمين، فقتلوا بتأييد المؤمنين والمبالغة في ذلك حتى لا يكشفوا سريرتهم ..

وهناك فريق آخر من المنافقين تسرع فأظهر ما يبطن من الكفر، وحزن الرسول لأنه كان يظن فيهم الإسلام والخير، يقول تعالى فيهم (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم .. المائدة ٤١)، ونفر منهم ظل محتفظاً بنفاقه متكاسلاً عما يفرضه عليه إيمانه الظاهري من جهاد، ومع ذلك فإن الرسول كان يعاملهم حسب ظواهرهم فعاتبه الله تعالى (.. لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيجلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم

يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون، عفا الله عنك، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين .. التوبة ٤٢، ٤٣). فأولئك تكاسلوا عن نصره الدين الذي لا يؤمنون به وركنوا إلى الأيمان الكاذبة يعتذرون بها ففضحهم الله ..

والمؤمنون كانوا يصدقون أولئك المنافقين الذين يحلفون لهم مع أن الحقد ظاهر في تصرفاتهم فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. آل عمران ١١٨ : ١١٩). وهذا تصوير بديع لحقيقة مشاعر المنافقين أوضحه سبحانه وتعالى علام الغيوب المطلع على السرائر ..

واليهود شاركوا في لعبة النفاق فقال فيهم القرآن الكريم (وإذا جاءوكم قالوا آمنا، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون .. المائدة ٦١). فهم أعلنوا إيمانهم كذباً بينما هم كفرة ولا يعلم كفرهم الذي يكتمونه إلا الله تعالى عالم الغيب والشهادة ..

٣ - وآيات كثيرة تصرح بأن معرفة أسرار القلوب قد اختص الله تعالى نفسه أو بالتعبير القرآني هو (أعلم) بها وصيغة أقفل التفضيل مقصود أنه لا يعلمها سواه، يقول تعالى (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين .. النحل ١٢٥، القلم ٧) و(قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً .. الإسراء ٨٤) و (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم .. النجم ٣٢).

وإذا كان ذلك حديثاً عن البشر عامة فإن آيات أخرى تحدثت عن علمه تعالى بقلوب المؤمنين ومدى إيمانهم، يقول تعالى (والله أعلم بإيمانهم بعضهم من بعض ... النساء ٢٥)، ويقول تعالى عن المؤمنات المهاجرات (فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن .. الممتحنة ١٠).

ويقول عن المهتدين (إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين .. القصص ٥٦) (وهو أعلم بمن اهتدى .. النجم ٣٠) ويقول عن المتقين

(هو أعلم بمن اتقى .. النجم ٣٢). ويقول عن الصالحين (ويمكن أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين، فإنه كان للأوابين غفورا .. الإسراء ٢٥).

٤ - وهكذا .. فالإيمان والتقوى والصلاح صفات قلبية اختص الله تعالى بمعرفةتها ولم يطلع عليها أحداً من البشر، حتى الرسل المكرمين .. وما سبق من أمثلة قرآنية تظهر كيف أن الرسول عليه السلام والمؤمنين معه خدعوا بإيمان بعض المنافقين، وكان من الممكن أن تظل سريرة المنافقين غيباً عنهم لولا أن الله فضحهم وكشف عن كفرهم. وخداعهم، ونحن لا نستطيع أن نحكم على إيمان شخص من الأشخاص ولا نستطيع تبيين درجة صلاحه وحقيقة ثقواه .. فكل ذلك غيب عنا، وأعمال أى إنسان ترجع إلى ضميره وإيمانه وقلبه، وسبحان علام الغيوب.

* المؤمن لا يدعى الولاية :

١ - هذا .. والمؤمن دائماً يتهم نفسه ولسان حاله يقول (وما ابرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم -- يوسف ٥٣)، والمؤمن قى اعترافه بالذنوب والخطأ إنما يتأسى بالأنبياء، فقد مدح الله تعالى كلاً من داود وسليمان وأيوب عليهم السلام بقوله (إنه أواب) ص ١٧، ٣٠، ٤٤) والأواب هو كثير التوبة والإقرار بالذنوب، وفى نفس السورة قال تعالى عن داود عليه السلام (وظن داود إنما قتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب، فغفرنا له ذلك .. ص ٧٤، ٧٥)، وقال عن سليمان عليه السلام (ولقد قتنا سليمان والقينا على كرسيه جسداً، ثم أتاب، قال رب اغفر لى. ص ٣٤، ٣٥)، وقال تعالى عن إقرار ذى النون بالذنوب والخطأ (وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات إن : لا إله إلا أنت سبعانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك نتجى المؤمنين .. الأنبياء ٨٧، ٨٨). ولولا ذلك الاستغفار لظل ذو النون فى بطن الحوت، يقول تعالى (قلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون .. الصفات ١٤٣، ١٤٤) ..

فأولئك أنبياء مكرمون لم تمنعهم منزلتهم العليا من الاعتراف بالذنوب والإقرار بالخطأ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة مشابهة تؤكد توبة الأنبياء، وأنه ما نبى منهم زكى نفسه أو أعلى من قدرها، أو وصف نفسه حتى بما تستحقه من إيمان وتقوى ..

٢ - والله تعالى اختص نفسه بتزكية من يشاء من المؤمنين، وامتن بذلك عليهم إذ يقول (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم أحد أبداً، ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم .. النور ٢١) .. بل أنه تعالى أمر المؤمنين بأن لا يزكي أحدكم نفسه، يقول تعالى (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى .. الذنوب ١٢) فتزكية الإنسان لنفسه مرفوضة قطعاً في نظر الإسلام، ليس فقط لأنها تقدم عن غرور واستعجاب لخدمة الناس ورياء ولكن أيضاً لأنها اعتداء على علم الله تعالى، (هو أعلم بالإنسان من الإنسان نفسه) هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى .. النجم ٣٢) ..

٣ - واليهود زكوا أنفسهم وقضوا أنفسهم واعتبروا جنسهم مفضلاً على بنى البشر فتعنى الله عليهم هذه الصفاقة والافتراء على الله .. فإلهه تعالى لم يعط علمه لهم حتى يقضوا أنفسهم وهم يستندون ذلك لله كذباً وافتراء، يقول تعالى (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً، انظر كيف يفترون على الله الكذب؟ وكفى به إثماً مبيناً .. النساء ٤٩، ٥٠) ..

وتزكية النفس فيها تدخل في اختيار الله تعالى الذي يزكي من يشاء من خلقه ممن يقرون بالذنوب ويتهمون النفس، ومن وقع في جريمة تزكية نفسه فقد استحق غضب الله في وقت يستجلب فيه حمد الناس وتقديرهم بلا استحقاق، فيقول تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ولهم عذاب أليم .. آل عمران ١٨٨) ..

وعليه فمن ادعى الإيمان أو التقوى والصلاح فقد أشبه اليهود واستحق مقت الله وعذابه. وصار أبعد عما يدعيه .. ناهيك بمن يدعى الإيمان والولاية ليضل الناس عن دينهم ويصد عن سبيل الله .. وذلك موضوع آخر ..

* ثم هنا سؤال : هل يوجد ولى حى بمفهوم الإسلام ؟
أو بمعنى آخر. إذا آمن أحدنا واتقى وعمل الصالحات واتهم نفسه وحارب الشيطان فيها .. هل يعد ولياً ؟

١ - إن منطبق الأشياء يقول باستحالة ذلك، ليس فقط لأن الإيمان والتقوى صفات عرضية تزيد وتنقص ولكن لأن النتيجة الختامية لا تكون إلا بنهاية الحياة. فوجود ولى

بمقاييس الإسلام على قيد الحياة أمر مستحيل لأن العصمة مستحيلة على بنى البشر .. ولا يعلم أحدنا ما يخفيه له المستقبل .. ولا ما يضره الغيب للآخرين، وإذا وضع فى تفكيره وجود ولى حى فرش نفسه للولاية معتقداً فى نفسه الإيمان والتقوى، فقد عصى أمر ربه القائل (فلا تزكوا أنفسكم). إلا أن الإنسان يعرف مصيره عند الاحتضار حيث يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ما لا يسمعون (قلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون .. الواقعة ٨٣ : ٨٥) .. فى تلك اللحظة الحاسمة التى لا يراها الإنسان منا إلا مرة واحدة .. يعرف موقعه من الفوز أو الخسران. فى تلك اللحظة الرهيبة يطمئن المؤمن التقى الصالح .. يطمئن أنه الولى ويعرف أنه فى أمن من عذاب الله ولا خوف عليه ولا حزن، حيث تبشره الملائكة برحمة ربه ومغفرته ..

فتبشير الملائكة للولى إنما فى تلك اللحظة الرهيبة التى يصبح فيها الإنسان أسير عمله وما قدمه، ولا ينجيه مهما عمل من الصالحات إلا فضل ربه ورحمته .. فى لحظة لم يعد بمقدوره أن يزيد من عمله أو ينقص منه حيث هو مشرف على عالم الموت، فى آخر لحظة له فى الدنيا وأول لحظة له فى الآخرة وقد ختم سجل أعماله وحياته حينئذ يقول تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم .. فصلت ٣٠، ٣١، ٣٢).

فالأيات الكريمة تتحدث عن نزول الملائكة على الذين آمنوا واستقاموا - وذلك حين وماتهم بدليل قول الملائكة لهم (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) أى كنتم توعدون بها فيما سبق من حياتكم الدنيا التى أنتم بصدد مفارقتها .. وتخبرهم أنهم كانوا موالين لهم فى تلك الحياة الدنيا ثم فى الآخرة التى يتأهبون لدخولها حيث ينعمون فيها بما تشتهى أنفسهم وما يطلبون ..

وقول الملائكة لهم - حين الوفاة - (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا ..) هو ما رددته الآية الأخرى من سورة يونس عن الأولياء (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .. ٦٢، ٦٣،

٦٤). فالبشرى التى تزفها لهم الملائكة فى مفترق الطرق بين الحياة الدنيا والآخرة.. والجنة هى أعظم ما تبشر به الملائكة .. ويقول تعالى عن أوليائه وجزائهم (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون .. الأنعام ١٢٧).. فالحديث عن الجنة مما يعنى أن حياة الولى انتهت، ثم يتأكد ذلك بقوله تعالى (.. بما كانوا يعملون ..) أى بما كانوا يعملونه فى دنياهم ..

٣ - أى أن الله تعالى أورد بشره لأوليائه المتقين عند الموت وهم يتأهبون لمفارقة الدنيا بعد أن أدوا فيها ما فرض عليهم من عمل وظلوا فى خشية ورهبة حتى بشرتهم ملائكة الله بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهذا هو معنى قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذى آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة). فهم الذين آمنوا فى الدنيا وكانوا فيها يتقون وعند الموت يعرفون نتيجة عملهم، كما يعرفها أيضاً العصاة والضالون. فالإنسان عند الموت إما تبشره الملائكة بالجنة فيكون من أولياء الله، وإما أن تبشره بالنار فيكون من أولياء الشيطان. وقبل ذلك لا مجال لمعرفة من هو ولي الله أثناء حياته.

ومما سبق نوجز الآتى :

إن الولى فى الإسلام ليس شخصاً معروفاً، وإنما هى مجموعة صفات تتكون من **الإيمان والتقوى والصلاح**، وتتميز بأنها صفات عامة للبشر جميعاً، عليهم جميعاً أن يتحلوا بها ليكونوا مؤمنين متقين صالحين، وهى صفات عرضية متغيرة **تزيد وتنقص** حسب الصراع مع وساوس الشيطان وغرائز الجسد والنفس الأمارة بالسوء، والمؤمن ليس معصوماً ، وحين يخطئ يكون عاصياً، وحين يتوب ويتطهر يكون تقياً، وهو فى حياته يتقلب بين هذا وذاك، وهى صفات **قلبية لا يعلم حقيقتها إلا الله**، فهو وحده الذى يعلم السرائر وحقائق الأعمال والنوايا والماضى والحاضر والمستقبل فى تاريخ كل انسان، ولم يعط الله تعالى علمه لأحد، حتى من الرسل، ثم إن **المؤمن الحقيقى يحتم نفسه ويعترف** بذنبه ولا يمكن أن يزكى نفسه بالإيمان والتقوى والصلاح أو بأنه ولي الله، كما لا يمكن أن يرانى الناس بعبادته، وإذا زكى نفسه ومدحها فقد عصى أوامر الله. والإنسان وهو على الأرض يسعى يظل كتاب أعماله مفتوحاً يقبل الحسنة والسبئية، وعند الموت فقط تبشره الملائكة بالجنة إذا أفلح، ويكون ساعته من أولياء الله، أو

تبشره بالنار إذا كان خاسراً ويكون من أولياء الشيطان .. وليس هناك حالة وسط، فإما أن تكون عند الموت فائزاً ومن أولياء الله، وأما أن تكون خاسراً من أولياء الشيطان، وقبل الموت وأنت تسمى بالكلمة الأخيرة فيك لم تصدر بعد، ثم ستعرف مصيرك عند الموت وترى الملائكة تبشرك بالجنة أو بالنار، عندها لا يعرف أحد من البشر غيرك ماذا آل إليه مصيرك. وبالتالي فلا يمكن وجود ولي الله من البشر يعيش بيننا. وهذا ما نفهمه من القرآن كلام رب العالمين. أما الولي الصوفي فهو شيء آخر ..

* الباب الثاني *

تقديس الولي الصوفي في مصر المملوكية

* الفصل الثاني : ولي الله في التصوف : تأليه الولي الصوفي.

* مدخل : تزكية الولي الصوفي.

* تأليه الولي الصوفي : ملامح تأليه الولي الصوفي.

- الدعوة للإيمان بالولي، أسماء وصفات إلهية للولي.

- الولي الصوفي بين السماء والأرض.

- الولي الصوفي لا يأكل ولا ينام ولا يختلط بالبشر.

- تقديس كلام الولي، إسناد علم الغيب للولي الصوفي.

* - ادعاء التصريف في ملك الله تعالى.

- ملامح تأليه الولي الصوفي في علاقة المريد بشيخه.

- حب المريد لشيخه، عدم إشراك المريد بشيخه، عبودية المريد

لشيخه.

- الصوفية يفضلون الولي الصوفي على الله تعالى، تفضيل الولي

الصوفي على الأنبياء.

- الله هو الولي ولا ولي سواه.

- الصوفية وأولياء الشيطان.

الفصل الثاني

ولى الله فى التصوف

مدخل : تزكية الولى الصوفي

- انتهينا إلى أنه لا يوجد فى الحياة العملية - بعد استبعاد الأنبياء - ولى لله تعالى كشخص معزوف، وإنما الولى أو الولاية مجموعة صفات عامة تزيد وتنقص، وطالما كان الإنسان حيًا فلا يُقطع بحكم دائم على إنسان ما - أو على نفسه - لأن الحكم لله وحده الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور وهو أعلم بنا من أنفسنا جل وعلا. ولقد ذكر القرآن الكريم نوعًا آخر من الأولياء، مختلفًا عن النوع الأول تمام الاختلاف - وذلك هو ولى الشرك المعبود من دون الله أو المعبود مع الله.

٢ - ونقطة البداية الفاصلة بين النوعين تتمثل فى أن المسلم الحق لا يزكى نفسه ولا يزكى على الله أحدًا. وقد نفذ المسلمون الأوائل تعليمات القرآن، وفى مقدمتهم الرسول صلى الله عليه وسلم .. فكان لا يفضل نفسه على الأنبياء (قل ما كنت بدعا من الرسل .. الأحقاقات ٩). ذلك أن الذى يملك الحكم على أفضلية الأنبياء وتفاضلهم فيما بينهم هو ربهم خالقهم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض .. البقرة ٢٥٣، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض .. الإسراء ٥٥)، فذلك هو الشأن فى الرسل خلاصة البشر والذين يوحى إليهم .. واتباعهم كانوا على طريقهم، فكان أبو بكر أو على إذا مدح قال (اللهم اغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى خيراً مما يظنون)، وقال عمر لمن اتنى عليه (اتهلكنى وتهلك نفسك)، وكان عمر يقول (لو نادى مناد ليادخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخفت أن أكون ذلك الرجل)، وقبله أبو بكر قال (لو كانت إحدى قدمى فى الجنة لم آمن مكر الله تعالى) ..

وبعض الصحابة لم تفتنه مظاهر شهره مثل ابن مسعود - بعد موت الرعيل الأول من كبار الصحابة - فكان إذا خرج من منزله يتبعه ناس، فبالتفت إليهم قائلاً (علام تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعوني منكم رجالان). وهذه أخبار مروية عن الصحابة، تؤيدها مرويات أخرى منسوبة للنبي، يقال أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن مدح رجلاً أمامه (ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح، ثم قال: إن كان أحدكم لا يد مادحاً فليقل احسب فلاناً ولا أذكرى على الله أحداً، حسيبه الله إن كان برى أنه كذلك ..) وفي حديث آخر رواه مسلم يقال أنه صلى الله عليه وسلم (سمع قائلة تقول لطفك مات (هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة) فغضب وقال: وما يدريك أنه كذلك. والله إني رسول الله وما أدري ما يصنع بي، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لها لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم) وعندما مات عثمان بن مظعون قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، يقال (فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال (وما يدريك أنه كذلك) فكانت أم سلمة تقول بعد ذلك (والله لا أذكرى أحداً بعد عثمان). وفي حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه (هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله) وينسبون للنبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لها (وما يدريك، لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره...).

وفي حديث آخر يخبر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول (هنيئاً لك الجنة) وينسبون للنبي قوله (من هذه المتألية على الله تعالى)؟ فقال المريض: هي أمي يا رسول الله وزعموا أن النبي قال (وما يدريك لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل مما لا يغنيه..) وهذه الأقوال المنسوبة للنبي -والله أعلم بها- فيها النهي عن تزكية الناس للمتوفى مهما بلغت مكانته، وتأسياً على ذلك كان محمد بن علي (ابن الحنفية) يقول: والله لا أذكرى أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي الذي ولدني ..

٣ - أ) فالصوفية حين اعتبروا أنفسهم أولياء الله وصفوة خلقه قد وقفوا في خطيئة تزكية النفس وهي بداية الشر .. وقد بدأ اليهود في تزكية أنفسهم فزعموا أنهم أولياء

الله فتحدهام الله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين .. الجمعة ٦) ومشركو قريش ادعوا أنهم أولياء الله لقيامهم بأمر الكعبة وشئون الحجيج فقال تعالى فيهم (وهم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون .. الأنفال ٣٤) ..

(ب) ثم جاء الصوفية ينهجون نفس الطريقة في اعتبار أنفسهم أولياء الله وخاصته من دون خلقه، وصار عادة سيئة عند محققى الصوفى أن يفتتح الحديث بتزكية الأولياء الصوفية. يقول القشيري في مقدمة رسالته الشهيرة (أما بعد رضى الله عنكم، فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وقضلهم على الكافة من عبادته بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامهم عليه، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم من بين الأمة بطوابع أنوارهم، ففهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورفقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووقفهم للقيام بأداب العبودية، واشهدهم مجارى أحكام الربوبية فقاموا بآداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصرف ..) فالقشيري المعتدل الداعية لربط التصوف بالإسلام تطرف في مدح الصوفية إلى أن أسبغ عليهم الألوهية فقال عنهم (فهم الغياث للخلق) أي من يغشون الخلق عند النوازل، ونفى عنهم صفات البشر في قوله (صفاهم من كدورات البشرية ورفقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية)، ووصفهم بالتصرف في ملك الله باعتبارهم آلهة مع الله، يقول (واشهدهم مجارى أحكام الربوبية فقاموا بآداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصرف ..).

(ج) ويقول الطوسي في مقدمة كتابه (اللمع) (الحمد لله الذى خلق الخلق بقدرته ودلهم على معرفته ... واختار منهم صفوة من عبادته وخيرة خلقه، خص منهم من شاء بما شاء كيف شاء ...)، وهو وصف عام جعله خاصاً بالصوفية حين قال (إن هذه العصاة -اعنى الصوفية- هم أمناء الله جل وعز في أرضه، وخزنة أسرارهم وعلمه، وصفوته من خلقه، فهم عبادته المخلصون، وأولياؤه المتقون، وإحباؤه الصادقون

المخلصون)، وقال (الصوفية هم محل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، سالفًا ومستأنفًا...) (١).

د) وفي (إحياء علوم الدين) بدأ الغزالي كتاب المحبة والشوق بقوله (الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه من الالتفات إلى زخارف الدنيا، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه...) (٢).

فالغزالي يحمد الله لأنه اتخذ من الصوفية أولياء ليتحدوا به ويتجلى عليهم بأسمائه وصفاته .. وبدأ كتاب الآداب والألفة بقوله (الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولاً وامتناناً) (٣). وقد يقال أن هذا القول عام، وقد لا ينطبق على السوفية، ولكن الغزالي يقول في المنقذ من الضلال ونقله عنه العبدروس (إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .. بل أن الغزالي يقول عن الصوفية الراقصين في السماع والمستمعين للغناء (أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته، واستخلصهم من بين أصفياه وخاصته) (٤).

هـ) ويقول السهرودي في (عوارف المعارف) في المقدمة (.. فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه .. ثم ألبس قلوب الصلوة من عباده ملابس العرفان، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة، ومرائي قلوبهم بنور القدس مجلوة، فتهيأت لقبول الامداد القدسية، واستعدت لورود الأنوار العلوية .. واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت وامتدت إلى المعالي أعناقها، وطمحت إلى اللامع العلوي أحداقها، واتخذت من الملأ الأعلى مسافراً ومحاوراً، ومن النور الأعز الأقصى مزاوراً ومحاوراً، أجساداً رصينة بقلوب سماوية، وأشياخ فرشية بأرواح عرشية..

(١) اللمع ١٩، ٤٠. (٢) إحياء ج ٤/ ٢٥٢، ج ٢/ ١٣٨.

(٣) تعريف الإحياء ٤٧ على هامش الإحياء.

(٤) إحياء ج ٢/ ٢٢٦ : ٢٢٧.

لأرواحهم حول العرش تطواف، ولقلوبهم من خزائن البر اسعاف... وهو تلميح بالاتحاد الصوفى بالله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ..

و) ويقول الياقعى -فى العصر المملوكى- فى مقدمة كتابه (روض الراحين فى حكايات الصالحين) (الحمد لله الذى خص بفضل العظم من اصطفاه للحضرة القدسية، وصفاه من كدورات الصفات النفسية .. ونور قلوب أوليائه بنور معرفته وسقاهاهم بكأس محبته تجلى لهم فشاهدوا جمال المحبوب .. وأجلسهم على بساط الأنس مقربين فى حضرة القدس وصرهم فى ملكه، فهم الملوك فى الحقيقة فى جميع البلاد .. أما بعد فإننى لما كنت محباً للأولياء الصالحين وعاشقاً للصوفية العارفين .. إلخ).

ز) ويقول ابن عطاء السكندرى فى مقدمة لطائف المنن (الحمد لله الذى فتح لأوليائه باب محبته، وانشط نموسهم من عقال القطيعة .. وأمد عقولهم بنوره .. متع أسرارهم بقرية بخطفات جذبه فتحققوا بشهود أحديته، أخذهم منهم وانفاهم عنهم، غرقوا فى بحار هويته ..).

ويقول أيضاً فى مقدمة التنوير (الحمد لله الذى خلع على أوليائه خلع أنعامه .. واختصهم بمحبته وأقامهم فى خدمته .. وفتح لهم أبواب حضرته ورفع عن قلوبهم خجاب بعده .. ولاطفهم بوده، وآمنهم من إغراضه وصدّه، ونور بصائرهم بفضل طهر شرائرهم وأطلعهم على السر المصون ..)

ونقل الشعرانى مقالة ابن عطاء السابقة فى صدر كتابه الطبقات الكبرى

ح) ويلاحظ أن عبارات الاتحاد أوضح وأصرح فى وصف الصوفية فى العصر المملوكى .. حتى أن عبد الصمد الأحمدي - فيما بعد - استغرق همه مدح الهدوى فقال فى مقدمته عن مناقب الهدوى (الحمد لله الذى اطلع الأنوار الأحمديّة فى سما ، الشهود ، وجلا جمالها فى مرآة الوجود، فأشرقت أنوارها حتى اقتبس منها كل موجود، واكتسب من كمال جمالها من هو من أهل الكلام والكمال والقبول والإقبال معدود، أحمده أن أوانا إلى ركن شديد قوى، وانهلنا من المنهل العذب الأحمدي الروى...، واشهد أن لا إله إلا

الله وحده لا شريك له، شهادة عبد آمن بكرامات الأولياء، وتعالى في التقاط فرائد الأصفياء ..)

فصاحبنا يحمد الله لأنه اطلع أنوار البدوي الإلهية ليقبض منها كل موجود النور والكمال، ثم يعيد الحمد لله أن جعله يركن للبدوي من دون الله، ثم يصرح بشهادة أن لا إله إلا الله مع المفهوم من كلامه أنه تألية للبدوي مع الله، أى أنه جمع بين المتناقضات! ط) ولم يكتف الصوفية بذلك بل قاموا بتأليف كتب خاصة تحوى تمجيد أسيادهم وسرد مناقبهم وقص كراماتهم والتنويه بألوهيتهم، فعرف العصر المملوكى كتب المناقب الصوفية مثل (لطائف المنن فى مناقب أبى العباس وشيخه أبى الحسن)، ومناقب الزقاعى ومناقب البدوي ألفوا فيها ثلاث كتب أو أكثر .. وهكذا .. بل أن بعض الصوفية كالشعرانى أراد أن ييسر الأمر على من يأتى بعده، فألف فى مناقبه وهو حى كتاب (لطائف المتن) وليعلم أهل عصره بدرجة فى العلم والعمل كما صرح فى مقدمة (لطائف المنن) .. وله (المنن الصغرى) وهو مخطوط على نسق (المنن الكبرى) ..

٤ - واعتبار الصوفية أنفسهم أولياء الله واصفياء يدخل فى نطاق التمنى على الله .. ودعاوى التمنى على الله عرفها بعض أهل الكتاب قبل الإسلام (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .. البقرة ١١١) وحذر الله المؤمنين وأهل الكتاب من هذا التمنى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً .. النساء ١٢٣)، فقد وقع المنافقون فى التمنى على الله ففوجئوا بالنار وحرموا من الجنة (ينادونهم ألم نكن معكم؟ قالوا بلى. ولكنكم فتنتم أنفسكم، وتربصتم، وارتبتم، وغرتكم الأمانى، حتى جاء أمر الله، وغرکم بالله الغرور .. الحديد ١٤) ..

وواضح من النصوص القرآنية السابقة أن الأمانى السابقة تمثلت فى الفوز بالجنة والنجاة من النار، أى أمانى بشرية، أما أمانيات الصوفية فهى أكبر من الجنة والنار .. إن منياتهم هى الاتحاد بالله والترفع عن جنته والاستهانة بناره .. يقول أبو سليمان الداراني

(إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة...) (١). وقالت رابعة العدوية (ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً لجنته، فأكون كالأجير السوء) (٢). وقال أبو يزيد البسطامي (لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل (أى التصوف) ويعلق الغزالي على مقالته بقوله: وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات) (٣). وقال الجنيد (حرم الله تعالى المحبة - أى الاتحاد الصوفى - على صاحب العلاقة، كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة) (٤). والعوض مقصود به الجزاء .. أى الجنة.

وقال ذو النون (أرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة) (٥). فالصوفية يفضلون أنفسهم على المؤمنين الذين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .. السجدة ١٦)، فالمؤمنون يدعون ربهم خوفاً من النار وطمعاً في الجنة ويفضل الصوفية أنفسهم على الملائكة التى تخشى عذاب ربها (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .. النحل ٥) (وهم من خشيته مشفقون .. الأنبياء ٢٨) .. ويفضل الصوفية أنفسهم على الأنبياء والرسل المقربين عليهم السلام فقد قال تعالى عن رسله المذكورين فى سورة الأنبياء .. إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً أى رغباً فى الجنة ورهباً من النار ورسولنا عليه الصلاة والسلام كان يخاف عذاب ربه (إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم .. الأنعام ١٥، يونس ١٥)، ومعنى ذلك أن الصوفية يجعلوا من أنفسهم أنداداً لله يطلبون الاتحاد به، ويتركون الجنة والنار للبشر.

٥ - واتخاذ أولياء لله من دون الله أى بلا اختيار منه ولا تعيين - فيه افتراء على الله العلى القدير، وظلم عظيم له جل وعلا.

(١)، (٢) احياء ج٤/ ٢٦٦.

(٣) احياء ج٤/ ٢٢٧ : ٢٢٨.

(٤) احياء ج٤/ ٣٠٨.

(٥) احياء ج٤/ ٣٠١.

أ) فهو اجترأ على علم الله تعالى .. فالصوفية يدعون أنهم قد اطلعوا على علم الله وعلى ما يختاره من بين عبادہ، وزعموا أنه اختارهم دون غيرهم، مع أن الله لم يطلعهم على علمه .. وليس معهم برهان علي هذا الزعم.

ب) وهو تدخل في اختيار الله تعالى، وادعاء بالتسلط على إرادته، وفرض لأهوائهم على مشيئته حيث يختارون بأنفسهم الأولياء - ويجعلون أنفسهم الأصفياء لله ثم يدعون أن ذلك هو اختيار الله تعالى وتلك إرادته، فيسلبون اختيار الله تعالى في شيء يتعلق بذاته وجلاله، والله تعالى مطلق الإرادة (إن الله يحكم ما يريد .. المائدة ١) (إن ريك فعال لما يريد .. هود ١٠٧)، (إن الله يفعل ما يريد .. الحج ١٤). والله تعالى بإرادته المطلقة يمن على من يشاء من عبادہ، ويستحيل عليه عقلاً أو نقلاً أن تملى عليه طائفة من خلقه إرادتها، (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .. آل عمران ٧٣، ٧٤)، (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده .. إبراهيم ١١) (نرفع درجات من نشاء .. يوسف ٧٦) فالمشيئة راجعة إليه وحده في الاختيار والتخصيص فهو الخالق والمسيطر على خلقه (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون .. القصص ٦٨).

ج) ثم إن الصوفية لم يكتفوا بتزكية نفوسهم بالتقوى والولاية وإنما اشتطوا فادعوا مالم يخطر ببال نبي ولا رسول .. ادعوا الألوهية .. ودعوا الناس لتقديسهم والاعتقاد فيهم، والتوسل بهم في الدنيا والآخرة، والتماس بركاتهم، مع أن مجرد تقديس الولي الصوفي أو غيره فيه ظلم عظيم لله تعالى وافشاء عليه ووصف له بالعجز والظلم .. تعالى عما يصفون.

فكانهم وصفوا الله تعالى - بالعجز - حيث أوكل للصوفية مهمة اختيار أولياء له يتحكمون في ملكه من دونه، فلم يجعلوا له شأنًا في الاختيار ولا في التصريف، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .. وكانهم وصفوا الله تعالى بالجهل - حيث لم يستطع أن يميز فيما بين مخلوقاته من يستحق الولاية منهم ومن لا يستحق، فلجأ إليهم وإلى علمهم ليختاروا له .. ثم رضى باختيارهم لأنفسهم - تعالى عن ذلك - وكانهم وصفوه - تعالى -

بالظلم.. حيث فضل نفرأ من خلقه بدون استحقاق وجعل لهم اختصاصات ومميزات .. وحرم منها الآخرين بل جعلهم مسخرين لأولئك الأولياء، وإن فاقوهم فى الإيمان والتقوى .. يعبر عن ذلك الياقعى الصوفى فى العصر المملوكى بقوله (قيل مثل الصالحين ومازينهم الله به دون غيرهم مثل جند قال لهم الملك تزينوا للعرض على غداً فمن كانت زينته أحسن كانت منزلته عندى أرفع، ثم يرسل الملك فى السر بزينه من عنده ليس عند الجند مثلها إلى خواص مملكته وأهل محيته فإذا تزينوا بزينه الملك فخروا على سائر الجند عند العرض على الملك..)^(١). فالأتقياء من غير الصوفية هم الجند فى نظر الياقعى، والصوفية هم خواص الملك وأهل محيته، والملك يخدع الجند المخلصين ويؤثر الصوفية عليهم.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

تأليه الولى الصوفى

١ - حدد القرآن الكريم سمات الولى فى عقيدة المشركين - وهى سمات تنطبق على ولّى التصوف من خلال مصادر التصوف. ومنها أنه يُتخذ من دون الله أى يقوم الناس باختياره يدافع من ذاتهم ووحى أهوائهم، ثم يفرضونه على الله ويجعلونه ولياً لله تعالى، ويقصدونه بالتقديس والعبادة - التى من المفروض أن يتجهوا بها لله وحده .. فمن سمات ولّى الشرك (أنه يتخذ من دون الله) وقد عرضنا لهذه النقطة آنفاً ..

ومن ملامح ذلك الولى المعبود من دون الله أنه قد يكون بشراً مثل اتباعه إلا أن الأساطير ودعاوى التصريف والكرامات تتضخم حوله وفى قلوب أتباعه فيزدادون فيه اعتقاداً وتقديساً ..

يقول تعالى عن الولى البشر المعبود من دون الله (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء أنا اعتدنا جهنم للكافرين نُزُلًا .. الكهف ١٠٢). وفى الآية اتخاذ الذين كفروا لعباد مثلهم، وجعلوهم أولياء، وذلك بلا اختيار من الله، ونحو ذلك فى قوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم .. الأعراف ١٩٤).

(١) رياض الرياحين ٣٦.

وقد يكون ذلك الولي المقدس مدفوناً في قبر وأصبح مجرد تراب لا ينفع ولا يضر بل ولا يدري متى يبعث من قبره، يقول تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . النحل ٢٠، ٢١) ..

٢ - ويعد نزول القرآن بقرنين من الزمان جاء الصوفية بدينهم الجديد، فحولوا معنى الولي الإسلامي من مجرد الإيمان والتقوى والصفات العامة إلى كهنوت خاص بهم دون غيرهم وجعلوه جزءاً من الله طبقاً لعقيدة الاتحاد الصوفية .. يقول أبو العلا عفيفي (لم تخرج كلمة ولي في القرآن عن معناها اللغوي البسيط، ولكنه تطور تطوراً عجيبياً على أيدي الصوفية والشيعية فتحوّلت عن معناها القرآني الذي هو النصرة والحماية اللتان يمنحهما الله عباده المتقين إطلاقاً إلى نصرة طائفة خاصة لها شروط وعلامات، وبعد أن كانت حقاً مشاعاً لجميع المسلمين أصبحت قاصرة على نفر تنتقل إليهم تنقلًا وراثيًا .. والولاية مرتبة لا يصل إليها الولي بأعماله ومجاهداته وإنما هي منحة إلهية يمنحها الله من يشاء من عباده .. وقد يكون الولي على حظ كبير من العبادة وقد لا يكون ولكن صفة واحدة يشترطونها فيه : أن يكون مجلوباً قانياً مع الله^(١) . والفناء في الله هو الذوبان في الذات الإلهية والاتحاد بها، ولقد كان تأليه الولي الصوفي تجسيداً حياً للعقيدة الصوفية القائمة على الاتحاد الذي طبقه العصر المملوكي . ولامح تأليه الولي الصوفي في العصر المملوكي كثيرة ومتشعبة، وسنحاول تجميعها في عناصر محددة، ونحاول أن نربطها بجذورها الصوفية الأولى ..

لامح تأليه الولي الصوفي

(أ) الدعوة إلى الإيمان بالولي الصوفي :

المسلم مطالب بالإيمان بالله ورسوله .. وشهادة التوحيد تنص على الإيمان بالليو تعالى والكفر بما عده من آلهة، والإيمان يرسل الله عليهم السلام .. والرسول يشر ومهمته محددة، بتبليغ الرسالة، وإمكاناته ومحدودة بطاقات البشر ..

(١) أبو العلا عفيفي : التصوف ٢٩١ : ٢٩٢، ٢٩٥ .

وكان محمد عليه السلام خاتم الأنبياء عليهم السلام .. والصوفية العاديون لم يدعوا النبوة - فمعنى أن يطلبوا منا الإيمان بهم كأولياء لنا، أنهم يطالبوننا بالاعتقاد فيهم - وهذا مصرح به في وصف الصوفي في العصر المملوكي، وهذا الاعتقاد في صوفي ما أن نعتقد في تصريفه في ملك الله وفي نفوذه السماوي . أي نعتقد الوهيته وذلك يتناقض مع شهادة لا إله إلا الله التي تقتصر الألوهية على الله وحده، وتنفي وجود الشريك والمساعد للمولى المقدس، وتثبت أن لله تمام الحكم والسيطرة على ملكه، وقبل نزول القرآن كان الإيمان بالأولياء مطلقاً ولا يتناقض مع الإيمان بالله، بل كان المشركون لا يتصورون إيماناً خالصاً بالله .. فلما إيمان بالله والمولى وإما لا .. يقول تعالى مخاطباً أولئك يوم القيامة (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا .. غافر ١٢). وكانوا يعبدون الأولياء لتقريبهم لله تعالى زلفى (الزمر ٣).

٢ - ثم جاء تدين التصوف فيما بعد داعياً للإيمان بالمولى والاعتقاد في نفعه وضره.. بنفس ما كان عليه العرب في الجاهلية.

أ) يقول الغزالي في ترتيب درجات الاعتقاد إن الاعتقاد يزداد (بما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماعهم وحيثاتهم في الخضوع والخوف والاستكانة)^(١)، ويقصد بالصالحين الأولياء الصوفية فخر القائل (من لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محباً لأولياء الله مؤمناً بهم فمعي أن يعشر مع من أحبه)^(٢). أي أنه قسم الفائزين إلى أولياء ومؤمنين بهم يخشون معهم ..

ب) وفي العصر المملوكي حيث أصبح التصوف التدين الفعلي للدولة، صار الاعتقاد في الأولياء هو الشهادة الرسمية للدخول في الإسلام، حيث اضحى الإسلام مجرد رسم وشكل مظهرى تمارس من خلاله شعائر التصوف ومعتقداته المضادة للإسلام .. فعندما أسلم أحمد بن هولاكو بعث برسالة رسمية إلى المنصور قلاوون يقر فيها بالاعتراف (بوحداية الله والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام، بصدق نبوته،

٨٣/١ ج١ (١) أحياء ..

٣٠٥/٤ ج٢ (٢) أحياء ..

وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين^(١). ولم يعرف المسكين - الذى دخل الإسلام زوراً - أن الاعتقاد فى الأولياء الصالحين يزعمه ينفى إخلاص الدين لله تعالى .. ولكنها روح العصر الذى سوغت هذا التناقض، وسار على ذلك الناس، وأسلم ابن هولاكو على أيديهم..

ج) وترتب على الإيمان بالأولياء الإيمان ببركاتهم وتصريفهم حتى لم تخل تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) من عبت التصوف فادخل فيها الأولياء مع الله، وسجل ذلك كتاب رسمى بعثه النجاشى للسلطان جقمق سنة ٨٤٧ فقال فيه (ورحمته وبركاته عليكم أجمعين وبركات الأولياء والصالحين)^(٢).

٣ - وحرص الصوفية على دعوة الناس للإيمان بمؤهلاتهم الوهمية من علم لدنى غيبى وخلافه .. والغزالي أنهر الدعاة لهذا الإفك، وهو يدعو المسلمين الذين بقوا على إسلامهم إلى الإيمان بالعلم اللدنى الذى يعطاه الأولياء من لدن الله، يقول (أدنى نصيب من العلم اللدنى التصديق به والتسليم لأهله)^(٣). ويقول إن من لم تنكشف له حقائق العلم اللدنى (فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها، بل أقل درجات الإيمان التصديق بها)^(٤). وهو يقول (اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك فى نفسه قط فينبغى أن يؤمن به)^(٥). وقال عن معرفة العاروف بالقدر أو الغيب (.. فمن عرف السبب فى هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فأمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين)^(٦). أى المؤمنين بالصوفية وإمكاناتهم الإلهية .. والتمنكر طبعاً من الكافرين عند الغزالي .. وفى العصر المملوكى كان الخواص - الصوفى الأسمى - يقول عن كلام (أهل الحال) (تمجُّه العقول من حيث أفكارهم ولا تقبله إلا بالإيمان فقط)^(٧).

(١) سيرة المنصور. مخطوط محلد ١ لوحة ١.

(٢) التتر المسوك ٦٨. (٣) أحياء ج١/١٨.

(٤) أحياء ج٤/٤٢١. (٥) أحياء ج٣/٢٠.

(٦) أحياء ج٤/١٤٧. (٧) الجواهر والدرر ٢٦٤.

٤ - أ) ودعوة الصوفية الناس للإيمان بهم قوبلت بتسليم البعض فأصبحوا معتقدين، وبإنكار من الآخرين أو كفرهم بهم وانتقادهم، وقد اهتم المتصوفة بمجابهة إنكار أولئك على ولايتهم والتسليم بالوحيتهن كما لو أن الله تعالى خلق لهم البشر ليكونوا لهم عبيداً، ولا يكاد يخلو كتاب صوفى من الرد على المنكرين، وقد يقرن تقديس الولي في بداية الكتاب الصوفى بالخط على المنكرين كما يقول ابن عطاء في مقدمة التنوير والشعراني في مقدمة الطبقات الكبرى (الحمد لله الذي خلع على أوليائه خلع انعامه .. واختصهم بمحبته - إلى أن يقول : وسترهم عن أعين الفجار لأنهم عرائس ولا يرى العرائس المجرمون، فإذا مر عليهم ولي من أولياء الله تعالى ينسبونهم إلى الزندقة والجنون - فمنهم المنكر لكراماتهم، ومنهم المنتقص لمقاماتهم، وفيهم الثالب لأعراضهم ومنهم المعارضون، يعترضون على أحوالهم ويخوضون بجهلهم في مقالهم وبهم يستهزئون .. فسبحان من قرب أقواماً واصطفاهم لخدمته فهم على بابه لا يبرحون .. وسبحان من أباحهم حضرة قربه، والمنكرون عليهم عنها مبعدون، فالأولياء في جنة الغرب متنعمون، والمنكرون في نار الطرد والبعد معذبون) ..

ب) ويرى الشعراني أن (من أشد الحجاب عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة والمشاكلة)^(١). أى أن المنكر يرى أن الصوفى بشر مثله وعلى شاكلته فكيف يدعى الألوهية والولاية (ويطلب) منه أن يؤمن به .. وعلى ذلك (فإذا مر عليهم ولي من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون) ..

ج) ومع إيمان العصر المملوكى بالتصوف إلا أن بعض أفراد الصوفية لقوا إنكاراً من بعض معاصريهم فلم يؤمنوا بهم ولم يصدقوا بولايتهم، يقول الشاذلى (ولقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق، خصوصاً أهل الجدال فقل أن تجد منهم أحداً شرح الله صدره للتصديق بولى معين بل يقول لك : نعم نعلم أن لله تعالى أولياء وأصفياء موجودين ولكن أين هم، فلا تذكر لهم أحداً إلا أخذ يدفعه ويرد خصوصية الله تعالى له، ويطلق اللسان بالاحتجاج على كونه غير ولي الله تعالى)^(١) .. أى أنهم آمنوا بالتصوف كمبدأ ولم يؤمنوا بأشخاص الصوفية المعاصرين لهم :

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ج١/٦.

٥) وقارن الشاذلى بين الكفر بالله والكفر بالولى الصوفى، فجعل المنكر على الأولياء كالكافر بربه وجعل الإيمان بالولى كالإيمان بالله، يقول (لما علم الله عز وجل ما سيقال فى هذه الطائفة بدأ سبحانه وتعالى بنفسه فقضى على قوم أعرض عنهم بالشقاء، فنسبوا إليه زوجة وولداً وفقراً .. فإذا ضاق ذرع الولى أو الصديق لأجل كلام قيل فيه من كفر وزندقة وسحر وجنون وغير ذلك نادته هواتف الحق فى سره : الذى قيل فيك هو وصفك الأصلى لولا فضلى عليك، أما ترى أخوتك من بنى آدم كيف وقعوا فى جنابى ونسبوا إلى ما لا ينبغي لى ..)(١).

ب) أسماء وصفات إلهية للولى الصوفى :

١ - يقول الغزالى (إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق) يعنى أن الصوفى فى بدايته (تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له)(٢). أى يوصف بأسماء الله الحسنى .. وأسماء الله تعالى الحسنى اختص بها نفسه فهى أسماء وصفات إلهية لا تطلق - فى دين الإسلام - إلا على الله تعالى .. أما فى عقيدة الاتحاد الصوفية فالصوفى يتمتع بأسماء وصفات الهية يشارك فيها الله تعالى (قبل أن يقطع الطريق)، وبعدها يكون الاتحاد الكامل فى اعتقادهم.

٢ - وصار عادة صوفية أن تبدأ ترجمة الصوفى بذكر (أسمائه الحسنى) فيقال عن الشيخ أبى السعود أنه (القطب الغوث الفرد الجامع)(٣). ويقول ابن عطاء فى مقدمة لطائف المنن (أما بعد : فإنى قصدت فى هذا الكتاب أن أذكر فيه جملة فضائل سيدنا ومولانا الإمام قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين، منقذ الهالكين، الجامع من علم الأسماء والحروف والدوائر. المتكلم بنور بصيرته، الكامل فى السرائر، كهف الموقنين ونخبة الواصلين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها ومبدى أسرار اللطائف بعد غروبها، الواصل إلى الله، والموصل إليه، أبى العباس المرسى) ..

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ٩/١.

(٢) احياء ٤٤/١٧٦.

(٣) تحفة الأحياء ٤٦٥.

٣ - أ) والشعراني ترجم في طبقاته لأعلام الصحابة وجعلهم من الصوفية، إلا أنه اقتصر في وصفهم على الصفات الإنسانية الجميلة، فيقول مثلاً عن أبي بكر (اسمه عبد الله بن أبي قحافة .. ومناقبه أكثر من أن تحصى وكان يقول كذا ..) (١). ويقول في ترجمة عدي (واتفقوا على أنه أول من سدى أمير المؤمنين وأجمعوا على كثرة علمه وفور عقله وفهمه وزهده ..) (٢).

ب) بينما خلع على أشياخه الصوفية كل ما يحلو له من الصفات الإلهية، خاصة إذا كانوا له معاصرين فيقول في ترجمة أبي الفضل الأحمدي (.. ومنهم أخى وصاحبي سيدي الشيخ أبو الفضل الأحمدي رضى الله تعالى عنه صاحب الكشوفات الربانية والاتفاقات السماوية والمواهب اللدنية سمعت الهوائف تقول في الأسحار: ما صحبت مثل الشيخ أبي الفضل ولا تصحب مثله. كان رحمة الله عليه من أكابر الأولياء وما رأيت أعرف منه بطريق الله عز وجل ولا بأحوال الدنيا والآخرة، له نفوذ البصر في كل شيء، لو أخذ يتكلم في أفراد الوجود لضاقت الدفاتر، صحبتته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة ووقع بيني وبينه اتحاد) (٣). والاتحاد صفة أولوهية عندهم، ويقول في ترجمة محمد الجاولي (ومنهم الشيخ الإمام الكامل الراسخ الأمين على الأسرار، العارف بالله تعالى، الوارث الرباني، النوراني الفرقاني العياني، ذو المؤلفات الجليلة والصفات الحميدة والألفاظ الرشيقة .. إلخ) (٤).

ج) وترجم لأشياخ الطرق السابقين وهم وإن ماتوا إلا أن اتباعهم والاعتقاد فيهم يملأ عصر الشعراني فقال في ترجمة عبد الرحيم القنائي (هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين، صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة، له المحل الأرفع من مراتب القرب، والمنهل العذب من مناهل الوصل، وهو واحد ممن جمع الله له بين علمي الشريعة والحقيقة، واتاه مفتاحاً من علم السر المصون وكنزاً من معرفة الكتاب والحكمة ..) (٥).

(١)، (٢)، (٣)، (٤) الطبقات الكبرى على الترتيب ج١/١٥، ١٦، ج٢/١٥٦، ١٦٤.
(٥) نفس المرجع ج١/١٣٥.

ويقول في ترجمة الدسوقي (.. كان صاحب كرامات ظاهرة، ومقامات فاخرة، ومآثر ظاهرة، وبصائر باهرة، وأحوال خارقة، وأنفاس صادقة، وهمم عالية، ورتب سنية، ومناظر بهية، وإشارات نورانية، ونفحات روحانية، وأسرار ملكوتية، ومحاضرات قدسية، له المعراج الأعلى في المعارف، والمنهاج الأسنى في الحقائق، والطور الأرفع في المعالي، والقدم الراسخ في أحوال النهايات، واليد البيضاء في علوم الموارد، والباع الطويل في التصريف النافذ، والكشف الخارق، والفتح المضاعف في معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود، وأبرزه رحمة إلى الخلق وصرفه في العالم، ومكنه في أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات، وانطقه بالمغيبات، وظهر على يديه العجائب)^(١).

٤ - أ) والملاحظ أن صفات الولي تتزايد بعد موته إذا تزايد أتباعه وشاع الاعتقاد في ولايته وألوهيته وكتبت المناقب في مآثره ومحامده .. فقد ألف البتونوني في شيخه شمس الحنفي كتاب (السر الصفي في مناقب الحنفي)، وكان المؤلف من أصحاب الحنفي وقد وصفه بأنه (كنز الراغبين، عمدة الطالبين، قرة عين العابدين .. كهف الفقراء والمساكين، ذو العطاء والوجود، عين الوجود، قطب دائرة الكون)^(٢). وقد توفي الحنفي ٨٧٤ هـ، وجاء الشعراني فترجم له في القرن العاشر معتمداً على كتاب مناقبه، إلا أنه أفاض في وصفه تبعاً لزيادة الاعتقاد في الحنفي في القرن العاشر، يقول في ترجمته (كان رضي الله عنه من أجلاء مشايخ مصر وسادات العارفين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأفعال الفاخرة، والأحوال الخارقة، والمقامات السنية، والهمم العلية، صاحب الفتح المؤنق، والكشف المحترق، والتصدر في مواطن القدس، والرقى في معارج المعارف، والتعالى في مراقى الحقائق، كان له الباع الطويل في التصريف النافذ، واليد البيضاء في أحكام الولاية، والقدم الراسخ في درجات النهاية، والطود السامي في الثبات والتمسكين، وهو أحد من ملك أسرار، وقهر أحواله وغلب على أمره..، وهو أحد من

(١) الطبقات الكبرى ج١/١٤٣.

(٢) مناقب الحنفي مخطوط ٣.

أظهره الله تعالى إلى الوجود، وصرفه في الكون، ومكنه في الأحوال، وانطقه بالمغيبات، وخرق له العوائد، وقلب له الأعيان، وأظهر على يديه العجائب، وأجرى على لسانه الفوائد، ونصبه قدوة للطالبيين .. (١).

ب) وقد وصف ابن عطاء شيخه الشاذلي بأنه (علم المهتدين، زين العارفين، استاذ الأكابر، المنفرد في زمنه بالمعارف السنية والمفاخر، والعالم بالله والدال على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب، الغوث، الجامع) (٢). وانتشرت الطريقة الشاذلية وفروعها ونشرت الاعتقاد في الشاذلي فتضخمت صفاته فقيّل عنه في كتاب (المفاخر المآثر العلية والمآثر الشاذلية) في العصر العثماني (السيد، الأجل، الكبير، القطب الرباني، العارف، الوارث، المحقق بالعلم، الحمداني، صاحب الإشارات العليا، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والمنازلات العرشية، الحامل في زمانه لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين، كهف الواصلين، وجلاء قلوب الغافلين، منشىء معالم الطريقة، ومظهر أسرارها، ومبديء علوم الحقيقة بعد خفاء أنوارها، ومظهر عوارف المعارف بعد خفائها، الدال على الله، أوجد أهل زمانه علماً وحالاً ومعرفة ومقالاً، الشريف، الحسيب النسيب، ذو النسبتين الطاهرتين الروحية والجسمية، والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية، والوارثتين الكريمتين الملكية والملكوتية، المحمدي العلوي الحسني، الكريم العنصرين، فحل الفحول، أدام السالكين، ومعراج الوارثين الذي تغنيك سمعته عن مدح أو قول منتحل، الأستاذ، المربي، الكامل أبو الحسن الشاذلي) (٣).

٥ - أ) وقبل العصر المملوكي وضع الصوفية مفاهيم للولي العارف نابعة من عقيدة الاتحاد.. فقيّل عنه أنه (داخل معهم، بائن منهم) أو (عبد كان فيان) (٤). أي كان معهم بشراً ثم انقطع عن بشريته بالاتحاد بالله. أو (هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو

(١) الطبقات الكبرى ج٢/ ٨١.

(٢) لطائف المنن لابن عطاء ٧٩.

(٣) المفاخر العلية ٣ : ٤.

(٤) اللمع ٥٨.

به كل شيء^(١). أو (الذى لا تقله الأرض ولا تظله السماء)^(٢). وهو بالنسبة لله تعالى (لون الماء لون إنائه إن صببته فى إناء أبيض خلته أبيض وإن صببته فى إناء أسود خلته أسود .. وولى الأحوال وليه)^(٣). وقال الجنيد عن العارفين (ذهبوا عن وصف الواصفين)^(٤). فهى صفات إلهية ..

ب) وورد فى الإحياء إن (من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية)^(٥). وإن بعضهم - لم يحدد الغزالي اسمه - قال (إنى أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جلساً ينادى جلسه)^(٦). وذلك تصريح بالألوهية .. وتلك الصفات الإلهية التى خلعوها على الولى الصوفى جعلت بعضهم يترفع عن بعض مصطلحات الصوفية وأحوالهم البشرية ويقترب أكثر من ادعاء الألوهية الكامل فورد فى الإحياء أنه (قيل لبعض العارفين : إنك محب فقال : لست محباً، إنما أنا محبوب والمحب متعوب، وقيل له أيضاً : الناس يقولون أنك واحد من السبعة فقال : أنا كل السبعة، وقال بعضهم يعنى نفسه : ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه)^(٧).

والغزالي لم يعرفنا بأصحاب هذه الأقوال، والمهم أنه يعبر بها عن رأيه فى ألوهية الولى الصوفى. بل أكد ذلك شعراً يقول^(٨). (قيل فى وصف العارف) :

قريب الوجد ذو مرمي بعيد	عن الاحرار منهم والعبيد
غريب الوجد ذو علم غريب	كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت	عن الأبصار لا للشهيد
يرى الأعياد فى الأوقات تجري	له فى كل يوم ألف عيد

(١)، (٢)، (٣)، (٤) اللعم على الترتيب : ٥٦، ٤٨، ٥٧.

(٥)، (٦) أحياء ج ٤/ ٣٠٦، ٢٦٧.

(٧) أحياء ج ٤/ ٣٠٤.

(٨) أحياء ج ٤/ ٢٨٨.

وهي أوداف لا تليق إلا بالله .. واعتقد أن الغزالي كان يتخفى وراء كلمات (قيل لبعض العارفين) أو (قيل في وصف العارف).

٦ - وتلك الصفات الإلهية للولى الصوفى - وقد جاءت فى كتب صوفية معتدلة كاللمع والإحياء - من شأنها أن تؤثر عملياً فى وصف أشياخ التصوف فى العصر المملوكى. وتظهر فى مفاهيمهم عن الولى.. يقول الشاذلى (لكل ولى ستر أو استار نظير السبعين حجاباً التى وردت فى حق الحق تعالى حيث أنه لم يعرف إلا من ورائها، فكذلك الولى)^(١). وقال على وفا (زيارة العارف تذكر بالحق الذى لا يموت)^(٢). فقد زأوجوا بين صفات الله والولى الصوفى وأثبتوا المساواة بينهما حتى لقد قال المرسى (لو كُشف عن حقيقة الولى لُعبد (أى عبده الناس) لأن أوصافه (أى الولى) من أوصافه (أى الله) ونعوته من نعوته)^(٣). والمرسى متأثر بشيخه الشاذلى الذى جعل من الولى اسم الله الأعظم^(٤).. ثم كان التصريح بألوهيته الولى فى قول كاتب مناقب الوفائية (الفاحشة لا تصدر إلا ممن هو فى الصور البشرية وأما سادتنا رضى الله عنا بهم فهم مقدسون عن صفات الأبخار (جمع بشر) ولم يرهم فى صورة البشر إلا من هو بشر)^(٥). وقال (الوجود وما حوى ملك لسيدى)^(٦).

وكان شيخه على وفا يقول عن مريديه (لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً يتقرب إلى حقيقة حقه عندى بالتوافل حتى أحبه، ولو وجدته لواقفته بحقه فأحبته فكنت هو)^(٧). ويقول (لسان حال كل استاذنا ناطق بالحق المبين، يقول لكل مريد صادق تقرب إلى حتى أحبك، فإذا أحببتك رأيتك أهلاً لى، فظهرت فيك بما أنت مستعد له فافهم) فلم يكتف بادعاء الألوهية الكاملة بل ودعا المريدين إلى حبه وعبادته حتى يمن عليهم بالاتحاد بهم شأن تصويرهم لله فى عقيدة الصوفية ..

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/٧.

(٢) مناقب الوفائية مخطوط ٣٣.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/١٢، تعطير الأنفاس ٣٠٨.

(٤) تعطير الأنفاس ٢٨. ولطائف المنن لابن عطاء ٨٨.

(٥) مناقب الوفائية ٥٥. (٦) نفس المرجع ٧٠.

(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٥٥.

٧ - ومعلوم أن الأسماء الحسنى حق لله وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه.. وأسماء الله الحسنى، وصفاته الإلهية يتعبد المسلم بترديدها فى تسبيحه لربه (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون .. الأعراف ١٨٠) .. (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى .. الإسراء ١١٠)، ذلك شأن المسلم الذى يرفض أن تطلق صفة مقدسه أو اسم من أسماء الله الحسنى على غير الله تعالى..

وبعد .. فقد توسع الصوفية فى اسناد الفعل بعد الاسم، أى أنهم بعد أن اطلقوا على الأسماء والصفات الإلهية قاموا بإسناد أساطير وأولياتهم ليشاركوا الله تعالى فى ملكه وتصريفه فى ملكوته .. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(ج) الولي الصوفي بين السماء والأرض :

١ - يقول تعالى عن تمام سيطرته على الأرض والسماء (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم .. الزخرف ٨٤). وجاء الصوفية ينافسون الله فى ملكه فى الأرض والسماء .. يقول الغزالي (جميع أقطار السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وفنائه، فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف له مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة متزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظريتهم وسعة معارفهم .. ولا بدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم) (١).

٢ - وذلك التفاوت الذى أشار إليه الغزالي كان مبحث التناسخ والتزايد بين صوفية العصر المملوكى، كل منهم يسابق الآخر فى إعلاء درجته فى الأرض والسماء وما بينهما..

(أ) يقول الفرغل - وهو صوفى جاهل لا يحفظ القرآن الكريم - أنه (يعرف أزفة

(١) أحياء ج٤/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

السماء كما تعرف أم حسن الدلالة أزقة أبي تيج^(١). وأن السماء لم تحوه والأرض لم تطوه^(٢). ومعرفة (أزقة السماء) ادعاها ابن عنان^(٣). والنخال^(٤).

ب) ويقول الدسوقي أن الدنيا صارت في قبضة يده وهو ابن ست سنين (واكتشفت على شجرة المنتهى وأنا ابن احدى عشر سنة، وجلس على الكرسي وأنا ابن اثني عشرة سنة)^(٥). لذا قال عنه المناوي (إن قدمه لم تسعه الأرض .. وإن الدنيا جعلت في يده كالحاتم، وأنه جاوز سدره المنتهى، وجالت نفسه في الملكوت)^(٦).

ج) وقيل عن الرفاعي : (عروس الحضرة، نائم والدنيا في رجليه كفردة خلخال)^(٧). وقال عنه الشعرائي (كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السموات، ثم صارت السموات السبع في رجليه كالخلخال)^(٨).

د) وتروى بعض الروايات أن الشاذلي كان في السماء ثم هبط إلى الأرض (قال الشاذلي: قيل لي : يا علي اهبط إلى الناس ينتفعون بك فقلت : يارب اقلني من الناس فلا طاقة لي بمخالطتهم فقبل لي : انزل فقد اصحبناك السلامة ورفعنا عنك العلامة ..)^(٩). وحين ذهب المرسى للقاء للشاذلي (بعد أن هبط إلى الأرض طبقاً لتلك الأسطورة) - أخبره الشاذلي ثم قال له : (رُفعت إلى منذ عشرة أعوام)^(١٠).

٣ - وكان بإمكان الرلى الصوفى - بزعمهم - أن يطير بين السماء والأرض ربما لأتفه الأسباب، فالمرسى طار في الهواء ليستوثق من أن خادمه يقول له كذباً أنه سقى له حصانه^(١١).

(١)، (٢) مناقب الفرغل مخطوط ٣٤، ٢١.

(٣) أخبار القرن العاشر مخطوط ١٧٥.

(٤) طبقات الشاذلية ١١٨.

(٥) طبقات الشرنوبى مخطوط ٢.

(٦) الطبقات الكبرى للمناوى ٢٥٤ ب مخطوط.

(٧) عبد الصمد، الجواهر السنية ٤٩.

(٨) لطائف المنن ٤١١ ط.

(٩) تعطير الأنفاس ٣٧، المفاهير العلية ١٩.

(١٠) تعطير الأنفاس ٧٠.

(١١) تعطير الأنفاس ٢٤١.

وعرف في الكرامات الصوفية (الفقراء الطيارون) أو رواد الفضاء بالمصطلح الحديث، فقليل مثلاً إن الشيخ البسطامي أولم وليمة فاخرة للفقراء الطيارين، وجاءوا بالليل وتساقطوا من الهواء عليها واتهموها^(١)، وكان الأولياء الفقراء الطيارون يطيرون إلى بغداد للقاء عبد القادر الجيلاني^(٢)، وبعضهم كان ينقذ الأولياء الآخرين عند الحاجة كما حدث للشيخ حسن الطراوى الذي فقد ماء الوضوء فنزل عليه أحدهم من السماء (وفى عنقه قرية ماء مملوءة من بحر النيل)^(٣).

٤ - وطمح الصوفية لمزاحمة الرحمن تعالى في عرشه، يقول الشعراني (الأولياء تطمح أبصارهم حتى تحيط بالعرش)^(٤). وأبو العباس المرسى الذي كان يطير في الهواء - وصل في تطوافه إلى العرش، يقول (جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش، وهو رجل أشقر أزرق العينين)^(٥). وأعلن المرسى أنه يعرف العرش أتم معرفة فيقول (والله أنى لأعرف العرش كما أعرف كفى هذه)^(٦). وأطلق المرسى على تلميذه ياقوت الحبشى لقب (العرشى) نسبة للعرش فاشتهر بهذا اللقب فقليل فيه (سماء المرسى بالعرشى لأن قلبه دائماً كان ينظر إلى العرش، وليس في الأرض إلا بدنه)^(٧).

وعرف الصوفية التزايد في الإدعاءات حول العرش، فقد أعلن عبد القادر النقاد للشاذلى أنه رأى مقامه عند العرش، فقال الشاذلى - كأنه استقل ذلك - (هذه الطينة أرضية، والنفس سماوية، والقلب عرشى، والروح كرسى، والسر مع الله بلا أين، والأمر يتنزل فيما بين ذلك، ويتلوه الشاهد منه)^(٨). فلم يدع لله مجالاً معه في عرش أو كرسى.. وكان الخضرى - وهو صوفى مجهول (ت ٩٠٧) يقول (لا يكمل الرجل عندنا

(١) مناقب الحنفى ٣٨٩ مخطوط.

(٢) بهجة الأسرار ج١/٢١ مخطوط.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٦ مخطوط.

(٤) الجواهر والدرر ١٦٦.

(٥) المفاهير العلية ١٥.

(٦) تعطير الأنفاس ٢٧٣.

(٧) عيون الأخبار مخطوط ج٢/٤٤٢. الطبقات الكبرى للمناوى ٣٣٣.

(٨) لطائف المنن لابن عطاء ٧٥.

حتى يكون مقامه تحت قوائم العرش دائماً ، وتكون الأرض كلها بين يديه كالإناء الذى يأكل منه ، وأجساد الخلق كالبلور يرى ما فى بواطنها^(١) . وما دام ذلك الخضرى قد زعم احتلال قوائم العرش فبإمكانه حينئذ أن يدعى التحكم فى الأرض وسكانها .. وأراح الدسوقى نفسه من عناء المنافسة فأعلن (أنا العرش ، أنا الكرسي ، أنا اللوح ، أنا القلم ..)^(٢) . ويقى أن يقول صراحة (أنا الله)^(٣) ..

٥ - هذا .. والعرش الذى جعله الصوفية مجالاً لأهوائهم ، هو عرش الرحمن الموصوف بالعظمة والكرم شأن صاحبه تعالى (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم .. النمل ٢٦) (وهو رب العرش العظيم .. التوبة ١١٩) . (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم .. المؤمنون ١١٦) .. ووصف تعالى نفسه بأنه صاحب العرش (رفيع الدرجات ذو العرش .. غافر ١٥) ورب العرش (فسبحان الله رب العرش عما يصفون .. الأنبياء ٢٢) .

(د) الولى الصوفى لا يأكل ولا ينام ولا يختلط بالبشر :

١ - الأكل والشرب والنوم ضروريات بشرية .. وليس من صفات الخالق تعالى أن يأكل (قل أغير الله أتخذ ولياً؟ فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يُطعم .. الأنعام ١٤) ، وليس له أن ينام (لا تأخذه سنة ولا نوم .. البقرة ٢٥٥) ، وزاد الصوفية على ذلك العزلة عن البشر واجتنابهم طالما يطمحون للسمو فوق البشرية إلى الألوهية ..

وقد جعل الغزالي من صفات الولى : السهر والجوع والصمت والخلوة ليشابه الله أو على حد قوله (ليسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية)^(٤) . ويقول عن قلة النوم (إذا كان النوم بقدر الضرورة يكون سبب المكاشفة بالأسرار) يقصد العلم الإلهى اللدنى ،

(١) أخبار القرن العاشر ٦٣ مخطوط ، الطبقات الكبرى للشعراني ٩٨/٢ .

(٢) شمة - مسرة العينين ١٠ مخطوط .

(٣) يقول الدسوقى إن الله تعالى قال عنه (يا أولياء الله أشهدكم بالله إن من زاره فقد زارنى فإنه من نورى ..) جوهرة الدسوقى ١٠٣ .

(٤) أحياء ج٣/٦٥ : ٦٦ .

وعن الجوع يقول (مقصود المرید إصلاح قلبه ليشاهد ربه ويصلح لقربه .. أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رفته، ورقته مفتاح المكاشفة)، ويقول عن الخلوة (فائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر.. ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية)^(١). وهدفها (الاستئناس بمناجاة الله تعالى) والـ«متغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعى فراغاً»^(٢).

ولم يجد الغزالي دليلاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً فاستدل بأقوال الصوفية ومنها (من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت، أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية)^(٣).

وفي العصر المملوكي طبقت تعاليم الغزالي فيما يخص الاعتقاد فيمن يدعى العزلة وعدم الأكل والشرب مدة طويلة أو يشتهر عنه ذلك، فقليل مثلاً في ترجمة أبي على حسين الصوفي ٨٩١ أنه (مكث بخلوة في غيط خارج باب البحر أربعين سنة لا يأكل ولا يشرب وباب الخلوة مسدود ليس له إلا طاقة يدخل منه الهواء، ثم خرج بعدها وأظهر الكرامات والخوارق)^(٤). أي أنه بعد أن تخلص من (الحجاب) البشرى (الكثيف) خرج للبشر بمؤهلات الألوهية من كرامات وخوارق وتصريف في ملك الله تعالى ..

٢ - وصار تقليداً صوفياً أن يدعى الشيخ أو يشتهر عنه أنه امتنع عن الأكل والشرب أو النوم أو هما معاً مدة طويلة من الزمن قد تصل إلى أشهر وسنوات تبعاً لكمية الكذب التي تفيض بها الأسطورة .. فمعلوم أن طاقة البشر في الامتناع عن ضرورات الأكل والشرب والنوم محدودة بزمن معين، ومعلوم - أيضاً - أن الصوفية بشر فيسرى عليهم ما يسرى على البشر من خضوع لقوانين الله تعالى في خلقه .. وبهذا فإننا نحكم على تلك الروايات - قبل سردها - بأنها كاذبة لمناقضتها لقوانين البشر وتحملهم..

(١) إحياء ج٢/٣٦ : ٦٦.

(٢) إحياء ج٢/٢٠١ : ٢٠٢.

(٣) إحياء ج٢/٧٨ : (٤) شذرات الذهب ج٧/٣٥٠.

٣ - وقد قيل عن ابن خفيف أنه (ظل أربعين يوماً بلا طعام ولا شراب)^(١). و(ابن خفيف) هذا أمره (خفيف) فقد كان في بداية التصوف ولا يتحمل عصره أكذوبة أكثر من هذه .. ويمرور الزمن وانتشار التصوف وازدياد نفوذه ازدادت الأكاذيب ومدة الجوع فقيل عن ابن عمرو التباعي (ت ٧٠٢) أنه (كان يمكث الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وفي السنة التي توفي فيها أقام سبعة أشهر ماذا فيها طعاماً)^(٢). ربما لتأهيه للتأليه الكامل حتى يتضخم ضريحه ويكثر اتباعه بعد موته .. وجاء القرن التاسع فعد من كرامات ابن عرب الصوفي (ت ٨٣٠) أنه (أقام أكثر من عشرين سنة لا يشرب الماء أصلاً)^(٣).

٤ - وعن النوم قيل في الأحياء أن الحريري (مكث سنة بلا نوم ولا كلام)^(٤). وأن ابن عياش مكث أربعين عاماً (لا يضع جنبه على فراش)^(٥). أما في العصر المملوكي فقد تفاوتت الأرقام تفاوتاً عجبياً .. فيقال عن علي الكازروني ٩٦٠ أنه (ربما مكث الخمسة شهور أو أكثر لا يضع جنبه الأرض لا ليلاً ولا نهاراً)^(٦). وقد سأل الشعرائي شيخه الخواص عن قوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) هل خلق الله هذه الصفة على أحد من عياده المقربين فأجاب (نعم عيسى بن نجم الذي مكث سبعة عشر عاماً لم يغمض له جفن في ليل أو نهار)^(٧). وقيل عن سلمان الحانوتي (مكث نحو سبعة وثلاثين سنة لا يضع جنبه الأرض كما أخير بذلك)^(٨). وطبعاً قال فصدقوه .. وابن المؤذن (مكث أربعين سنة لا يضع جنبه على الأرض بالليل)^(٩). وطبعاً لا يضع جنبه الأرض بالنهار أيضاً .. أما على العياشي فقد (مكث نحو نيف وسبعين سنة لا يضع جنبه الأرض إلا من مرض شديد)^(١٠). وذلك المرض الشديد استثناء لطيف حتى تصدق أن انساناً يظل أكثر

(٢) النبهاني كرامات الأولياء ج١/١٣٧.

(٤) أحياء ج٤/٣٥٠.

(١) روض الرياضين ٥٨.

(٣) الضوء اللامع ج١/٢٠٩.

(٥) أحياء ج٤/٣٥.

(٦) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٦٣.

(٧) الجواهر والدور ١٤٠، ١٤١، ١٤٢.

(٨) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٦٩.

(٩) الشعراني- صحة الأخبار ٢٣٦.

(١٠) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٦٩.

من سبعين عاماً بلا نوم .. ويمكن أن تقول أن الشيخ خلف من أصحاب البدوى حطم كل تلك الأرقام القياسية فقد كان (لا يوضع جنبه الأرض ليلاً ولا نهاراً طيلة حياته)^(١)..

٥ - وبعضهم جمع بين الجوع والسهر والعطش أو اثنين منهما فقد قيل لأبى يزيد البسطامي (حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال : ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك، قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لتفسك فقال : وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه، قيل فحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك فقال نعم، دعوت نفسى إلى الله فجمحت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك)^(٢). فالبسطامى فى بدايته ترك الماء والنوم سنة، فكيف به بعد أن وصل ..؟؟

وقال الياقعى عن أحد أصحابه (وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه الأرض، ويمكث أياماً عديدة لا يأكل فيها شيئاً)^(٣).. وذكر فى مناقب البدوى أنه كان يطوى أربعين يوماً لا يتناول طعاماً ولا شرباً وفى أكثر أوقاته يكون شاخصاً ببصره إلى السماء^(٤). وعيسى بن تميم البرلسى قال المرقفى عنه أنه مكث سبعة عشر سنة (لا يأكل ولا يشرب ولا يتام، وهو على وضوء واحد)^(٥). أى لا يتغوط ولا يتبول .. فماذا بقى للبشرية فيه؟؟

(هـ) تقديس كلام الولى الصوفى :

عومل كلامه معاملة القرآن .. يقول الشعرانى عن شيخه الأمى الخواص (لا يمكننى استحضر جميع ما سمعته منه من العلوم والمعارف لكثرة نسبائى وضعف جنانى، فمن سمع من إخواننا شيئاً من أجوبة الشيخ فليكتبه بلفظ الشيخ خاصة، ولا يتصرف فى عبارته فإنه لا مرقى إلى فهم كلامه إلا من السلم الذى صعد منه الشيخ، وأنى لأمثالنا ذلك. وأسأل الله أن يحفظ لسانى وقلوبى من التزيغ عن مراده)^(٦). ويقول (فإذا علمت أن

(١) أحياء ج ٤/ ٣٠٤.

(٢) عبد الصمد. الجواهر السنية ٢٨.

(٣) الجواهر السنية ٦، ٧، ١٠.

(٤) روض الرياحين ١٧٩.

(٥) الشعرانى. تنبيه المفترين ١٣٠.

(٦) الشعرانى. تنبيه المفترين ١٣٠.

الجواب لا يدرك إلا ذوقًا ذكرت جوابه بلفظه من غير شرح لمعناه، نظير الحروف أول سور القرآن^(١).

ويقول حسن شمة عن رموز الدسوقي في وسائله (ويستحسن أن تكون سريرية وكل حرف منها يدل على أسماء على نمط فواتح السور)^(٢).
(و) إسناد علم الغيب للولى الصوفى :

١ - علم الغيب ملك لله وحده، استأثر به دون خلقه، إلا أن بعض الأنبياء قد يعطى علم بعض المغيبات تأييدًا له من الله تعالى وإظهارًا لبعض المعجزات. يقول تعالى للمؤمنين (وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء.. آل عمران ١٧٩).. ولا يد للرسول في المعجزة فلا تأتي منه بدافع ذاتي، وإنما هي أمر إلهي يظهره الله عليه لإثبات صدق تبليغه عن ربه، لذا فإن الرسول من جانبه لا يدعى علم الغيب، يقول نوح عليه السلام (ولا أعلم الغيب.. هود ٣٩)، ويقول محمد عليه السلام (ولا أعلم الغيب.. الأنعام ٥٠)، (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء.. الأعراف ١٨٨). ولو كان محمد عليه السلام يعلم الغيب -مثلًا- لما أصيب في أحد، ولما استشار، ولما وقع فيما استوجب عتابه في القرآن الكريم.. وأمر الرسول عليه السلام أن يقر بأنه لا يعلم بعض الغيب الذي علمه بعض الرسل قبله (قل إن أدري أقرب ما توعدون، أم يجعل له ربي أمدا، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول.. الجن ٢٦).. وإبراهيم عليه السلام بسبب جهله بالغيب لم يتعرف على الرسل الملائكة وظنهم بشرًا عاديين فقدم لهم الطعام (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلامًا، قال سلام، فما لبث أن جاء بحجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط.. هود ٦٩، ٧٠)..

(١) الشعراني، درر الغواص ٢.

(٢) مسرة العيشين مخطوط ورقة ٧٤ ب.

وحديث القرآن الكريم عن الغيب المسند لله يأتي بأسلوب القصر - وهو الأسلوب المتبع في الأمور العقائدية التي تخص الله وحده، كالألوهية مثل (لا إله إلا الله) ومستلزماتها من علم بالغيب وتصرف في الملكوت .. يقول تعالى (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله .. النمل ٦٥) (ولله غيب السماوات والأرض .. هود ١٢٣، النحل ٧٧) .. (له غيب السماوات والأرض .. الكهف ٢٦) .. ولتعلق الغيب بالله تعالى وحده كان المؤمن مطالباً بالإيمان به تبعاً لإيمانه بالله تعالى، يقول تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة .. البقرة ٣) ..

٢ - وقد ندد القرآن الكريم بإسناد علم الغيب للأولياء والألوهة المعبودة عند المشركين.. حتى أن بعض آيات اسناد الغيب لله تعالى وردت في معرض هذا التنديد الموجه للمشركين، يقول تعالى (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون .. النمل ٦٥) .. فالجاهليون اسندوا علم الغيب للأولياء فأخير الله تعالى بأنه لا يعلم أحد غيره الغيب، وأن هذه الأولياء الموتى لا تعرف حتى ميعة بعثها من القبور .. ويقول تعالى (له غيب السماوات والأرض، أبصر به وأسمع، هالهم من دونه من ولى ولا يشرك في حكمه أحدا .. الكهف ٢٦)، وهو تعريض بالمشركين الذين اعتقدوا في أوليائهم التصريف وعلم الغيب، ومثل ذلك قوله تعالى (ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله .. هود ١٢٣) .. وقوله تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون- أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون .. النحل ١٩ : ٢١) ..

٣ - ثم جاء الصوفية يسندون لأنفسهم علم الغيب، شأن المشركين السابقين، يقول الجنيد عن الولي الصوفي إنه (من نطق عن شرك وأنت ساكت)^(١) أى يعلم سريرتك وما تخفيه الصدور ..

وعلم الغيب متصل بعقيدة الاتحاد الصوفية، فالحجاب إذا زال عن قلب المصرقى واتحد بالله -في زعمهم- علم غيب الله وأدرك السر الإلهي .. يقول الغزالي (القلب قد

(١) الرسالة التفسيرية ٣١.

يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ، فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه، وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فإذا للقلب بابان.. باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمسة المتمسكة بعالم الملك والشهادة، وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة، فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك، وأما انفتاح بابه الداخلى إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علماً يقيناً بالتأمل من عجائب الرؤيا وإطلاع القلب فى النوم على ما سيكون المستقبل أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس، وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى^(١) ويقصد بهم الصوفية، فهو القائل (إن البحث عن الأسرار الإلهية لم يستقل بها إلا الأنبياء والأولياء)^(٢). وعن الحسنات والسيئات والعفو والتقوى يقول الغزالي (وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر)^(٣) واسند الغزالي علم الغيب لأولياء الصوفية كالخراز والشبلى وغيرهما^(٤)، وكما طالب الله المؤمنين بالإيمان بالغيب طالب الغزالي الناس بالإيمان بغيب الأولياء وعلمهم للذنى كما سبق فى مبحث الإيمان بالأولياء...

ونقل اليافعى عن الغزالي وغيره علم أشياخ الصوفية الأوائل بالغيب بل واسنده إلى صوفية مجهولين^(٥).

٤ - وفى العصر المملوكى - حيث ازدهار التصوف - أصبح علم الغيب أو الكشف - سمة لازمة للصوفى، ويوصف بها الولي بحكم العادة .. يقول الشعرانى ببساطة (من كُشف حجابيه من العارفين علم أحوال أهل الجنة علماً لا شك فيه، لخروجه عن حجاب بشريته)^(٦). أى أنه يعترف بأن الصوفى خرج عن بشريته - أى أصبح إلهاً - وعرف الغيب الذى لا يعرفه البشر العاديون ..

(٢) احياء ج١/ ٢٧.

(٤) احياء ج٢/ ٢٥٩، ج٣/ ٢١، ٥٨.

(٦) دور الغواص ١١.

(١) احياء ج٣/ ١٨.

(٣) احياء ج٤/ ٢٧.

(٥) روض الرياحين : ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٤.

٥ - وقد كان بعض الصوفية يتخرج من ادعاء الغيب الذي أوردته تعالى في سورة لقمان : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير .. لقمان ٣٤) .. على أساس أنها من خصائص الحق تعالى، وقد حاول الشعراي خرق هذه القاعدة الصوفية المعتدلة بحجة أن النبي عليه السلام ربما أعطى علمها - وهذا كذب فالرسول أقر بعدم معرفته الغيب - يقول الشعراي (وقيل أن النبي أعطى علمها وأمر بكتمتها فإن صح ذلك جاز أن يكون لورثته من بعده)^(١). والورثة هم الصوفية طبعاً .. (وزعم بعض العارفين أن في الآية اضمماراً للإستثناء فيطلع من اختصه)^(٢). وعلى ذلك عرف الشاذلي أنه سيموت في حميثرا واستعد لذلك^(٣).

٦ - ومن دواعي ادعاء الكشف عند الصوفية ذلك الإنكار عليهم الذي لازمهم، فالصوفي يحس أو ينتظر بادرة الإنكار عليه التي قد تظهر على وجه المنكر أو تشي بها حركاته فيسارع الصوفي بأخبار المنكر بما دار في عقله، فيقنع صاحبنا بأن الصوفية على حق في معرفتهم الغيب وينسى حقائق القرآن الكريم ..

وذلك ما تردد كثيراً في الأفاصيص الصوفية، واتخذ منه الصوفية تكة للإدعاء بالإطلاع على مكنون الصدور والتحذير من الإنكار القلبي عليهم منذ بداية التصوف فيقول أحمد ابن الحواري ت ٢٣٠ (احذر أيها المرید أن تجالس أحداً من الفقراء جواسيس القلوب، وربما دخلوا قلبك وخرجوا، فعرفوا ما فيه وأنت لا تعلم)^(٤).

وقد اتخذ العصر المملوكي من هذه الشهرة الصوفية بمعرفة السرائر حجة أخرى تضاف إلى رصيدهم في التعالي على العلماء، وفي نفس الوقت يتحاشون بها الإنكار عليهم، يقول الخواص الصوفي الأُمي (عليكم بحفظ لسانكم مع علماء الشريعة، وعليكم بحفظ قلوبكم مع الأولياء)^(٥). ويقول أفضل الدين الشعراي (عليكم بحفظ لسانكم مع

(١)، (٢) لطائف المنن ٤٢٩، ٤٣٠.

(٣) الإمام للتويزي مخطوط ج٢/٧٩.

(٤) الشعراي. قواعد الصوفية ج١/١٥٨.

(٥) هجر الغواص ٨١.

أهل الشرع فإنهم يوابون لحضرة الأسماء والصفاء، وعليكم بحفظ قلوبكم من الإنكار على أحد من الأولياء فإنهم يوابون لحضرة الذات، وإياكم والانتقاد على عقائد الأولياء^(١).

أى أن العلماء مجالهم الظاهر أما الأولياء فهم أرباب القلوب ولا مجال للإنكار على عقائدهم..

٧ - وتسابق الأولياء الصوفية فى دعوى مختلف الغيوب فأفضل الدين الشعرانى السالف للذكر كان يقول (بواطن هذه الخلائق كالبللور الصافى أرى ما فى بواطنهم كما أرى ما فى ظواهرهم)^(٢). أى أنه ينظر من مرتبته الإلهية إلى (بواطن هذه الخلائق) وهى (كالبللور الصافى) لا تخفى عليه، ومثله محمد الخضرى وإن زاد عليه فى نظره للأرض جميعاً والخلائق معها يقول (الأرض بين يدى كالإناء الذى أكل منه وأجساد الخلق كالقوارير أرى ما فى بواطنهم)^(٣).

وإذا كان بعضهم قد تحرج من ادعاء الغيب الذى ورد فى سورة لقمان فإن على وفا خرق هذه القاعدة وادعى أنه الله كان يطلعه على ما فى الأرحام أو على حسب تعبيره (ما من نقطة توضع فى رحم بيد ملك مخلقة أو غير مخلقة إلا وقد أطلعنى الله عليها)^(٤). ويلاحظ أنه استخدم أسلوب القصر المستخدم فى قصر الغيب على الله تعالى فى الآيات القرآنية، ثم أفاد العموم بتنكير (نطفة) و (رحم) فكل نقطة توضع فى كل رحم (سواء كان يشرراً أو حيواناً) لا بد أن يطلع الله الشيخ على وفا عليها!!..

ويقول المتبولى (لا تنزل قطرة من السماء ولا يطلع نبت من الأرض إلا علمت به، وعزة ربي هذا أمر أعطيته وأنا طفل)^(٥). فهنا تجديد قال به المتبولى فى دعواه، وهو

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/١٥٨.

(٢) نفس المرجع ج٢/١٥٨.

(٣) نفس المرجع ج٢/٩٨.

(٤) مناقب الوفاية - مخطوط ٤٣.

(٥) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٢٣٧ ب، ٣٣٩.

معرفة الشاملة بكل قطرة مطر وكل نبتة شجر .. وإن ذلك العلم الإلهي قد حظى به مذ
كان طفلاً يتبول على نفسه !!..

وقد تفوق على المتبولي صوفى آخر من الفقراء الطيارين (رواد الفضاء) يقول
(أعطاني الله أنه لا يسقط حيوان من يطن أمه من جن أو انس ووحش وطيور وغيرها، ولا
تخرج ورقة من نبات الأرض إلا ويعلمنى بذلك قبل ظهوره .. وعزة ربي قد اعطاني الله
هذا وأنا دون البلوغ)^(١). وإذا كان ذلك دون البلوغ فكيف به وقد خط شاره؟؟ وكيف
وصل تحكمه وعلمه في ملك الله بعد أن بلغ من الكبر عتياً؟؟ وسبق المرس الجميع حين
ارتفع فوق الأولياء يقول (والله الذي لا إله إلا هو ما من ولي لله كان أو هو كائن إلا وقد
اطلعني الله عليه..)^(٢).

٨ - وكانت المبالغة الطابع السائد في وصف ولاية الصوفى بعد موته، وحينئذ ينال
من العلم بالغيوب أعلى الدرجات. ف قيل عن أبي السعود بن أبي العشائر (حدث بإيضاح
أحوال الملوك، وأسماء الملك، وأحوال الآخرة، وتفاوت المنازل والدرجات، وأوزان
الرجال، ومراتبهم من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، يذكر له الرجل في المغرب أو في
مطلع الشمس فيذكر صورته ووزنه، وما من شيء طرق الأسماع خبره ولا من الغيوب إلا
والشيخ أبو السعود يوضح كيف اطلع، وأنه في كل صباح يطلع على أرواح الخلائق، وأنه
له نوبة كاسات تضرب له في الأرض وفي كل سماء وعلى العرش)^(٣).

فماذا بقي لله تعالى في الأرض والسماء والعرش والخلق وعلم الغيب؟؟!

هذا .. وواضح أن الصوفية السابقين يزاحمون الله تعالى في وصفه لنفسه بقوله
تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من
ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين..
الأنعام ٥٩).

(١) الطبقات الكبرى للمناوي مخطوط ٢٣٧ ب، ٣٣٩.

(٢) لطائف المنن ٩٥.

(٣) ابن الزيات.. الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ٣١٦ : ٣١٧.

٩ - بيد أن المبالغة في تضخيم مقدرة الولي على معرفة الغيب أوقعت الصوفية أحياناً فيما يستوجب السخرية، ونقصد سخرية القاريء اليوم لا في العصر المملوكي حيث كان ينظر بالتقديس إلى الولي الصوفي ومبالغاته مهما تضخمت .. فقبل مثلاً أن الفرغل كان يخبر بالمغيبات ويقول (والله لولا لسان الشريعة لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم^(١)). فالفرغل يحتاج بحجة الشريعة حتى لا يشب عليه الجهل بالغيب حين يخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون فيحكمون على كذبه وإدعائه .. ثم أين الشريعة واحترامه لها حين يدعى لنفسه علم الغيب؟ ثم أين هو من الشريعة وقد كان جاهلاً لا يقرأ القرآن^(٢).

وذكر في مناقب البدوي أن هلال مثذنته ينبيء بالأخبار فنقل عن الشعراني أنه قال (ومما رأيته أني كنت جالساً على سطح المقام (مقام البدوي) وقت الزوال فرأيت هلال قبة سيدي أحمد البدوي رضى الله عنه يدور ويزعق كالحجر العظيم من حجارة المعصرة الذي ليس تحته حب، فدار نحو ثلاث دورات، ثم جاء الخبر بنصرة السلطان سليمان بن سليم من آل عثمان على أهل رودس في ذلك الوقت، وكذلك ما سمعنا تاهوته يفرقع ويزعق إلا ويحدث في المملكة أمر)^(٣). أي أن الصوفية توسعوا في إسناد علم الغيب فجعلوا قطع الحديد والحجر تنبيء بالغيب طالما أقيمت على وفات ولي صوفي..

ويقول الشعراني في ترجمة أحمد الزاهد أنه رأى اسمه في أهل النار، وبعد ثلاثين سنة حول اسمه في السعداء^(٤).. فكيف يكون ولياً يعلم الغيب وهو من أهل النار ؟

وحفلت ترجمة الشعراني للمجازيب بطرائف من علمهم الغيبي، ومن ذلك أن أحدهم أعطى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هذه الدار^(٥). أو (أن الله أطلع شعبان المجذوب على ما يقع في كل سنة من رؤية هلالها، فكان إذا رأى الهلال عرف جميع ما

(١) مناقب الفرغل مخطوط ٣.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ج٩٦/٢.

(٣) عبد الصمد الأحمدي.. الجواهر السنية ٧٦.

(٤) الطبقات الكبرى ج٧٥/٢.

(٥) الطبقات الكبرى ج١٣٥/١.

فيه مكتوباً على الديباج . وكان إذا اطلع على موت البهائم يلبس صبيحة تلك الليلة جلد البهائم، أو تسخير النحال لجهة السلطنة يلبس الشال اللين، فيقع الأمر كما نوه به^(١) ومعنى ذلك أن عصر الشعرائي كان يتحسس علم المستقبل من ملاحظة المجازيب والمعتقدين بأعمالهم البالية وخرقهم الممزقة ١١٠٠

ووصل ادعاؤهم إلى الإطلاع على (اللوح المحفوظ).. يقول الشعرائي (نهاية كشف الولي أن يطلع على ما كتب في اللوح المحفوظ)^(٢). وأسند ذلك كثير من الأولياء فعبد الرحيم القناني (نظر في اللوح المحفوظ)^(٣). وكان شمس الدين الحنفي يقول لمن يسأله (لو سألتني شيئاً لم يكن عندي أجبتك من اللوح المحفوظ)^(٤). وكان اسماعيل الإمبابي (يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ، ويقول يقع كذا وكذا لفلان)^(٥). ويقول الشعرائي عن شيخه الخواص (كان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المعو والإثبات، فكان إذا قال قولاً لابد أن يقع على العصفه التي قال، وكنت أرسل له الناس يشاورونه عن أحوالهم فما كان قط يحوجهم إلى كلام، بل كان يخبر الشخص بواقعه التي أتى لأجلها قبل أن يتكلم)^(٦).

وفي طبقات الشرنوبى أن عبد القادر الجيلاني اطلع على اللوح المحفوظ ومثله في ذلك الرفاعي، وقال الدسوقي عن نفسه (وتكلمت بما في اللوح المحفوظ وأنا ابن شهر.. وقرأت جميع ما في اللوح المحفوظ وأنا ابن خمس سنين)^(٧).

فكيف يكون (اللوح المحفوظ) محفوظاً إذا اطلع عليه أطفال الصوفية؟؟ وما وجه تسميته بالمحفوظ ووصفه بالحفظ إذا كان مباحاً لكل صوفى أو لطفل يتبول على نفسه؟؟

(١) الطبقات الكبرى ج٢/١٦٧.

(٢) الجواهر والدرر ١٩٥.

(٣) مناقب عبد الرحيم القناني ١٥ مخطوط.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرائي ج٢/٨٩.

(٥) الطبقات الكبرى للشعرائي ج٢/١٦٠.

(٦) الطبقات الكبرى للشعرائي ج٢/١٣٥.

(٧) طبقات الشرنوبى مخطوط ٣، ٤، ٧، ٨.

١٠ (١) ادعاء التصرف في ملك الله تعالى (ادعاء الكرامات) :

١ - الرسول - كل رسول - مطالب بمعجزة دالة على صدقه .. ويعطى الرسول معجزة من لدن الله تعالى تشهد بصدق الرسول في إخباره عن ربه .. ومع ذلك فالرسول - كل رسول - يؤكد أنه بشر لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .. وهذه مقالة كل إنسان .. بل أن توقيت ظهور المعجزة على يد الرسول خارج عن إرادة الرسول، فكل ذلك مرجعه لله تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله .. الرعد ٣٨ .. غافر ٧٨) .. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله .. إبراهيم ١١) .

ذلك أن لله تمام التحكم في مخلوقاته (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .. هود ٥٦) فكل دابة من الجرائيم حتى الإنسان لا تخرج بأى حال من الأحوال عن سلطان الله ولا يد لها في مولدها ونشأتها وحياتها وصحتها ورزقها ومماتها، فالله تعالى لم يخلق الكون ثم يتركه، وهو القيوم، يقول تعالى (ألا له الخلق والأمر .. الأعراف ٥٤) وهنا أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ .. ويعنى أن عمليتي الخلق والتحكم في المخلوقات قصر على الله تعالى وحده لا يشركه في ذلك أحد غيره (مالهم من دونه من ولى، ولا يشرك فى حكمه أحداً .. الكهف ٢٦) . أى لا شريك له تعالى فى حكمه وفى ملكه.

٢ - وقد ادعت الصوفية التصريف فى ملك الله، وعرف ذلك بعد الكرامات، وثار الجدل حول الكرامات فيما بعد القرن الثالث بين منكر ومؤيد، حتى إذا أهل عصر الغزالي تقررت الكرامات كرافد من روافد عقيدة التصوف، وأصبح الاختلاف حولها فيمن يستحق الوصف بالكرامة لا فى مبدأ البرامة ذاتها ..

ومهما يكن من أمر فإنه قل أن تقرراً لمنكرى الكرامة رأياً فى أن دعاوى الكرامات أمر جديد فى تاريخ المسلمين لم يعرف يقيناً فى صدر الإسلام وشبابه، ولم تظهر إلا بعد أن ضعفت عقيدة الإسلام فى قلوب المسلمين، أو أن دعاوى الكرامات لا تختلف من

حيث المبدأ عند دعاوى الشرك القديمة فى التصرف فى ملك وأن ذلك مرفوض فى القرآن الكريم، أو أن مدعى الكرامة من رواد التصوف كانوا متهمين فى عقائدهم مطاردين مضطهدين لم تغن عنهم كراماتهم شيئاً من قتل أو نفى وتشريد، وكان ذلك الاضطهاد تعبيراً عن رفض المجتمع المسلم لهم ولإدعائهم.

٣ - والأهم من ذلك كله أن مبدأ المعجزة^(١) الحسية قد انطوت صفحته ببعثة النبى عليه السلام خاتماً للأنبياء ورسولاً عالمياً للبشر فى كل زمان ومكان منذ عهده إلى أن تقوم الساعة، ومنطقى أن تكون معجزته على قدر مسئوليته، وهكذا كانت المعجزة دائماً، فهى للأنبياء السابقين - وقد كانوا محلين فى زمن معين ومكان معين وقوم بعينهم - كانت معجزات حسية مشاهدة ينتهى أثرها بانتهاء الرسول المرسل إليهم، وبعثة محمد رسولاً عالمياً كان القرآن معجزته الوحيدة، وهى معجزة عقلية علمية يتحدى بها الله البشر فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

وحاولت قريش جهدها أن تطلب آية حسية من الرسول فرفض الله تعالى مكتفياً بالقرآن (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون.. العنكبوت ٥٠ : ٥١) ..

وقد كانت المعجزة الحسية فيما مضى نذير إبادة للقوم المنكرين، غيماً أن يؤمنوا بعدها وإما أن يهلكوا بالصاعقة أو الصيحة وغيرها .. وجاء محمد عليه السلام رسولاً عالمياً فأصبح الإهلاك للمنكرين أمراً غير وارد، فأضيف سبب آخر لرفض المعجزة الحسية، يقول تعالى معللاً منع ارسال الآيات الحسية (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة .. حسرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً. الإسراء ٥٩) ..

(١) المقصود بالمعجزة هى الخارقة التى يتحدى بها الرسول قومه ويدل بها على صدق دعواه، فالتحدى هو الفارق بين (المعجزة) الموجهة للمشركين (والاختصاص) وهو الخارق الذى يمن الله به على رسوله كالإسراء وغيره حيث لا تحد فيه.

والرسول عليه السلام صاحب دعوة وهب حياته لها، ومن شأنه أن يحزن بسبب إلحاح المشركين عليه طالبين آية حسية، ولم يستجب ربه تعالى لا نزال آية حسية، بل قال له عاتباً (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله. ولقد جاءك من نبأ المرسلين، وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتهم بآية؟ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين، إنما يستجيب الذين يسمعون .. الأنعام ٣٣:٣٦..

هذا شأن الرسول صاحب الرسالة، وبعد أن عاد الإسلام غربياً كما بدأ عادت النعمة القديمة فى عبادة المعجزة الحسية واسنادها للأولياء وادعاء الأولياء لها، والتاريخ -للأسف- يعيد نفسه- ولم تجد عقلاً واحداً يتساءل : إذا كان للمعجزة هدف عند الرسول فما هو هدفها لمن يدعى الولاية - أهو صاحب رسالة بعد خاتم الرسل والجواب أنه ليس صاحب رسالة، وإنما هو مدعى للألوهية، فلا بد أن يدعى مستلزمات الألوهية ومنها التحكم فى ملك الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً .. ثم يسمى ذلك كرامة..

هذا وادعاء التصريف فى ملك الله تعالى له مظاهر كثيرة فى العصر المملوكى نعرض لها بإيجاز ..

٤ - وأشارت ألقاب كثيرة للصوفية إلى تصرفهم فى ملك الله، وفى (طبقات الشاذلية) تتكرر عبارة (أقامه الله فى الكون، فتصرف فى الوجود) فى ترجمة الأولياء الشاذلية. ومن ذلك ما قيل فى ترجمة النخال (تصرف فى مخلوقات الله فقضى وعزل وولى ونصب وحكم)^(١). وأن ابا العباس الخضرى (كان فى زمنه غوثاً متصرفاً فى جميع الموجودات)^(٢). وقال صاحب المفاخر العلية عن الجيلانى (وُلِّى وعزل، وهدى وخذل، وأحيا وقتل، وأمراض وأشفى، ومنع وأعطى، ووصل وقطع، حمى ودفع وسلب وحجب وأعطى المحب ما طلب)^(٣).

(١)، (٢) طبقات الشاذلية للكروني ١١٥ ، ١١٩ . (٣) المفاخر العلية ٥ .

وهذه مبالغة تكرم ابن عياد الشاذلي مؤلف المفاخر العلية في منحها للجيلاني - وكان عصر ابن عياد يجيز هذه المبالغات في وصف تصريف الأولياء.. تبعاً لازدياد نفوذ التصوف المضطرب، ويجدر بالذكر أن الشطنوفى في القرن الثامن قال أن عبد القادر الجيلاني قال لأصحابه (إنني قد عهدت إليكم : أني قد سلّمت إلى العراق، والآن فقد سلّمت إلى الأرض شرقها وغربها وفقرها وعمرائها وبرها وبحرها وسهلها وجبلها)^(١). وهو أقل مبالغة من وصف ابن عياد الشاذلي.. الذي قال عن شيخه الشاذلي بأنه (ظهر بالخلافة الكبرى، والولاية الكبرى، والقطبية العظمى، والغوثية الفردى، وخصه الله بعلوم الأسماء، ومنّ عليه بأعلى مقامات الأولياء، وأخص خصوصيات الأصفياء، وانفرد في زمنه بالمقام الأكبر، والمدد الأكثر، والعطاء الأنفع، والنوال الأوسع، وتصرف في احكام الأولياء ومددها بالأذن والتمكين، وانفرد بسؤدها حق اليقين، وأمد الأولياء أجمعين، وأم بالصدّيقين، ونال مقام الفردانية الذي لا تجوز فيه المشاركة بين اثنين، واجمع على ذلك من عاصره من العلماء العارفين والأولياء المقربين)^(٢). أي أن الشاذلي كان متصرفاً على الأولياء أو إلهياً يتحكم في آلهة أقل شأنًا منه ..!

وقال (أبو العزائم ماضي) أن الشاذلي قال : (حقيقة الشيخ مع أصحابه أن تكون يده عليهم تحفظهم حيثما كانوا غائبين أو حاضرين) ويقول (ماضي) أنه اعترض على الشاذلي في نفسه فحدث له حادثة أذهبت اعتراضه وعرف صدق مقالة الشيخ^(٣).. هذه لمحات عن الطريقة الشاذلية الموصوفة بالاعتدال والاقتراب من أهل السنة ..

وقد ورد في روض الرياحين قصة اثنين من الأولياء (كان لهما مقام التولية والعزلة) في الحكام والملوك، يقول الياقعي (وقد بلغني أنهما سمعا خطاباً من قبل الحق عز وجل وهو يقول لهما : إذا أردتما أن تفعل شيئاً فافعلوا ولا تسألاني، فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجوهكما)^(٤). أي أنهما يتصرفان بتفويض كامل من الله حرصاً على

(١) بهجة الأسرار ج١/ ٢٧ مخطوط.

(٢) المتأخر العلية : ٥.

(٣) تعطير الأنفاس ٥١ مخطوط. (٤) روض الرياحين ٢٠٤.

ألا بجرح إحساسهما، وأن الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - أراح نفسه من مشاكل العالم وتركه لهما يتصرفان فيه بدون الرجوع إليه، ونحن بين موقفين إما أن نصدق اليافعى والصوفية في تصرف الأولياء في ملك الله، وإما أن نصدق الله تعالى الذي (لا يشرك في حكمه أحداً) ولا توسط بين الموقفين .. (وإنا أو إياكم لعلى هدى، أو نرى ضلال مبين...).

٥ - ووصل ادعاؤهم إلى التصريف في الملائكة لأنهم وقد ادعوا الألوهية، فقد شاركوا الله تعالى في التحكم في ملائكته بزعمهم .. ويزعمون أن الشاذلي كان تحت امرته الوف الملائكة، فيحكى أبو العزائم ماضى أنه خرج في طريق موحش فتكفل بحراسته ثمانون ألفاً من الملائكة يحفظونه من أمر الله حتى وصل إلى الإسكندرية وكل ذلك ببركة الشاذلي^(١) .. وبعض الملائكة كانت تهبط على الشاذلي في هيئة طيور أربعة (نزلوا من السماء وصاروا على رأسه صفًا، ثم جاء إليه كل واحد منهم وحده، ورأيت معهم طيوراً على قدر الخطاطيف، وهم يحفون به من الأرض إلى عنان السماء، ويطوفون حوله، ثم غابوا عنه ثم رجع إلى وقال : هل رأيت شيئاً قلت : نعم، قال أما الطيور الأربعة فهم من ملائكة السماء الرابعة أتوا ليسألوني عن علم فجاءتهم عليه وأما الطيور الصغار فهم أرواح الأولياء أتوا إلينا ليُتبركوا بنا^(٢)).

وادعى بعضهم أن الملائكة تتشفع به فحكى أنه نزل يوماً في حلقة الشيخ عبد الرحيم القناني (شبح من الجو لا يدري الحاضرون ما هو فاطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشيخ إلى السماء فسألوه عنه فقال: هذا ملك وقع في هفوة فسقط علينا يستشفع بنا، فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع^(٣)).

(١) تعطير الأنفاس ٥٤.

(٢) المفاهر العلية ١٨.

(٣) مناقب عبد الرحيم القناني ١٠، ١١ مخطوط، الطبقات الكبرى للشعراني ج١/ ١٣٥.

وبعضهم كان عنيقاً مع الملائكة -بزعمه- فقد (هاجت الريح) والزواوى المجذوب (ت ٨٣٥) فى مركب - (فأشرفت على الفرق فقام وأمسك بالملك الموكل بالريح فسكن الريح وتحول)^(١).. وطرد الشريينى عزرائيل حين أراد قبض (روح ابنه)^(٢) وكان الشويمى (من أرباب الأحوال العظيمة) ، وقد مرض شيخه مدين مرة (أشرف فيها على الموت فوهبه من عمره عشر سنين ثم مات فى غيبة الشويمى رضى الله عنه، فجا وهو على المغتسل، فقال : كيف مت وعزة ربي لو كنت حاضرًا ما خليتكم تمت) أى تحكم الشويمى فى عزرائيل وميعاد الموت مع أن ذلك محدد بأجل لا يتقدم ولا يتأخر (فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .. يونس ٤٩ : النحل ٦١).

٦ - وقد جعل سبحانه وتعالى صيغة التصريف عنده لفظ (كن) أى أنه تعالى يقول للشيء (كن) فسرعان (ما يكون) ، وفى بداية كل شيء كانت الكلمة (فى الأصل كانت الكلمة) أى كلمة (كن)..

وهذه الكلمة لا يقولها قادراً على تجسيدها واقعاً حياً - إلا الله تعالى لذا كان أسلوب القرآن الكريم فى التعبير عنها أسلوب قصر بإنما (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون .. النحل ٤٠) .. (سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.. مريم ٣٥) .. (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .. يس ٨٢) . (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .. غافر ٦٨) فمنه الأمر وقول كن لا يشركه فيها أحد.. لأنه لا يشرك فى حكمه أحداً.

وعز على الصوفية أن يتركوا لله تعالى لفظة (كن فيكون) فنافسوه فيها أيضاً.. فكان الولي يدعى أنه أعطى حرف (كن) كالجلى^(٣)، بل تكرم الخواص فشمل البشر كلهم بمعانيته فقال (إن لكل إنسان فى باطنه قوة «كن»)^(٤). ومعنى ذلك أن لا فرق حقيقى بين الخلق والله الحق وهو تعبير أصيل عن عقيدتى الاتحاد ووحدة الوجود . وقد

(١) الطبقات الكبرى للماوى ٣٥١ مخطوط.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ١٢٣/٢ ، ٩٤

(٣) لطائف المنن ١٨٨.

(٤) الحواهر والدرر ١٢٢.

وضعوا لذلك حديثهم الكاذب «عبدى أظعننى تكن عيذاً ربانياً تقول للشئء كن فيكون»
وارتبط لفظ (كن) بادعاء الصوفية خرق العادة (يكونى للولى خرق العادة حين يعطى
حرف كن)^(١). أو ما يعبر عنه حيناً (بقلب الأعيان)، ومن ذلك أن البدوى -على زعمهم-
قلب الشعر قمحاً^(٢)..

بل قد يصل قلب الأعيان إلى خلق البشر فكان (محمد الشربيني يقول للعصا التى
كانت معه كونى إنساناً فتكون إنساناً ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت)^(٣).

٧ - وترتيباً على ذلك كان بمقدرة الولى -بزعمهم- أن يحيى ويميت : وأحياء
الميت أصعب من إماتة الحى .. لذا كان اهتمام الصوفية بإحياء الموتى من البشر
والحيوانات .. يقول الشطنوفى أن منصور البطائحي أحيأ رجلاً افتترسه الأسد^(٤)، ومثله
مفرج الدمايينى الشاذلى الذى (أحيأ قتيلاً لأسد وأنب الأسد وسلخه)^(٥)، وأحيأ على
وفا غريقاً كانت أمه تنتحب عند شاطئ الإسكندرية^(٦)، وقال الشعراى أن المتبولى
نادى والد أحد المريدين فخرج الرجل من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه
الشيخ^(٧).. وحدث أن مات جمل يركبه مريد لعلى وفا فأحيأ على وفا الجمل إلى أن حج
عليه المريد ورجع عليه إلى مصر يقول المريد وهو راوٍ لتلك الحكاية (فمن وصوله - أى
الجمل - إلى باب النصر وقع ميتاً فعلمت أن محبى الموتى أبقاه للخدمة)^(٨). فجعل
المريد من شيخه على وفا (محبى الموتى) ..

وفى رحلة البدوى للعراق تعرض له الأكراد فى الطريق فقال لهم أخوه الحسن (يا
قوم الزموا الأدب، فنحن من أهل الحسب وأعلى النسب، من قبل أن يقع عليكم الغضب

(١) الجواهر والدرر ١٦٦.

(٢) عبد الصمد.. الجواهر السنبة ٣٧ : ٣٨.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراى ج٢/١٢٣.

(٤) بهجة الأسرار ج٢/١٩ : ٢٠ مخطوط.

(٥) الإلمام للنورى مجلد ٢ لوحة ٧٤ مخطوط مصور.

(٦) مناقب الرفائية مخطوط ١٥ : ١٦.

(٧) الطبقات الكبرى ج٢/٧٨.

(٨) مناقب الرفائية ٧٧ : ٧٨.

ويحل بكم العطب وتسكنوا التراب ثم أومأ إليهم بيده وقال لهم : موتوا بإذن الله تعالى فوقعوا على أديم الأرض كالقتلى، قال ثم التفت إلى وقال يا أحمد هذا فعل الرجال بالرجال قال فقلت يا أخى الفتوة الفتوة فقال لى يا أحمد أنت أبو الفتيان، ثم قال لهم قوموا بإذن من يحيى الموتى ويميت الأحياء قال : فقام الجميع وقبلوا أقدامنا^(١).

وفى أسطورة البدوى مع فاطمة بنت برى عمل لها البدوى راعياً للجمال، ولما رآته الجمال (جاءت إلى وكرفت رانحتى وقبلت أقدامى وحننت حنيناً وسكبت دموعاً غزيراً فأشرت إليها سيرى إلى المرعى فسارت) (فكانت الجمال تنتشر ترعى فى الليل وتأتى بالنهار وكان عدتها سبعة آلاف جمل .. وفى اليوم السابع قلت فى خاطرى : اقضى أرى من فاطمة بنت برى فالتفت إلى الجمال وقلت لها موتى بإذن من يحيى الموتى ويميت الأحياء فمات الجميع^(٢)). ولا شك أنها قسوة من البدوى أن يميت سبعة آلاف جمل من معتقديه وأحابيه لكى يقضى أربه من فاطمة بنت برى ١١٠٠

٨ - والرزق بيد الله تعالى وحده، وقد تكفل به للجميع الأحياء (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .. هود ٦) حتى لو كانت الدابة لا تستطيع السعى لرزقها فإن الله يرسله لها فى مكانها أو يبسر لها الأسياپ.. (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم .. العنكبوت ٦٠)..

وكان الجاهليون يؤمنون بأن الرزق من عند الله وحده واتخذ القرآن الكريم من تسليمهم بهذا حجة عليهم فى رفض الآلهة التى يعبدونها (قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ أمن يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؟ ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل : أفلا تتقون .. يونس ٣١).

إلا أن الصوفية جعلوا من أنفسهم شركاء فى تدبير الرزق وتوزيعه على البشر.. فكان الشاذلى يقول (أن الولى إذا أراد أغنى).. (والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر

(١) الجواهر السنية لعبد الصمد الأحمدي : ٤٧.

(٢) الجواهر السنية لعبد الصمد الأحمدي : ٥١.

إليه نظرة وقد أغنيتها^(١). ولفظ (الغنى) هنا خام يشمل الجانبين المادى والمعنوى ..
وهما جميعاً فى يد الرلى حسب اعتقادهم ..

وفى بداية العصر المملوكى كان يعتقدون أن الرلى الصوفى دخلاً فى تقسيم الرزق
فأشيع أن بعض الصيادين فى البرلس أساء الأدب على الصوفى ابراهيم البرلسى ٧١٩
فقال له الشيخ (لا تظلم تنكسر فى معاملتك فقال : عندي من السمك ما يوفى عنى
والبحيرة مليئة بالسمك، فأصبح ليصطاد فلم يجد فى البركة شيئاً فوضع للشيخ وذل
فعاد السمك^(٢). وهذه الرواية ذكرها فقيه غير صوفى - وإن خضع لمقتضيات عصره
المتأثر بالتصوف - وهو ابن حجر ..

وأسندوا لبعضهم تقسيم الرزق بين الحيوانات والطيور فى زمن القنط مثل أبى
يعزا المغربى^(٣) ..

وفى نهاية العصر المملوكى واشتداد تيار التصوف كان شرط المرید (أن يرى جميع
ما هو فيه من الخير ببركة شيخه، لأن كل مرید محبوب فى دائرة شيخه لا يمكن أن
يتجاوزها فلا يمد بمدد إلا وشيخه واسطة له فيه^(٤). وإذا علم الشيخ من مریده أنه
صار يرى جميع ما بيده إنما وصل إليه ببركة استاذه وأنه هو وعياله إنما يأكلون من مال
ذلك الأستاذ فلا خرج حينئذ فى الأكل من طعام ذلك المرید^(٥).

وفى عصر الشعرانى هذا - كان الخلس جميعاً بين شيخ صوفى أو مریدين له،
فالحديث عن المریدين يشمل كل المصرين المعتقدين فى أشياءهم، بل يشمل الأمراء
المملوكين، وقد جعل الشعرانى من أدب الأمير المملوكى مع شيخه (أن يرى أن جميع
النعم التى ترد عليه من بركة شيخه ولا يرى نفسه قد استغنى عن نعمه)^(٦).

(١) لطائف المنن لابن عطاء ٩٦.

(٢) الدرر الكامنة ج١/ ٢١.

(٣) بهجة الأسرار ج ٢/ ٢٨ مخطوط.

(٤) لطائف المنن ١٨٧ : ١٨٨ ط ١٢٨٨ الطيقة القديمة.

(٥) لطائف المنن ٢٥١ : ٢٥٢.

(٦) ارشاد المغفلين ٢٦٥ مخطوط.

والشعراني مع تظاهره بالتواضع واخفاء ولايته إلا أنه لم يحرم نفسه من دعوى تصرفه في الرزق، يقول عن بعض خصومه (وربيت أنا جماعة فكانوا في أرغد عيش، فتحركت نفوسهم لمحبة الدنيا، فنقص رزقهم عما كان وكفروا بواسطتي لهم في الرزق، فقلت لهم : أن الله تعالى كما جعل مغاييح رزقكم بيدي كذلك ربما يجعل المنع بيدي عقوبة لكم...) (١).

وإذا كان هذا شأن الشعراني الفقيه المتعلم والصوفي المعتدل فكيف بالآخرين... لا نقول لهم إلا مقالة ابراهيم عليه السلام لقومه (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوا واشكروا له .. العنكبوت ١٧) ..

٩ - و(غفران الذنوب) اسمح ما ادعاه الصوفية ..

يقول تاج الدين النخال (من جاء لى عامداً متعمداً لا ينوي في نهاره إلا زيارتي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) (٢). وفي أحد المجالس قال ابن عبد الظاهر الأحمي لمن حوله (إن الله قد غفر لكم أجمعين) (٣) ..

وقد وضع الصوفية قواعد للغفران، أهمها أن يعترف المخطيء بخطئه للشيخ لكي يغفر له أو يتوسط له عند الله ليغفر له بما يحظى به الشيخ -بزعمهم- عند الله من مكانة، وكان الاعتراف بالذنب أمام الشيخ من أهم طقوس أخذ العهد الصوفي، وقد اعترض على ذلك ابن الحاج وقال (إن في هذا تشبهاً بالقسيسين) (٤).

وفي عصر الشعراني ازداد الاعتقاد في قدرة الصوفية على غفران الذنوب تبعاً لاعتقاد العصر في الوهيتهم. وتتردد في القصص الصوفية مبادرة المريد لقوله: التوبة عندأى خطأ في القول أو القلب .. وفي كتب الشعراني اعترافات كثيرة حتى أنه عد من المنن كثرة رفقته ورحمته لمن شكأ إليه بكثرة محبته للمعاصي وغلبة وقوعه فيها) (٥).

(١) لوائح الأنوار ١٢٦.

(٢) طبقات الشاذلية ١١٨.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوي ٢٩٦ مخطوط.

(٤) المدخل ج٢/ ٢٠٩.

(٥) لطائف المنن ٤٣٨.

وقد جعل الشعراني من أهم آداب الذكر (أن يظهر المريد جميع ما بقلبه من حسن أو قبح لشيوخه حتى يصل إلى درجات الصديقية - وإن لم يظهر ذلك كان خائناً وحرماً الفتح)^(١). وكان ذلك عاماً لكل المريدين شمل الأمراء أيضاً إذا شاء سوء طالعهم أن يعتقدوا شيخاً صوفياً، يقول الشعراني (من أدب الأمير مع شيخه ألا يكتمه شيئاً من زلاته التي وقع فيها ولو لم يسأله الفقير، وذلك إذا ذكرها للشيخ فيما أن يرشده إلى التوبة أو يشفع له عند الله بأن يغفرها له ويؤخر عنه العقوبة والمؤاخاة .. وقال المرصفي لا ينبغي لأمر أن يستحي من ذكر نقائصه لشيخه ليداويه فيها بالتوبة والمغفرة)^(٢).

وكان بعض الصوفية يستفيد من الاعتقاد فيه وفي شفاعته فكان يبيع الجنة للناس، فروى الياقعي قصة باع فيها أحدهم بستانه نظير قصر في الجنة، وكتب بذلك صكاً وضع في كفن البائع حين مات^(٣)، وقال الشعراني أن امرأة جاءت الشيخ مدين بثلاثين دينار ليضمن لها الجنة فقال لها : ما يكفي : فقالت : لا أملك غيرها، فضمن لها على الله دخول الجنة^(٤)..

١ - واسمع من ادعاء (غفران الذنوب) ادعاء التحكم في الآخرة والجنة والنار.. والدسوقي هو بطل هذا المجال .. إذا كان في الإقتراء على الله بطولة .. يقول في الجوهرة (أنا بيدى أبواب النار غلقتها بيدى، أنا بيدى جنة الفردوس فتحتها، من زارنى أسكنته جنة الفردوس)^(٥). وفي طبقات الشرنوبى تفاصيل أكبر.. يقول الدسوقي في معرض قدرته على تفسير القرآن الكريم (.. وفكيت طلاس سورة الزمر فسقت بها للجنة المتقين وإلى النار الكافرين .. وفكيت طلاس سورة الرحمن وهى صفات الجنة فرأيت صفاتها فادخلت اتباعى فيها .. وفكيت طلاس سورة المنافقون فعرفتهم وادخلتهم النيران.. وفكيت طلاس سورة نوح فادخلت قومه النار، وقتلت هذا جزاء القوم الكافرين

(١) ليس الخرقه ١١ مخطوط.

(٢) ارشاد المغفلين ٢٥٤.

(٣) روض الرباعين ٢١٥.

(٤) الطبقات الكبرى ج٢/٩٣.

(٥) جوهرة الدسوقي ٩٩. مكتبة الجمهورية.

«قالوا من أنت قلت لهم أنا ابراهيم»، ويقول (من كراماتنا أنى لما وردت على النار هربت خوفاً منى ففرصتها برجلى فصارت رماداً وصرخت عليها فخلقت أبوابها السبع .. ومنها أنى سدوت أبواب جهنم السبع بفوطتى وفتحتها لأعدائى وادخلتهم فيها، ومنها أنى فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدي وادخلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيها، ومنها أن صنع الميزان بيدي أصير حسنات مريدي أثقل من سيئاته، ومشيت عليها فصارت سيئات المنكرين علىّ على أثقل من حسناتهم، ولو كانوا مطيعين ومنها أنى ادخل اتباعى يوم القيامة فى الحشر أعلا مرتبة من أتباع غيرى» (١).

وقال الشعرانى فى ترجمته (وكان رضى الله عنه يقول : أنا بيدي أبواب النار غلقتها وبيدي جنة الفردوس فتحتها من زارنى اسكنته جنة الفردوس .. وأطال فى معانى هذا الكلام ثم قال رضى الله عنه وما يعلم ما قلته إلا من انخلع من كثافة حجبهِ وصار مروحنا كالملاكة.. قلت : وهذا الكلام من مقام الإستطالة تعطى الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيللى رضى الله عنه وغيره فلا ينبغى مخالفته إلا بنص صريح، والسلام) (٢).

فالشعرانى يرى أنه لا ينبغى مخالفة الدسوقى إلا بنص صريح. مادام الدسوقى يسير على منهاج الجيللى وغيره فى الإدعاء بالتحكم فى الآخرة .. وتهرب الشعرانى من إيراد النصوص القرآنية الصحيحة التى تهدم اقتراءات الدسوقى والجيللى وغيرهما حتى لا يهدم ركناً أساسياً فى التصوف، وهو تصريف الأولياء الصوفية فى الدنيا والآخرة..

ونود أن نذكر بنصوص قرآنية صريحة تقطع بأن يوم الدين ملك لله وحده لا يشاركه فيه واحد من خلقه ملكاً أم رسولاً فضلاً عن أولياء الشيطان ..

يقول تعالى عن يوم الدين (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، ولا هم ينصرون - واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً

(١) طبقات الشرنوبى مخطوط ٣، ٤، ٥، ٦، ٧ : ١٢ متفرقات..

(٢) الطبقات الكبرى ج٢/١٥٧.

ولا يقبل هـ هما عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون .. البقرة ٤٨ : ١٢٣ . (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .. الإنشقاق ١٦) هـ (يا أيها الناس اتقوا ربكم وأخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولد هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق .. لقمان ٣٢) .. وكل انسان - والأنبياء منهم - إما والد وإما مولود .. فلن يجزي أحد عن أحد شيئا .. بل يقول تعالى للرسول الخاتم عليه السلام (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم .. آل عمران ١٢٨) .. بل في سداة العرض على الله .. يقف البشر جميعا مؤمنون وأنبياء ومشركون وكفرة - أمام الله تعالى لا يستطيع أحدهم أن يبدأ كلاما إلا بعد أن يأذن له الواحد القهار، فيقول تعالى عن اليوم الآخر (ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، وما تؤخره إلا لأجل معدود، يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد .. هود ١٠٣ : ١٠٥)، فلا يستطيع السعيد أو الشقي أن يتحدث إلا بإذن في يوم الدين .. الكل أمام جنبروت الله تعالى سواسية .. كل منهم خائف مرتعب من هيبة الله تعالى .. كل منهم محتاسب أمام الله تعالى رسولا كان أم مرسلأ إليه (فلنساءن الذين ارسل إليهم ولنساءن المرسلين .. الأعراف ٦) .. كل منهم يدافع عن نفسه عند الحساب بكل ما يستطيع (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .. النحل ١١١)، يوم رهيب على الجميع، فكل انسان لا هم له إلا إنقاذ نفسه والنجاة بها من عذاب الله والذنوب التي وقع فيها .. كل انسان يفر من أقرب الناس إليه (يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه، وصاحبه وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه، كلا .. المعارج ٨ : ١٥) .

(يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .. عبس ٣٤ : ٣٧) .. وكل البشر - وكل انسان بما في ذلك الأنبياء - امرؤ له أخ وأم وأب وزوجة وأبناء، سيفر منهم من ربة الموقف العظيم ..

هذه نصوص قرآنية قاطعة .. ولا اجتهد مع وجود نص واحد صريح .. فكيف بنصوص عديدة؟؟ لو كانوا يعقلون ..

ملاحق تأليه الولي الصوفي فى علاقة المريد بشيخه :

١ - (المريد) هو اصطلاح الصوفية عن (العابد) لإلا هه الشيخ، (المطيع) له - طاعة المؤمن لربه، (المحب له) حب العبد الصالح لربه القادر، وتتجلى ملاحق تأليه الولي كاملة فى تعقيد الصوفية لعلاقة المريد بشيخه .. فلن نجد لوصف تلك العلاقة إلا عبودية المريد وتأليه الشيخ .. فعلاقة المريد بشيخه أكبر من علاقته بأبيه وحاكمه، بل وجعلها الصوفية فوق علاقة المسلم بالرسول ..

فالقاعدة الشرعية التى تحكم علاقة الإنسان بالإنسان فى إطار الإسلام هى أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. حتى ولو كان ذلك المخلوق حاكماً مستبدًا .. أما الحاكم المسلم فشأنه كما قال أبو بكر فى أول خطبة له كخليفة (أطيعونى ما أطيع الله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) .. والإحسان للوالدين واجب، إلا أن طاعتهما لا تكون إلا فى إطار طاعة الله تعالى، فإذا أرادا صدّ الولد عن طريق الله فطاعتهما لاغية وإن كان ذلك لا يمنع من برهما، يقول تعالى (وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب إلى .. لقمان ١٥)، فالطاعة لله والاتباع لرسوله ومن يسلك طريقهم، وللوالدين فى هذه الحالة مجرد الصلابة بالمعروف ..

وطاعة الرسول هى طاعة الله .. فالرسول مبلغ عن ربه الأوامر والنواهي، فمن يأتمر بأمر الله فقد أطاع الله وأطاع الرسول فى نفس الوقت .. إلا أن طاعة الرسول لا تعنى عبادته : أولاً : لأن تلك الطاعة ليست له بالشخص ولكن بالوصف .. قاله تعالى لم يقل لنا أطيعوا محمدًا، وإنما قال (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله .. النساء ٨٠)، فطاعة الرسول مقصورة على شئون الرسالة المبلغه إليه فى القرآن، وكل رسول يطلب الطاعة من أتباعه فيما يخص أوامر الله ونواهيه وشرعه ودينه، وحتى إذا جد أمر لم ينزل فيه وحى واستشير الرسول بشأنه توقف حتى ينزل فيه وحى .. ثانيًا : النبى بعد ذلك هو أول المؤمنين وأول المسلمين (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ..) فهو مأمور وملتمزم بما يوحى به إليه شأن

كل مسلم، وهو القدوة في تنفيذ أوامر الله، يبدأ بنفسه في الطاعة لله ويحذو المسلمون
حذوه ..

وهكذا قاله رحمه هو الحاكم وهو المطاع لأنه لا إله إلا هو، لذا جاء استناد الحكم
لله تعالى بأسلوب القصر المتبع في الأمور الإلهية المقصورة على الله تعالى.. يقول (إن
الحكم إلا لله.. الأنعام ٥٧) (يوسف ٤٠، ٦٧) .. (ألا له الحكم.. الأنعام ٦٢) (وله
الحكم) (له الحكم). القصص ٧٠، ٨٨ .. (فالحكم لله العلى الكبير .. غافر ١٢).

٢ - أما التصوف فله شأن آخر .. فقد وضع الأشياخ ما أسموه بآداب المريد مع
شيخه.. وهي آداب لازمة الطاعة .. وقد كفلوا فيها للشيخ حقوق الله على البشر ..
فأصبح المريد مطالبًا بعبادة الشيخ وتقديسه .. على النحو التالي :

أولاً : حب المريد لشيخه حب تآليه :

(أ) طالبوا المريد بحب شيخه حبًا يخرج عن إطار المحبة المتعارف عليها بين إنسان
وإنسان، تلك المحبة القائمة على المساواة ووصلوا بها إلى المحبة التي ينبغي أن يتوجه
بها المسلم لله تعالى .. وحجة الصوفية في هذا أن الشيخ واسطة بين الله والمريد فحب
الشيخ من حب الله .. ومعلوم أن الواسطة بين العبد والرب لا تكون إلا في عقائد الشرك
.. إذ بها يخلعون على الواسطة المزعومة كل تقديس واجب لله وحده وينتزعون حقوق الله
ويضيفونها لذلك الإله الواسطة، ومن ذلك الحب .. فيحبون الواسطة حبهم لله تعالى
ويجعلون من تلك الآلهة أنداداً لله تعالى، يقول تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله
أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون
العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب .. البقرة ١٦٥) ..

فقوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مقصود به أن حب الله تعالى متفرد عن حب
البشر للبشر .. فحب الله فيه تقديس وإجلال وتعظيم وإخبات وإنابه ورهبة وخشية وتقوى
ورجاء وأمل، وحب الله تعالى مستمر حين النعمة ووقت الشدة والكرب، ويتجلى حب
العبد لله أكثر في التقوى، وطاعته لأوامر ربه واجتنابه لنواهيه، وعلى أساس الطاعة

يكون التفاضل في الحب يقول تعالى (والذين امنوا أشد حبا لله..) والإيمان عقيدة صحيحة وعمل صالح وطاعة لله والرسول، وهو حب الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني .. آل عمران ٣١) ..

والمشركون يحبون ألهمهم هذا الحب الذي يجب أن ينفرد به الله وحده دون واسطة أو شريك .. يقول الشعراني (من لم يحكم مقام السهر بين يدي شيخه لا يصح له مقام السهر بين يدي الله عز وجل، وقبيح على المريد أن ينأى عن شيخه جالس .. بل ذلك علامة على كذبه في محبة الله عز وجل فضلاً عن محبته للشيخ، فإنه لو كان يحب الشيخ لاستغنى أوقات الخلوة به، كما أنه لو كان يحب الله عز وجل المحبة المعروفة بين القوم لما أخذه نوم)^(١) وافتتح الشعراني بمراعاة ذلك مع شيخه محمد الشناوي ونور الدين الشونى يقول (فلا أتذكر أنى نمت فى وقت يكون أحدهما مستيقظاً فيه، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على لكونه وسيلة إلى دوام السهر بين يدي الله عز وجل)^(٢).

فمن علامات حب المؤمن لله تعالى أن المؤمن المحب لله تعالى يتأى عن مضجعه حيناً من الوقت فى هدأة الليل ليدعو ربه (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .. السجدة ١٦) فجعل الصوفية من الشيخ شريفاً لله تعالى فى وجوب السهر بين يديه ..

ب) وفى (قواعد الصوفية) عقد الشعراني باباً عن آداب المريد مع شيخه، وبدأها بحب المريد لشيخه، ووصل بهذا الحب إلى درجة الحب الإلهى. ونقتطف من كلامه هذه العبارات (من تلتطخ بالذنوب وادعى محبة شيخه فهو كاذب، وكما أنه لا يحب شيخه فكذلك شيخه لا يحبه، واجمعوا أن من شرط المحبة لشيخه أن يصم أذنيه عن سماع كلام فى الطريق غير شيخه (يعنى لا يشرك بمحبة شيخه محبة شيخ آخر) فلا يقبل عذل عاذل حتى لو قام أهل مصر كلهم فى صعيد واحد لم يقدروا أن ينفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخليه فى باله، وبلغنا

(١)، (٢) لطائف المنن ١٤٢، ١٤٣.

عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن وعبل من نظره إلى استاذة (وقال أفضل الدين (الشعراني) من الطغ سكرات الحب الشغل بالحب عن متعلقه) واستشهد بمجنون ليلى السذى أعرض عن محبوبته لاشتغاله عنها بحبه لها، ويلاحظ أن هذا المثل بالذات يستعمله الصوفية فى وصفهم للحب الإلهى فجعله الشعرانى مثلاً لحب الشيخ ..

وقال أفضل الدين الشعرانى أيضاً (حقيقة حب الشيخ أن يحب الأشياء من أجله ويكرهها من أجله كما هو الشأن فى محبة رينا عز وجل) واستشهد الشعرانى بأقوال ابن عربى فى المحبة فى الفتوحات المكية (باب ١٧٨) وحكى عنه أن محبا دخل على شيخ يتكلم فى المحبة فما زال المحب ينحل ويذوب من سماعه بكلام المحبة حتى تحلل جسمه كله على الحصر بين يدي الشيخ وصار بركة ماء .. وذكر أبيات ابن عربى التى يقول فيها :

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدب بالله لله

وذكر قول شيخه المرفصى (أن المريد يترقى فى محبة شيخه إلى حد يصير يتلذذ بكلام شيخه له كما يتلذذ بالجماع، فمن لم يعمل إلى هذه الحالة. فما أعطى الشيخ حقه من المحبة) (١).

ج) ولا ريب أن عقيدة الاتحاد الصوفية هى الأصل فى حب الشيخ الصوفى حباً إلهياً .. وقد سبق إيراد قول الغزالى عن بعضهم وقد قيل له (أنك محب فقال : لست محباً إنما أنا محبوب) (٢). أى أنه كالله يُحِبُّ حَبّاً إلهياً من مريديه .. ونظير ذلك ما رواه الغزالى عن جماعة دخلوا على الشبللى، وقد كان محبوباً فى مارستان، فقال لهم من أنتم (فقالوا محبوبو فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتهم محبتى، إن صدقتهم فاصبروا على بلاتى) (٣). أى جعل نفسه إلهاً مع الله تعالى.

(١) قواعد الصوفية ج١/ ١٦٧ : ١٧٣.

(٢) أحياء ج١/ ٢٨٨.

(٣) أحياء ج١/ ٢٩٩.

عدم اشراك المريد بشيخه :

أ) والشقاق والاختلاف والمشاحنة من سمات الشرك إذ تتحكم الأهواء والأذواق وتتصارع العواطف ويكون التنافس والتحاسد .. يقول تعالى عن المشركين (وإن تولوا فإنما هم فى شقاق .. البقرة ١٣٧) ويقول لهم بلهجة القسم (والسما ذات الحبك أنكم لفى قول مختلف .. الذاريات ٨) ..

وأمر المسلمون ألا يختلفوا كالمشركين (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات .. آل عمران ١٠٥) ذلك أنى الإسلام مبنى على الاتفاق على صراط مستقيم (وأن هذا صراطى مستقيم فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء .. الأنعام ١٥٣، ١٥٩)، ومبنى التصوف على الذوق .. والصوفى ابن وتته .. ولا زال الصوفية بخير - كما قال روم- ما اختلفوا (فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم)^(١) .. وبازدهار التصوف وتسيده للعصر المملوكى تشعبت مناحى الاختلاف بين الأشياخ الصوفية وكثرة تنافسهم على المريدين والهدايا والفتوحات حتى أن الشعرائى ألف كتباً خاصة فى الهجوم على أقرانه من الأشياخ وتردد فى مواضع كثيرة من مؤلفاته حنقه عليهم وشكواه منهم ..

ب) وقد انعكس هذا الوضع على المريد .. فطولب بالإخلاص لشىخه وألا يكون له إلا شيخ واحد ومر بنا قول الشعرائى فى محبة الشيخ (وأجمعوا أن من شرط المحبة لشيخه أن يصم أذنيه عن سماع كلام فى الطريق غير شيخه)، وعجيب أن يكون هنا اجتماع على ضرورة التفرق والتحزب وأن يكون لكل شيخ شرعه وطريقه ورسومه مع أن الاختلافات بين الأشياخ الصوفية المملوكين اختلافات شكلية مظهرية .. والمهم أن التأكيد على المريد بالإخلاص لشيخ واحد اتخذ صورة دينية إذ أن التصوف هو التدين السائد وهو العقيدة التى يلتزم بها المريد، فجعلوا من الخروج عن الإخلاص للشيخ (شركاً بالشيخ) قياساً على الشرك بالله تعالى .. ولعل من الأفضل أن نستشهد

(١) الرسالة القشيرية ٢١٨.

بكلامهم فهو أوضح وأبين في الاستدلال .. يقول (على وفا) (كما لم يكن للعالم إلاهان ولا للرجل قلبان ولا للمرأة زوجان كذلك لا يكون للمريد شيخان)، وقال (كما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به فكذلك الأشياخ لا يسامحون المريد في شركته معهم غيره، ومتى سامحوه كان غشاً منهم)، وقال (تأمل قوله تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا »). فما جعل السماوات والأرض تنشق وتفطر الجبال وتنهدم إلا الشرك بالله، وكذلك الشيخ لا يزيل قلبه عن حفظ المريد وتربيته ترك احسان ولا خدمة، وإنما يزيله أن يشرك به المريد غيره^(١). واهتم الشعراني بأقوال (على وفا) فرددها في الطبقات الكبرى^(٢) والبحر المورود، وعلق على ذلك بقوله (إذ الشيخ كالسلم يترقى المريد بالأدب معه إلى الأدب مع الله تعالى، فمن لم يحكم باب الأدب مع شيخه لا يشم من الأدب مع الله رائحة أبداً)^(٣).

ج) وأصبح كلام (على وفا) دستوراً للصوفية اللاحقين، خاصة وأن التصوف في ازدياد مضطرد، والحاجة في ازدياد للمريدين، والطلب عليهم لا ينقطع، والخوف قائم من تقلبهم بين يدي أكثر من شيخ، يقول الشيخ أبو مدين في رسالته كما يحكى الشعراني (ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها، فأشهد كمال شيخك ثم اطلب منه حاجتك، فإن الأشياخ على الأخلاق الإلهية، فكما أن الحق جل وعلا لا يغفر أن يشرك به يعنى في الميل إلى سواه بغير إذنه، فكذلك الأشياخ)^(٤). وقال المرصفي (من طلب من فقير حاجة مع شركته أحداً معه في الانقياد فقد كلف الشيخ شططاً، فقد قالوا تقيد على شيخك ثم اطلب منه حاجتك)^(٥). وقال أفضل الدين الشعراني (قد بنى الله عز وجل الأمور على التوحيد، فكما لم يكن للعالم إلاهان ولا للرجل قلبان ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان)^(٦). ويقول الشعراني (وقد جرب الأشياخ

(١) لطائف المنن للشعراني ٢٨٠.

(٢) ج٢/٢٤.

(٣) البحر المورود ٢٦ هامش.

(٤)، (٥)، (٦) الشعراني: ارشاد المغفلين ٢٣٩ ، ٢٤٠.

والمريدون فوجدوا الشركة في محبة الشيخ توقّفهم عن السير، عكس حالهم حال توحيدهم للشيخ^(١). ويقول (ومن شأن المريد ألا يشرك مع شيخه أحداً في المحبة من سائر من لم يأمره الله تعالى بمحبته)^(٢). أي أن كمال توحيد الشيخ ألا يجتمع في قلب المريد حب آخر مع حبه للشيخ... ويقول (ومن شأنه ألا يكون له إلا شيخ واحد فلا يجعل له قط شيخين لأن مبنى طريق القوم (الصوفية) على التوحيد الخالص)^(٣).

ي) وقد كان المريدون عند حُسن ظن الأشياء بهم خاصة أتباع (على وفا) وقد قال كاتب مناقبه (قال لى يا سيدى يوماً : «خدمة بيت سيدى وحدانية ما تحتل الشركة») فهو يعبر عنه بلفظ (سيدى) حتى فيما ينقله عنه من خطابه. ويتردد في حديثه عنهم لفظ (الحضرة الشريفة)... وروى كاتب المناقب أن (على وفا) قال لأحدهم (أخشى عليك أن تبني لك زاوية وتجعل شيخاً، فنشرك حزينا بوظيفة العجمى فتحصل الغيرة) وحدث ما توقّعه (على وفا) وانتهت الحادثة بموت ذلك الذي تمشيخ، وعلق الكاتب قائلاً (الحمد لله الذى عافانا من بلاء المشركين وجعلنا موحدين .. والله ما نعرف سوى سيدى)^(٤). وقال أحد مريدى الشيخ مدين (لا أشرك في محبة شيخى أمراً آخر)، وذلك لأنه أقام بزايوته مدة طويلة لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً^(٥). واعتبر من كمال تويده ألا يأكل ولا يشرب في زاوية شيخه اكتفاء بحبه وقربه ..

هـ) هذا .. ويلاحظ اكتمال السيطرة الصوفية على الحياة الدينية في مطلب الأشياء بتوحيد المريدين لهم .. فقد بدأ التصوف ورجاله في اضطهاد ثم حصل على الاعتراف به.. وبعد ذلك كانت السيطرة الكاملة وطلب التوحيد وعدم الشرك بهم .. وتلك ذروة السيادة للعقيدة الصوفية في العصر المملوكى إذ استحوذ كل شيخ على طائفة من المريدين وألزمهم بتويده وعدم الإشراف بتقديسه شيخاً آخر .. وإذا تخيلنا كثرة الأشياء

(١) إرشاد المغفلين ٢٤٠.

(٢) قواعد الصوفية ج١/١٨٧.

(٣) قواعد الصوفية ج١/٦٤.

(٤) مناقب الوفاية : مخطوط ٧٣، ٧٤ : ٧٥.

(٥) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٥٠ ب. مخطوط

فى العصر المملوكى وكثرة المريدين عرفنا إلى أى حد كان العصر المملوكى أسير العقيدة الصوفية وأصحابها .. وأن تلك الكثرة فى الأولياء مدعى الألوهية لم تمنع من مطلب التوحيد الدينى لكل شيخ من مرديه ..

(و) ولكن ماذا يحدث للمريد بعد أن يتقيد بشيخ واحد لا يشرك به شيئاً آخر...؟ أنه ببساطة - يكون له عيداً فاقداً لكل إرادة وشعور، مجرد امتداد مهمل لشيخه المسيطر عليه المتحكم فيه ..

ثالثاً : عبودية المريد لشيخه : بالغوا فى طلب الطاعة من المريد إلى حد أنهم أفقدوه ذاته وحياته .. وطالبوه بأكثر ما يطلب الله تعالى من العباد.

(أ) يقول الدسوقي (المريد مع شيخه على صورة الميت لا حركة ولا كلام، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه، ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة فى الزاوية أو غير ذلك)^(١). ولا يكتفى بذلك بل يقول (يجب على المريد ألا يتكلم قط إلا بدستور شيخه إن كان جسمه حاضراً، وإن كان غائباً يستأذنه بالقلب حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا المقام)^(٢).

وقد جعل الشعرانى من مقالة الدسوقي إحدى قواعد الصوفية فيقول (المريد الصادق مع شيخه كالميت مع من يغسله لا كلام ولا حركة ولا يقدر ينطق بين يديه من هيئته ولا يدخل ولا يخرج ولا يخالط أحداً ولا يشتغل بعلم ولا قرآن ولا ذكر إلا بإذنه، لأنه أمين على المريد فيما يرقيه)^(٣).

وقد طبق الشعرانى هذه القاعدة على نفسه حتى كان لا يمد رجله إلا بعد أن يستأذن بقلبه الأولياء، يقول (ومما من الله تبارك وتعالى به على كراهتى لمد رجلى فى ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولى : دستور يا الله أمد رجلى .. وكذلك الحكم فى مدها

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/١٥٣ الطبعة القديمة.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/١٤٣.

(٣) قواعد الصوفية ج١/١٨٩.

نحو المدنية المشرقة أو نحو ولى من الأولياء، لا أمدها ناحية أحد منهم حتى أقول : دستور يا سيد المرسلين أو دستور يا سيدى عبد القادر يا جيلانى أو ياسيدى أحمد يابن - الرفاعى أو يا سيدى أحمد يا بدوى أو يا سيدى ابراهيم يا دسوقى ونحوهم من الأولياء الأحياء .. والأموات .. فإن لم يكن ذلك كشفًا كان إيمانًا^(١). فالشعرانى يتمسح بقوله (دستور بالله أمد رجلى) كى يعطى نفس الحق للأولياء الصوفية باعتبارهم واسطة - عندهم بين الله والمريد - وفي ذلك يقول (الأدب مع الشيخ سلم للأدب مع الله.. وإقبال شيخ الإنسان عليه عنوان لرضا الحق عنه، وأقل مراتب الشيخ أن يكون كالهبوط للملك، فمن كان البواب يكرهه فبعيد أن تقضى له حاجة عند الملك لأنه لا يستطيع الوصول للسلطان من غير الباب، ومن قال من المريدين أنه يقدر على قضاء حاجته عند الله من غير واسطة فقد افترى على الله تعالى .. واجمع أشياخ الطريق على أن من لم يقدر على ملاحظة شيخه ومراقبته حال العمل لا يصح له مراقبة الحق فى طاعته أبدًا)^(٢). والمهم أن الشعرانى جعل عقيدة الإسلام فى منع الوسطة افتراءً على الله فقال «ومن قال من المريدين أنه يقدر على قضاء حاجته عند الله من غير واسطة فقد افترى على الله تعالى»!!

ب) ويجدر بالذكر أن مقالة الدسوقى عن المريد أمام شيخه أنه (كالميت أمام مغسله) مستقاة من وصف الغزالى لإحدى درجات التصوف وهى أن يكون الصوفى بين يدى الله تعالى كالميت تجرى عليه أحكام القضاء.. يقول عما أسماها بالدرجة الثالثة من التوكل (وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتًا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت)^(٣).. وطبقًا لعقيدة الاتحاد الصوفية التى لا ترى فارقًا نوعيًا بين الله والخلق فقد أعطى الشيخ الصوفى وصف الله بالنسبة للمريد العابد له إلى أن يترقى

(١) لطائف المنن ١٦٦ مكتبة عالم الفكر.

(٢) لطائف المنن ٢٧٨ : ٢٧٩ الطبعة القديمة.

(٣) أحياء ج٤/٢٢٥.

المريد برعاية شيخه له ويصبح شيخاً في نهاية الأمر يمارس نفس اللعبة مع مريد آخر، يقول (على وفا) (لم أجد إلى الآن - سنة ٨٠٤هـ - مريداً صادقاً معي يعترف لى بأنى أعرف منه بخواطره وصفاته الباطنة، ولو وجدته لأفرغت فيه جميع ما عندي من العلوم والأسرار)^(١). ويقول على وفا لكل مريد (إن وجدت استاذك المحقق وجدت حقيقتك وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله تعالى فوجدت كل شيء)^(٢). فوجود الشيخ فضلاً عن كونه يحقق عملياً عقيدة الاتحاد الصوفية فإنه - يجعل من الشيخ عنواناً لله أمام المريد الصوفي يستغنى به عن الله ويتوجه له بكل ما يحب عليه أن يتقدم لله تعالى به، وهكذا صرحوا بأن وجود الشيخ ضرورة وإلا فالمريد ضائع بلا شيخ فيقول على وفا (من ليس له استاذ فليس له مولي ومن ليس له مولي فالشيطان أولى به)^(٣).

ولم يخترع على وفا هذا القول اختراعاً وإنما أخذه عن الغزالي القائل (لكي يصل المريد للمكاشفة (أي يصبح ولياً مكاشفاً عالمًا بالغيب) لابد له من شيخ، فإن سبيل الدين غامض وطرق الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه في ورده ولا صده، ولا يبق في متابعته شيئاً وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه - لو أخطأ - أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب)^(٤). فأرسي الغزالي عبودية المريد لشيخه قبل العصر المملوكي.

ج) فعقيدة الاتحاد الصوفية هي التي جعلت من الشيخ جسداً خامداً تسيطر عليه إرادة الله أو متبينة الله أو تحل فيه ذات الله، جعلت في نفس الوقت من المريد كالبيت أمام مغسله، وحتمت وجود شيخ لكل مريد، وكفلت لذلك الشيخ على مريده كل الحقوق الإلهية في الطاعة والتقديس بحجة أنه واسطة لله أو متحد به .. ومنها ألا يكتم على

(١) قواعد الصوفية ج١/ ١٨٨.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/ ٣٧ الطبعة القديمة.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/ ٣٠ الطبعة القديمة.

(٤) احياء ج٣/ ٦٥.

شيخه شيئاً (وما كتم مرید عن شيخه شيئاً إلا خان الله ورسوله وخان نفسه وشيخه، وربما مات برأيه مع تلبسه بصورة النفاق)^(١). على حد قول الخواص.

والنهي عن كتمان السر عن الشيخ مطلب قديم يتفق مع النظرة الصوفية في سلب إرادة المرید وجعله جسداً يتحرك بشيخه .. يقول القشيري في القرن الخامس (لو كتم نفسه من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته)^(٢).

ويقول الخواص : (وإذا غضب الشيخ على انسان يجتنبه المریدون، وإلا يغضب عليهم الله، ولا ينبغي لهم البحث عن سبب غضب الشيخ عليه بل يسلموا للشيخ لأنه لا يغضب إلا بحق)^(٣).

وإذا غضب الشيخ على مریده فهي الطامة الكبرى. يقول المرصفي (من شقاء المرید في الدنيا وعنوان شقاوته في الآخرة تهاونه بغضب شيخه عليه، وعدم رؤيته نفسه وجوب المبادرة إلى صلحه والدخول في طاعته)^(٤). فإذا كان الله يرحم فالشيخ لا يرحم.. ولم ترد حقوق للمرید في كتابات الصوفية فقد سيطرت عليهم كفالة حقوق الشيخ ونسوا أن للمرید حقاً نظير تلك الواجبات المطالب بها، ونسوا أيضاً أن الله تعالى -الذي يتمسحون به كذباً وافتراءً- قد أوجب على نفسه جزاء للعبد الصالح المتقى، فجعل حقاً للعبد مقابل قيامه بواجبه .. أما الصوفية فيعبر عنهم قول المرسي للمريدين (لا تطلبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره بل طلبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطرکم)^(٥). فحرم عليهم مجرد التمني أن يكونوا في خاطر الشيخ وإهتمامه وجعل عليهم الواجبات دون أي حق.

د) ومع ذلك فالمریدون مخلصون لأشياخهم .. يقول ابن باشا في مدح المرسي كأنما يمدح الله تعالى :

(١) درر الغواص ٦٨. (٢) الرسالة ٣١٦.

(٣) درر الغواص ٨٣.

(٤) لطائف المنن ٢٧٨ : ٢٧٩ الطبعة القديمة.

(٥) لطائف المنن لابن عطاء ١١٥ تعطير الأنفاس مخطوط ٢٤٣.

شيخى أبو الحباس واحد وقته
وما كنت إلا حائداً فرددتنى
خضر الزمان ورب عين الأعين
وسقيت لى ماء الحياة وكنت لى
والى الطريق المستقيم هديتنى
كالحضر لما أن رويت سقيتنى^(١)

ويقول الشعراني (كان المريدون عند الشيخ الغسرى يرون أنفسهم ملكاً للشيخ يفعل فيهم ما شاء وهم أوصياء على أجسامهم)^(٢). أى أن ولايتهم على الجسد فقط وأما التصريف فمرجهه إلى الشيخ، ويقول العرصفى عن نفسه حين كان مريداً (لما أخذ على) شيخى العهد بأنى لا أخالفه ولا أكتم عنه شيئاً من أمرى كنت لا أكل ولا أشرب ولا أنام ولا أقرب من زوجتى حتى أقول بقلبي : دستور يا سيدى)^(٣). أى كما كان الشعرانى يفعل..

* فى تفضيل الولى الصوفى على الأنبياء :

الأنبياء هم صفوة الله بين البشر، اصطفاهم الله وأوحى إليهم وعلمهم وجعلهم أئمة للبشر، وهم مع ذلك بشر كسائر البشر عباداً لله يخافونه ولا يملك أحدهم لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا بمشيئة الله تعالى كباقي الناس.

والقرآن يصف خانم الأنبياء بأنه رجل من العرب وأن الأنبياء قبله كانوا أيضاً رجالاً كباقي الناس فى عصرهم ولكن يوحى الله إليهم (أكان للناس عجياً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس .. يونس ٢) (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين.. الأنبياء ٧: ٨) .. (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد. أفإن مت فهم الخالدون؟ كل نفس ذائقة الموت.. الأنبياء ٣٣، ٣٤) .. (إنك ميت وإنهم ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون .. الزمر ٣٠، ٣١) .. (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون .

(١) لطائف المنن لابن عطاء ٢٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ٧٨ الطبعة القديمة.

(٣) قواعد الصوفية ج١/ ١٨٥ : ١٨٦.

الرخف (٤٤) .. (فنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين .. الأعراف ٦) .. (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .. الأعراف ١٨٨) .. (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .. الفرقان ٢٠) ..

وفى الآيات السابقة ملامح لبشرية الأنبياء من الأكل والموت والاحتياج والمسئولية والحساب أمام الله تعالى .. وكلها تأكيد لعبودية الرسول لله تعالى.

أما الولي الصوفي الذي يؤمن بأنه جزء من الله فلا بد أن يجعل نفسه فوق الأنبياء طالما أن القرآن المحفوظ من لدن الله تعالى قد أكد على بشرية الأنبياء فى عشرات الآيات .. لذا رأينا ابن عربى يعلنها صريحة فى تفضيله للولى على الرسول : -

مقام النبوة فى برزخ فوق الرسول ودون الولي

والموضوع طويل .. ولكن نكتفى منه بملامح قليلة لبعض مظاهر تفضيل الولي الصوفي على النبى ..

(أ) العصمة :

إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يدّع العصمة، فعصمته فيما يخص رسالته وعداها فهو بشر عادى وفى القرآن آيات كثيرة تلوم الأنبياء بل وتصرح بمعصيتهم، «وفكرة العصمة لم تعرف فى صدر الإسلام ولم ترد فى القرآن ولا فى الكتب المنزلة ولا فى السنة الصحيحة» فى رأى بعض الباحثين^(١).

أما الصوفية فلهم شأن آخر، قال الشاذلى «رأيت كائى بين العرش فقلت يارب يارب فقال ليلىك لبيك، فقلت يارب فاهتز العرش، فقلت يارب فاهتز اللوح المحفوظ والقلم، فقلت أسألك العصمة فقل لى لك ذلك»^(٢)، وفى حزب البحر عند الشاذلية .. «نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والإرادات»، وفى حزب البريقول

(١) الشيبى الصلة بين التصوف والتشيع ج١/١٤٩، ج٢/٢٦٢.

(٢) مناقب الحنفى ١٤٧ - ١٤٨ مخطوط.

وأكسنا من نورك جلابيب العصمة»^(١). وروى الشعراني عن عبد القادر الجيلي قوله «من لم يعتقد في شيوخه الكمال لا يفلح على يديه أبداً»^(٢). ويرى الخواص أن الخواطر القبيحة لا تقع للكامل^(٣) من العارفين، وحتى لا يلام الصوفية أسندوا العصمة للأنبياء وسموا عصمتهم الحفظ وجعلوها متساويين^(٤).

وقد أخذ العلماء المتأخرون عنهم عصمة الأنبياء وحاولوا تأويل ما ورد في القرآن منافياً لذلك، فحققوا غرضاً حيويًا للصوفية حين أبيح لهم تأويل إفتراءاتهم على الله ورسله أو ما يسمى بالشطحات الصوفية.

وقد وقع البقاعي في هذا الشرك وهو من أكبر أعداء الصوفية فاحتج على تأويل شطحات ابن الفارض محتجاً بأنه لا يؤول إلا كلام المعصوم^(٥). وتجلى خطؤه هذا حين عدّ أقران الحلاج من صالحى الصوفية^(٦).

(أ) الشفاعة :

ليس للنبي أن يشفع في أحد فينجيه من النار أو يدخله الجنة يقول تعالى «ليس لك من الأمر شيء؛ إل عمران ١٢٨» «أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار؟ الزمر ١٩» ولا يجزئ النبي على إدعاء ذلك فمرجه لله وحده .. (ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع .. الأنعام ٥١) .. (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .. الإنفطار ١٩). أما الصوفية فينطبق عليهم قوله تعالى: (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله .. يونس ١٨) .. (أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً .. الزمر ٤٣، ٤٤)، ولقد تبارى الصوفية في إدعائهم الشفاعة عند الله، لأنهم اعتبروا أنفسهم -على أقل تقدير- واسطة بين الله وخلقه، وجعل الشعراني من أخلاق العارفين يوم القيامة بدمهم بالشفاعة فيمن كان يؤذيهم في الدنيا قبل الشفاعة في المحسن إليهم^(٧)، وفي طبقات الشرنوبى أن الله أدخل أتباع الدسوقي الجنة كرامة لأجله، وجعلهم

(١) أورد الدكتور عبد الحلیم محمود نص الحزین فی کتابه عن الشاذلی ص ١٧٦، ١٨٨.

(٢) قواعد الصوفية ج ١/ ١٧٤. (٣) درر الغواص الشعراني ص ٤.

(٤) لواقح الأنوار ٤٨. (٥) تاريخ البقاعي مخطوط ٨.

(٦) تاريخ البقاعي مخطوط ٩. (٧) لطائف المنن ٥٤٥.

أعلى مرتبة يوم الحشر من أتباع غيره^(١)، وروى حسن شمة أن الله قال للدسوقي «.. فوعزتي وجلالي لأشفعنك في سبعين ألفاً، كل منهم يشفع في سبعين ألفاً، كل منهم وجبت عليه النار»^(٢)، أما الهدوي فإن الرسول (يهنئه يوم القيامة بالعلم الذى وضع فوق رأسه وتحت خلق كثير، منهم من يعرفه ومنهم من لم يعرفه، ومكتوب على العلم «نصر من الله وفتح قريب لأحمد الهدوي ومن معه من المريدين والفقراء الصادقين»، وقد مشى وخلفه مالا يحصى من الخلائق حتى دخل بهم الجنة)^(٣).

أما الشاذلى، فقد جعله مكين الدين الأسمر يدخل الناس على الله بينما يدعو غيره الناس إلى باب الله^(٤)، وشفع ياقوت العرشى حتى فى الحيوانات^(٥)، وضمن شمس الدين الحنفى الجنة لأصحابه، وأصحاب أصحابه، وأصحاب أصحاب أصحابه، أربعين مرة، ويشرهم بذلك^(٦). أما على وفا فيشفع فى أولياء جميع الأزمنة^(٧)، وليس المريدين فقط. ونصح أبو المواهب الشاذلى بصحبة الفقراء (... فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة .. لكان فى ذلك كفاية)^(٨).

وشفع محمد بن عنان فى ميت كان يعذب فى قبره^(٩)، واشترط أحمد الزاهد - وقد زعم أنه شفعه الله فى جميع أهل عصره على طالب شفاعته أن يصلى ركعتين له فى مسجده^(١٠). وكان الواحد من أصحاب الشيخ أبى السعادات «يشفع يوم القيامة فى سابع جار من جيران داه»^(١١)، أما القمى فكان لا ينام حتى يعتق لأجله آلاف من الخلائق من النار^(١٢)، وشفع بعض الأولياء فىمن يُشيع من الأموات^(١٣). وتخصص

(١) طبقات الشرنوبى مخطوط ١، ٤.

(٢) حسن شمة ٥٥.

(٣) عبد الصمد. الجواهر ٤٣، النفحات الأحمديّة ٢٣٨.

(٤) لطائف المنن لابن عطاء ٤٤.

(٥) ياقوت العرشى الطبقات الكبرى ١٨/٢.

(٦) مناقب الحنفى ١٠٠ مخطوط.

(٧) مناقب الرفاثة ١٣ مخطوط.

(٨) الشعرانى .. صحبة الأخبار ٣٩.

(٩) الشعرانى، الطبقات الكبرى ج٢/١٠٣، الجواهر والدرر ص١٠٧.

(١٠) الشعرانى. الطبقات الكبرى ج٢/٧٣. (١١) ابن أبيك الداودارى ١٥٣.

(١٢) الكواكب السيارة ٢٧٠ وهناك قصة أخرى عن الشفاعة فى نصرانى ص٢٥٢، ٢٥٣.

(١٣) لطائف المنن للشعرانى ٢٩٩.

التشيخ على وحيش (ت ٩١٧) فى الشفاعة فيمن يتردد على بيوت العاهرات «وكل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك»، وحسب تعبير الشعراني «كان يقيم فى خان بنات الخطأ» ولأجل شفاعته «كان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه من الخروج حتى يجاب فى شفاعته»^(١)، إلى هذا الحد بلغت إدعاءاتهم فى الشفاعة عند الله، وقد قال البهاء زهير هاجياً ..

أرحمنى منك حتى لا أرى منظرىك الوعرا
فما تنفع فى الدنيا ولا تشفع فى الأخرى^(٢)

أى أن الشفاعة صارت حقاً مباحاً للجميع.

الصوفية يفضلون الولي الصوفى على الله تعالى

١ - هو موضوع خطير بلا شك، بيد أن خطورته لا ينبغي أن تكون عائقاً عن البحث فيه، بل على العكس، فحق الله تعالى على المسلم يفرض عليه -إذا استطاع- أن يفضح العقائد المخالفة بالغة ما بلغت .. سيما إذا انتسبت للإسلام زوراً وبهتاناً فأحقاق الحق واجب، وخاصة إذا تعلق هذا الحق بالله تعالى وبدينه، وعلى أمل أن تتضح الحقائق أمام مسلمى اليوم ليتعظوا.

٢ - ومظاهر تفضيل الصوفية للولي الصوفى على الله تعالى .. كثيرة ومتعددة، بعضها مظاهر خفية غير مباشرة تكمن فى هامش الشعور الصوفى وتتجلى فى مواقف شتى.. منها ما يتصل بإحقاق الحق الخاص بالله تعالى والذي أشرنا إليه والذي اعتدى عليه الصوفية بافتراءاتهم .. ونقصد بذلك قضية التأويل للشطحات الصوفية ..

٣ - وقد عرضنا للشطح الصوفى، وأقل ما يقال فيه أنه اعتداء أثيم على الله

(١) الشعراني .. الطبقات الكبرى ج٢/ ١٢٩.

(٢) ديوان البهاء زهير ٤٧.

تعالى بالقول المفزع .. فهنا قضية فيها (ظالم) وهو الصوفى صاحب الشطحات و(مظلوم) وهو الله تعالى الذى أهين بأقوال الصوفية وشطحاتهم .. وهو ظلم عظيم (إن الشرك لظلم عظيم .. لقمان ١٣) ، وعلى ذلك فقيام الصوفية بتأويل الشطحات وتبريرها تعنى نصره الظالم على المظلوم أو نصرة أوليائهم على الله تعالى .. وإلى جانب ذلك تعبر عن احساس خفى فى شعورهم هو تفضيلهم لذلك الولى الصوفى على الله تعالى، ورعاية أكثر لحقه عليهم جعلتهم يفضلون هذا الحق المزعوم على حق الله تعالى وهو -جل وعلا- الذى وقع عليه الاعتداء القولى..

وقد يحس القارئ العادى الذى يحسن الظن بالصوفية ببعض التخرج من الكشف عن حقيقة الصوفية وكلامهم .. ويتعجب عن الخوض فيها مراعاة لما درج عليه الناس من تقديس للتصوف ورجاله .. وهذا الموقف العام يعتبر امتداداً لذلك الشعور الخفى الذى يجعل الشعرانى وغيره يؤولون كلام الصوفية ويدافعون عنهم انحيازاً إليهم على حساب الله تعالى وتفضيلاً لهم على الله تعالى ..

أما المؤمن الحق فلا يعنيه إلا حق الله تعالى ينصره ويدافع عنه، وهو بهذا يوالى الله تعالى وينصره ويحظى فى المقابل بتأييد الله تعالى ونصرته طالما كان تقياً .. وهذا هو الفارق الأساسى بين ولاية الله تعالى وولاية الشيطان ..

٤ - ومن المظاهر الخفية لتفضيل الولى الصوفى على الله تعالى - ما ينم عليه معنى اختيارهم أنفسهم كأولياء لله تعالى من دون الله ومن دون الناس .. وقد سبق أن عالجتنا هذه النقطة قلنا كأنهم بذلك وصفوا الله تعالى بالعجز عن الاختيار فقاموا هم بمهمة الاختيار، ووصفوه تعالى بالجهل بأصلح عباده للقيام بمهمة الولى فقاموا باختيار الأصلح من بين البشر كأنهم أعرف من الله تعالى بخلقه ..

ويعنى ذلك أنهم وصفوا أنفسهم بنقيض ما اسندوا لله تعالى -بطريق غير مباشر- من صفات الجهل والعجز .. أى أنهم فضلوا أنفسهم على الله بحيث قاموا هم بالاختيار وفرضوا ذلك الاختيار على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .. وهو ظلم عظيم آخر وقع

على الله تعالى، وخطورة التفضيل هنا تكمن في أن أحداً من الصوفية - بل ومن البشر - لا يرضى لنفسه بذلك الموقف الذي جعلوا الله تعالى فيه حين فرضوا عليه أنفسهم أولياء..

ولنضرب لذلك مثلاً .. (فزيد) -مثلاً- قام بشراء طفل رباة وأعاله وكفله .. وبعد أن استوى الطفل رجلاً فتياً ادعى أن صاحب الفضل عليه هو (عمرو) وجعل من (عمرو) متحدثاً باسم (زيد) مثلاً له. مشاركاً له في استحقاق التعظيم، وادعى افتراءً أن تلك هي رغبة (زيد) وأن في ذلك رضا .. فهل يرضى أحدنا أن يسلب منه الفضل وحق الاختيار فيختار له الآخرون الأصدقاء والأصفياء ويقصدونهم بحق يجب أن يكون له من دون أولئك الأصدقاء المزعومين الذين لا يد له في اختيارهم .. وتزيد المأساة إذا كان ذلك المظلوم هو العلي الجبار الذي خلق فسوى ورزق وهدى وتكتمل المأساة حين يرسل الرسل تنهى عن اتخاذ البشر للوسائط والأولياء من دون اختيار الله تعالى ثم يسجل ذلك في خاتم الرسالات بقرآن مبين مؤيد بحفظ الهى حتى قيام الساعة .. ولعل الله تعالى كان يشير في كتابه العزيز إلى ذلك حين قال (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم : هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله؟.. الروم ٢٨، ٢٩) ..

٥ - وقد عرضنا لأقوال الصوفية في علاقة المريد بشيخه وفيها ما يفضح تفضيلهم للشيخ على الله تعالى ومنها أن المريد لو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخيله لذلك الشيخ في باله وأن المريد يتلذذ بكلام شيخه كما يتلذذ بالجماع، وأن بعض المريدين اعتبر أكله في زاوية الشيخ شركاً بالشيخ فرفض الأكل والشرب في الزاوية اكتفاء بتقديس شيخه ..

وذلك الحب الذي يطالب به المريد فوق الحب الذي يطالب الله تعالى به عبده، وأعظم المحبين لله تعالى هم رسله الكرام وما سمعنا عنهم أمثال هذا التطرف في المحبة .. وغاية ما هنالك أن المسلم المحب لله تعالى يعبر عن حبه لخالفه الرازق بالشكر حين

يأكل الطيبات (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم وأشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون .. البقرة ١٧٢) .. فهنا أكل للطيبات وشكر لله تعالى صاحب النعمة .. لا أن يعرض عن الطعام استغناء بحبه لله تعالى ..

وإذا كان المرید الصوفی مطالباً بالتلذذ بكلام شيخه كأنه في حالة جماع فإن المؤمن لا يطالب بأكثر من الإنصات والاستماع الحسن لكلام الله العزيز (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .. الأعراف ٢٠٤) ..

٦ - وبالغ الأسيخ في طلب الطاعة من المرید إلى أن نزعوا عنه الإختيار والإرادة، حتى لا يتكلم ولا يتحرك إلا بإذنهم، وأبنا كيف أن الشعرائي لا يحرك قدمه إلا بعد استئذان الأولياء .. وهذا الشطط في طلب الطاعة والشطط في امتثال المرید للشيخ يعنى تفضيلاً للشيخ على الله تعالى فالمرید يقدم طاعته للشيخ على طاعته لله - على فرض أن الإسلام يجيز طاعة الشيخ الصوفى أو أن ذلك الولي يمثل لأحكام الله - ثم إن هذا الشطط في التكليف لا يوجد بتاتاً في شرع الله، فالله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها وفي حدود إمكاناتها (لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها .. الطلاق ٧) .. ومع أن الله تعالى قائم على كل نفس بما كسبت فقد ترك مجالاً للإختيار البشري به يحاسب المرأ. وعلى ذلك فشخصية الإنسان مرعية الجانب في التكليف الإسلامى فيقول تعالى للمشركين (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير .. فصلت ٤٠) ..

٧ - ومن ألوان التفضيل للولي أنه بعد مبالغته في طلب حب المرید وطاعته فليست للمرید من حقوق لديه، والمرید مع ذلك متدله في حب الشيخ مستमित في طاعته بلا مقابل - أما الله تعالى فقد سنّ الجزاء على العمل في الدنيا والآخرة .. ومع ذلك فحظه من المرید الصوفى الإعراض والإهمال والدرجة الدنيا، والطريف أن الدافع للمرید في هذا الحب وتلك الطاعة للشيخ هو ما للشيخ عند الله من مكانة يتمكن بها من رفع شأن المرید في الدنيا والآخرة في زعمهم، أى أن الله في الاعتقاد الصوفى ما عليه إلا أن يعطى للأسيخ الصوفية ما يريدون لمريديهم كي يفرضوا على المریدين ما يشاءون من أوامر ونواهي لا شأن لله بها، ويمثل المریدون للأسيخ، ويظل الشيخ في

بؤرة الشعور لدى المريد، وليس لله من مجال عند الإثنين .. أبعد ذلك افتراء وتضليل وتفضيل؟؟..

٨ - وقد تنبه بعض الباحثين لحقيقة التفضيل في الفكر الصوفي فيما يخص علاقة المريد بشيخه فقال (أضحى الولي في عرفهم أعظم من الله تعالى، وقد حملهم ذلك على أن يكفلوا للولي من الحقوق على أتباعه ماله على عباده، فطالبوا المريد والتابع بالإمتثال دون اعتراض أو إنكار مهما بلغ شطط أوامر الشيخ)^(١).

٩ - وقبل الإستشهاد بعبارات صوفية صريحة في تفضيل الولي الصوفي على الله تعالى نؤكد أن هذا الاتجاه ليس وليد العصر المملوكي -عصر الازدهار الصوفي- وإنما تمتد جذوره إلي بداية التصوف في القرن الثالث الهجري .. والبسطامي كان رائداً في هذا المجال، ومقاتله الشطحية مشهورة وهي قوله لله تعالى (بطشى أشد من بطشك، طاعتك لي أعظم من طاعتى لك .. إلخ). وقد اغرم القاشاني شارح الفصوص بإحدى عبارات البسطامي فشرحا يقول في مقالته (ملكى أعظم من ملكك أى لكونك لي وأنا لك فأنا ملكك وأنت ملكي وأنت العظيم الأعظم وملكى أنت فأنت أعظم من ملكك)^(٢).

وروى الشعراني حكاية مشهورة عن البسطامي وهي أن النخشبى وشقيقاً البلخى زاراه، فلما قدم الخادم الطعام قال له : كل معنا يا فتى فقال : لا. إني صائم. فقال له أبو تراب النخشبى : كل ولك أجر صوم شهر فقال لا. فقال له شقيق البلخى : كل ولك أجر صوم سنة فقال لا. فقال أبو يزيد دعوا من سقط من عين رعاية الله عز وجل، فسرق ذلك الشاب بعد سنة فقطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ^(٣)..

أى أن طاعة أولئك الأشياخ مقدمة على طاعة الله تعالى .. ومن يعصهم فمصييره قطع يده .. وليس مهماً أن أولئك الأشياخ يدعون لأنفسهم حق تقدير الثواب للصائم بأجر شهر أو أجر سنة في نظير إطاعته لأوامرهم بقطع الصوم لله ..

(١) توفيق الطويل : التصوف في مصر في العصر العثماني ١٩٧.

(٢) شرح القاشاني لفصوص الحكم ٥٣.

(٣) قواعد الصوفية ج١/ ١٧٥.

ومن ذلك ما رواه الغزالي عن أبي تراب النخشبى سالف الذكر من أنه كان معجباً ببعض المريدين فكان دائماً يقول له (لو رأيت أبا يزيد) فقال له المريد لما أكثر عليه (ويحك ما أصنع بأبي يزيد .. قد رأيت الله تعالى فأغنانى عن أبي يزيد (قال أبو تراب فهاج طبعى ولم أملك نفسى فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة)^(١) فصاحبنا حين هاج طبعه ولم يملك نفسه، صرح بمكنون عقيدته وهو أن رؤية أبى يزيد البسطامى أنفع من رؤية الله سبعين مرة، لأن البسطامى ملكه أعظم من ملك الله ويطشه أشد من بطش الله وطاعة الله له أكبر من طاعته لله فى اعتقادهم.

١٠ - ومن مظاهر تفضيل الصوفية المملوكية أنفسهم على الله تعالى أن جعلوا أولياءهم المتصرفين فى الكون وفى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .. كما يقول البافى عن بعضهم أنه سأل أصحابه (هل منكم من إذا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يحدث فى المملكة حدث أعلمه قبل أن يبيده؟ فقال أصحابه : لا قال : ابكوا على قلوب لا تجد شيئاً من الله تعالى)^(٢). أى أن الولى إذا تمكن وصل بتصرفه إلى السيطرة على الله تعالى فلا يبرم الله فى العالم أمراً إلا بعد إعلام ذلك الولى به ..

ونحو ذلك ما قاله الشطنوفى فى مناقب الجبلاتى (كان الشيخ حياء بن قيس يقول : إن الله يدر الضرع فى وقتنا هذا وينزل الغيث ويدفع البلاء ببركة الشيخ عبد القادر)^(٣). ومعنى ذلك أنه لولا بركة عبد القادر الجبلاتى ما استطاع الله أن يدر ضرعاً أو ينزل غيثاً أو يدفع بلاءً .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

والشعرانى أشار إلى تفضيل أعيان المملكة الصوفية من القطب والإبدال على الله تعالى حين قال (إن الله تعالى إذا أراد إنزال بلاء شديد مثلاً فأول ما يتلقى ذلك القطب، فيتلقيه بالقبول والخوف، ثم ينتظر ما يظهره الله تعالى فى لوح المحو والإثبات

(١) أحياء ج٤/ ٣٠٥.

(٢) روض الرياحين ٦٩.

(٣) بهجة الأسرار ج٣/ ٢٠٣ مخطوط.

والخصيصين بالإطلاق والسراح، فإن ظهر له المحو والتبديل نقذه وأمضاه فى العالم بواسطة أهل التسليك الذى هم سدنة ذلك فينفدون ذلك وهم لا يعلمون أن الأمر مفاض عليهم، وإن ظهر له الثبوت دفعه إلى أقرب عدد ونسبه منه، وهما الإمامان فيتحملان به، ثم يدعانه أن لم يرتفع إلى أقرب نسبة منه كذلك، حتى يتنازل إلى أصحاب دائرته جميعاً، حتى يرفعه الله عز وجل، ولو لم يحمل هؤلاء ذلك من العالم لتلاشى فى طرفة عين^(١). فالقطب وأعوانه يتحكمون فى ملك الله تعالى ولولاهم لتلاشى العالم .. والله تعالى - مع ذلك الاحتياج للقطب وأعوانه - ينزل بالبلاء على العباد، ويتكرم القطب وأعوانه بتحمل ذلك البلاء عن العالم .. - أى أن الله تعالى جبار على العالم منزوع السلطات فى نفس الوقت .. وهذا تناقض لا نظير له إلا فى الفكر الصوفى ..

وبعض الأولياء الصوفية المتصرفين فى الكون -بزعمهم- تجرأ على مخالفة أمر الله تعالى ورد قضاءه بالموت وطرد عزرائيل، كما فعل محمد الشريينى والشويحي، وتعرضنا لذلك فى تألية الولي وسيطرته على الملائكة ..

١١ - وفى مجال التوسل فضلوا الولي على الله تعالى .. يقول الشعرانى مثلاً أن الحنفى (شمس الدين الحنفى) (كان .. يعدى من مصر إلى الروضة ماشياً على الماء وهو وجماعته، فكان يقول لهم : قولوا يا حنفى وامشوا خلفى وإياكم أن تقولوا يا الله، فخالف شخص منهم وقال يا الله فزلقت رجله فنزل إلى لحيته فى الماء ...) (٢). ففى هذه الأسطورة كان التوسل بالحنفى مجدداً فى المشى على الماء، أما من يتوسل بالله فالمصير هو الفرق، فهنا تفضيل مهما كان التعليل ..

واشتهر البدوى فى الأساطير الصوفية بإحياء الموتى، يقول عبد الصمد الأحمدي (ومن كراماته . أن امرأة مات لها ولد صغير، فجاءت إلى سيدى أحمد البدوى، وهى باكية، وقدلت : يا سيدى ما أعرف ولدى إلا منك، وقام الفقراء ليمنعوها فلم يقدروا، وهى تقول : توسلت إليك بالله ورسوله، فمد سيدى أحمد البدوى يده إليه، ودعا له، فأحياء الله ببركة دعائه .. نفعنا الله تعالى بهركاته) (٣).

(١) الطبقات الكبرى ج٤/٢، ١٤٦، درر الغواص ١٤. (٢) لواقح الأنوار ٢٤٥.

(٣) الجواهر السنية ٤٣.

فالمزأة توسلت للبدوى بالله ورسوله .. أى جعلت الله والرسول وسيلة وإسطة للبدوى، وعلى ذلك فالبدوى عندهم أعلى شأنًا من الله .. فالبدوى هو المتوسل إليه والله هو المتوسل به، ثم كان الإحياء المزعوم ببركة دعاء البدوى - لا بقدرته الله تعالى .. ويتكرر فى الكتب الصوفية وكتب المناقب على الأخص .. تعبير (نفعنا الله ببركاته) كما فى النص السابق .. ومعناه أن بركة للمصوفى هى الأصل وعن طريقها . يتمكن الله تعالى من النفع بها، ولولاها لما كان ثمة نفع، ومعلوم أن البركة عندهم هى سر الولى وقدرته على التصريف، فجعلوا بركة الولى وسيلة لله يجرى بها النفع للعباد، كما سبق فى القول السابق عن الجبلاتى من أن الله يدر الضرع وينزل الغيث ويدفع البلاء ببركته ..

١٢ - وللمدرسة الشاذلية نزعة غريبة فى تفضيل الولى على الله تعالى - لا أجد لها تعبيراً مناسباً، ولعل من الأفضل أن نتفهم النصوص المعبرة عن ذلك .. يقول الشاذلى (لما علم الله عز وجل ما سيقال فى هذه الطائفة على حسب ما سبق به العلم القديم، بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم بالشقاء، فنسبوا إليه زوجة وولداً وفقرًا وجعلوه مغلول اليمين، فإذا ضاق ذرع الولى أو الصديق لأجل كلام قيل فيه من كفر وزندقة وسحر وجنون وغير ذلك، نادته هواتف الحق فى سره .. أما ترى إختك من بنى آدم كيف وقعوا فى جنابى ونسبوا لى ما لا ينبغى لى، فإن لم ينشرح لما قيل نادته هواتف الحق أيضاً أمالك بى أسوة فقد قيل فى ما لا يليق بجلالى)^(١). أى أن الله -تعالى- ارتضى لنفسه أن يكفر به الناس وما لا يليق من وصف وكل ذلك ليكون أمثلة وعبرة للولى الصوفى، فإذا سب الناس الولى الصوفى قال له الله ألا تتأسى بى فإنهم يقولون فى أيضاً كذا وكذا.. فهى طريقة شاذلية فريدة فى تفضيل شأن الولى على الله، إذ استخدموا الله تعالى فى حربهم للمتكبرين وقاسوا الإنكار عليهم بالكفر على الله

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج١/ ٢٩ البحر المورود ١٥ : ١٦.

تعالى، وجعلوا الله تعالى يجعل الناس يكفرون بألوهيته تعالى ويتقولون عليه رعاية لجناب ذلك الولي الصوفي وحتى لا يضيق بأى نقد..

ويقول المرسى لمريديه (ما سمعتموه منى ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، ومالم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى بيانه، واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم يتضح لكم كل شىء^(١)). فالمرسى لا يفهم أحداً شيئاً .. بل يدع الله يتولى بيان كلامه للمريدين ويطلب منهم أن يظهروا قلوبهم ليستحقوا فهم كل شىء من مراده .. أما إذا حدث وفهم المريد فمطلوب منه أن يستودع الله ما فهمه من المرسى .. أى أن الله تعالى واسطة بين المرسى ومريديه .. يستخدم فى حفظ المعلومات المفهومة وتوضيح المعلومات المبهمة ..

وفى ذلك بعض الشبه أو التأثير بالحياة التعليمية فى العصر المملوكى التى قامت على أستاذ وعريف وطالب.. ووظيفة العريف (أو المعيد) أن يعيد للطلبة كلام الشيخ ويفهمهم ما عجزوا عنه ..

فانظر إلى أية درجة نظر المرسى لله تعالى، وفى أية مكانة وضعه فيها .. فى حلقة درسه..

(١) لطائف المنن ١٣٤.

المقصود بالعبادة والتقديس هو الله جل وعلا وهو الولي ولا ولي سواه

١ - رأينا كيف انزلت الصوفية بعد تركية أنفسهم إلى تأليه ذاتهم واعتبارها شركاء لله في ملكه وحكمه .. مع أنه تعالى لا يشرك في حكمه أحداً ولا واسطة بينه وبين عباده ..

٢ - والواقع أن الولي المقصود بالعبادة والتقديس لا يكون سوى الله تعالى .. فقد وصف تعالى نفسه بصفة الولي المقدس المعبود في معرض الاحتجاج على المشركين الذين اتخذوا لأنفسهم أولياء غير الله .. يقول تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء قال الله هو الولي وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير .. الشورى ٩) .. وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن الله هو الولي الحقيقي، فهو الذي يحيى الأموات ومنهم أولئك المقبورون الذين يعتقد المشركون في ألوهيتهم، مع أنهم لا يقدرون على شيء، والله هو القدير على كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ..

ويقول تعالى (قل أغير الله اتخذو ولياً؟ فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم؟ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين .. الأنعام ١٤) .. فالرسول عليه السلام أمره به أن يقول للمشركين أيمن أن يتخذ ولياً سوى الله تعالى، وهو الذي خلق السماوات والأرض وهو الذي يطعم الخلق ولا يطعمه الخلق .. وفي ذلك تعريض بأولياء الشرك التي لا تقدر على أن تخلق بل هي مخلوقة، بل وتعيش عالة على رزق يأتيها ممن يعبدونها.

٣ - ومن سمات الإسلام أن يكتفى المسلم بالله ولياً (وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً .. النساء ٥٤)، ذلك أن الولاية الحقيقية لله تعالى وحده (هنالك الولاية لله الحق .. الكهف ٤٤) .. فقد وصف تعالى نفسه بالولي (وهو الولي الحميد .. الشورى ٢٨) .. فلا ولي للعالمين غيره (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أ فلا تتذكرون .. السجدة ٤) .. (ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً .. الكهف ٢٦) ..

٤ - ولأن الصوفية لم يؤمنوا بالله تعالى ولياً فإنهم بالغوا فى تقديس أوليائهم وتألّيههم على حساب الله تعالى، ولم يكتفوا بذلك بل المحوا إلى تفضيل هذه الأولياء على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولا ريب أن الشيطان هو الذى أوقعهم فى هذا الشطط .. فهو الولي للمشركين .. سواء كانوا معتدلين أم متطرفين ..

الصوفية أولياء الشيطان

١ - بدأنا مبحث الولي بتفصيل عن الولي فى القرآن الكريم وانتبهنا منه إلى أنه مجموعة صفات من الإيمان والصلاح والتقوى، صفات عامة ولا يعلم حقيقتها إلا الله، وطالما كان الإنسان حياً فهو فى صراع مستمر مع الشيطان، فتتغير تلك الصفات الحسنة فيه بالزيادة والنقص، وفى نهاية حياته تكون المحصلة النهائية، وبها يعرف مكانته أهو ولي لله تعالى مصيره للجنة أم ولي للشيطان مصيره للجحيم .. ثم عشنا مع ولي التصوف الذى يزكى نفسه وتزكيه طائفته وتصل به إلى مرتبة الألوهية وتزيد .. وإذا كان أولئك الصوفية خرجوا على حدود الإلتزام الإسلامى حين قاموا بتزكية أنفسهم فإنهم قد تطرفوا حين ألهموا أولياءهم من دون الله، وبذلك تنطبق عليهم سمات ولي الشيطان السى أوردها الله تعالى فى القرآن الكريم ..

٢ - وقضية تقسيم الولاية بين الله والشيطان قضية عقيدة لا تحتل التوسط عند الله، فإما أن يكون المرء عند موته مؤمناً أو مشركاً .. وإما أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان .. ولا مجال للتوسط .. (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .. البقرة : ٢٥٧) ..

فالْمُؤْمِنُونَ لا يتخذون لهم ولياً إلا الله، قاله يخرجهم من ظلمات الشرك والإضطهاد إلى نور الإسلام، أما أولئك الذين يتخذون لأنفسهم أولياء من دون الله فالشيطان وليهم يخرجهم من نور الفطرة السليمة إلى ظلمات الشرك والجحيم .. وليس بين الفرقتين طائفة ثالثة ..

٣ - وأصابع الشيطان وراء كل مظهر شركى وقع فيه أولئك الصوفية .. يشمل ذلك

بداية خروجهم على الإلتزام الإسلامى حين زكوا أنفسهم وتمنوا على الله تعالى الأمانى .. فالشيطان هو الذى وسوس لهم بذلك حسيما يذكر الله تعالى عن دور الشيطان.

فقد أعلن إبليس منذ البداية خطته للإيقاع بينى آدم (ولأضلهم ولأمنينهم .. النساء ١١٩) .. فالتمنى على الله من وساوس الشيطان (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .. النساء ١٢٠) .. وقد فعل ذلك بالمتافقين (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى وغركم بالله الغرور .. الحديد ١٤) .. والغرور هو الشيطان، سمى بذلك لأنه يغرر بالإنسان ويزين له تزكية النفس على الله تعالى ..

ونلج تزكية الشيطان للصوفية فى ادعاءات الصوفية أنفسهم .. فإبليس قد يزكى أفراداً من الصوفية فيقول مثلاً قيس بن الحجاج (قال لى شيطانى : دخلت فيك وأنا مثل الجوز وأنا الآن مثل العصفور)^(١).

فهنا تزكية مباشرة ومدح واضح واعتراف صريح من الشيطان لابن الحجاج بأنه عجز عن إفساده، ومطلوب منا أن نصفق لابن الحجاج الذى أرق شيطانه بتقواه وبذلك من بعد السنة نحولاً .. وقد تكون التزكية الشيطانية للصوفى ملتوية وغير مباشرة - وهى أبعد أثراً كما يروى الغزالي من أنه (كانت لمحمد بن واسع استعاذة من الشيطان، فقابلته إبليس يوماً فقال له : هل تعرفنى يا ابن واسع؟ قال : ومن أنت؟ قال : أنا إبليس فقال : وما تريد؟ فقال له : أريد ألا تعلم أحداً هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك...) (٢). فلا بن واسع تعويذة رهيبة - لا نعرفها مع شدة الأسف - وهذه التعويذة المجهولة فعلت فعل السحر بإبليس فعقد صلحاً مع ابن واسع يتص على أن يتعهد ابن واسع بعدم تعليمها لأحد حتى لا تضيع جهود إبليس هباء .. وذلك فى نظير ألا يتعرض إبليس لابن واسع بسوء .. فيضمن لبن واسع لنفسه العصمة من إبليس، ويتفرغ إبليس لمهمته فى إفساد البشر جميعاً سوى ابن واسع .. ولا ريب أن تلك الاستعاذة المجهولة أبعد أثراً مما أورده القرآن الكريم فى المعوذتين ومن قوله تعالى لرسوله (وقل رب أعوذ بك من همزات

(١) احياء ج٢٦/٣.

(٢) احياء ج٢٣/٣.

الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون .. المؤمنون ٩٧، ٩٨) .. فالتزكية لابن واسع هنا وإن كانت ضمنية إلا أنها متطرفة، فقد رفعت فوق مستوى البشر بل والرسول .. ولا نقول أكثر من ذلك ..

وقد تكون التزكية لطائفة الصوفية بأسرها على لسان إبليس يرونها أعيان الصوفية كالجنيد القائل (رأيت إبليس في المنام عرياناً فقلت ألا تستحي من الناس؟ فقال إبليس: وهؤلاء ناس؟ الناس أقوام في مسجد الشونيزيه قد احرقوا كبدي.. قال الجنيد فلما انتهيت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رموسهم على ركبهم يتفكرون، فلما رأوني قالوا: لا يغرنك حديث الخبيث ..) (١).

وقال المسوحى (رأيت إبليس يمشى عرياناً فقلت ألا تستحي؟ فقال يالله هؤلاء ناس.. لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة، بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي. وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية) (٢).

٤ - ويفهم من النصين السابقين الود القائم بين الجنيد والمسوحى من ناحية وإبليس من ناحية أخرى .. حتى أنهما يعتبان عليه المشى عرياناً في السوق خشية الإنكار عليه من الناس الآخرين، وذلك الود يشى بالولاء بين إبليس والصوفية، ذلك أن المسلم مطالب باتخاذ إبليس عدواً أبدياً (ولا يغرنكم بالله الغرور، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير .. فاطر ٦) .. وذلك الود الذى تظهره كلمات الصوفية المعتدلين كالجنيد والغزالي يعبر عنه بوضوح القرآن الكريم بالموالاة بين إبليس وحزبه .. وقد أبرز القرآن الكريم نواحى شتى للموالاة بين الجانبين ..

٥ - فالصوفية يقيمون الأضرحة على قبورهم، ويتقرب الناس لهذه الأضرحة بالقديس والتبرك والنذور، والأضرحة هي الأنصاب المذكورة في القرآن الكريم والتي كان يتقرب إليها الجاهليون بالذبايح والنذور ويحاولون من خلالها معرفة الغيب الإلهي .. وذلك كله من عمل الشيطان، يقول تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنوه لعلمكم تغفلون .. المائدة ٩) ..

(١) أحياء ٤٣٣/ج٤. (٢) أحياء ٤٣٢/ج٤

والعقل البشرى العادى يرفض فكرة عبادة الأحجار سواء كانت أصناماً أم قبوراً وأنصافاً .. ولا فارق بين حجارة عادية وحجارة مقامة على قبر مقدس .. إلا أن الشيطان يزين لأتباعه تقديس هذه الأحجار والتبرك بها رعاية للصوفى المدفون تحتها .. حتى أن ذلك الصوفى المقبور الذى أضحي جيفة يتقزز الإنسان من لمسها ويفزع من مجرد رؤيتها .. ذلك الصوفى المقبور لا شأن لجسده المتحلل بأى من هذا التقديس .. فقد بلى وتحلل وأصبح رماداً .. فالمعبد فى الحقيقة هو الشيطان .. الذى زين للناس مخالفة عقولهم ودينهم .. يقول تعالى عن المشركين السابقين وعقائدهم وأفعالهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون .. الأنعام ٤٣) (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم .. النحل ٦٣) .. (وعادا وثمود، وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم .. العنكبوت ٣٨) ..

وقد قال تعالى للبشر (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة .. الأعراف ٢٧) .. وأدنى عبادة للشيطان هى امتثال أمره والإعراض عن أوامر الله .. وتكتمل عبادة الشيطان بالشرك واتخاذ الأولياء من الإنس والجن .. لذا يقول تعالى بأسلوب القصر (إن يدعون من دونه إلا إناثاً، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله .. النساء ١١٦، ١١٧) .. فالمعبدون من دون الله إما ملائكة عذبت رغم أنفها، وإما شياطين غرروا بالناس وجعلوهم يعبدون الأحجار والأولياء وجثث الموتى المتحللة، وهى لا تعدو أن تكون وسائل يعبدون الشيطان من خلالها .. وهكذا كان النهى الإلهى صريحاً للبشر ألا يعبدوا الشيطان (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدونى، هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً، أفلم تكونوا تعقلون .. يس ٦٠ : ٦٢) .. فإما أن تعبد الله وحده وإما أن تكون عابداً للشيطان دون أن تدري، وكان إبراهيم صريحاً مع أبيه حين قال له (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً .. مريم ٤٤) ..

هذا .. ولقد قال الغزالي (..) فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته فذلك ميدان العارفين المتفغلين فى علوم المكاشفات^(١) ومن يقرأ هذه العبارة يعتقد أن المقصود

بمعرفة ذاته وصفاته هو الله تعالى، فذلك كثيراً ما يتردد في كتب الصوفية عن الله تعالى وأن الأولياء هم وحدهم العارفون به وبأسراره ويعلمه اللدني .. ولكن الغزالي يقصد بتلك العبارة إبليس .. ويرى أن العارفين المكاشفين هم الذين يعرفون ذاته وحقيقته وصفاته .. فهنا نوع من المشاكلة يشى بتقديس إبليس .. ومع أن الكذب واضح في تلك الجملة - فإبليس بذاته وصفاته سمعيات لا يعلمها إلا الله تعالى - فإن تعمد الكذب والإقدام عليه يفضح نفسية الصوفية في الإهتمام بإبليس ورعاية شأنه ..

٦ - ويفترى الصوفية على الله كذباً فيدعون الوحي عن طريق ملك الإلهام أو بلا واسطة بالعلم اللدني والصوفية هم أصحاب الهاتف والمانم ومخاطبة الحق جل وعلاً .. وهذا الإفك المفترى على الله من سمات الشرك الأساسية .. ومرجعها للشيطان .. فإذا كان الله تعالى هو الذي يوحى إلى أنبيائه وهم صفوة خلقه فإن الشيطان يوحى إلى أعوانه بزخرف القول .. يقول تعالى عن أعداء الأنبياء (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون، ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتربوا ما هم مقتربون .. الأنعام ١١٢، ١١٣) ..

فقد بلغت الموالاة بين رموس الشرك من الإنس والجن مبلغ المساواة، وعبر عنها القرآن بقوله (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض) فقد أصبح رموس الشرك شياطين يوحون للشياطين ويوحى إليهم الشياطين .. وقد قال تعالى عن القرآن الكريم (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون .. الشعراء ٢١٠، ٢١١) .. وقال عن إفك المشركين وأدعائهم (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أئيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون .. الشعراء ٢٣١ : ٢٣٣) ..

٧ - هذا .. ولقد عرض الغزالي صراحة لمكاشفة إبليس أو وحيه للصوفية .. وقد ارتفع بإبليس إلى منزلة الملائكة يقول (إن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها إلا بالمشاهدة بأنوار النبوة ..) (١). ويقول عن إبليس

(١) أحياء ٣٤/٣ : ٣٥.

(والأكثر أنه يكشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب (يعنى الصوفية) بمتال صورته فيتمثل الشيطان له فى البقطة فيراه يعينه ويسمع كلامه بإذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته، كما ينكشف فى المنام لأكثر الصالحين، وإنما المكاشف فى البقطة هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال بالحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام فيرى فى البقطة ما يراه غيره فى المنام^(١). أى أن تجلى إبليس فى البقطة لا يكون إلا لمن انتهى إلى أكبر رتبة بينهم وغيره لا يحظى برؤيته إلا مناماً .. وهكذا يتضح أن الصوفية يقولون فى إبليس ورؤيته نفس ما يقولونه عن الله تعالى وعلمه اللدنى .. فالغزالي يعقب على مقالته السابقة بقوله (فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل به عالم الصلوك والشهادة، لأن أحدهما متصل بالآخر، وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ووجه إلى عالم الشهادة ..) وهكذا إلى أن يقول (وهذه أسرار عجيبة من أسرار عجائب القلب، والمقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم وتارة بطريق الحقيقة والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى^(٢).. ولذا كان الصوفية يعرفون ذاته وصفاته وحقيقته معرفتهم بالله وذاته .. وتناسى الغزالي أن رؤية إبليس بقطة ومتساهة بالشخص مستحيلة فقد قال تعالى (أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. الأعراف ٢٧) .. إلا أن عدم رؤيته بقطة لا تمنع مولاته فالشيطان خلف ابن آدم ويحركه بالسوسة والتلبيس والتغريير ويستتى الحيل حتى يملك عليه أقطاره ويستحوذ عليه (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .. المجادلة ١٩) ..

وحينئذ يكون ولى الشيطان معبراً عنه، يتلقى وحيه وإلهامه وينسب لله تعالى افتراءً عليه، وإذا تطرف نسب وحي الشيطان إلى الشيطان علانية، كما ورد فى الكتابات الصوفية وقد رأينا طرفاً من ذلك، ولكن الوحي الشيطاني هو المصدر الأساسى للتصوف وكل ادعاءاته.

(١)، (٢) احياء ٣٤/٣٥ . ٣٥.

٨ - في بعض كبار الصوفية المشهورين في الدين الصوفى أعلن صراحة نسبة كلامه وآرائه إلى وحى إبليس، ولم ينس أن يصيغ ذلك حينئذ ببطولة وهمية له كقول أبي سعيد الخزاز (رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها فقلت: بى هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه وإنما يخاف من نور يكون في القلب)^(١).
وانسحب عند الصوفية كل الأسرار والأنوار الإلهية ..

وقد ارتدى إبليس في وحى آخر عمامة التصوف يقرر لهم ما يجوز كما حكى الجندب من أنه رأى إبليس في النوم (فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشيء قال: نعم، في وقتين: وقت السماع ووقت النظر فإنى أدخل عليهم به)^(٢). وعجيب أن يفشى إبليس أسرار مهنته للجندب ويفضح طريقته في اغواء الصوفية، ولكن يزول العجب إذا علمنا أن مقصد الجندب أو إبليس هو التشريع للصوفية في السماع وفي النظر .. وتلك أمور صوفية خالصة لا شأن للإسلام بها إذ هي خارجة عن منهجه وتستلزم نوعاً من التوجيه ولن يأتى التوجه والوحى إلا من إبليس ..

وبعض الوحي الشيطاني الصوفى يحمل في داخله دعوة ضمنية للانحراف والانخراط فيه بدافع اليأس من مجاهدة الشيطان وذلك كقول خيشمه بن عبد الرحمن (إن الشيطان يقول: ما غلبنى ابن آدم فلن يغلبنى على ثلاث: أن أمره فيأخذ المال من غير حقه وإنفاقه في غير حقه ومنعه من حقه)^(٣). ويقول الغزالي (وقيل إن الشيطان يقول: كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه)^(٤).

٩ - ولقد أبرز الله تعالى الصورة الحقيقية لإبليس كعدو أبدي لابن آدم ووصفه بما يستحق من صفات ذميمة كالكفر والحسد والكبر والإضلال وغيرها .. وكأنما عز على

(١) احياء ج٤/٤٣٢

(٢) احياء ج٢/٢٦٦.

(٣) احياء ج٣/٢٩.

(٤) احياء ج٣/٢٨.

الصرفيه أن تشوه صورة إبليس إلى هذا الحد، فحاولوا القيام بعملية تجميل لوجه إبليس، وأظهره بمظهر النبي المصلح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الغزالي (روى صفوان بن سليم أن الشيطان تمثل بعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به : يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت فإنني أملكك إذا غضبت)^(١). وبعض هذه النصائح المزعومة كانت تفضح وسائل إبليس في الاغواء..رغبة في إتمام عملية التجميل والتحسين وأنه يحذر بنى آدم من خطورته وإن لم يفعلوا بوصاياه الجميلة فهو مضطر لإغوائهم كأن يقول لبعض الأولياء -وقد سأله كيف تغلب ابن آدم- (آخذه عند الغضب وعند الهوى)^(٢). أو كقوله في النص السابق (.. وانظر كيف تكون إذا غضب فإنني أملكك إذا أغضبت) ..

١٠ - ونحن إما أن نصدق هذه الصورة الجميلة التي رسمها الصوفية لإبليس لعنه الله وإما أن نؤمن بما أورده القرآن الكريم عن إبليس اللعين الرجيم الذي بلغ حقه على آدم وحواء وهما في محنتهما حين أخرجهما من الجنة أن كان يتشفى فيهما فينزعهما لباس الجنة ليريهما عوراتهما ..

(يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سؤاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. الأعراف ٢٧) ..

إن الله تعالى يقول بإعجاز معجز (إن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .. فاطر ٦) .. والتأمل في هذه الآية الكريمة فيه الرد على الأقاويل الصوفية السابقة .. وفيه الإشارة للعلاقة بين الشيطان وأتباعه. ومراجعة المنامات الصوفية وما يزعمونه عن الهاتف والعلم اللدني والأحاديث المزيفة كلها تدخل في باب الوحي الشيطاني في التشريع وفي الغيوب.

(١) احياء ج٣/٢٩.

(٢) احياء ج٣/٢٨.

* الباب الثاني *

تقديس الولي الصوفي في مصر المملوكية

* الفصل الثالث : أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم.

أولاً : أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم :

- بين القطب وأعوانه، الخضر، المجاذيب، أرباب الأحوال، أصحاب النوبة.

ثانياً : مهام الأولياء : الحملات، النظرة واللمحظ والبركة.

ثالثاً : الاعتقاد في كرامات الأولياء الصوفية :

- الكرامات في فكر الخاصة واعتقاد العامة في العصر المملوكي.

- دراسة في أساطير الكرامات في العصر المملوكي.

- أصناف من أساطير الكرامات.

* مدهخل : جعل الصوفية لأنفسهم مملكة وهمية وزعوا فيها الوظائف بين الأولياء، من الأقطاب إلى الأبدال البخبا، واختلفوا في التوزيع وفي الألقاب في تلك المملكة للوهمية.

كما جعلوا للأولياء وظائف ومهاماً، كأن يقوم أحدهم بتحمل المصائب عن الآخرين، أو «الحملات» أو كأن يشمل الآخرين ببركته بالنظرة وبالبركة.. وينبع ذلك كله من اعتقاد العصر في كرامات الأولياء وقدرتهم - المزعومة - على التصريف في الكون وفي الناس.

وهو موضوع طويل، ذلك الذي يتحدث عن أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم، ونحاول في هذا الفصل اختصاره، لتأكيد ما ساد في العصر المملوكي من تقديس للولي الصوفي والاعتقاد في مؤهلاته الإلهية التي يتفوق بها على النبي، والتي لم يعرفها المسلمون في عصر النبي.

الفصل الثالث

أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم

أولاً : أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم :

* بين القطب وأعوانه :

القطب عند صوفية العصر المملوكى هو الذى عليه مدار الكون ولأجله وجد الكون وعليه مدار كونية الدارين، ولكل عصر قطب، وقطب الأقطاب هو الذى لم يكن قبله ولا بعده مثله، والأوتاد أربعة على أربع جهات العالم، والأهدال سبعة على حكم أيام الأسبوع، وللقطب رجلان عن يمين وشمال^(١)، وأنكر ابن الحاج مغالاة الناس فى قولهم هذا قطب وهذا بدل لأنه يرى أن القطب واحد وقُلَّ من يعرفه^(٢)، وكان هناك دعاء مخصص للأهدال^(٣)، وجعلوا الإمام الشافعى أحد الأوتاد الأربعة^(٤)، ونسب إلى على بن أبى طالب قوله «البلاء بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر سيد القوم». ورووا أن الخضر قال ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، واحد منهم القطب الغوث^(٥).

* القطب :

١ - اختلفت الصوفية فى صفاته فجعل له الشاذلية خمس عشرة علامة إلهية^(٦)، وجعل الخواص من علامته كثرة تحمله للبلابا والإنكار عليه، فإن جميع بلاء أهل الأرض ينزل عليه أولاً ثم يتفرغ منه^(٧)، أما الشعرانى فيرى أن غالب الأولياء لم يجتمع قط

(١) النويرى الإمام ١ لوحة ١٧٨، الشعرانى : اليواقيت والجواهر ٨٤/٢، الكبريت الأحمر ١١/٤.

(٢) المدخل ٢/ ٢١٠-٢١١. (٣) ذكر فى مناقب المنوفى ٣٩. (٤) لواقع الأنوار للشعرانى ٢٤٤.

(٥) روض الرياحين لليافعى ص ٨. (٦) الشعرانى «اليواقيت والجواهر»، ج ٢/ ٧٩، ٨٢.

(٧) لطائف المنن للشعرانى ٥٣٢.

بالقطب لعدم طاقته أن ينظر إليه^(١). ومن شأن المريد أن يلزم الأدب مع القطب ولا يقول نحن خارجون عن دائرة القطب^(٢)، ومقام القطبية ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية ملوكًا ووعايا^(٣).

٢ - وعند الدسوقية لا يصير القطب قطبًا إلا إذا شرب من نهر الحياة عند جبل قاف سبع مرات. ولا يكون غوثًا إلا إذا شرب منه ألف مرة. ومن هذا النهر شرب الدسوقي والرفاعي والبدوي والجيلي^(٤). وقد رأى الشعراني القطب بمعرفة أستاذة الخواص يبيع الفول الحار في أحد حوارى القاهرة^(٥)، وجعل من صفات القطب الغوث الإكشاز من النكاح، ويقول إنه رأى شخصًا يدعى القطبية يدخل الحمام في النهار ثلاث مرات فازداد فيه اعتقادًا وتعظيمًا^(٦).

٣ - ورأى آخر القطب الغوث بمكة على عجلة من ذهب تجرها الملائكة في الهواء بسلاسل من ذهب، فسأله إلى أين؟ فقال إلى أخ من إخواني اشتقت إليه^(٧)، وقالوا (كان أبو العباس (ت ٨٦١) قطب وقته، وقد روى في مكة على كرسي بين السماء والأرض)^(٨).

٤ - وأسرف كثير من الأولياء في إدعاء القطبية، وأبرزهم المدرسة الشاذلية الذين اعتقدوا أن القطب منهم في كل العصور^(٩)، واعترف بهذا الشعراني^(١٠)، وزعموا أن الله تعالى قد جعل القطب الغوث من بيت الشاذلي إلى يوم القيامة^(١١)، وزعموا أن الرسول قد بشر الشاذلي بالقطبية بعد موته أبي الحجاج الأقسري^(١٢)، واشتهر في الاسكندرية بأنه القطب الغوث^(١٣)، ومذهبه البوصيري فقال :

(١) لطائف المنن ٤٩٢.

(٢) الشعراني آداب العبودية ٣٣.

(٣) الشعراني «اليواقيت والجواهر» ج ٢/ ٨٣.

(٤) طبقات الشرنوبى مخطوط ٤، ٥.

(٥) لطائف المنن ٣٨٣.

(٦) لطائف المنن ٢٦٨.

(٧) اليافعى روض الرياحين ١٨٧.

(٨) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤١.

(٩) دائرة المعارف ٥٩/١٣.

(١٠) آداب العبودية ٣٢.

(١١) تعطير الأنفاس ١٦.

(١٢) تعطير الأنفاس ٤٦.

(١٣) النويرى الإعلام بالإعلام ج ١/ ١٧٨.

أفدى علياً في الوجود وكلنا بوجوده من كل سوء نفتدى
قطب الزمان وغوئه وإمامه عين الوجود ولسان الموجد^(١).

أما خليفة الشاذلي أبو العباس المرسى فكان يرى أن القطب لا يلزم أن يكون شريفاً
حسينياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل، وقد قال «وما القطبانية بعيدة من بعض
الأولياء وأشار إلى نفسه»^(٢)، ذلك أنه ينتمى إلى الأنصار، وذكر ابن عطاء بعض
الكرامات التي تؤكد قطبية المرسى^(٣).

٥ - وبالغت المدرسة الدسوقيية في ادعاء القطبية، فادعت أن الله جعل الدسوقي
نطباً قبل بناء البيت والحرم، وأنه اجتمع بالقطب الفرد وهو ابن سنه، وخدمه القطب وهو
ابن عامين، وتقطب قطب المحبة وهو ابن عشر سنين، وقطب الفردانية العظمى وهو في
الرابعة عشرة، وسقى رجلاً من شرابه قدر درهم فتقطب، وأعطى تفاحة من غير واسطة،
وناداه الله بألا يأكلها كلها حتى لا يحتكر القطبية لنفسه^(٤)، وجعلوا الجيل والرفاعي
على مثال الدسوقي^(٥)، وممن وصف بالقطبية من الأولياء «المنوفي»^(٦) وأبو القاسم
المراغي^(٧)، وأبو النجا الفوى شيخ الشعراني، وقد شاع في ليلة موته أنه القطب^(٨)،
وفُتح على شمس الدين الحنفي بالقطبية بعد أن أخذ العهد على ابن الملق، وقد قال
الحنفي «إن القطبية مرّت بنا ونحن شباب»^(٩). واختصار كان شيوخ الصوفية يتنافسون
في ادعاء القطبية ويتغنون في توصيفها.

(١) ديوان البوصيري ص ٧٣. (٢) تعطير الأنفاس ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١.

(٣) لطائف المنن لابن عطاء ٥٨، ٥٩.

(٤) طبقات الشرنوبى مخطوط ١، ٤.

(٥) طبقات الشرنوبى ٨، ٧.

(٦) مناقب المنوفي ١١، ١٠.

(٧) ابن الزيات الكواكب السيارة ١٨٨.

(٨) الطبقات الصغرى للشعراني ٦٥.

(٩) مناقب الحنفي مخطوط ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٩ - ٣٨٠.

* الخضر :

١ - عذّه بعض الصوفية رتبة عليا فى مملكتهم : « فإذا مات القطب الغوث ولى الخضر من يكون (قطباً) بمكة (غوثاً)، وجعل (بدل) مكة (قطباً)، وهكذا أبداً، فإن مات الخضر صلى الغوث فى حجر اسماعيل .. فتسقط عليه ورقة باسمه فيصير خضراً وبصير قطب مكة غوثاً^(١)»، والصوفية ادعوا أن صاحب موسى المذكور فى سورة الكهف (٦٥ : ٨٢) هو الخضر، وهو يحيا حياة أزلية، وليس مجرد رتبة صوفية، ومع أن ملامح صاحب موسى تؤكد أنه كان نبياً، فإله تعالى لا يعطى العلم ببعض الغيب إلا للأنبياء (آل عمران ١٧٩، الجن ٢٦، ٢٧)، ولكن افتتن الصوفية بجعل صاحب موسى ولياً وليس نبياً حتى يحقق أمنيته فى أن يكون الولي خيراً من النبي ويقوم بتعليم النبي. ونأتى للعصر المملوكى لنجد ابن إمام الكاملية (ت ٨٧٤) قد وضع رسالة فى حياة الخضر^(٢)، ونجد اليافعى يحاول إثبات حياته الأزلية^(٣)، ونجد على وفا يؤكد أن لكل ولي (خضر) يمثل روح ولاية ذلك الولي^(٤)، ويقول الشعرانى فى رسالته عن الخضر «أجمع أهل الكشف أى العلم اللدنى قاطبة على حياة الخضر وقت إجتماعنا به، وقد اجتمع بعمر بن عبد العزيز، وأبى عبد الله البسرى، والشيخ عبد الرازق، وإبراهيم الخواص، وأبى يزيد البسطامى، وابن عرسى، وأبى عبد الله القرشى، والشاذلى، والمرسى، وياقوت القرشى»^(٥)، ويبدو أن الشعرانى قد استقى آراءه تلك من ابن عطاء^(٦). إذ كان الكثيرون يدعون رؤية الخضر فى المنام، ولم نجد عالماً فى العصر المملوكى أنكر حياة الخضر بل اعتقدوا صدق بعض من ادعى رؤيته فى المنام، يقول ابن

(١) الدرر الكامنة ج٢/٤٨٣، ٤٨٤.

(٢) البدر الطالع ج٢/٢٤٤.

(٣) روض الرياحين ٢٧٣.

(٤) الشعرانى. الطبقات الكبرى ج٢/٢٨، الطبعة القديمة.

(٥) الميزان الخضرية للشعرانى ص ١.

(٦) لطائف المنن لابن عطاء ٤٧ - ٤٩.

الحاج «ومنهم من يدعى رؤية الخضر ويؤكد ذلك باليمين .. وذلك كله تقول واقتعال .. مع أن هذا لا يُنكر إذا وقع من أهله في محله»^(١)، وعلل ابن تيمية كثرة من يدعى رؤية الخضر حتى من اليهود والنصارى - «وهم كثيرون صادقون» ولكنهم يرون الجان ولا يرون الخضر^(٢). والاعتقاد في وجود الخضر مستمر حتى عصرنا الحالي كأثر من العصر المملوكي، يقول أحمد أمين (يعتقد بعضهم أنهم رأوا الخضر بقطة وخاطبوه وخاطبهم، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاراً ويخبرهم بالمغيبات، وإذا ذكروه قالوا عليكم السلام إيهاماً بأنه مرّ عليهم وسلم عليهم^(٣))، أي نجح التصوف في التأكيد على وجود الخضر حياً لا يموت، مع أن الله تعالى يقول للنبي (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون؟ كل نفس ذائقة الموت.. الأنبياء ٢٤، ٢٥).

٢ - وقد وضع الشعراني شروطاً لمن يريد الاجتماع بالخضر^(٤)، وقد تنافس الصوفية في دعوى الاجتماع بالخضر واشتهر منهم على النبتيتي (ت ٩١٧) في عصر الشعراني^(٥)، فنقل عنه الكثير من ادّعاءاته^(٦)، وسبق النبتيتي في هذه الشهرة ابن الكبش بنحو قرن، فكان يجتمع بالخضر في غالب الأوقات^(٧)، وقبله أيضاً سليمان البسطامي (ت ٧٨٦) «وله في ذلك أخبار كثيرة يستنكر بعضها»^(٨)، وذكرت لقاءات للشاذلي مع الخضر^(٩)، وكان الخضر يحضر مجلس شمس الدين الحنفي، ويشيعه للخلوة^(١٠)، ومن اجتمع بهم أيضاً عبد المحسن الواردي وأبو السعود بن

(١) المدخل ج٢/٢٠١، ٢٠٢.

(٢) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ج١/٧٢.

(٣) قاموس العادات والتقاليد المصرية ١٩٣ - أحمد أمين.

(٤) الميزان الخضرية ١٦، ١٧.

(٥)، (٦) الطبقات الكبرى ج٢/١٠٨ - ١٠٩، لوائح الأنوار : ٢١١.

(٧) الكواكب السيارة ٢٦١ : ٢٦٢ ابن الزيات.

(٨) ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب ٦/ ٢٩٠.

(٩) تعطير الأنفاس ٣٠، ٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، الطبقات الكبرى للمناوي ٢٩٤.

(١٠) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/٨٩.

أبى العشائر^(١). وللخضر دور فى الحكايات الصوفية عن الأولياء المجهولين^(٢). وكان الإيمان بالخضر عامًّا فى العصر من القضاة والعوام، فادَّعى شيخ الإسلام سراج الدين العبادى (ت ٨٧٧) أنه كان يجتمع بالخضر^(٣)، وكان قاضى القضاة البساطى يدعى ذلك^(٤)، وكانت جنازة ابن حجر هائلة حتى قيل إن الخضر حضرها^(٥)، وهكذا أرغم الخضر على المشاركة حتى فى الجنائز الهامة.

* المجاذيب: اعتبرهم ابن خلدون نوعًا من الأولياء مع سقوط التكليف^(٦) عنهم، إلا أنه عاد فاعتبرهم دون مرتبة الإنسان فلا يلحقون بالأولياء^(٧)، وفضّل ابن عطاء المجذوب على السالك لأن الأول طويت له الطريق ولم تطوّر عنه^(٨)، أى أن المجذوب اختاره الله واختصر عليه الطريق، أما السالك فقد تركه الله يقطع الطريق ويسلكها بنفسه. وعلل الشعرانى سبب ذهاب عقلهم بالتجلى الإلهى الذى أتاهاهم على غفلة فذهب بعقولهم، وجعلهم الشعرانى على ثلاثة أقسام تبعًا للوارد الإلهى والعقل^(٩). وتكون حالة المجذوب بحسب الحالة التى جُذِبَ فى أثنائها فإن جُذِبَ فى حال قبض (أى اكتئاب) فعمره كله قبض، وإن جُذِبَ فى حال بسط فعمره كل بسط وضحك^(١٠)، وساد الاعتقاد بأنهم يعيشون فى عالم آخر يقول ابن عنان «إن من شأن المجاذيب أنك ترى أحدهم ماشيًا وهو راكب، وتراه يأكل فى رمضان وهو صائم لم يفطر، وتراه عارياً وهو مرتدٍ لثيابه^(١١)» وهذا تصريح للمجذوب بأن يفعل ما يريد. واقتصر الشعرانى بأدبه مع

(١) الكواكب السيارة ٢٤٦، ٣١٧.

(٢) روض الرياحين فى حكايات الصالحين ١٧٤، ١٧٥.

(٣) إنباء الهجر ٤٨٥.

(٤) ذيل بن العراقى مخطوط. ٢٥٠.

(٥) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٣.

(٦) مقدمة ابن خلدون ١١٠، ١١١.

(٧) شفاء السائل فى تهذيب المسائل ٨٨ وفى هذا الكتاب ناقض ابن خلدون ما قاله عن التصوف فى المقدمة.

(٨) لطائف المنن ١١١.

(٩) الشعرانى البيواقيت والجواهر ١٥٥ - ١٥٦ وقد ذكر أسئلة لذلك فى الطبقات الكبرى

حـ ١٢٠/٢.

(١١) أخبار القرن العاشر ١٣٤.

المجاذيب وأرباب الأحوال مذ كان صغيراً، وقال المتبولى سلموا على أرباب الأحوال بالقلب دون اللفظ فإنهم فى حضرة لا يقدرّون على خطاب أحد باللفظ^(١). وأوصى السعمرانى بعدم مخالطة المجاذيب لأنهم يعلمون السرائر والخواطر المذمومة^(٢)، أى يعلمون الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ولما قتل العثمانيون بعض المجاذيب قال الخواص : « طاب الرحيل من هذه الديار^(٣) ».

يقول الدشوطى يصف الجذبة .. فحصل لى جاذب إلهى وصرت أغيب اليومين والثلاثة ثم أفنى أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى، ثم صرت أغيب العشرة أيام والشهر ولا أكل ولا أشرب .. فخرجت سائحاً إلى وقتى هذا^(٤). ولسهولة هذا الإدعاء كثر مدعو الجذب والولاية، وكان المجذوب يوصف عادة بأنه معتقد أى يعتقد الناس فى ولايته وأحياناً بأنه مقصد للزيارة أى يقصده الناس بالترك^(٥)، وكانوا يفسرون هذيانهم على سبيل الكشف وعلم الغيب^(٦)، وكان المؤرخون يعللون اعتقاد الناس فى صوفى ما بأنه مجذوب ويقولون «لعوام الناس فيه اعتقاد لإندراجه عندهم فى المجاذيب^(٧)» و.. حصل له نوع من الجذب فصار للناس فيه اعتقاد^(٨) و .. يذكر بين العوام بالمجذب ويُعتقد لذلك^(٩).

(١) لطائف المنن ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) البحر المروود ١٨٥.

(٣) أخبار القرن العاشر ٢١٠.

(٤) الطبقات الكبرى للسعمرانى ج٢/ ١٢٠، ١٢١.

(٥) من الصعب حصرهم فى سائر المراجع وعلى سبيل المثال : المنهل ج٣/ ١٨٧، النجوم ج١١/ ١٣٨، ١٦/ ١٧٧، ١٩٥٠، ١٨/ ١٣، ابن اياس ج٢/ ٢١١ ط بولاق، ٣٨٦/ ٤، الضوء

اللامع ج١/ ١٨٤، ٣/ ٥٠ السلوك ٣ قسم ٥١١/ ٢، إنباء الغمر ٣/ ٢٦١، ١٥٣/ ٣، ٥٩/ ١.

(٦) ابن حجر ذيل الدرر الكامنة مخطوط ٢٢.

(٧) التبر المسبوك للسقاوى ٢٣٧ ترجمة الشيخ بكير - وورد فى الضوء اللامع ج٣/ ١٨

(٨) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ج٢/ ٢٦٥ ترجمة الشيخ الطوخى.

(٩) الضوء اللامع ج٢/ ٢٦٠ ترجمة ابن المؤمنى.

٣ - وتمتع المجاذيب بتقديس الممالك لهم^(١)، وكان السلطان برقوق يعتقد في الزهري المجذوب حتى لقد كان الأخير ييصق في وجهه^(٢)، ولما افتتح برقوق مدرسته دخل عليه مجذوب وأعطاه (طوبة) وأمره أن يضعها في المدرسة، فوضعها السلطان في منديل وعلقه في المحراب، يقول ابن أبياس «فهى باقية في القنديل إلى الآن»^(٣).. ولا نجد أبلغ من وصف أبي المحاسن لإعتقاد الناس في يحيى الصنافيري يقول عنه «هو ممن سلم من الإنكار عليه وأجمع الناس على إعتقاده، وهو لا يفيق من سكرته، وكان الناس يترددون إليه فوجاً فوجاً من بين عالم وقاضٍ وأمير ورئيس، ولا يلتفت إليهم، ولما زاد تردد الناس عليه صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه رغبة في إلتماس بركته، ففر منهم وساح في الجبال مدة طويلة»^(٤)..

* أرباب الأحوال :

١ - شاع هذا المصطلح في العصر المملوكي خصوصاً في أواخره، ويقول الشعراى إنهم (أعطوا في الدنيا التقديم والتأخير والولاية والعزل والقهر بما لهم من دلال على الله) ويقول الدشوطى «أرباب الأحوال مع الله كحالهم قبل خلق الخلق وإنزال الشرائع»^(٥)، واحتج أن الحاج على مدعى ذلك من الصوفية المنحرفين : «ثم أنهم يولون ويعزلون في تلك الأحوال ويخيرون يمتازل أصحابهم .. ولا شك أنها أحوال نفسانية أو شيطانية لأن الفتح من الله لا يكون مع ارتكاب المكروهات أو المحرمات»^(٦)، أما المرسى فيعلل تميزهم هذا بضعفهم عن كتم أحوالهم وضيقهم عن وسعها^(٧)، وبالحج بعضهم في إدعاءاته، يقول المتبولى : «وعزة ربي

(١) لطائف المنن الشعراى ١٢٩.

(٢) إنباء الفجر ٥٧/٢، النجوم الزاهرة ١٠/١٣.

(٣) تاريخ ابن أبياس تحقيق محمد مصطفى ٢/١ - ٣٧٣.

(٤) المنهل الصافى مخطوط ٤٨١/٥، النجوم الزاهرة ١١٨/١١ - ١١٩.

(٥) الشعراى .. لواقح الأنوار ص ١٠٢، ١٠٢.

(٦) المدخل ١٥١/٢.

(٧) الشعراى. الطبقات الكبرى ١٧/٢.

لتتوزع أحوالى بعدى على سبعين رجلاً ولا يحملون»^(١) أى لن يستطيعوا تحمل الحملات مثله.

٢ - وقد يكون الحال بمعنى الإنفعال الصوقى الحادّ، فالشيخ أبو الحمايل «كان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والعبرانية والعجمية، وتارة يزغرت فى الأفراح والأعراس مثلما تزغرت النساء، وإذا اشتد عليه الحال فى مجلس الذكر ينهض قائماً ويأخذ الرجلين ويضرب بهما الحائط»^(٢). وتمثل هذه الحالة إحدى درجات الجذب، وقد جمع بعض الأولياء بين المرتبتين مثل عبيد البلقينى الذى «كان من أرباب الأحوال والكشف، حصل له جذب فى أول عمره --»^(٣).

٣ - وكان من السهل تعليل ما يصيب الأولياء من أمراض بأنها «حال» وقد عدّ الشعرانى من المن معرفة بطبّ أرباب الأحوال^(٤).

واستغلّ أرباب الأحوال شهرتهم فى التسوّل واعتبروه حقاً لهم لأنهم يدفعون البلاء^(٥).

* أصحاب النوبة :

١ - فى أواخر العصر المملوكى برزت تقسيمات عدة للأولياء، بالإضافة لما سبق مثل الكُمل والعارفين وأصحاب الحضرة وأصحاب الوقت، إلا أن أصحاب النوبة هم الأشهر وهم الذين يحفظون أدراكهم (أى الأماكن التى يحرسونها) فى سائر الأرض وعليهم قضاء الحوائج^(٦). وحديث الشعرانى عنهم متناقض فهو يجعل نفسه أحياناً مساعداً لهم فيطوف بقلبه على جميع أقطار الأرض، وفى نفس الوقت يحرص على استئذانهم كلما خرج من بيته ليكون فى رعايتهم^(٧)، فلا نعرف هل يعد نفسه منهم أم لا.

(١) الطبقات الكبرى . الشعرانى ج٢/٧٦.

(٢) الطبقات الكبرى - الشعرانى ج٢/١١٠، ج٢/٧١١.

(٣) الطبقات الكبرى - الشعرانى ج٢/١٢٧.

(٤) لطائف المنن ٣٥٥ .. الشعرانى. (٥) لطائف المنن .. الشعرانى ٤٠٠.

(٦) لطائف المنن. الشعرانى ١٤٤. ١٥١. (٧) لطائف المنن ١٤٤، البحر المورود ٨٩، ٩٠.

ويذكر أن شبخه الخواص كان أحدهم، ويتمتع بالتصريف في ثلاثة أرباع مصر وقراها، وكثيراً ما يرسل الحوائج إلى الشيخ محييين المجذوب الذي جعله من أصحاب التصريف في الربع الباقي، مع أنه «صاحب درك بحر الهند»^(١)، ثم يذكر أن أصحاب النوبة كانوا في صراع مع الخواص، يعارضهم ويعارضونه، وانتهى الصراع بمقتل الخواص^(٢).

أما الشيخ محييين فقد أعطبوا وجهه^(٣)، ومن السهل تفسير هذا التناقض بالصراع المحتدم بين الأولياء في نهاية العصر حول المردين والنذور والنفوة.

٢ - وقد احتج الشعراني على متكرري أصحاب النوبة ووصفهم بأنهم لم يدخلوا دائرة الولاية قط فلو دخلوها لعرفوا أهلها^(٤)، ووصف الخواص وأبو الفضل الأحمدى بمعرفة أصحاب النوبة في سائر أقطار الأرض ومعرفة من تولى منهم ومن عزل^(٥). ولما دخل السلطان سليم العثماني مصر أرسل الخواص فقيراً ينظر كم معه من أصحاب النوبة^(٦) (أي من يساعده منهم).

٣ - وقد وُصف أصحاب النوبة بالشدة والعنف كانعكاس للصراع بين الأولياء وقتها، يقول الشيخ حسن العراقي «لا يأذن أصحاب النوبة لفقير أن يسكن في مصر إلا إن كان مراعيّاً للأدب معهم، وإلا أخرجوه إلى القرى أو إلى خارج السور، وعدّ الشعراني من المنن حفظه من تصريفهم فيه بمعرض أو سلب حال^(٧)، وأوصى الخواص بالإستعانة عليهم بالله ورسوله^(٨)، ولا شك أن المقصود بهذه الصفة هم الأولياء المنافسون، فالخواص هو نفسه القاتل «قلّ من فقراء الزمان من يعرف أنه تحت

(١) لطائف المنن ١٤٦.

(٢) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٣٠.

(٣) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٢٤.

(٤) لطائف المنن ص ١٤٤.

(٥) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٣٠، ج٢/ ١٥٠.

(٦) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٣١.

(٧) لطائف المنن ص ١٤٧.

(٨) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٤٤.

حكم أصحاب النوبة .. ولو عرف لسألهم ... وانتظر ما يقع منهم من تولية أو عدمها^(١). وهو يقصد نفسه.

* أصحاب الوقت :

لا اختلاف بينه في المفهوم عن أصحاب النوبة، اللهم إلا إدراج العلماء بينهم ولهم تقريباً نفس حقوق أصحاب النوبة^(٢)، وقد أكثر الشعرا في الحديث المعاد عن أصحاب الحضرة الإلهية والكُمل والعارفين^(٣) عدا تصنيفات أخرى لم يجد الخواص لها أسماء^(٤). مما يجعل القارىء يتخيل عدد الأولياء مساوياً لأعداد الناس في نهاية العصر، وإن كانت الصفات منحوتة من بيثة العصر وتصويراته وهواجسه وتخيلاته، بينما كان العقل غائباً في أجازة مفتوحة.

ثانياً : مهام الأولياء :

* الحملات :

١ - يقال أن الولي يتحمل الحملة أى يتوب عن المصاب في تحمل مصيبتة. وقد شاعت هذه الفكرة في العصر المملوكى، وقد نصح الشعرا في بصحة الفقراء لأنهم يحملون عن أصحابهم المصائب في الدنيا^(٥). وقد وضع لها القواعد فلا يحمل الشيخ إلا عن أبناء حارته وإلا فقد تعدى دائرته^(٦)؛ وشرط الولي الذي يحمل الحملات الإتيان بالذلة، والفقر، وكثرة الملازمة في المواكب الإلهية، وألا يأخذ عنها مقابلاً، وكف الجوارح عن المحرم والمكروه والشهوات المباحة، والصيام أيام التحمل والتخلق بالرحمة، ونصح الشعرا في ألا تكثر الحملات في النصف الثاني من القرن العاشر^(٧).

(١) الشعرا. ارشاد المغفلين ص ٢٧٣.

(٢) لطائف المنن ٢٥٦، ٢٧٧.

(٣) لطائف المنن ٣٦٥، ٣٩٢، ٢٩١.

(٤) لواقح الأنوار ٩٩.

(٥) صحة الأخبار ٣٩.

(٦) تنبيه المقترين ١٣٦.

(٧) لطائف المنن للشعرا ١٤٩ : ١٥١، ١٧٢.

ويستلزم التحمل جهداً من الولي فهو يحس بالأوجاع في جسمه وقد يبقى دون طعام أو شراب أو نوم أو نظافة أو لباس جديد^(١)، وقد أخبر بعض أهل الكشف أن إحمراز الماء الذي تحت بيت الشعراني في الخليج إنما هو من كثرة الهموم النازلة عليه^(٢)، ويقول إن هذا الأمر قلّ من يفعله في عصره من المتمشيخين، وغاية أمر أحدهم أن يتوجع باللسان فقط^(٣)!! وقد تحمل الشعراني عن رجل وأمراته حين مات ابنتهما فكاد لحمه وعظمه أن يذوبا^(٤) ويطلب الشعراني من إخوانه ألا يغضبوا حين يرونها عابساً ضيق الصدر فربما كان مشاركاً في حملة لحاكم أو لإمرأة مات ولدها أو كانت في الطلق^(٥)، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو غم لا يقر قرار حتى يرتفع^(٦)، وهو يتحمل همّ عدوه أكثر من إهتمامه بهمّ صديقه^(٧)، وأكثر حملاته عن المرضى^(٨)، وكان من وقعت له مصيبة يأتي للشعراني فيحملها عنه ولا يتخلف. والحملة تخف بحسب الإعتقاد وتثقل بعدمه^(٩)، أي إذا كنت تعتقد في الشيخ فعلاً فإنه يحمل عنك مصيبتك فيخف وقعها عنك، وإن لم تكن تعتقد فالويل لك!!

٢ - والقارىء للشعراني يتصوره بطل الحملات الوحيد، إلا أن الأولياء السابقين قد ادّعوا ذلك وإن كانوا أقل مقدرة من الشعراني في سبك إدعاءاتهم، وعامة فإن الحديث عن الحملات لم يكثر إلا في أواخر العصر المملوكي، وقد وردت إشارات متفرقة عن الحملات في أقوال متصوفة الممالك البحرية فالمرسي يلوم العامة لأنهم ينفذون عن الولي الذي بين أظهرهم «مع أنه هو الذي يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم»^(١٠)، ويقول ابن علي وفا «إذا حصل لي وارد من واردات الجلال إنما هو تحمل عن

(١) لطائف المنن فصل الشعراني فيه ما يقاسيه بسبب التحمل ٣٢٢ : ٣٢٣، ٥٥١.

(٢) لطائف المنن ٥٥١.

(٣) لطائف المنن ١٥١.

(٤) الطبقات الكبرى ج٢/١٤٨.

(٥)، (٦) لطائف المنن ٥٧٢، ٣٥٢، ٣٥٣.

(٧) لطائف المنن ١٢٣، ١٢٤.

(٨) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٨.

الخلق»^(١)، وفي حكاية للسبكي «تحمل شيخ ألم مريده حتى خرج عن الصلاة فبرىء المريد»^(٢)، وفي مناقب الحنفى - فى القرن التاسع - أن بعضهم تحمل الرمد عن غيره فشفاه^(٣)، حتى إذا أهل القرن العاشر فأضحت الحملات ميدان المزاغم الصوفية، فيدعى المتبول أنه يتحمل ما يعجز عنه سبعون رجلاً من الأولياء^(٤)، وكان أبو الفضل الأحمدي يحمل هموم الناس «حتى صار ليس عليه أوقية لحم»^(٥)، ويدعى أفضل الدين الشعراني بأنه منذ عشر سنين يحس بأن جسمه فى طبق من نحاس على نار من غير ماء ولحمه ودهنه يطشطش وهو صابر، وذلك «من كثرة توجه الناس إليه فى شدائدهم، فيحملها عنهم ويعانى بدلاً منهم»^(٦).

٣ - وكانت الحملات مجالاً للصراع بين الأولياء، فأتناء خلاف الشعراني مع ثلاثة من أصحاب النوبة حصل له الفرج على يد الشيخ محمد البهوتى، الذى تحمل عنه بعد أن أبى الحملة ثلاثون من الأولياء، فبرىء الشعراني بعد أن كان قد مكث تسعة أيام بلا أكل أو شرب أو نوم^(٧).

٤ - وقد يتعاون الأولياء فى الحملات فيرسل المرفقى وغيره الحملات للشيخ بركات الخياط، فيضعون له الحجر على حانوته، فيعلم بالحاجة ويقضيها، ويقول «الاسم لطوبة والفعل لأمشير»^(٨)، مع أنه لو كان ولياً حقيقياً (عندهم) لعرف الغيب وما احتاج إلى حجر يوضع على باب دكانه، ولكن الأساطير تخلو من المنطق.

وكان سويدان المجذوب يحمل الحملات، وكل من حمّله حملة وضع حبة من الحمص فى فمه ليتذكر قصته، فربما امتلأ فمه من الحمص، ويظل كذلك شهراً حتى تقضى

(١) مناقب الزفائية مخطوط ٤٨.

(٢) طبقات الشافعية ج٥/٢٣.

(٣) مناقب الحنفى ٣٤٠ مخطوط.

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٠٥.

(٥) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٥٠.

(٦) لطائف المنن ١٤٣ - ١٤٤.

(٧) لطائف المنن ١٤٧.

(٨) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٢٥، الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج١/١٦٧.

الحوائج^(١)، وكان الخواص يرسل الحملات الشقال للشرىف المجذوب فيقوم بها^(٢).
ويدون حمص!!

والراضح أن شبيح الاعتقاد في الحملات: كان لتبرير الذور والأموال التي كان يحصل عليها الشيوخ من الناس.
* النظرة .

١ - وإذا كانت الحملة في الغالب يتحملها الولي عن الجميع فإن النظرة أو الذنحة للمريدين والأتباع القريبين.

٢ - وقد كان الشاذلي يرى أولاده بالنظر من غير كلام^(٣)، ويقول المرسى «والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته»^(٤)، والمريدون من جانبهم يعترفون بأثر نظرة الشيخ فيهم، يقول أحدهم «فلما جلست نظر إلى الشيخ وأمدنى بما أمدنى، ثم قال لى إنصرف إلى بلدك فقد استغنيت»^(٥)، ويقول الشعرانى عن أحد المجاذيب «كان يحبنى وكنت فى بركته وتحت نظره»^(٦)، وينتظر المريدون خروج الشيخ من خلوته لتكون نظراته إليهم أوقع فى الأثر، وقد اختلى شمس الدين الحنفى أربعين يوماً فاستعد مرئوده للظهور بين يديه حين يخرج وقالوا «غدًا يظهر سيدى من الخلوة فكل من وقع نظره عليه حصلت له السعادة .. فلما كان وقت السحر ظهر سيدى ووقع نظره على، فقال لى محمد قلت نعم يا سيدى، قال : والله لقد حصلت لك السعادة الكلية» يقول الراوى فكل ما أنا فيه من ثمرات تلك النظرة»، حتى أنه تقطب قبل موته (أى أصبح قطباً)، وقد وقع نظر الحنفى على كلب فأصبح الكلب ولياً بفضل تلك النظرة

(١) الطبقات الكبرى ج٢/١٢٥، الغزى الكواكب ج١/٢١٣.

(٢) الطبقات الكبرى ج٢/١٣٠.

(٣) قواعد الصوفية ج١/١٩٢ وقد أخذ عنهم الشعرانى التريية بالنظر - لطائف المنن ٣٩٢.

(٤) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.

(٥) الكواكب السيرة ١٥١، تحفة الأحياب ٢٩٠.

(٦) الطبقات الكبرى ج٢/١٢٢ الشعرانى.

يقول الراوى : «فهذه نظرة رجل من الأولياء وقعت على كلب غير مكلف، فكيف لو وقعت على آدمى؟ أو على أحد من جهة ذلك الولي مثل خادم أو ولده أو على واحد من تلاميذه؟» (١)، وهو سؤال يستحق الإجابة فعلاً ؟

٣ - وقد يُعبر عن النظرة باللحظ، خاصة في المراجع غير الصوفية، فالسبكي يقول عن ابن الحسين الأنصارى «كان إذا ألحظ شخصاً انتفع بألحاظه» (٢)، ووصل الشيخ محمد الحنفى إلى ما وصل إليه «بلحظ الشيخ أبو العباس السوسى» (٣)، والسخاوى يكثر من استعمال هذا اللفظ فيقول عن الزين عبد القادر إنه «انتفع بلحظ أبجد المجنون»، وقال عن الكتانى أنه «انتفع بلحظ الشيخ عمر بن عيسى» (٤)، ويقول عن نفسه «إنه انتفع بالشيخ الغمرى»، «وصليت بجانبه ولحظنى» (٥).

وفى المراجع الصوفية إستغاثت فتاة بالشيخ فقالت : «لاحظنى يا شيخ أبى» (٦)، ويقول الشعرانى عن شيخه على النبتيتى «فحصل لى منه لحظ، وجدت بركته فى نفسى إلى وقتى هذا» (٧)، وبهذا المفهوم تختلط النفحة باللحظ والنظرة.

يقول السخاوى عن أحدهم «وقد عادت على نفحاته وبركاته ونفعنى دعاؤه» (٨)، وقد صاحب الشعرانى الشيخ الزرقاوى نحو خمس سنين وحصل له منه «نفحات»، وقال نحو ذلك عن شيخه صدر الدين البكرى (٩).

(١) مناقب الحنفى مخطوط ٢٧٤ : ٢٨٣.

(٢) طبقات الشافعية ج٥/٢٢.

(٣) شذرات الذهب ج٧/٢٩٧.

(٤) الضوء اللامع ج٧/١، ج١/٢٥١.

(٥) التبر المسبوك ١٣٧.

(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٩٠.

(٧) الطبقات الكبرى ج٢/١٠٩.

(٨) الضوء اللامع ج١/١٨٩.

(٩) الطبقات الكبرى ج٢/١٢٨ الشعرانى.

ثالثاً : الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية .

* الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى

١ - استلزم الاعتقاد فى الأولياء الاعتقاد فى مقدرتهم على الإتيان بالخوارق، أو ما عُرف فى العصر المملوكى بالكرامات، التى شاع الإيمان بها فى العصر المملوكى تبعاً لإزدهار التصوف، حتى لقد فرضت نفسها على تفكير الخاصة واعتقاد العامة كما لو كانت معلوماً من الدين بالضرورة.

ويمكن أن نجمل تفكير الخاصة أو العلماء فى العصر المملوكى فيما يخص الكرامات فى اتجاهين : اتجاه عملى هو ألصق بالمتحررين منهم، واتجاه نظرى يعتقد فى حدوث الكرامة مطلقاً أو مع بعض تحفظات.

٢ - وكبار الصوفية يعتقدون فى إمكانية حدوث الكرامات مطلقاً، فكتاب المناقب الصوفية يثبتون الكرامة فى مقدماتها ليؤمن القارئ بما حشده فيها من أساطير^(١). وقد أجهد اليافعى نفسه فى الاستدلال على جواز الكرامة عقلاً ونقل^(٢)، وكعادة الصوفية لا يفرقون بينها وبين المعجزة إلا فى عدم التحدى كشرط لوقوع الكرامة^(٣)، لتتاح الفرصة للتهرب من إثبات الكرامة عملياً. والقارئ لمناقب الحنفى تهوله كثرة الكرامات فيها مع أن المؤرخ أباً المحاسن كان معاصراً للحنفى وترجم له ترجمة عادية خالية من ذكر أى كرامة له^(٤).

وقد دان علماء العصر المملوكى عامة بالتصوف باطراد يتناسب مع الازدهار المستمر للتصوف من بدايته إلى نهايته، ففي أوائل العصر كان ابن خلدون يرى وقوع

(١) فى مناقب المنوفى فصل فى المقدمة عن إثبات الكرامة.

(٢) اليافعى، فضل مشايخ الصوفية ص ١٧ وما بعدها.

(٣) اليافعى، روض الربايع ٢٠٥، الشعرانى، فتح المنة فى التلبس بالسنة ٢٢.

(٤) حوادث الدهور ج ١ / ١٤٠.

(٥) المقدمة ١١٠، ٤٧٤.

الكرامة أمراً صحيحاً غير منكر^(٥). ويقول السبكي إن من حق الصوفية إظهار الكرامات للبشارة أو الإنذار أو الثرية^(٦)، بينما انصرف جهد السيوطي - في نهاية العصر - إلى إثبات نواح من الكرامات لم تخطر على بال المتصوفة الأولين، فيصنع رسالة في إثبات تطور الولي وتواجده في مكانين مختلفين في وقت واحد^(٧)، أو ما تعبر عنه كتب المناقب أحياناً بوجود أكثر من جنة للولي في أماكن مختلفة.

٣ - وكانت لبعض العلماء في أوائل العصر تحفظات على وقوع الكرامة، لا تنال من إمكانية وقوعها من حيث المبدأ، فإين تسمية يرد كرامات المتصوفة إلى فعل شيطاني ويسميه أولياء الشيطان ويفرق بينهم وبين أولياء الرحمن^(٨). ويرى الأدفوي أنه لا مانع عقلي أو شرعي من وقوعها «.. ولكن أطررت العادة المستمرة بعدم وقوع ذلك والعوائد يقضى بها في حكم الشرع باتفاق أنمة الإجهاد.. والأمور البعيدة يتعجب من وقوعها ويتوقف في قبولها إلا إذا علم صدق المخبر كما في قصص القرآن عن زكريا ومريم وامرأة إبراهيم، ولا تثبت الكرامة لمجرد اشتهاها واستفاضتها عند الظفرء فإن الكذب فيها كثير، وكثير من الصوفية جاهل بصحة النقل أو مغفل يروى بحسن الظن، ثم إن أكثرها مرسلة وبعضها مبنى على التوهم...» ويرى أنها لو سلمت من ذلك ورويت على نسق الحديث المتواتر قبلت بشرط ألا تكون بعيدة في العادة، وقد وقع مثلها^(٩). أي أن الأدفوي سلم بالمبدأ دون التطبيق، ومع جراته الواضحة إلا أنه خلط - كمحدث - بين المعجزة والكرامة.

٤ - ولأن التصوف أصبح حرفة في العصر المملوكي، والكرامات مؤهلها الأساسي، فقد كان للأولياء طرقهم الخاصة في انتحال ما يخدعون به العامة. وقد فطن لذلك بعض العلماء ممن نعدهم ضمن أصحاب الاتجاه العملي المتحرر.

وأبرزهم الجويري الذي فضح أساليبهم ضمن ما سجله في كتابه «المختار في كشف

(١) السبكي. معيد النعم ١٥٩..

(٢) رسالة السيوطي : القول الجلي في تطور الولي.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل في الجزء الأول.

(٤) الطالع السعيد، ٣٧٠، ٣٧٣.

الأسرار» فكان يذكر الكرامة ثم يتبعها بكشف سرها، ونذكر بعض الأمثلة : يقول عمن جعلهم في الدرجة الثالثة من المشايخ « .. ومنهم من يتعاطى النزول في التنور، وقد أوقد فيه قنطاراً من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع» ثم يشرح الجوىرى تصميم التنور وكيف أن حرارته من أعلاه، وأسفله بارد فلا تضر الشيخ، وذكر طريقة أخرى وهى أن الشيخ يطلّى جسده بمادة عازلة « .. التى يعملونها لمنع النار فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت .: ثم يرفع عن النار حتى يبرد فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء فيؤخذ الدهن ويضاف إليه شيء من البارود الثلجى، ثم يلطخ به جسده ويدخل النار فلا تضره»^(١). وقد يلطخ الشيخ أصابعه بهذا الدواء، ويتقدم فى السماع ويشعل أصابعه من الشمع «ولا يزال يرقص وأصابعه تشتعل حتى يضيغ الخلق، ثم يدنون الشمعة، فيشعلها ويطفى أصابعه» وفى هذه الحالة يضيف النفط إلى الدواء السابق^(٢).

وبعض المشايخ يوهم المريدين بنبع الماء من أصابعه، «وكشف ذلك أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله ثم ينقعه بماء الزرد سبعة أيام، وبعد ذلك يأخذه فيريط طرفه الواحد رطاً جيداً، ثم يجعل فى طرفه الآخر عقدة قصب، ثم ينفخه فى الهواء حتى يجف فإذا جف .. أخذه ثم ملأه ماء .. ثم جعله فى قميصه، وقد عمل له حمالات من تحت القميص .. فإذا أراد أن يسقى الناس جعل رأس المصران فى فم الوعاء وهو دائر من حيث لا يعلم به أحد، ثم يفك رأس المصران بظفروه، فينزل الماء فى الوعاء»^(٣). ومنهم من يبقى «أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ويدعون أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس»، وذكر عدة طرق لذلك يستعمل فيها بذرة الحبة القمحاء أو كبدة الغزال العطشان حين يمتنع عن شرب الماء، أما من يمتنع عن الطعام فيستعين بمسحوق من أكباد الخرفان وذكر طريقة عمله.. وتابع الجوىرى هتك أسرارهم «كمن يظهر فى ظلام الصحراء عامود نور إلى عنان السماء» «ومن يقف يصلى تحت الشجرة فتسجد له»

(١) الجوىرى. المختار فى كشف الأسرار ٢١، ٢٢.

(٢) نفس المرجع ٢٣

(٣) نفس المرجع ٢٢، ٢٣ وذكر طريقة أخرى ص ٢٦.

«ومن يظهر الفواكه فى غير أوانها» «ومن يأكل الحيات، والنار، ومن ينبع له الماء فى الصحراء»^(١). ثم يقرر أن هؤلاء المشايخ مجمعون على بطلان معجزات الأنبياء ويعتقدون أنها «مثل هذا النوع الذى سلكوه وهم كاذبون»^(٢).

٥ - وقد وردت إشارات تؤيد الجويرى فى مصادر أخرى . فابن الحاج اعترض على من يدخل النار ولا يحترق^(٣)، واكتشف ابن تيمية حمل الأحمدية فى دخولهم النار وواجههم بذلك^(٤)، وقيل عن بعض الصوفية أنه كان صائم الدهر بخانقاه سعيد السعداء «يصوم الدهر ويفطر دائماً على حمص مصلوق بشبر ادام»^(٥).

وقد اشتهر محمد بن عبد الله المرشدى فى مصادر العصر المملوكى بأنه كان يطعم الضيوف ما يستهونه فى خاطرهم، وقد أورد الصفدى السر فى ذلك، «وحقيقة الأمر أن هذه الكرامات إنما كانت بصناعة مقررة بينه وبين قاضى فوه فإنهما كانا روحين فى جسد، وكان قد تحصن بالشيخ فلم يقدر قاضى القضاء ولا أحد على عزله ... ولم يبق له دأب إلا تلقى من يصل من ذوى الأقدار قاصداً زيارة الشيخ لأن قوة طريق منيه مرشد، فإذا وصل الزاير أنزله وأضافه وشرع فى محادثته ومحادثته من معه حتى يقف على ما فى خواطرهم وما يقترحونه، ثم أنه يبعث بذلك إلى الشيخ على دواب مركزه فى الطريق بينهما، ويمده من الأصناف ما لعله لا يكون عنده، ويعطيه حلية كل رجل من المذكورين واسمه»^(٦).

ومع ذلك فلم يتأثر اعتقاد العامة فى الأولياء، ويقول الفقيه البقاعى عن أحد المعتقدين «وكان للناس فيه اعتقاد كبير جداً وينسبون إليه مكاشفات ولم يظهر إلى أنا شىء من ذلك، فإنه بشرٌ غير واحد من أصحابنا بأشياء لم تقع»^(٧). ومن النص يتضح

(١) نفس المرجع ٢٤ : ٤٢٢ . (٢) نفس المرجع ٢٨٠ .

(٣) المدخل ٢٠١/٢٤ .

(٤) تاريخ ابن كثير ج٤/٣٦ .

(٥) تاريخ قاصى شهيد . مخطوط ج٦/٦ ترجمة ابن صديق العيزى .

(٦) الصفدى . أعيان العصر مخطوط ج٦ قسم ١ ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

(٧) تاريخ البقاعى . مخطوط ٨٨ ، ٨٩ .

عمق اعتقاد العامة فى الصوفية حتى ولو أخطأ أحدهم فى دعاويه.

والواقع أن الناس فى العصر المملوكى كانوا على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها، فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفى بتوجه الناس جميعهم إلى صاحبها زائرين ومعتقدين ومتوسلين^(١)، واستجابة لتلك العاطفة الشعبية حاول علماء العصر المملوكى أن يجدوا أصلاً شرعياً للكرامات، فوضعت فيما بعد كرامات لصوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين كما فعل الذهبى والسيوطى، ولم يعثر على أصولها التى نقلت عنها مما دفع بعض الباحثين للتأكيد بأنها وضعت لإرضاء عاطفة شعبية تريد إثبات صوفية أولئك الزاهدين، فالشعب لا يقبل الصوفى إلا بما يروى عن كراماته^(٢).

وما كان لكتّاب المناقب أن يحشدوها بكل ما هو مخالف للعقل والنقل لولا أن العامة فى العصر المملوكى على أتم استعداد لتصديقها بحيث يصح اعتبارها مقياساً لعقل العامة واعتقادهم فى كرامات الأولياء .. والعامة فى كل زمان ومكان قليلة العقل تميل لسماع الأقاصيص والأساطير، وتميل أكثر لتصديقها، ولهذا فإن التجارة بالدين سوق رائجة، خصوصاً إذا كان العقل غائباً.

(١) السخاوى. التبر المسبوك ٣٣٨.

(٢) محمد كامل حسين. حوليات آداب القاهرة مجلد ١٦ سنة ١٩٥٤ ص ٤٩.

دراسة في أساطير الكرامات

في العصر المملوكي

١ - ارتفع الإسلام على أسلوب المعجزات الحسية فأثنى والعقل الإنساني قد شب عن الطوق، ولأن القرآن خاتم الرسالات السماوية إلى يوم القيامة كان معجزة عقلية باقية يتحدى الله بها البشر في كل زمان، وشأن المعجزة الحسية أن تنتهي بوقتها وقومها، وقد ندد القرآن الكريم بطالبي المعجزة المادية من كفار مكة «سورة الإسراء من الآية ٩٠ إلى ٩٣» ودعاهم إلى استعمال العقل، ولم يعرف الرسول «ص» المعجزة الحسية، وكان أخرج إليها حين أذى وحين جرح وقتل، فقام بكل ذلك ومعه الصحابة بالمجهود البشري مؤيداً بدعوة عقلية.

٢ - وإذا أهمل العقل البشري تعلق الناس بالمحسوسات، لذا تسود أساطير الكرامات في عصور الجهل. والكرامة فكرة حادثة في تاريخ المسلمين فلم يرد لفظها في القرآن، وإن كان ما كتب عنها يجعلها في أهمية المعلوم من الدين بالضرورة، وقد تمسك بها أصحابها معرضين عن القرآن ودعوته العقلية، بل حاولوا التلاعب بآيات القرآن ليجدوا أصلاً إسلامياً لأساطيرهم.

٣ - وقد استدلووا بما حكى القرآن عن خوارق ليست لأنبياء كما حدث لمريم وزوجة إبراهيم وصاحب موسى وصاحب سليمان، كأنما يعيشون تلك العصور غير مدركين أن القرآن إفتتح عصرًا جديدًا وأن ما حدث قبله وكان مناسباً لذلك العصر لا يصح أن يستمر في عهد القرآن بل ويتخذ دليلاً ضده.

٤ - إن كرامات الصوفية ترفعهم فوق البشر والرسل وتقرنهم بالله سبحانه وتعالى وتعطيهم ما لله من قدرة تفوق قدرة البشر، وذلك هو السبب الحقيقي في إسناد الكرامة للولي.. أن يكون إلهاً مع الله مع أنه لا إله إلا الله، ولا إله مع الله!!

لقد تعطف المتصوفة فأسندوا كرامة هزيلة لعمر بن الخطاب - ما كان أغناه عنها - وفي مقابلها إنتحلوا الآلاف لأنفسهم، وإذا كان عمر صاحب كرامات يصيح في المدينة يا

سارية الجبل، فسمعه سارية في العراق فلم اتعب نفسه والمسلمين معه في فتوح مرهقة تستلزم كرامات في كل خطوة، ألم يعزل عمر خالد بن الوليد حتى لا يفتتن المسلمون به؟ وألم يقطع عمر الشجرة التي بايع المسلمون تحتها النبي بيعة الرضوان حتى لا تصبح شجرة مباركة مقدسة فيما بعد؟

٥ - والباحث في تاريخ المسلمين يجد العجب .. كان المسلمون - وقت أن كانوا مسلمين بحق - فئة مستضعفة في المدينة ما لبثت أن اكتسحت العالم المعروف وقتها غزواً وفتحاً في فترة قياسية لم يعرفها التاريخ وبدون خارقة واحدة، حتى إذا انحسر الإسلام عن القلوب وزحفت العقائد القديمة في زى التصوف ضعف المسلمون حتى غلبهم الصليبيون على بلادهم، في ذلك الوقت المظلم بدأت الكرامات عملها كمخدر يخلق دنيا من الأحلام. فأين كانت تلك الكرامات وقت قوة الإسلام والفتوح؟ ولماذا لم توجه هذه الخوارق - على فرض حدوثها - في مصلحة المسلمين في حروبهم ضد الصليبية والمغولية؟

٦ - ثم ما الداعي للكرامة؟ لقد وهب النبي معجزة ليستعين بها على دعوته فلم يُعطَ الولي - إذا كان هناك ولي - خارقة؟ هل هو صاحب رسالة بعد النبي محمد عليه السلام؟ إذا كان لها داعٍ - جدلاً - فهل يصح هذا مع وجود المعجزة الكبرى الخالدة وهي القرآن؟ إننا لا ننكر القدرات الروحية لدى بعض الناس فهي محل البحث العلمي الحديث، ولكننا نقول إنها كباقي القدرات الإنسانية الأخرى، يشترك فيها المسلم والمسيحي والملحد فتخرج عن مفهوم الكرامة.

وبعد فلنلق نظرة على كرامات العصر المملوكي -

١ - نلاحظ نوعاً من التخصص في الكرامات بين الأولياء، فالبدوي مثلاً جعلوه متخصصاً في إحضار الأسرى من بلاد الفرنجة، وقد رفض المتبولى أن يعتدى على هذا التخصص وأرشد المرأة التي طالبت به بإحضار ولدها الأسير أن تتوسل بالبدوي^(١). لأنه وحده الذي يأتي بالأسرى من عند الفرنجة.

(١) عبد الصمد. الجواهر ٧٩.

وكان من السهل على مؤرخي العصر تناقل الكرامات بحذافيرها وترديدها كأمر مسلم بها، بل قد تتكرر كرامة بعينها لأكثر من صوفى مع اختلاف الزمان والمكان^(١). وتنافس الصوفية في المزايدة بالكرامات فرويت كرامة للشيخ خليل وهو بطير من بلده إلى جبال الزيتون، فقال له المرسى «ليس الشأن أن تذهب لجبال الزيتون وتعود من ليلتك، ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذك بيدي وأضعك على جبل قاف وأنا هنا لفعلت»^(٢). وهو القائل «والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحداً مثلنا، فإذا لقوه كان بغيتهم»^(٣). ويقول «ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي»^(٤).

ولقد أوتي الشعراني مقدرة عجيبة على سبك الكرامات، وهو يوردها أحياناً كخطأ يخفى به الإنحلال الخلقي للأولياء في عصره كما يبدو في ترجمته للمتبولي والحنفي وغيرهم، والغريب أنه حين يذكر أحد الصالحين بصفات حسنة فلا نجد أثراً للكرامات^(٥).

وكان الناس على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها. فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيلاً بتوجه الناس جميعهم إلى أصحابها زائرين ومعتقدين ومتوسلين^(٦)، وبعض الكرامات صيغت لسد النقص أو جبر العجز لدى الأولياء، فالولي المقعد الشيخ أحمد السطيحة قيل فيه «إنه يلبس كل جمعة مراكباً جديداً يقطعه مع أنه سطيحة لا يتحرك» «وتسللت زوجته ليلة فرأته قائماً سليماً من الكساح فلما شعر بها زجرها فخرست

(١) رويت كرامات لأبي العباس المثلث في ابن الفرات والطالع السعيد بدون تغيير في الألفاظ ونفس الوضع في ترجمة شرف الدين الصميدى الذي امتحن الفوري امتناعه عن الطعام والشراب أربعين يوماً. الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٣٨، شذرات الذهب ج٨/٩١ وقد نسبت أيضاً لمعاصر للحجاج بن يوسف، البواقيت والجواهر ج٢/١٠٤ وغير ذلك كثير.

(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٧.

(٣) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/١٨.

(٥) كما في ترجمته للمرحومى الطبقات الكبرى ج٢/٩٥ والفهرى ج٢/١٢٧.

(٦) السحاي : التبر المسبوك ٣٣٨.

وتكسحت وعميت إلى أن ماتت، وحتى لا يوصف الشيخ أحمد السطحية بالعجز الجنسي أيضاً فقد ذكروا أنه كان في عصمته أربع نساء، وأنه خطب بنتاً بكراً فأبت وقالت: أنا صدمت على الدنيا حتى اتزوج بسطحية، فلحقها الفالج إلى أن ماتت. وطلبت بنت بنفسها فقيل لها يا امرأة المكتسح وعابروها فدخل بها الشيخ وأزال بكارتها فملأ الدم ثيابها ورآه الناس .. إلخ^(١).

ونلمح بعض الإرتباط بين الكرامات والأحوال السياسية التي استغلها الصوفية لترويج كراماتهم، فعندما يتولى سلطان يقال أن مجذوباً بشره شفاهاً بالتملك^(٢)، وحين يمرض السلطان يفسر مرضه بإنكاره على شيخ بعينه فجوزى بالمرضى^(٣)، وكان من العادة شبه الدائسة أن تنتهى حياة الأمراء وأرباب المناصب بالمصادرة والعزل والقتل والحبس، ومع ذلك كانت تفسر في ضوء غضب الأولياء ومعرفتهم الغيب^(٤)، وحين منع الناس من الحج بسبب حركة التتر أشيع أن الشاذلى قد حج بخطوة واحدة وعرض بعد مجيئه أن يخطو بالناس جميعاً إلى عرفات^(٥)، ولم يتسائل أحد أها كان من الأجدى أن يوجه الشاذلى قدرته لدفع التتر الذين منعوا الناس من الحج.

فالملاحظ عامة أن إدعاء الكرامات قد استهلكه المتصوفة في نواح تافهة غير نبيلة تعكس حياتهم وتفكيرهم، فلم يحظ الجهاد مثلاً بأقل القليل من إدعاءاتهم الكثيرة بقلب الأشياء ذهباً، مما يفضح نفسية المتصوفة الفارقة في أحلام الوصول للنعيم الدنيوى بدون كد أو تعب. ولا بد أن تنتهى تلك الكرامة بزهد الولي فيما قلبه ذهباً حتى لا يطالبه أحد بالدليل على إدعائه يرجوع الذهب إلى حالته الأولى، وحتى يتأكد زهدهم وأنهم إنما تركوا الدنيا وزينتها مع قدرتهم على الشراء السريع، على أن تلك الكرامات بما صاحبها من دعايات حققت أهداف الصوفية ووطدت نفوذهم وأكدت الاعتقاد فيهم وفى تصرفهم.

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى. ط صبيح ج٢/١٢٣.

(٢) الضوء اللامع ج٣/١٣٣.

(٣) مناقب الحنفى (مع الناصر فرج).

(٤) مناقب الحنفى ٣٨٤، النجوم ج١/١٨٧، المنهل الصافى ج٥/٤٤١.

(٥) الإعلام بالإعلام للنويرى مخطوط مصور مجلد ٢ لوحة ٧٨.

* مروجو الكرامات :

أبرزهم المتصلون بالشيخ المنتفعون بهم كالخدم ومشايخ الزيارة والزوجة وغيرهم.

- الخدم : وقد أصبح بعضهم شيخاً بعد موت سيده يدعى أنه اختص بأسراره ونشر كراماته، فرويت كرامات عديدة عن الشاذلي عن طريق خادمه الشيخ ماضى أبو العزائم^(١)، ويقول خادم الحنفى «وكان سيدى يخبر بما وقع له من الكرامات على عادة السلف من الأولياء المتمكنين^(٢)»، وقد يحرص الشيخ على تسجيل كراماته، ثم يوصى خادمه بكتبتها في حياته وإذا عثاها بعد موته^(٣)، كما يدعون، والواضح أن الخادم هو الذى يشيع ذلك ليتكسب به.

ولخادم الضريح دور كبير فى إشاعة كرامات صاحب الضريح طمعاً منه فى النذور، ولا بأس بأن يحتال لذلك الأساليب المبتكرة، فعرف أحد القبور -وهو مجهول الصاحب- بقبر صاحب الشمعة، لأن بعض خدام القبور المجاورة أشاع أنه يرى على قبره شمعة مشتعلة فى الليالى المظلمة، فاشتهر صاحب القبر بهذه الكرامة^(٤).

- مشايخ الزيارة : وهم الذين يعرفون معالم القرافة وطرق الزيارة، وفى كتب المزارات تنقل عنهم الكرامات مشفوعة بكلمات «وهذه الحكاية مستفاضة بين مشايخ الزيارة» أو نحو ذلك.

كان للزوجة دورها فى هذا المجال حتى ولو كانت بلاءً على زوجها، فكان الشيخ أبو الحمال «مبتلى بزوجته» وقد حكى هذه للشعرانى إن زوجها كان كثيراً ما يكون جالساً عندها فتمر عليه الفقراء الطائرون فى الهواء ينادونه فيجيبهم ويطير معهم فلا تنتظره إلى الصباح^(٥).

(١) تعبير الأنفاس مخطوط ٥١، ٥٥ ما بعدها، ٧٧ وما بعدها.

(٢) مناقب الحنفى مخطوط ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣) الطبقات الصغرى للشعرانى ترجمة السيوطى ٣٠، ترجمة زكريا الأنصارى ٤٠، ترجمة شمس الدين الدمياطى ص ٥٣.

(٤) تحفة الأحياب ٣٢٢.

(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢/ ١١١.

وكان الرأي العام يتوقع من الولي بعض الكرامات حين يغسل -بعد موته- وحين يلحد في القبر، وتكفل الغسالون واللاحدون والحفارون بإرضاء نهم الناس، فالشيخ عبد الغنى الغاسل غسل الشيخ أبا القاسم الأقطع وأورد من كراماته أنه غطى سواته حين وقعت القطنة، وأنه كان يتقلب ذات اليمين وذات الشمال كلما قرأ الغاسل «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال»^(١). وتبسم آخر وهو يغسل لأن الحور العين قد غازلته، وأمر آخر مفسله بأن يفض بصره لأن الجان ستغسله^(٢)، ويبدو أن الغساليين بالغوا في إدعاءاتهم إلى درجة أثارت تندر الناس، فأوصى الفقيه ابن الشيخ أن يغسله الشيخ شهاب الدين بن النقيب، فقال بهاء الدين بن السبكي ما قصد بذلك إلا بسط الناس بعد موته^(٣).

وفي أمثالنا الشعبية نلمح أثر ذلك «كرامات الميت تظهر عند غسله»، «مغسل وضامن جنة»^(٤). ونافس اللحدون والحفارون الغساليين في هذا المجال، فيشيع أحدهم أنه وجد القبر قد اتسع بحيث لا يدرى هل هو في بيت أم في قبر، ووجد معه من يساعده في اللحد وذلك لأن الميت كان يدعو «اللهم وسع على قبري واجعلني ممن تعولاه الملائكة»^(٥)، ولحد آخر بنتاً للشاذلي فضحكت، وعرفته بأنه يلحقها بعد ثلاثة أيام^(٦).

وحين حمل أبو مدين في النعش وكان المؤذن يصيح بالأذان ثقل على حامله حتى وضعوا النعش لأنه كان متعبوداً على القيام حين يؤذن المؤذن^(٧)، ويبدو أن ذلك أصل لما يشيعونه في الريف الآن من طيوان الشيخ بنعشه أحياناً أو توقفه حيناً.

(١) الكواكب السيارة ٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) الكواكب السيارة ٢/٤٧، ٢٤٨.

(٣) ذيل ابن العراقي مخطوط ٦٥.

(٤) أحمد تيمور الأمثال الشعبية ٣١٥، ٣٧٨ الطبعة الأولى.

(٥) الكواكب السيارة ٢٥٠، ٢٥١.

(٦) تعطير الأنفاس مخطوط ٨٠.

(٧) المناوى. الطبقات الكبرى مخطوط ورقة ٢٨٣.

تهرب المتصوفة من الإتيان بكرامة :

كان المتصوفة ينسبون الكرامات للأولياء بعد الموت، أما في الحياة فقد حاولوا تبرير تقاعسهم عن إثبات الكرامة عسلياً - بشتى الوسائل. ووضع عبء ذلك على الشعرائى -بطل سبك الكرامات - بطبيعة الحال، فهو يميز الكرامة عن معجزة النبى بأنه لا يجب على الولى إظهارها لأنه لا يحتاج إلى دليل على صحة طريقه، بل يجب إخفاؤها، وينجوز للولى أن يتحدى بالكرامة إذا رأى فى ذلك مصلحة، ومع ذلك يجوز أن تقع الكرامة مع كلام الولى ومع سكوته^(١).

وبالغ الشعرائى فيرى أن من الأولياء من لا يستره حجاب ومع ذلك لا يعرف ما فى جيبه^(٢). وأن الولى قد يعاقب بأن يحبب إليه إظهار الكرامات كنوع من الاستدراج^(٣)، وأن أكثر الأولياء كرامة من كثر تكذيب قومه له، وأقلهم كرامة من كثر تصديق قومه له^(٤)، وعد من المنن كراهيته لوقوع الخوارق على يده فى الدنيا لأنها عرض فان، ومع ذلك يقول أن وقوع الخارق لابد منه للفقير ولو مرة واحدة، ثم يفتخر بكثرة اعتقاد أهل عصره فيه من غير مطالبة بدليل^(٥)، ومع ذلك كان الناس ينتظرون من الأولياء أن يخبروهم بما أوتوا من علم الغيب ووجد الشعرائى الوسيلة للتهرب من ذلك أيضاً. فهناك اللوح المحفوظ حيث لا تغيير فى المكتوب وهناك ألواح المحو والإثبات حيث التغيير والتبديل. فحذر الأولياء من الكشف عن الغيب إلا إذا كان منطمح أنظارهم اللوح المحفوظ محل الغيب النهائى، أما إذا كان ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة والستين لوحاً فيمنع إظهار ما يعرفون من الغيب لأن الحق تعالى كل يوم هو فى شأن، «فربما غير ما تكلمنا به وأظهرناه للناس .. فيسئ الناس ظنهم بأمثالنا»، واستشهد بأن الخواص كان مشهده اللوح المحفوظ، ومشهد أبى الحمال ألواح المحو والإثبات، فكان الخواص

(١) اليواقيت والجواهر ج١/١٦٣.

(٢) الجواهر والدرر ١٧٥.

(٣) الجواهر والدرر ١٧١.

(٤) كشف الزان ص ٨٠.

(٥) لطائف المنن ص ٣١٦، ٧، ٩٠، ٢٣٥.

لا يخطيء في كشفه عكس أبي الحمام^(١). وانفرد الشعراني بهذا القول، وإن كان المتبولى قد أشار إلى نحو ذلك حين حذر من إفشاء الولي للغيب لأن الله يحول بين المرء وقلبه^(٢). فلم يرد في قوله ما ذكره الشعراني عن الملوح المحفوظ والمحو والإثبات.

ويرى الشعراني أن الأولياء يعطون التصرف بحرف (كن)، أى يقولون للشيء كن فيكون، مع أن ترك التصرف بها مرتبة الأكابر منهم^(٣)، وقد أعطى أحدهم هذا المقام فتركه وقال «نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا»^(٤)، وما أشد تواضع ذلك الولي!

والأولياء «أسرار الوجود» كما يقول الحنفى^(٥)، وقد تكلم فقير ببعض الأسرار فقتل، وقيل أن من أفشى أسرار الله فجزاؤه القتل بالسيف على عوائد الملوك في قتل من يفشى أسرارهم^(٦)، وذلك تعليل ظريف لعدم إتيان الولي بكرامة على عيون الأشهاد، وقد عبر الشعراني عن ضيقه من الفقهاء سلفاً وخلقاً لأنهم يطلبون الكرامة كدليل على الولاية^(٧)، وعلل الخواص ذلك الخلق من الفقهاء مع عدم وجوده لدى الفقهاء بكثرة اعتقاد الآخرين الاعتقاد الصحيح في شيوخهم عكس الفقهاء^(٨). على أن هناك أقوالاً للمتصوفة السابقين في التهرب من الإتيان بكرامة تنقصها براعة الشعراني، فعبد القادر الجيلي كان لا يشأ أن يرى أحداً منه كرامة إلا بإرادته هو، «وكانت الخارقة تظهر أحياناً منه وأحياناً فيه» حسب تعبير مؤلف مناقبه^(٩).

(١) البحر المروود ٢٧٣. ٢٧٤.

(٢) لطائف المنن ٩٣.

(٣) الجواهر والدرر ١٢٣.

(٤) البراقيت والجواهر ج٢/ ١٠٦.

(٥) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/ ٨٨.

(٦) لطائف المنن. الشعراني ٤٨-٤٩، وذكر قصة ص ٤٠٩ عن عجز المريدين عن تحمل الأسرار من الشيخ.

(٧) لطائف المنن ٩٠.

(٨) درر الغواص ٦٧.

(٩) الشطنوفى - بهجة الأسرار. مخطوط ١ - ٢٩ إلى ٣٠.

أما الشاذلي فيقول «أى كرامة أظهر وأعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة» (١)، مع أن أقواله فى عقيدة الاتحاد الصوفية أبعد ما تكون عن ذلك.

وفى مناقب المنوفى أن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية صاحبها، وأنها تضدر عن الولى بلا قصد ويجب عليه سترها، ويرى المرسى فى طى الأرض وهو انتقال الولى إلى أى مكان بخطوة واحدة لصغار الطائفة، أما الطى الأكبر فهو طى أوصاف النفوس (٢)، وطلبت كرامة من عبد العزيز الدرينى، قالوا له «مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى تأخذ عنك الطريق، فقال يا أولادى وهل ثم كرامة من الله لعبد العزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به، وقد استحق الخسف من سنين» (٣)، واضطر على وفا للإخبار بالكشف عن مصير غلام محبوس فقال «لا بد له من الخلاص إما فى أول الأمر أو آخره وإن فاتته ذلك جميعه فيتخلص ولو على المغتسل، يقول الراوى - بساذجة - رأيت ما يؤيد ذلك ويصحح هذه المقولة (٤)، وفى أسطورة عن زكريا الأنصارى أن ضريراً من الشام قصده ليرد عليه بصره فأمره بالرجوع إلى غزة، وهناك يرد عليه البصر بشرط ألا يرجع مصر فيكف بصره ثانياً بحجة الخوف من ذبوع الخبر، وتقول الأسطورة إن الضرير قد أبصر هناك (٥). والغرض من ذلك هو إشاعة الكرامة دون المطالبة بدليل على صحتها بالإضافة للتخلص من إثباتها أمام الناس.

وكان نصر المجذوب المصرى «يتظاهر بالخطأ فى الكشف حتى لا يعتقد أحد» (٦) بنحو ذلك برّوا خطأهم فيما يدّعون من إطلاع على الغيب.

(١) تعطير الأنفاس - مخطوط ص ٢٠٤.

(٢) مناقب المنوفى، مخطوط من ٥ إلى ٧.

(٣) لوائح الأنوار. ص ٢٤١، ص ٣٧١، لطائف المنن ٥٩٢.

(٤) مناقب الوفاية، مخطوط ٧٢.

(٥) الطبقات الكبرى - الشعرانى ج ١٠٨/٢.

(٦) أخبار القرن العاشر ١٨٥.

اصناف من اساطير الكرامات

* علم الغيب :

١ - ويسميه الصوفية كشفًا، وهو أبرز ما ادّعاه الصوفية من كرامات، ويرجع سبب شهرتهم بالكشف إلى أن الصوفى ينتظر أو يحس بالإنكار القلبي عليه فيسبق المنكر محتجًا على إنكاره قبل إعلان المنكر له، فيشتهر الصوفى بقراءة الخاطر، وبالغ الصوفية فى هذا فادّعوا علم الغيب.

٢ - ويتواضع بعضهم فبفتحاشى الدهوة فى شيء من الخمس التى فى آخر سورة لقمان «لأنها من خصائص الحق تعالى» ولكنهم فى الوقت نفسه يؤولون دعوى بعض الأولياء فى علمها^(١)، مع أن الغيب كلُّ لا يتجزأ وهو مما اختص الله تعالى به ذاته، ولم يعط الله تعالى العلم ببعض الغيب إلا بعض الرسل مثل يوسف (يوسف ٣٧)، وعيسى (آل عمران ٤٩) وأكد القرآن أن خاتم النبيين لا يعلم الغيب.

٣ - وادّعاءات الصوفية فى هذا المجال يضيق عها الحصر، فأبو السعود بن أبى العشائر حدث بإيضاح أحوال الملكوت والآخرة والمنازل والدرجات ومراتب الرجال من آدم إلى يوم القيامة .. إلخ^(٢)، ويقول على وفا ما من نطفة توضع فى رحم .. إلا وقد أطلعنى الله عليها^(٣) وادّعى المتبولى بأنه «لا تنزل قطرة من السماء ولا يطلع نبت من الأرض إلا علمت به .. وهذا أمر أعطيته وأنا طفل^(٤)»، والعارف يعلم أحوال أهل الجنة علمًا لا شك فيه لخروجه عن حجاب بشريته^(٥)، والصوفية يعلمون السرائر لذا نصحوا المريدين بحفظ قلوبهم معهم^(٦).. وسبحان من «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - غافر ١٩»

(١) لطائف المنن للشرعانى ٩، ٤، ٤٣٠. (٢) الكواكب السيارة ٣١٦، ٣١٧.

(٣) مناقب الوقانية ٤٣.

(٤) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٧.

(٥) درر الغواص ١١.

(٦) درر الغواص ٨١، قواعد الصوفية ج١/١٥٨، الطبقات الكبرى ج٢/٩٤، ١٥٠.

فهو القائل سبحانه «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .. الأنعام ٥٩»، وفى قصة اليدوى تتردد معرفته بالغيب حتى أن هلال مآذنته بعد موته ينبأ بالغيب^(١) وإذا ولد لى يبشر آخر أباه بما سيكون من أمره وفتوحه^(٢)، وعرف الشاذلى بموته فى حميشرة واستعد لذلك^(٣)، وكان ابن ماخلأ شرطياً يتنبأ للوالى بسيرة المتهم^(٤)، وفى لطائف المنن ومناقب المنوفى وغيرها من كتب الصوفية أخبار لا تنقطع عن الكشف، «ولولا لسان الشريعة» كما يقول الفرغل «لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم»^(٥)، وكان شعبان المجذوب «يطلع على ما يقع فى كل سنة من رؤيته لهلالها» وأعطى مجذوب آخر «التمييز بين الأشقياء والسعداء فى الدنيا»^(٦)، وأطلع الخواص على فتوح قلوب الفقهاء وكان يخبر بذلك^(٧)، بل إنهم ادّعوا علم ما فى اللوح المحفوظ وتردد هذا فى كتبهم عن الدسوقى والرفاعى والجيلاتى^(٨) وعبد الرحيم القناتى^(٩). ويقول الحنفى لو سألتنى شيئاً لم يكن عندى أجبتك من اللوح المحفوظ^(١٠).

وكان محل كشف الخواص اللوح المحفوظ^(١١)، خاصة وأن نهاية كشف الولى أن يطلع على ما كتب فى اللوح المحفوظ كما يدعى الشعرانى^(١٢).

(١) عبد الصمد الجراهر ٧٦.

(٢) شذرات الذهب ج٨/ ٣٠، ٣١.

(٣) الإلهام مخطوط مجلد ٢ - ٧٩.

(٤) طبقات الشاذلية ١١١، ١١٢.

(٥) مناقب الفرغل ١ مخطوط.

(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ١٥٩، ١٣٠.

(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ١٣٠.

(٨) طبقات الشرنوبى ٧، ٨.

(٩) مناقب عبد الرحيم ١٥.

(١٠) (١١) الطبقات الكبرى .

(١٢) الجواهر والدرر ١٩٥.

والشيخ يعلم الخاطر ويمد مريده به، بل يتفاهمان على أساس الخاطر^(١)، وكان الحنفى يقيم ميعاداً سكوتياً فيلقى بخواطره فى قلوب أصحابه كل حسب «مشروبه»^(٢)، «ويتعلى الشيخ الصادق بعلم يكشف به الحقائق والدقائق، وإلقاء الملك، ونفث الشيطان، والنفث فى الروح، والإلهام، وخطرات المريد، ونزعاته وأمراض القلوب وأسرار النفوس»، ويلاحظ مريده من حين كان فى عالم النور قبل وروده وهبوطه إلى أصلاب الآباء، ويطون الأمهات، كما يقول الشعرانى^(٣).

٤ - وكانت كتب التاريخ كثيراً ما تصف الصوفية بالكشف والعلم بما سيكون^(٤)، ويرى أبو المحاسن أن أحدهم فى نزاع مع السلطان «جقمق» أعلن فى الملأ أن غريمه السلطان سيموت فى حادى عشر جمادى الأولى، وانتظرت العامة النتيجة، ولكن الشيخ مات قبل ذلك اليوم بعشرة أيام ولم يظهر لكلامه صحة، وحاول أبو المحاسن مع ذلك تأويل كلام الشيخ، وأنه كان يقصد نفسه بالموت وأن الجماهير أخطأت فى النقل عنه^(٥)، مما يتعارض والقصة التى رواها بنفسه الأمر الذى يظهر مدى الاعتقاد فى علم الأولياء للغيب، وفي الأمثال الشعبية لم يعز هذا كقولهم «إنت شيخ ولا حد قلبك»^(٦).

* التصریف :

١ - يقولون إن الولي خرق العادة حين يعطى حرف كن^(٧)، أى يقول للشئ، كن فيكون، ويقول الجيلي عن نفسه «وأعطيت حرف كن»^(٨). بل إن الخواص جعل فى باطن كل إنسان قوة كن^(٩). وفى قصة الهندوى مع ركين أنه جعل الشعرير قمحاً

(١) السبكي معيد النعم ١٥٨، ١٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٨٢.

(٣) لطائف المنن للشعرانى ٣٨٨.

(٤) ذيل الدرر الكامنة لابن حجر مخطوط ورقة عشرة، ٩٦٥.

(٥) حوادث الدهور ١٠٧ : ١٠٨ سنة ٨٥٥.

(٦) الأمثال الشعبية لتيمنور ٩٩، الشعب المصرى فى أمثاله. شعلان ص ١٧٩.

(٧) الجواهر والدرر ١٦٦.

(٨) لطائف المنن ١٨٨.

(٩) الجواهر والدرر ١٢٢.

بكلمة كن^(١)، وكان الشرييني يقول للعصا التى كانت معه كوني إنسانًا فتكون إنسانًا، ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت^(٢).

٢ - بل إدعوا أن الولي يتصرف فى الموت والحياة، فالحسن أخو البدوى يميت من تعرض لهما من الأكراد ثم يعيدهم للحياة، والبدوى يميت جمال فاطمة بنت برى السبعة آلاف^(٣)، وأحيا على وفا غريقًا عند شاطئ الإسكندرية^(٤)، وحين مات الجمل أحياه على وفا إلى ما بعد الحج والرجوع إلى مصر «فمن وصوله إلى باب النصر وقع ميتًا فعلمت أن محبى الموتى أبقاه للخدمة»^(٥)، وأحيا المتبولى والد مريده فأخرجه «من القبر» ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ^(٦)، وانتهت كراماتهم مع الأسد -أحيانًا- بإحياء من افترسه الأسد^(٧).

* إنتحال صفات الله: (من عدم الأكل والشرب والنوم والجماع) وغيرها

فالبدوى حين نظر عبد المجيد إلى وجهه صقع^(٨)، وكان يظل أربعين يومًا بلا طعام ولا شراب شاخصًا ببصره إلى السماء^(٩)، ورفض الزواج ولم تغلج معه إغراءات فاطمة بنت برى، وقال له الرفاعى فى المنام «إن جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تاريخ الرجال فما وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر إلى النساء بشهوة إلا أنت

(١) عبد الصمد الجواهر ٣٧، ٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/١١٨.

(٣) عبد الصمد. الجواهر ٤٧، ٥١، وكان يصف البدوى فى نهاية كتابه بالمحبى المميت.

(٤) مناقب الوقائية ١٥، ١٦.

(٥) مناقب الوقائية ٧٧، ٤٨.

(٦) الطبقات الكبرى ج٢/٧٦.

(٧) الإمام مجلد ٢ لوحة ٧٤، بهجة الأسرار مخطوط ج٢/١٩ : ٢٠.

(٨) عبد الصمد ١١، ٢٤.

(٩) عبد الصمد ٦، ٧، ١٠، ٣٦، النصيحة العلوية للحلبى ٢٣.

(١٠) عبد الصمد ١٧، ٤٩.

يا فحل الرجال» (١٠)، وكان الشيخ خلف -أحد أصحاب البدوى- لا يضع جنبه الأرض ليلاً ولا نهاراً (١١)، وقد سأل الشعرائى الخواص عن قوله تعالى «لا تأخذه سنة ولا نوم» هل خلع الله هذه الصفة على أحد هذه الصفة من الأولياء فأجاب نعم ومثّل بهيسى بن نجم الذى ظل بلا نوم سبعة عشر عاماً (٣)، ومكث بعضهم نحو الخمسة شهور (٣)، وآخر سبعة وثلاثين سنة (٤)، وآخر مكث أربعين سنة (٥)، على أن عليّاً العياشى مكث فترة قياسية حطمت الأرقام السابقة فظل بلا نوم نحو نيف وسبعين سنة (٦)، وقال اليافعى عن أحد أصحابه «وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه الأرض ويمكث أياماً عديدة لا يأكل فيها شيئاً» (٧).

ونلمح مثل ذلك فى مدة إمتناع الولى عن الطعام والشراب فتراوحت بين أشهر لا تكمل سنة كما فى حالة ابن عمر التباعى (ت ٧٠٢) (٨)، أو يمكث سنين قد تمتد إلى عشرين سنة (٩)، وقد تصل أكثر من عشرين (١٠)، بل إلى أربعين سنة (١١)، وقد يجتمع عدم الأكل والشرب مع عدم النوم كما فى حالة عيسى بن نجم (١٢)، السعالف الذكر، وربما يطلق علي أحدهم صائم الدهر (١٣).

ويخرج الولى بعد تلك الخلوة وذلك الحرمان يظهر الكرامات والخرائق (١٤). ومع

(١) عبد الصمد : ٢٨.

(٢) الجواهر والدرر : ١٤٠ : ١٤٢.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ١٥٥.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/ ١٦١.

(٥) صحبة الأخيار للشعرانى ١٣٦.

(٦) الطبقات الكبرى ج٢/ ١٦٢.

(٧) روض الرياحين ١٧٩.

(٨) الأنبهانى جامع كرامات الأولياء ج١/ ١٣٧.

(٩) السبكى طبقات الشافعية ج٥/ ٣ : ٧.

(١٠) الضوء اللامع ج١/ ٢٠١ ترجمة ابن عرب.

(١١) شذرات الذهب ج٧/ ٣٥٠.

(١٢) تنبيه المغترين ١٣٠ وقد ظل على وضوء واحد.

(١٣) ابن إياس تحقيق محمد مصطفى ٢/ ١ - ٣٥١، ٣٥٧ ترجمة شمس الدين التبريزى.

(١٤) شذرات الذهب ج٧/ ٣٥٠.

ذلك فهم ابطال المآدب، ولهم فى الشراة كرامات.

هذا وقد عدّ السخاوى من جملة كرامات الأولياء «إنقلاب الأعيان، وكذا المشى على الماء، والكشف عن حال الموتى، وسماع كلامهم، واحياؤهم بإذن الله تعالى، وطى الأرض لهم، والكلام على المستقبل والماضى وإخبارهم بالمغيبات، وإنفاقهم من الغيب، وإشارهم على أنفسهم، وإنطلاق البحر لهم، وغير ذلك من الكرامات التى شوهدت من كثير منهم»، ونحو ذلك ما قاله ابن عطاء فى لطائف المنن^(١).

* كرامات ما بعد الموت :

١ - يمكن أن يدخل تحت هذا الإطار الكرامات السابقة واللاحقة لسهولة إدعاء المتصوفة لكرامة أشياخهم المتوفين دون تقديم إثبات، هذا بالإضافة إلى الدافع المالى فيبالغ المنتفعون فى أكاذيبهم عن كرامات صاحب الضريح طمعاً فى النذور، وحتى لا تفتت حماسه الناس للولى بعد موته^(٢)، وخشية أن يسرق الأضواء منه ولى آخر على قيد الحياة. وفى كتاب عبد الصمد عن البدوى نلمح إتجاهاً واضحاً لإسناد أكثر الكرامات للأولياء المتوفين. فعبد العال فى ضريحه سمر شخصاً، والشيخ وهيب يهدد اللصوص إذا حاولوا نهب الودائع التى يضعها أهالى قريته عند ضريحه، والشيخ عمر الشناوى الأشعث يخرج من قبره راكباً فرساً ليفيخ زائريه من قطاع الطرق، ومثله الشيخ يوسف البرلسى، وخلف الحبيشى والشيخ عماد الدين وغيرهم^(٣). والهدف من هذا طمأنة القادمين لزيارة الأضرحة وإخافة قطاع الطرق. بل إن بعض الأولياء كان يذهب إلى ضريح البدوى يجاذبه أطراف الحديث حتى إن البدوى كان يخرج رأسه من الضريح يسأل عن الشعرانى إذا تخلف عن حضور مولده^(٤)، وقال ابن الصائغ «من لم تظهر كرامته بعد وفاته.. فليس بصادق^(٥)». وكان أبو السعود بن أبى العشائر «كرامته ظاهرة فى حياته ثم

(١) تحفة الأحياء ٣٤٩. لطائف المنن ٣٥. (٢) عاشور البدوى ١٦٣.

(٣) عبد الصمد الجواهر ٢٥ : ٣٥، ٧٠، ٧١.

(٤) عبد الصمد ٣٣، ٦٧، ٦٨.

(٥) الكواكب السيارة ٢٨٧.

(٦) تحفة الأحياء ٤٧٤.

بعد وفاته» (٦).

ومثله عبد الرحيم القنائي وقد ذكرها رواة مناقبة (١١)، ذلك أن الصوفية يعتقدون إعتقاداً جازماً بحياة الولي في قبره متمتعاً بكراماته متحرراً من قيود الدار الأولى. وقد عد الشعرائي من المنن معرفته بأوقات تواجد الولي المتوفى في قبره (٢).

* الطلى :

١ - ويقصد به إنتقال الولي من مكان لآخر في لمح البصر أو نحوه، يقول ابن عطاء عنه «أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد» (٣)، وعليه فقد كان المرسى يحضر يومياً من الإسكندرية إلى المقسم حتى يسمع الميعاد ويعود في نفس الوقت للإسكندرية مع شيخه الشاذلي (٤)، ونقل البدوي ابن أخيه من جبل أبي قبيس إلى طنطا في غمضة عين ثم رده إلى مكانه في غمضة عين أيضاً (٥)، وفي مناقب المنوفى باب عن طي الأرض له مع غدم تحركه (٦)، وكان السيوطى يصلى العصر فى مكة ثم يرجع، وقد يصطحب معه خادمه بشرط أن يغمض عينيه، وكان صوفى من أهل الخطوة يقول فى كل يوم زرت سيدى عبد القادر الجيلانى البارحة، وزرت النبى عليه السلام البارحة، وزرت أبا الحجاج الأقصرى» فقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى «يحتمل أن يكون صادقاً، فإن الأمر ممكن فإن الدنيا خطوة مؤمن» (٧).

٢ - على أن هناك طياً آخر للزمان، فقد اشتاق بعضهم لأهله فى حصن كيفا، فشاوور المتبولى وكان ذلك بعد العصر فأدخله الخلوة، فرأى نفسه داخل بلده والتقى بأهله، ومكث عندهم يخطب فى الجامع ويقرىء الأطفال مدة تسعة أشهر، ثم

(١) مناقب عبد الرحيم مخطوط ٢٢ وما بعدها.

(٢) لطائف المنن ١٩٤.

(٣) لطائف المنن ٣٥.

(٤) تعبير الأنفاس ٢٤٦.

(٥) عبد الصمد الجواهر ٥٨، ٦١.

(٦) مناقب المنوفى مخطوط ٤١ : ٤٦.

(٧) شذرات الذهب ج٨/٥٤، الطبقات الصغرى للشعراني ٣٠، ٣١، ٤٤.

اشتاق للشيخ فأذن له أبراه فخرج إلى موضع خارج البلد، فإذا هو في خلوة الشيخ وفي نفس الزمان^(١)، وأقام جمال الدين الكردي يخطب في بلاد الأكراد مدة ستة أشهر ثم رجع إلى مصر، وكل ذلك بعد صلاة العصر^(٢).

* التطور :

وهو على أنواع، فقد يتطور الولي لتصير له سبع عيون أو يتربع في الهواء^(٣)، أو يتشكل في صورة أسد أو نيل أو فقير أو أمير أو فلاح أو جندي ويوصف حينئذ بأن «التطور دأبه ليلاً ونهاراً»^(٤)، وقد يكون للولي أكثر من جسد فيرى في أكثر من بلد في وقت واحد^(٥)، وربما يحلف شخص بالطلاق أنه رآه في عرفات مراراً وهو لم يذهب للحج^(٦)، وقد ذهب المرسى إلى خمسة ولاتم في وقت واحد^(٧)، وصلى محمد الخضرى الجمعة في ثلاثين بلداً في وقت واحد، يبيت في الليلة الواحدة في عدة بلاد^(٨).

* في قراءة القرآن :

اتخذت الكرامات هنا وسيلة للهروب من تلاوة القرآن خاصة وأنها ظهرت في أواخر العصر، فكان أبو السعود الجارحي يصلى بالقرآن في ركعة أو ركعتين^(٩).

وذكر الشعرانى أن أبا العباس الحريشى ذكر أنه قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختمات فقال نور الدين المرصفى «الفقير» يعنى نفسه» وقع له أنه قرأ في يوم وليلة

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٧٥. (٢) الجواهر والدرر ١٦٤.

(٣) الغزى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج١/١٩٨ ترجمة الشيخ الغمرى.

(٤) الغزى نفس المرجع ج١/٢١٣ ترجمة سويدان المجذوب، شذرات الذهب ج٧/٣٥٠ ترجمة حسين الصوفى.

(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٩٤ ترجمة محمد الخضر.

(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/١٤٩ ترجمة نور الدين الشوفى.

(٧) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٢٦٢.

(٨) أخبار القرن العاشر مخطوط ورقة ٥٧.

(٩) شذرات الذهب ج٨/١٦٦، ١٦٧.

(١٠) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/١١٢.

ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمة^(١٠)» فقال له الشعراني بالحروف يا سيدي؟ فقال نعم لأن الروح إذا تجردت عن الجسم الكثيف فعلت ذلك، ويقول «ويقع ذلك للأولياء لشرف قدرهم عند الله فإن أعمار هذه الأمة قصيرة، فأقدر الله خواص هذه الأمة على ذلك، ليرجع أحدهم في الأعمال على عبّاد الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة^(١١)».

ويحكى الشعراني عن نفسه أنه أحرم بصلاة الصبح خلف الإمام الذي افتتح سورة العزمل فسبق لسان الشعراني للقرآن، فقرأه من أول سورة البقرة ولحقه في قراءة الركعة الأولى قبل أن يركع^(٢).

* رؤية الله سبحانه والملائكة والعرش :

إدعى الصوفية رؤية الله فيقول المرسى إن له أربعين عامًا ما حجب فيها عن الله طرفة عين^(٣)، وكان تاج الدين النخال يتجلى عليه الحق في الخلوة^(٤)، وجعل الشعراني من المنن تشريفه برؤية الله تعالى في النوم خمس مرات، ويقول إن شخصًا ادعى أنه اجتمع به في سوق الوراقين فأنكر عليه بعض العلماء ويرى الشعراني أن ذلك الإنكار غير صحيح^(٥)، وقد أطلع الله الشعراني على عدد أصحابه وعرفه بأنسابهم^(٦)، وأطلعته على السعداء من البشر والأشقياء منهم.

٢ - وتوثقت علاقة الأولياء بجبريل، فكان عبد الرحيم القناني يستشيريه فيما يعن من مشكلات مريديه^(٧)، خاصة وأن مخاطبة جبريل لا يمنع منه لدى الصوفية عقل ولا

(١) البحر المورود ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) لطائف المنن ٢٩٤.

(٣) تعطير الأنفاس ٢٢٠، ٢٢١.

(٤) طبقات الشاذلية ١١٨.

(٥) لطائف المنن ٣٨٢.

(٦) لطائف المنن ٣٩٣، ٣٥٢.

(٧) مناقب عبد الرحيم، مخطوط، ورقة ١٠، ١١.

(٨) حسن شمه، مسرة العينين، مخطوط، ورقة ٨.

نقل على حد قوله الدسوقي^(٨)، والكلام مع جبريل وغيره من الملائكة من كرامات الأولياء، وليست بمستحيلة ولا منكرة، وكتب الرقائق مشحونة بحديث الأولياء معهم، وقد ذكر بهاء الدين الأحمسي أن ملك الموت أخبره بعمره، واجتمع آخرون بعزرائيل وأوصي بعضهم -على ميت- منكراً ونكيراً^(١١)، وكان بعضهم يكلم «الملكين الكرام الكاتبين»^(١٢).

٣ - واتخذ الصوفية من العرش مجالاً لكراماتهم حتى أن الدسوقي يقول «أنا العرش أنا الكرسي أنا اللوح أنا القلم»^(٣)، وتواضع باقي الأولياء فادّعوا أن أبصارهم تطمح حتى تحيط بالعرش»^(٤)، وكان الخضرى يقول «لا يكمل الرجل عندنا حتى يكون مقامه تحت قوائم العرش»^(٥)، واطلع أحدهم على مقام الشاذلى فوجده عند العرش^(٦). وسُمي ياقوت بالعرشى لأنه كان دائماً ينظر للعرش وليس فى الأرض سوى جسده^(٧)، ويقول المرسى «والله إنى لأعرف العرش كما أعرف كفى هذه»^(٨)، وادعى كثير من الأولياء بأنه يعلم أزقة السموات أكثر من علمه بأزقة الأرض^(٩).

* الأسد :

إستغله الصوفية فى كراماتهم خاصة وأن السباع كانت تهدد الحجاج^(١٠). وقد أغرق سيل بالشام أحد عشر أسداً^(١١).

والأسد يتصاغر فى الكرامات الصوفية حين يفترس من ينقذه الولي، وربما يحمل

(١) لطائف المنن ٤٠٣ : ٤٠٤.

(٢) لواقح الأنوار ٣٣٥، والطبقات الكبرى للمناوى. مخطوط ورقة ١٠٦.

(٣) حسن شمه مسرة العينين مخطوط ورقة ١٠. (٤) الجواهر والدرر ١٦٦.

(٥) أخبار القرن العاشر ٦٣. (٦) لطائف المنن ابن عطاء ٤٤.

(٧) عيون الأخبار ج٢/٤٤٢، الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٣.

(٨) تعطير الأنفاس مخطوط ٢٧٣.

(٩) طبقات الشاذلية ١١٨ ترجمة تاج الدين النخال، أخبار القرن العاشر ١٧٥ ترجمة ابن عنان.

(١٠) السلوك ٨٨٨/٢/٣.

(١١) تاريخ ابن الفرات ١٥٤/٨ حوادث سنة ٦٩٢.

(١٢) الكواكب السيارة ٢٠٦ : ٢٠٨، بهجة الأسرار ١٩/٢، حياة الحيوان للدميرى ١٥/٢ : ١٦.

عليه الولي الحطب أو يركبه، أو يلجأ الأسد لبيت الصوفي مستجيراً من جرح (١٢).

* الذهب :

أدى فقر الصوفية إلى إتخاذهم قلب الأعيان ذهباً - جانباً هاماً من كراماتهم تفننوا في حبكها، مع الحرص على انتهاء الكرامة بأن يعود الذهب إلى حالته الأصلية. وربما يعلن الولي قدرته على قلب الشيء ذهباً - بدون قصد - فيتحول ما يشير إليه إشارة عابرة إلى ذهب، ومن الأشياء التي حولت ذهباً الطوب والحطب والهواء والحجر والماء وحتى الباذنجان (١).

وتفرد الشاذلي بأن الله أوحى إليه - فيما يزعم - أن يجعل في بوله ما يشاء يكن ذهباً، ويبدو أنه كان يتحرج من ذلك فيأمر خادمه أن يبول على الحجر فيحول ذهباً (٢)، وكان آخر كلما استنجد به بجر تحول ذهباً (٣).

* الطعام :

كان كسابقة مجالاً للكرامات، واحتوت كتب المناقب على الكثير منها، وهي على أنواع منها إحضار ما لذ وطاب من الطعام من حيث لا يدري أحد (٤)، أو أن الولي يميز الطعام الحلال والحرام حين يكون مدعواً، واشتهروا بهذا التخصص لأن حياتهم قامت على الأكل من طعام الناس حراماً أو حلالاً، حتى أن مباراة عقدت بين وليين حضرها الظاهر بيبرس فينا يرويه الصوفية (٥) في هذا الشأن.

وحكيت كرامات على مثال ما روى في السيرة النبوية من أن الطعام القليل يكفي

(١) روض الرباعين ١٩٧، الكواكب السيارة ٣١٨. مناقب العنفي ١٧ : ٢٢١، المدخل لابن الحاج ج٢/ ١٧٤، ١٧٥.

(٢) تعطير الأنفاس ٣١، ٤٩.

(٣) المدخل لابن الحاج ج٢/ ١٧٥.

(٤) تعطير الأنفاس ٥٥، ٥٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٥) الكواكب السيارة ١٠٦، ١٠٧، ١٣١، تحفة الأحباب ٢٤٧، تعطير الأنفاس ٢٣٠.

(٦) لطائف المنن ١٩٠، ٤٩٠.

جمعاً عظيماً من الناس، ويبلغ في ذلك على عادة الصوفية^(٦). مع أن مع ورد في السيرة النبوية لا أساس له من الصحة.

ولم يتخرج الصوفية عن وصف تهالكهم في حب الطعام، فكان من كرامات ابن عبد ربه الصوفى أنه أكل طعام مولد بأكمله، وأكل مرة لحم بقرة كاملة^(١)، وكان الشيخ دمرداش إذا غلب عليه الحال يأكل الأردب من الفول، وعمل له الأمير أقبردى الدودار سماً فلم يدع أحداً من أصحابه، وأكله بنفسه، وكان يكفى خمسمائة نفس، ولم يبق شيئاً، فقال لم أشبع فاتوه بكسر يابسة، وقيل له كيف أكلت ذلك كله؟ فقال: رأيت شبهات فأحضرت طائفة من الجن فأكلوه وحميت الفقراء منه^(٢).

* كرامات تافهة :

١ - أصبح إدعاء الكرامات مبدأً مباحاً أمام كل من هب ودب من مدعى الصوفية، هذا بالإضافة إلى أن الكرامات في حد ذاتها تعتبر إنعكاساً لحياة المتصوفة أنفسهم، فعند من كرامات الحنفى أنه «إذا وضع يده على الفرس الحرون لم يعد إلى حرونته»^(٣)، على أن هذا التفكير إنعكس بدوره على نظرة العصر لكرامات المتصوفة أنفسهم، فنجد أبا المحاسن يعد من كرامات يحيى الصنابيرى المجدوب أنه كان يغطس في الماء البارد في الشتاء وفي شدة الحر يجلس في الشمس عريان مكشوف الرأس، ومن كراماته أيضاً أن امرأة أتته وقالت يا سيدي إن لى بقرتين سُرقتا فقال لها «حطى الفول في المدود وهما يأكلان الفول، فمضت عنه، وجعلت الفول في المدود حتى كان الليل أقبلت البقرتان إلى المدود وأكلتا الفول»^(٤). وكان الولي إذا مات في خانقاة مثلاً تشتري ثيابه بأعلى الأثمان ويعلن أن ثمنها قدر ما أخذه من معلوم أى مرتب الخانقاه^(٥).

(١) شذرات الذهب ج٧/٣٢٣.

(٢) الغزى الكواكب السائرة ج١/١٩٣.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ج٢/٨٨.

(٤) المنهل الصافي ج٥/٤٨١.

(٥) أنباء الغمر ح٣/٣٨٤ - ٣٨٥.

٣ - لذا كان من المقبول أن يتقبل الرأي العام إدعاءات الصوفية بالغاً ما بلغت تفاهتها. فكان حسن إبريق العابد إذا وقع الدلو منه في البئر يأمر الماء أن يرتفع بالدلو، وقد أعطى انساب جميع الحيوانات، وكان حسن الطراوى إذا فقد ماء الوضوء ينزل عليه ولى من السماء فى عنقه قرية مملوءة من ماء النيل^(١)، ويدعى الشعرانى أنه كشف عنه الحجاب فى عام ٩٢٣ حتى سمع تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها، ويسمع من تكلم فى أطراف مصر وقراها إلى سائر أقاليم الأرض ثم إلى البحر المحيط حتى صار يسمع تسبيح السمك^(٢)، ووحلت سفينة فقال أحد الأولياء «إربطوها فى بيضى بحبل وأنا أنزل وأسحبها، ففعلوا فسحبها بهيضة حتى تخلصت من الوحل إلى البحر»^(٣)، وكان أحدهم يقسم الأرزاق بين الحيوانات والطيور زمن القحط^(٤)، وكان آخر يضرب الأرض برجله فينبع الماء ثم يضربها ثانية فيخرج منها قدحاً يضع فيه الماء^(٥)، وكان الشيخ محمد الكناس من أصحاب البدوى يكنس مقام البدوى والجبلى والرفاعى وعدة مقامات فى بلاد المغرب وغيرها ويرجع إلى طنطا فى ساعة^(٦)، وخرج الشيخ البلتاجى من قبره ليعيد حمارة ضائعة ليوסף العجمى^(٧)، وكان أبو العباس الحرار حين يستنجدى تستخلفه الأحجار بالله ألا يستنجدى بها، وأخيراً يجد حجراً يقول له إن الله أمرنى أن أتظهر بك^(٨)!!

٤ - واختبرت الكرامات الصوفية نوعاً من الأولياء يطهرون فى الهواء، وقد أولم

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٦.

(٢) لطائف المنن ٢٣٠.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ج٢/٧٨.

(٤) بهجة الأسرار للشطرنقى ج٢/٢٨.

(٥) الإمام مجلد ٢ ٧٦.

(٦) الطبقات الصغرى للمناوى مخطوط ورقة ٢٦٥.

(٧) الطبقات الكبرى للمناوى ٢٨٤.

(٨) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٦٤.

(٩) مناقب الحنفى ٣٨٩.

(١٠) تعطير الأنفاس ٢٤١.

الشيخ البسطامي وليمة فاخرة لهم فتساقطوا من الهواء وأتوا عليها^(٩)، وقد طار المرسى في الهواء ليستوثق من أن خادمه يكذب عليه حين قال له أنه سقى الفرس^(١٠).

وعكست الكرامات الصراع بين الأولياء، ف قيل عن حبيب المجدوب أنه كان كثير العطب ليست له كرامة إلا في أذى الناس^(١١). ومد أبو عبد الله المكي يده من المغرب فهدم الخلوة على زروق الفاسي في بولاق، فنجاه الله ببركة أبي العباس الخضرمي^(١٢).

(١) الطبقات الكبرى للمناوي ٣٨٥.

(٢) طبقات الشاذلية ١٢٠.

« الخاتمة »

(١)

١ - هناك فرق بين الباحث التاريخي والروائي، الروائي يستطيع أن يؤلف رواية بأشخاصها وظروفها كما يحلو له، أما الباحث التاريخي فهو ملتزم بالحقائق التاريخية المكتوبة عن العصر الذى يبحثه.

فالباحث فى التاريخ المملوكى - مثلاً - يدخل حجرة التاريخ المملوكى بكل ما فيها من أشخاص وأحداث ومؤلفات تعكس الحياة التى كانت سائدة فى العصر المملوكى، ولا يملك الباحث الملتزم بالأمانة العلمية أن يفتري وقائع أو يتجاهل ما تصرخ به حقائق العصر، خصوصاً إذا كانت تلك الحقائق تظهر فى سطور التاريخ المملوكى كلها، وفى عناوينه، بحيث إذا تجاهل سطرًا فضحته باقى السطور، وإذا تعامى عن مصدر نطقت بالحقائق باقى المصادر.

والمشكلة التى واجهها كاتب هذا البحث أنه ارتاد - لأول مرة - طريقًا جديدًا فى البحث التاريخي، هو بحث الحياة الدينية للمسلمين لتوضيح الفجوة بين دين الإسلام ونوعيات التدوين لدى المسلمين فى العصر المملوكى، واختار مصر مسرحًا تاريخيًا لهذا البحث، حيث ساد التصوف وسيطر، فأضاف بذلك مشكلة أخرى، وهى أن البحث فى التصوف يتوقف عادة عند بداية العصر المملوكى، أو بانتهاء التصوف النظرى الفلسفى، ويتجاهل باحثو التصوف الفلسفى تحليل تاريخ التصوف بعدها، لأن التصوف بعدها تحول إلى طرق صوفية، وأصبح البحث فيها ادخل فى مجال التاريخ والحضارة منه إلى البحث الفلسفى والفكرى، علاوة على ما يقتضيه البحث التاريخي فى هذا الموضوع من خلفية علمية وتخصص فى العقائد الإسلامية والصوفية لكى يستطيع الباحث المتخصص فى التاريخ المملوكى أن يتعرف على أثر التصوف فى الأحداث التاريخية والاجتماعية فى العصر المملوكى.

وقد تغلب الباحث على كل هذه المشاكل، فاستعد علمياً لزيادة هذا البحث المحفوف بالمخاطر، ولكنه واجه مشكلة أخرى لا شأن له بها، وهى أن آثار التصوف الدينية والسياسية والاجتماعية كلها تدخل فى مجال السلبيات، وواجب الأمانة العلمية يقتضيه أن ينقل الصورة كما هى، ثم يقوم بتحليلها علمياً ويتتبع جذورها العقيدية والتاريخية، ولكن هذه الأمانة العلمية لا ترضى أولئك الذين يقدسون الأجداد والأسلاف، أو يقدسون التصوف وأولياءه، ويرون للتاريخ وظيفة وحيدة وهى التغنى بالأمجاد والمناقب، وعدم كشف العيوب والمساوىء، حتى نظل نقع فى الخطأ ولا نستفيد من تجارب التاريخ ومواعظه. وأولئك لا يعرفون أن نهضة أوربا الحديثة ارتبطت بمنهجها النقدي للتاريخ والأفكار، ولا يعرفون أن القرن العظيم نفسه تحدث فى قصص الأنبياء عن أخطاء الأنبياء وأخطاء البشر من آدم إلى خاتم النبيين عليهم السلام. وجعل هذا القصص عبرة وعظة، كى نستفيد من الدروس ونتجنب أخطاء السابقين. ومن أسف أن يتبع الأوروبيون المنهج القرآنى فى التاريخ، ونظل نحن نسيح بحمد الأسلاف ونرتكب نفس أخطائهم، لكى نظل بالتالى عبيد القرن الحادى والعشرين.

٢ - إن هذا البحث قد أعيدت كتابته أكثر من مرة خلال خمسة عشر عاماً، حتى ينبجح فى المواءمة بين الأمانة العلمية (التي تستلزم نقل الحقائق كما هى وتحليلها تحليلاً علمياً) وبين ذوق عصرنا الذى يستفزع ما كان سائداً فى عصر التصوف المملوكى ولا يستطيع تصديقه، إذ عاش تحت ضغط طاحونة هائلة من غسيل المخ تركز على عبادة السلف ولا تذكر إلا الجانب المضىء، فإن لم تجده اخترعته اختراعاً. وبسبب هذه المواءمة فقد اضطر الباحث إلى حذف أغلبية النصوص (البذيئة) وهى تشكل ظاهرة عادية فى المصادر المملوكية المنشورة والمخطوطة، (والمخطوطة منها أفزع وأضل سبيلاً) واكتفى الباحث ببعض النماذج التى تعطى فكرة عن العصر، وقدم عن استشهاده بتلك النماذج الكثير من الاعتذار.. ولا يزال.

كما أن الباحث نقل مباشرة عن المصادر الصوفية، وأغلبها مصادر منشورة ومشهورة وفي متناول من يريد قراءتها، كما أنها كانت مكتوبة في تمجيد التصوف والصوفية والإفتخار بما يفعلون أو محاولة إصلاح بعض ما يفعله الشيوخ المعاصرون لصاحب الكتاب، أى أن الباحث اعتمد على مصادر حية لأصحاب الشأن أنفسهم، ونقل عنهم ما يؤكد الحقائق التاريخية للعصر المملوكى وتصوفه، فإذا كانت تلك الحقائق تدین التصوف وتشيننه فليس ذلك ذنب الباحث، بل هو فضل للباحث طالما يريد ببحثه توضيح الحقائق للمسلمين من الصوفية وغيرهم، وتلك هى مهمة البحث التاريخى، أن ندرس حقائق التاريخ لتتعلم من الأخطاء.

كما حرص الباحث على الإحتكام إلى كتاب الله ليوضح حقائق الإسلام، ويسلط بها الضوء عليه زوايا التصوف وتشريعاته، وقد ألصقها أصحابها بالإسلام زوراً، مع تناقضها مع القرآن، والباحث يهدف بذلك إلى تصحيح عقائد المسلمين من الصوفية وغيرهم فى عصرنا الزاهن.

وقد قام الباحث بحذف أغلب تعليقاته القديمة وحاول بقدر الإمكان أن يخفف من تعليقاته ومن تحليلاته، إذ لا يريد أن يتهم أحداً بالكفر فى هذا الموضوع الشائك، مع أنه يعتمد على مصادر صوفية أصلية مشهورة، ولكن التكفير لا يحل أى مشكلة، بل يزيد اشعالها، علاوة على أن التكفير ليس من أخلاق الباحث أو من هواياته، لأن كل ما يرجوه هو الإصلاح، ومراجعة النفس، وترك الحكم لله تعالى يحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون.

ولذلك ركز الباحث على توضيح حقائق الإسلام والفجوة بينها وبين الحقائق التاريخية للتدين الصوفى، ليبرىء دين الإسلام من أعمال بعض المسلمين، ولكى يدعو المسلمين فى عصره إلى الإلتصاق بالإسلام الحق، والابتعاد عن الاحتراف الدينى الذى أوجد كل السيئات والانحرافات فى تاريخ المسلمين.

إذ يمكن إيجاز النتيجة التي نخرج بها من هذا الكتاب فى قضية أساسية فى تاريخ الأديان. وهى الاحتراف الدينى، فالإحتراف الدينى هو المسئول عن كل تغيير وتحوير فى تاريخ الرسالات السماوية، وهو السبب فى شقاق أصحاب الدين الواحد إلى طوائف ومذاهب متصارعة، وهو السبب فى تحول الشقاق الدينى إلى تعصب دينى ومحاكمات دينية وحروب دينية وطائفية. والاحتراف الدينى هو العامل الحاضر الغائب فى موضوع هذا البحث. عن التصوف والحياة الدينية فى مصر المملوكية. ولكى نضع هذا العامل فى سياقه التاريخى نعطى إشارة أصولية تاريخية لصلة الإحتراف الدينى بالإسلام وتاريخ المسلمين.

(ب)

فالإسلام ضد الاحتراف الدينى من حيث المبدأ ومن حيث التاريخ.

١ - الأنبياء رسل الله تعالى أبعد الناس عن الاحتراف الدينى، برغم وظيفة النبوة والرسالة، فالنبي ليس عليه إلا تبليغ الرسالة، ومن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعلى نفسه، ثم هو لا يأخذ أجراً من الناس، ولا يدعى لنفسه جاهاً دينياً أو دنيوياً بسبب النبوة، إذ لا يدعى أن لديه خزائن الله ولا يعلم الغيب ولا يدعى أنه ملك (الأنعام : ٥٠). ولا يدعى أنه يملك لنفسه أو لغيره نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله (الأعراف ١٨٨) وغاية ما هناك أنه بشر ولكن يوحى إليه (الكهف ١١٠) وهذا الوحي يزيد من مسئوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، إذ أن حساب الأنبياء يعدل حساب الأمم البشرية جميعاً (الأعراف ٦).

٢ - ونفى الاحتراف الدينى عن الأنبياء وثيق الصلة بعقيدة الإسلام، حتى لا يكون الأنبياء واسطة بين الناس ورب الناس، وحتى تكون عقائد الناس خالصة فى الاعتقاد فى ألوهية الله تعالى وحده بلا واسطة أو وسيلة يزعمون أنها تقرهم لله زلفى، فإذا كان

النبي ليس له من الأمر شيء (آل عمران ١٢٨). وإذا كان سيتخاصم مع أعدائه أمام الله تعالى يوم القيامة مثله مثلهم أى على درجة المساواة بينه وبينهم (الزمر ٣١)، وإذا كان سيحاسب أمام الله تعالى يوم القيامة مثل قومه تمامًا (الزخرف ٤٤)، وإذا كان لا يستطيع أن يحمل شيئاً فى الحساب عن أصحابه ولا يستطيع أصحابه بالمثل أن يحملوا عنه شيئاً من حسابهم (الأنعام ٥٢)، إذا كان لا ينفع يوم القيامة أولاده ولا أهله ولا أقاربه مثل أى إنسان آخر (لقمان ٣٣، عبس ٣٤). وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنبي فإن الوحي الإلهي له بالرسالة لا يزيد شيئاً فى بشريته، إذ يظل بشراً، وتظل الألوهية لله وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه، طالما كان الأنبياء -وهم صفوة الخلق- محصورين فى دائرة البشرية، ما عليهم إلا البلاغ، ولا يأخذون على هذا البلاغ أجراً من البشر.

وبعد الأنبياء فمجال الدعوة مفتوح أمام كل إنسان ليدعو إلى الله تعالى على بصيرة متبعاً طريق النبي عليه السلام (يوسف ١٠٨) ولكن إذا طلب من الناس أجراً على هذه الدعوة فقد ضل عن الهدى، فالله تعالى يقول محذراً من الاحتراف الدينى (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون : يس ٢١)، وهكذا .. فالإسلام ضد الاحتراف الدينى من حيث المبدأ والعقيدة.

٣ - والإسلام -أيضاً- ضد تاريخ الاحتراف الدينى الذى سبق نزول القرآن أو عاصر نزوله. ففى قصص الأنبياء فى القرآن كان أهم خصوم الحق هم المترفون الذين يعبدون التقليد، وأعدائهم من (رجال الدين) الذين يفلسفون لهم أوضاعهم الاجتماعية الظالمة، ويقومون بتحريف الدين المتوارث ليرضى عن ذلك الظلم الاجتماعى والفساد الخلقى، وحفلت آيات القرآن بالهجوم على أولئك المترفين المكذبين ودورهم فى تدمير المجتمع (الإسراء ١٦)، لأنهم دائماً يكذبون الرسل (الأنعام ١٢٢، سبأ ٢٣، الزخرف ٢٣)، كما أوضحت آيات القرآن دور علماء السوء أو (رجال الدين) الذين يخدعون المستضعفين ويحملونهم على الكفر بالحق (الشعراء ٩٩) (الأحزاب ٦٦ - ٦٨).

كما أوضح القرآن وظيفة الاحتراف الدينى فى أنها تحويل الدين إلى سلعة معروضة للبيع والشراء، ولذلك تكرر قوله تعالى «ولا تشتتوا بأياتى ثمنًا قليلًا» (البقرة ٤١، المائدة ٤٤) وتوعد الله تعالى من يحول الدين إلى تجارة واحتراف بأن الله جل وعلا سيكون خصمًا له يوم القيامة، ولن ينظر إليه ولن يزكّيه، وسيلقى أشد العذاب (البقرة ١٧٤، آل عمران ٧٧).

وتحدث القرآن الكريم عما كان يفعله بعض محترفى التدين مع أهل الكتاب، وتوعد من يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، وليبيعوا صكوك الغفران وقصور الجنة للسذج، ويزعمون أنهم سيخرجونهم من النار إذا دخلوها، ويؤكد القرآن على أن من يدخل النار لن يخرج منها أبدًا (البقرة ٧٩ - آل عمران ٢٤).

كما تحدث القرآن عن كثير من الأحرار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل ويكنزون الذهب والفضة، وتوعدهم بالعذاب (التوبة ٣٤)، وكيف زعموا أنفسهم أربابًا من دون الله، (التوبة ٣١) تأسيسًا على ذلك الاحتراف الدينى، ولذلك دعا الله أهل الكتاب لإخلاص الدين لله وحده، وألا يتخذوا بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله (آل عمران ٦٤).

أى أن القرآن الكريم فى حديثه فى نصيح أهل الكتاب أوضح أن الاحتراف الدينى يضىف التقديس على من يجعلون أنفسهم رجال الدين، وليس فى رسالات السماء وجود لما يسمى برجال الدين، كما ليس فى دين الله تعالى كهنوت أو واسطة بين الناس ورب الناس، ومن الطبيعى أن هذا الحديث موجه لنا نحن المسلمين أيضًا، كى لا نقع فيما وقع فيه أهل الكتاب.

٤ - وعلى عكس الاحتراف الدينى الذى يجمع الأموال والجاه باسم الدين والتجارة به، فإن المؤمن الحق مطالب بأن يدفع أمواله ابتغاء مرضاة الله فى الزكاة، وفى الصدقة

على ذوى الحقوق من السائل والمحروم والأقارب والأيتام وأبناء السبيل، وفق ما شرع الله تعالى فى مستحقى الصدقة التطوعية (البقرة ٢١٥)، والزكاة الرسمية (التوبة ٦٠)، وهو أيضاً مطالب بأن يجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال، (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله : التوبة ٤١) (وتجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم : الصف ١١)، وفى كل الآيات القرآنية التى تحض على الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله كانت الأموال مقدمة على الأنفس لتأكيد أن الإسلام يفرض على المؤمن أن يعطى الأموال فى سبيل الله لا أن يتكسب الأموال بالتجارة فى دين الله.

وحتى فى الغزوات التى هى للدفاع فقط نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر تنهى عن التنازع فى موضوع الغنائم، والأنفال هى الغنائم، وتحذر المؤمنين من أن يكون هدفهم من الجهاد هو المتاع الدنيوى، ولم يستوعب المؤمنون هذا الدرس فانهزموا فى غزوة أحد بسبب الغنائم، ونزلت آيات سورة آل عمران تؤكد على نفس التحذير (ال عمران ١٥٢) ويعدها تعلم المؤمنون الدرس، أن يكون الجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاة الله، وليس لهدف دنيوى، فلم يتكرر منهم خطأ غزوة أحد فى الغزوات التالية فى عهد النبى.

٥ - وهاجم القرآن الاحتراف الدينى فى قريش، وأوضح أنه السبب الحقيقى وراء عناد المشركين، فالمشركون فى حقيقة الأمر يعلمون أن ما جاء به محمد عليه السلام هو الهدى، ولكن مصالحهم التجارية المرتبطة بالاحتراف الدينى هى السبب فى عنادهم، «وقالوا أن نتبع الهدى معك نُخَفِّفْ من أرضنا : القصص ٥٧» فهم يعلمون أنه (هدى)، ولكن مكانتهم فى الجزيرة العربية قامت على اساس البيت الحرام وما أقامته قبائل العرب حول الكعبة من أصنام، وقيامهم على رعاية هذه الأصنام جعل طريقهم آمناً بين اليمن والشام فى رحلتى الشتاء والصيف، وإذا اتبعوا القرآن فلن يكون للأصنام بقاء حول الكعبة، وبالتالي ستقطع القبائل العربية عليهم الطريق أمام رحلتى الشتاء والصيف، وستهدد مكانتهم وموضعهم فى مكة وخارجها. ولهذا رفضوا أن يتبعوا الهدى مع النبى حتى لا يتخطفهم الناس من أرضهم، وبمعنى آخر فإن احترافهم الدينى من وجودهم حول

الكعبة أقتنعهم بالباطل أن رزقهم يكمن في تكذيبهم للقرآن، لذلك قال تعالى لهم «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون : الواقعة ٨٢».

(ج)

ومن خلال «الإحتراف الديني نستطيع إعادة قراءة تاريخ المسلمين قراءة صحيحة.

١ - فعتاة الإحتراف الديني في مكة كانوا الأمويين وبنى مخزوم قادة رحلتى الشتاء والضيف، بالإضافة إلى عم النبي، العباس بن عبد المطلب القائم على سقاية البيت الحرام. وقد ظل العباس في مكة، وشارك مع المشركين في غزوة بدر ضد المؤمنين، ووقع في الأسر. وظلت زعامة مكة بعد الهجرة بين أبي سفيان والعباس. وحين أدرك العباس أن ملك ابن أخيه محمد قد استقر دخل في الإسلام قبيل فتح مكة وأقنع صديقه أبا سفيان بالدخول في الإسلام، وجيش المسلمين يزحف نحو مكة. وشعر العباس وأبو سفيان بالضيق عندما تولى أبو بكر الخلافة، وكان أبو سفيان يمتعض لأن الخلافة نالها رجل من أقل بيوت قريش مكانة، وكان العباس يحرض على بن أبي طالب على الخلافة، وهما معاً (العباس وأبو سفيان) عاشا أغلب عمرهما في الاحتراف الديني، ولا يفهمان الإسلام بمثل ما كان يفهمه على وأبو بكر وعمر وبقية المدرسة النبوية.

٢ - وفي الوقت الذي اضمحل فيه صوت الاحتراف الديني في مكة بعد دخولها في الإسلام أفواجاً، فإن صوت الاحتراف الديني علا في نجد من خلال حركات الردة وادعاءات النبوة، وكان اخماد حركات الردة أسرع طريق عاد به الأمويون إلى القيادة والصف الأول في دولة الإسلام، بعد أن كانوا قبلاً في الصف الأول ضد الإسلام. فالأمويون بما لديهم من مهارة حربية وكفاءات قيادية وخبرة بالطرق التجارية وحرص على الزعامة والرئاسة تولوا قيادات الجيوش التي أخذت حركات الردة في نجد وغيرها. ولم يجدوا لهم منافساً في القيادة بين كبار الصحابة والسابقين في الإسلام، لأن التنافس على الزعامة والجاه لم يكن مما تعلموه في مدرسة خاتم النبيين عليهم السلام. وانتهت

حركة الردة بأن أصبح الذين اسلموا بالأمس قادة منتصرين لجيوش المسلمين وزعماء يشار لهم بالبنان، في وجود السابقين في الإسلام.

٣ - وخشى أبو بكر في خلافته أن تعود قبائل نجد للشورة والردة، فأراد أن يصدر شوكتهم الحربية إلى خارج الجزيرة العربية، فكانت الفتوحات العربية في الشام والعراق وإيران ومصر، وكان أغلب المشاركين فيها من القبائل النجدية التي سبق وارتدت ثم أعيدت للإسلام، وكان أغلب القادة من الأمويين الذين كانوا بالأمس أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ثم أصبحوا قادة لهم.

وأُسفرت الفتوحات عن تكوين إمبراطورية تمتد من شرق إيران إلى غرب برقه في شمال أفريقيا، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى اليمن جنوباً. وقد وقع قلب البلاد المفتوحة تحت سيطرة الأمويين أثناء خلافة عمر، حيث حكم معاوية الشام وحكم عمرو بن العاص مصر وشمال أفريقيا. وتمكن عمر من ضبط أحوال الدولة ومنع العرب من الاستمتاع بخيرات الفتوحات، ومن الظلم .. وتبدلت الأحوال في خلافة عثمان الأموي الأصل.

٤ - ففي خلافة عثمان عاد للظهور دور الإحتراف الديني فأدى إلى ما يُعرف بالفتنة الكبرى التي أسفرت عن قتل عثمان، والتي لا تزال تلازم تاريخ المسلمين حتى الآن، وتسلك دماءهم، وتؤخرهم، وتباعد بينهم وبين الإسلام الذي عرفه خاتم النبيين عليهم السلام.

والإحتراف الديني الذي اشعل الفتنة الكبرى تمثل في الخروج عن منهج الإسلام من حيث العلاقة بالثروة والأموال، فالمال -في شريعة الإسلام- ينبغي أن يكتسبه الإنسان بالحلال، وينفقه في الحلال، بلا سرف ولا ترف، وهو يضحي بهذا المال في سبيل الله، وفي الصدقة التطوعية والزكاة الرسمية، ويناقض ذلك ما اعتاده الداخلون في الإسلام حديثاً من الأمويين وأعراب نجد، وقد أمضوا أغلب أعمارهم إما في الإحتراف الديني أو بالسلب والنهب، ولذلك كان سهلاً عليهم -بعد اغتيال عمر بن الخطاب ومجيء عثمان

بشخصيته الضعيفة وعجزه عن إحكام قبضته على الأمور- أن يقعوا فى فخ التهالك على جمع الأموال وظلم أهل البلاد المفتوحة فى سبيل الشراء السريع، ثم اختلافهم فيما بينهم اختلافًا يوقعهم فى حرب أهلية، اصطالحنا على التقليل من شأنها تحت اسم أنها «الفتنة الكبرى».

لقد سيطر الأمويون على الخليفة عثمان بن عفان الأموي، وكدسوا الأموال فى ظل حكمه، مما أثار البقية الباقية من مدرسة النبی محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى رأسهم على وابن مسعود وعمار، وأولئك حافظوا على تعاليم المدرسة النبوية ولم يفرقوا فى أمواج الشراء بالتحق أو بالباطل، بينما غرق فى اختصارالثروة آخرون من نفس المدرسة النبوية كان منهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وقد أورد محمد بن سعد فى طبقاته الكبرى ما تركه كل من الزبير وطلحة، وكان قناطير مقنطرة من الذهب والأموال السائلة والعقارات .. بينما كانت تركة على ابن أبى طالب عدة مئات من الدراهم، هذا فى الوقت الذى تمتلىء فيه نفوس الأعراب خصوصًا من نجد بالحقن، حيث تم الفتح بسواعدهم، ولكن تمتع بشمار الفتح أعيان القرشيين من بنى أمية وغيرهم .. وزاد فى غضبهم تحكم الأمويين فى خلافة عثمان وسيطرتهم عليه فى المدينة من خلال سكرتيه الخاص مروان بن الحكم، وسيطرتهم على الأمصار من خلال معاوية وعمرو وابن أبى السرح، وغيرهم ..

ثم كانت قضية السواد هى القشة التى قصمت ظهر البعير ..

وأرض السواد، هى الأرض الزراعية فى جنوب العراق والتى تقع شمال نجد، وكان أعراب نجد يتطلعون لإمتلاكها لأنهم الذين فتحوها ولأنها تجاورهم وكانوا يحملون بإمتلاكها وهم فى البادية، ولأن أشرف قريش قد استولوا على أغلب الشمار، ولم يبق للأعراب النجديين إلا سواد العراق .. ولكن الأمويين فأجأوهم بأن السواد بستان قريش، فسبوا على الأعراب كل المنافس، وكان ذلك النزاع هو أصل الفتنة الكبرى، تلك التى تمخضت عن قتل عثمان ثم تعيين عليًا خليفة، ثم خروج الأمويين على خلافة على،

وخروج الزبير وطلحة ومعهما عائشة عليه، وما حدث من مواقع الجمل وصفين، ثم خروج أعراب نجد من أعوان على عليه في موضوع التحكيم، وأصبح اسمهم الخوارج، وهم الذين قتلوا علياً، وظلوا في صراع مع الأمويين حين أسس الأمويون ملكهم الوراثي الذي احترف الإسلام واتخذ سبيلاً للفتوحات، وكانت الأموال هي الهدف السياسي من الفتوحات الأموية، حتى أنهم أرغموا من يدخل في الإسلام على دفع الجزية شأنه شأن من بقى على دينه.

٥ - والإحتراف الديني الذي دفع الأمويين للفتح والغزو باسم الإسلام فيما بين الهند والأندلس وهو نفسه الذي دفع الأمويين لإقامة مذابح لآل البيت في كربلاء، ولأبناء المهاجرين والأنصار في المدينة، وهو الذي دفعهم إلى انتهاك حرمة البيت الحرام أثناء حصار ابن الزبير، وكل تلك الفواجع حدثت في خلافة يزيد بن معاوية، أول خليفة يرث الحكم بالقوة والاستبداد.

والاحتراف الديني الأموي هو الذي دفع بالأمويين إلى إقامة مذابح أخرى للثائرين عليهم، الأقل شأنًا من آل البيت والمهاجرين والأنصار، مثل الموالى والشيعة والأقباط في مصر، والخوارج من الأعراب ..

والثائرون على الأمويين قابلوا احترافهم الديني باحتراف آخر، حيث اضطبغت الثورات ضد الأمويين بصيغات دينية مختلفة، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقوق آل البيت، وتكفير مرتكب الكبيرة .. وأدى ذلك إلى تحول الثورات العسكرية إلى طوائف دينية ومذاهب فكرية، لأن كل فريق حاول تقعيد مذهبه بالتأويل الديني، أو أوجد له (رجال دين) يفلسفون له أرضية فكرية عقيدية، تبسح له الثورة وسفك الدماء واستحلال الأموال، ويظهر ذلك جلياً لدى الخوارج والشيعة برغم ما بينهما من تناقض شديد في الآراء السياسية، حيث يمثل الخوارج أقصى الراديكالية الجمهورية، ويمثل الشيعة أقصى اليمين المحافظ من الملكية المقدسة الكهنوتية لآل البيت.

على أن انشغال الأمويين بالحكم والصراع الحربي داخل الدولة وخارجها، مع سذاجة الحركة العلمية في بدايتها، كل ذلك لم يسمح للإحتراف الديني الأموي أن يسفر عن وجهه في مذاهب فكرية مستقرة، ولذلك فإن الاحتراف الديني الأموي عبّر عن نفسه بصوت عال من خلال المعارك والاضطهادات الدينية والعنصرية، وخفت صوته في التأصيل الفكري، فلم يتبقى من تراث الأمويين الفكري إلا مذهب المرجئة، واضطهاد القائلين بالحرية الفردية ومسئولية الظالم عن ظلمه، حيث اعتنقت الدولة الأموية مذهب الجبرية، وفسرت من خلاله ما تفعله من ظلم وسفك للدماء، بأن ذلك قدر لا فكاك منه، واضطهدت القائلين بمسئوليتهم عن الظلم، وأسمتهم القدرية.. كل ذلك هو ما تبقى من التأصيل الفكري للإحتراف الديني الأموي، وهو قليل وتافه بالنسبة للتأصيل الفكري لخصوم الأمويين، من الشيعة والخوارج.

٦ - والتأصيل الفكري للإحتراف الديني لدى الشيعة بدأ مبكراً، فالشيعة السبائية بدأت في خلافة علي، وازداد التشيع بمذبة كربلاء، واشتد بمقتل الشوار من نسل الحسين خلال الدولة الأموية، وتفنن الشيعة في التقية والدعوة السرية وتكوين الخلايا تحت الأرض، واحدى هذه الدعوات رفعت لواء الدعوة للرضى من آل محمد، حتى لا يتعرف الأمويون على رأس الدعوة، وبطريقة غامضة انتقلت الدعوة من صاحبها العلوي إلى حفيد عبد الله بن عباس، وهكذا أقام الشيعة دولة للعباسيين، واكتشفوا ذلك بعد فوات الأوان، وتحول الشيعة إلى خندق المقاومة الذي كانوا فيه من قبل، وتكررت ثوراتهم وثورات العلويين ضد أبناء عمومتهم العباسيين، وبعض هذه الثورات أقامت لها دولاً في شرق إيران وفي شمال أفريقيا ومصر (الخلافة الفاطمية)، كما نجح أعراب نجد في إقامة ثورات ودول تحت شعار الزنج تارة والقرامطة تارة أخرى، ونشروا الخراب وأنهار الدماء فيما بين العراق والشام وطريق الحجاج والحجاز.

على أن التأصيل الفكري لهذا الإحتراف الديني العباسي والشيعة والخارجي كان على الصوت بمائل ضجيج المعارك بين الفرقاء المتصارعين، وساعد عليه أن التأصيل

الفكرى للشيعة بدأ مبكراً قبل الدولة الأموية نفسها، ثم شهد عصر التدوين، وساعد على توطيده طول الفترة العباسية، وتطور الفكر والعقائد والحركة العلمية والفكرية فى هذه المرحلة، مع وجود مناظرات وتفرعات علمية ومدارس فكرية مختلفة. كما ساعد عليه اعتماد الشيعة ثم العباسيين على ذلك الفكر فى إقامة الدولة وتوطيدها كما كانوا يعتمدون على ذلك الفكر فى الدعوة للدولة المرتقبة، وتركزت المرجعية لهذا الفكر فى تأليف الأحاديث ونشر النبؤات وشراء الفقهاء وتكوين ما يعرف بفقهاء السلطة وكهنوت الإستهداد.

وفى هذا العصر العباسى تم تدوين الفكر والتراث، وتم اعتماد المصطلحات، وتم تقنين شريعة المسلمين بأسس تشريعية ومصطلحات وأحكام تخالف شريعة الإسلام التى حفظها الله تعالى فى القرآن، والتى طبقها خاتم النبيين عليهم السلام. وفى هذا الإطار اخترعوا مصطلح النسخ بمعنى الحذف والإلغاء للأحكام القرآنية التى لا تتفق مع شريعتهم، مع أن معنى النسخ فى القرآن، وفى اللغة العربية هو الكتابة والإثبات، وليس الحذف والإلغاء، وما لم يجدوه فى القرآن موافقاً لما يريدون اخترعوا له حديثاً ونسبوه للنبي، ومع تأكيد القرآن على أن النبي لا يعلم الغيب، فقد أضافوا علم الغيب للنبي، ونشروا كثيراً من النبؤات والدعوات السياسية المذهبية التى تبشر بفلان خليفة، وتسبوا ذلك للنبي .. وبهذا اتسعت الفجوة بين فكر المسلمين وشريعة الإسلام وعقائده المحفوظة فى القرآن الكريم.

٧ - وخلال هذا البحر المتلاطم من فكر الإحتراف الدينى اشتد الشقاق على المستوى الرأسى وعلى مستوى الأطراف والفروع. وأقيمت مصطلحات تعزز هذا الخلاف، وهى مصطلحات لا تمت بصلة لمصطلحات القرآن ولم تكن معروفة فى عصر النبي عليه السلام، فالثائرون على الخلافة العباسية، والذين كانوا من قبل شيعتها ويحسبون أن الملك سيثول إلى واحد من أبناء الحسين أو ذرية على، وأنشقوا على الدولة

العباسية وحاربوها احتفظوا لأنفسهم بلقب ومصطلح الشيعة، بينما قام العباسيون وعلمائهم بإرساء مصطلح السنة تمييزاً لهم عن الشيعة، وقصدوا أنهم السائرون على سنة النبي محمد، وخلال هذا المصطلح اخترعوا الأحاديث المنسوبة للنبي التي تؤكد أحقيتهم في الخلافة، وحقوقهم في الاستبداد السياسى وأن يملكوا الأرض ومن عليها، وأن يدوم ملكهم إلى قيام الساعة، هذا مع أن مصطلح (السنة) في القرآن يعنى الشرع أو المنهاج، ويأتى منسوباً لله تعالى باعتباره صاحب الشرع وباعتباره صاحب المنهاج فى التعامل مع المشركين، واقرأ على سبيل المثال (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله فى الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً : الأحزاب ٣٨). أى أن سنة الله هى فرض الله وهى أمر الله، وعلى النبي أن ينفذها، والرسول قدوة فى تنفيذ سنة الله، ونحن نقتدى به فى طاعته لأوامر ربه، يقول تعالى «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة : الأحزاب ٢١» لم يقل سنة حسنة، لأن السنة تنسب لله لأنها شرع الله ودينه وأوامره، والأنبياء قدوة وأسوة فى الطاعة والإمتثال.

إذن اختلفوا على المستوى الرأسى إلى شيعية وسنة، وكلاهما احترف التدين من أجل السياسة والإرتزاق، وعلى المستويات الفرعية، اختلف الفقهاء داخل البيت السنى إلى مذاهب، كما اختلف الشيعة إلى طوائف وفرق، كما اختلف الخوارج إلى طوائف وفرق .. ولكن أخطر ما فى الأمر أنه فى العصر العباسى تبلورت الحركة العلمية الفكرية وتم تدوينها، وظهر فيها أئمة علوم الفقه واللغة والكلام والتفسير والحديث والعقائد والفلسفات.. وأن ذلك جميعه كان فى تأكيد الاحتراف الدينى، فالدولة العباسية (والفاطمية) تتخذ من قرابته للنبي سنداً للحكم، وتحكم الناس بالظلم والقهر على أساس أنها تملك الأرض ومن عليها، ولديها تراث مصنوع منسوب للنبي يؤكد أن ذلك هو الإسلام، وعلماء الدولة الذين يعيشون فى كنفها ينحتون لها من الأحاديث والفتاوى ما يكرس الإستبداد، ومن يتخلف من العلماء عن مساندة الدولة مصيره الإضطهاد، وقد

مات أبو حنيفة مسموماً، وتعرض مالك للتعذيب لأنهما خالفا هوى الدولة .. وتعرض ابن حنبل لتعذيب أشد لأنه خالف الدولة فى رأى يخص القرآن، وليس رأياً سياسياً، فما بالك إذا تعرض فقيه لإنتقاد الظلم الذى يجرى على قدم وساق تحت شعار الإسلام.

وكالعادة فإن الثوار الذين حملوا السلاح ضد الدولة العباسية كالزنج والقرامطة وطوائف الشيعة والموالى الفرس صبغوا ثورتهم بالدين الذى يصل أحياناً لإدعاء النبوة أو المهديّة، أى حاربوا احترام العباسيين الدينى باحتراف اخر مماثل، وصبغوا ثورتهم العسكرية بصبغة دينية، وكانت ثورتا الزنج والقرامطة على القرن الثالث الهجرى أفزع رد فعل للظلم العباسى، وأسفر عن قتل أكثر من مليونى إنسان ..

وتلك الظروف المتأججة بالصراع الدموى أدّى إلى ظهور نوع جديد من الاحتراف الدينى، يتخفف من النضال السياسى، ويرضى بالهوان وبما تيسر من الإرتزاق بالدين فى مقابل أن ينشر عقائده، بين طوائف المجتمع بعيداً عن القصور والخلفاء والسلطين والعلماء والفقهاء .. وهذا هو تيار التصوف الذى ظهر ابتداءً من القرن الثالث الهجرى.

(د)

١ - ونترك للقارىء أن يعيد قراءة البحث عن التصوف والحياة الدينية فى مصر المملوكية فى ضوء الاحتراف الدينى، وكيف تتمخض فى النهاية طقوس التصوف وعقائده عن فائدة لشيخو التصوف مادية مالية ومعنوية مع راحة ودعه وسكون، ولديهم الهوى يشرع لهم كل ما يشاءون من انحراف خلقى أو إنسانى أو دينى. ومن خلال التصوف الذى تسيد وسيطر استطاع الصوفية اضطهاد المنكرين عليهم من الفقهاء ثم هبطوا بالحركة العلمية إلى التقليد فالجمود، فالتأخر، وذلك فى وقت استطاعت فيه أوربا -العدو التاريخى للمسلمين- أن تتقدم وتنهض، ثم صحنوا فى النهاية على حملة نابليون بونابرت تفتحهم علينا أبوابنا. وبعدها بدأت حركتان للنهضة، حركة فى مصر بدأها

محمد على فى إقامة الدولة الحديثة فى مصر على النمط الأوروبى، وحركة احترام دينى سياسى فى منطقة نجد، تحت إطار الفكر الوهابى السلفى الحنبلى. واسقطت مصر فى عهد محمد على الدولة السعودية الوهابية الأولى، وقامت الدولة السعودية للمرة الثانية خلال القرن التاسع عشر وما لبث أن سقطت، ثم أعاد تكوينها للمرة الثالثة عبد العزيز آل سعود فيما بين (١٩٠٢ - ١٩٢٦)، ولا تزال حتى الآن، وأيقن عبد العزيز آل سعود أنه لا بقاء لدولته بدون الاعتماد على مصر، خصوصاً وأن أعداءه الشيعة يتركزون على حدوده فى العراق وإيران واليمن، كما يتركزون داخل دولته فى الحجاز والمنطقة الشرقية، لذلك عمل على بث الدعوة السلفية فى مصر لكى تكون مصر عمقاً استراتيجياً للدولة السعودية، وهكذا استطاع ابن سعود تحويل التدين المصرى القائم على الاعتدال والسماحة^{١٠} - التدين وهابى متطرف يقوم على التطرف وسفك الدماء، إذ عن طريق أعرانه فى مصر تم إنشاء حركة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨، وتمكنت خلال عشرين عاماً من إنشاء خمسين ألف شعبة لها فى العمران المصرى، وأسهمت فى إشعال ثورة الجيش سنة ١٩٥٢، ثم اختلفت معها، فهاجر أرباب الإخوان إلى السعودية، ثم عادوا إليها بعد عصر عبدالناصر حيث أتيح لهم -رحتى الآن- السيطرة على أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم والمؤسسات الدينية، ومن خلال هذه السيطرة، نشروا الاحتراف الدينى الوهابى على أنه (صحيح الإسلام)، وهم يطمحون إلى الحكم على نفس (السنة) التى كان يحكم بها الخلفاء العباسيون، حين كان الخليفة هو (الراعى) ونحن (الرعية)، وحيث كان الخليفة سلطان الله فى أرضه يملك الأرض ومن عليها، وليس لأحد أن يحاسبه، ولكن الله فقط هو الذى يحاسبه عما يفعل بالرعية أو المواشى التى يمتلكها..

٢ - ومن المؤكد أن هذه الشريعة تخالف شريعة الإسلام الموثقة بالقرآن .. كما أن من المؤكد أن تدين التصوف وعقائده وطوقسه تخالف شريعة الإسلام الموثقة بالقرآن ..

ولذلك لا نملُ من القول بأن حق المعرفة هو الفريضة الغائبة .. فإذا عرفنا وعقلنا أمكن أن ننجو من براثن الاحتمال الدينى، سواء كان ذلك الاحتراف صوفياً أم سلفياً أم إخوانياً أم شيعياً ..

٣ - ويسبب الحق فى المعرفة .. كان هذا الكتاب .. ليعرف القارىء الفارق الشاسع بين الإسلام .. وبعض المسلمين من أصحاب الإحتراف الدينى .. ولنفتح باب الاجتهاد فى بحث التدين الواقعى للمسلمين خلال تاريخهم وعلى امتداد مواطنهم.

والله تعالى المستعان ،

د . أحمد صبحى منصور

المصادر

أولاً: الوثائق

(أ) وثائق وقف منشورة

١ - وثيقة وقف الأشرف برسبای نشرها د. / أحمد دراج، ط المعهد العلمی
الفرنسی ١٩٦٣.

٢ - وثيقة وقف السلطان قايتباي نشرها. مايو بدون تحقيق أو تعليق تحت اسم
Mayer. The Building of Quyed - bay as discribed in his
endowmentented London ١٩٣٨ (عائز قايتباي كما هو مدون
فی وثيقتہ).

٣ - وثيقة وقف مسرور الشبلي الجمدار فی دوريات القاهرة مجلد ٢١ ج٢ -
١٩٥٩ نشر د. / عبد اللطيف ابراهيم.

٤ - نسان من وثيقة الأمير سرغتمش دوريات القاهرة مجلد ٢٨ / ١٩٦٦ نشر د. /
عبد اللطيف ابراهيم.

(ب) وثائق أخرى منشورة : وثائق عن التركية أوردها أحمد فؤاد متولى فی ملحق
كتابه عن الفتح العثماني.
(ج) وثائق غير منشورة :

١ - وثيقة وقف الغوري.. وهي رسالة دكتوراه للدكتور عبد اللطيف
ابراهيم.

٢ - أجزاء من وثائق وقف ورد ذكرها فی ثنايا وملاحق الرسائل العلمية فی جامعة
القاهرة وأهم الوثائق :

وثيقة جمال الاستادار الملحقة برسالة الخوانق للدكتورة دولت صادق ثم وثائق
السلطين لاجين والجاشنكير وقلاون وبرقوق والأمير جوهر اللالا إلخ..

ثانياً: المصادر المخطوطة

* فكرة عنها ومدى استفادة البحث منها :

(أ)

* ابن اسحاق : خليل المالكي ت ٧٦٧.

١ - مناقب عبد الله المنوفى ت ٧٤٩ أو ٧٤٦. مخطوط بالدار تحت رقم ١٤٥٤ تاريخ تيمور، كان المؤلف معاصراً ومعتدلاً بالنسبة لكتاب المناقب الذين أتوا بعده.

(ب)

* البتنوني : على بن علي. أواخر القرن التاسع.

٢ - السر الصفي في مناقب الحنفى. مخطوط بالدار تحت رقم ١١٦٤ تاريخ تيمور، ١٠٣٥ تاريخ، كان المؤلف معاصراً يقول عن حكاية للشيخ الحنفى (وكننت حاضر) ذلك المجلس ورقة ٤٠٠) من أكثر الكتب الصوفية التي استفاد بها البحث.

* ابن برهان الدين ابراهيم : من أصحاب ابن تيمية.

٣ - تكسير الأحجار التي افتتن بها أهل الجهل والافتتار. رسالة مخطوطة بالدار تحت رقم ٤٠٤ مجاميع تيمور رقم ٦ فى المجموعة، وهى تفصيل للأزمات التي واجهها ابن تيمية مع نصر المتبجى خاصة.

* البغدادى : أحمد بن عبد الله ت ١١٠٢.

٤ - عيون الأخبار، مخطوط مصور، جزآن فى مجلد تحت رقم ٣٨١٠ تاريخ، وهو تاريخ لما قبل الإسلام وما بعده، فهو مختصر.

* البقاعى ابراهيم بن عمر ت ٨٨٥.

٥ - تاريخ البقاعى، مخطوط مجلد رقم ٥٦٣١ تاريخ، يهتم فيه بأخبار الفقهاء والقضاة، وهو تاريخ دقيق مفصل معاصر للأحداث متفاعل معها، مع صعوبة تحقيقه، لأن النسخة المخطوطة أقرب إلى أن تكون مسودة بخط المؤلف فيما اعتقد، فهي كثيرة الحواشي والتنقيح والزيادة، وخطها ردى، ويبدو أنها كانت تكتب على فترات، ويبدو تعرضها لطمس بعض كلماتها عن عمد، وساعد فى قراءة الخط فيه ما ورد من مواضع متشابهة فى كتابى البقاعى : تنبيه الغبى، تحذير العباد وهما محققان، هذا بالإضافة إلى عدم ترتيب سنوات الأحداث فيه وقد اعتمد السخاوى فى الضوء اللامع على تاريخ البقاعى فى مواضع كثيرة جداً.

* البكرى : شمس الدين أبى السرور بن محمد، من رجال العصر العثمانى.

٦ - الروضة الزهية فى ولاية مصر المعزية. مخطوط بالدار تحت رقم ٢٤٠٧ تاريخ تيمور، وهو تاريخ مختصر لولاية مصر، وصل به إلى ولاية على باشا ت ١٦٠٢ ويليه تذييل يظهر أنه بخط شرف الدين من حفدة الشيخ زكريا الأنصارى.

* البكرى : محمد توفيق من شيوخ العصر العثمانى.

٧ - تراجم بعض رجال الصوفية، مخطوط بالدار تحت رقم ٣٧٣٦ تاريخ، واستفاد البحث من تأريخه للرفاعى وتلاميذه.

* ابن بهادر : محمود بن محمد بن محمود ابن بهادر المومنى.

٨ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، ٢ ج فى مجلدين، مخطوط مصور بالدار رقم ٢٣٩٩ تاريخ، كتبه سنة ٨٧٧ وأهمية هذا المرجع فى تعبيره عن تفكير القرن التاسع، حيث أن مؤلفه قام بتلخيصه عن كتب السابقين، ومع هذا فقد ظهر أثر تفكيره وعقليته فى هذا التلخيص والجمع.

* بيبرس الداودار ت ٧٢٥.

٩ - زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة .. وهو الجزء التاسع من تاريخ بيبرس الداودار وأهميته فى معاصرته للأحداث، وهو مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ وأرخ للفترة فيما بين ٦٥٦ : ٧٠٩ والمؤرخ مملوك ينافق سلطانه الناصر محمد ابن قلاوون إلى درجة أنه أهمل تاريخ من اغتصبوا الحكم منه أسوة بإهماله تاريخ المغول المعاصرين له.

(ت)

* ابن تيمية : أحمد بن عبد الحلیم. تقى الدين ت ٧٢٨.

١٠ - قاعدة فى التنفير من المردان، رسالة جمعت بين الفقه والتاريخ، مخطوطة بالدار تحت رقم ٤٠٤ مجاميع تیمور رقم ١١ فى المجموعة.

(جـ)

* الجزرى : شمس الدين محمد بن ابراهيم (٦٥٨ - ٧٣٩).

١١ - تاريخ الجزرى ٣ مجلدات. مخطوطة بالدار تحت رقم ٥٤٢٢ تاريخ، وهو تاريخ معاصر لسنى حياته، حيث أنهاء إلى ٧٣٨ ورغم إقامته بالشام كما يفهم من تاريخه إلا أنه حرص على تتبع أخبار مصر، وإسنادها إلى من رواها له ويقول (كتب إلى فلان) ..

(حـ)

* ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩.

١٢ - درة الأسلاك فى دولة الأتراك. ٣ ج فى ٣ مجلدات. مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٦٧٠، يهتم فيه بالسجع والمحسنات والاستطراد الإنشائى وإيراد الأشعار، وأهمية أنه معاصر للأحداث ابتداء من منتصف الجزء الثانى إلى نهاية الجزء الثالث.

* ابن حجر (العسقلاني) شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي (٧٧٣ - ٧٥٢).
١٣ - إنشاء الغمر بأبناء العمر : مخطوط بالدار تحت رقم ٨٨٤٤ ح. اعتمدت على
السنوات العشر الأخيرة من التاريخ والتي لم تحقق (من سنة ٨٤٠ إلى سنة
٨٥٠).

١٤ - تاريخ المائة التاسعة أو ذيل الدرر الكامنة : مخطوطة بالدار تحت رقم ٦٤١
تاريخ تيمور، وهناك نسخة مصورة عنها تحت رقم ٤٧٦٧ تاريخ.. وهي نسخة
خطية بيد المؤلف نفسه وصعبة القراءة مع أهميتها حتى أن المؤرخين
المعاصرين نقلوا عنها..

* ابن حجر (الهيثمي) شهاب الدين بن محمد بن بدر الدين ت ٩٧٤.
١٥ - أخبار الخلفاء (اتحاف إخوان الصفا بنيد من أخبار الخلفاء) مجلد بالدار تحت
رقم ٢٧٦ تاريخ .. وهو تاريخ للخلفاء العباسيين بالقاهرة.

* الحلبي : شهاب الدين أحمد (كان موجوداً سنة ١٠١٨ كما في ص ٨٨ من المخطوطة)
١٦ - النصيحة العلوية في بيان حسن طريق السادة الأحمدية. مخطوط بالدار رقم
١١٢٩ تاريخ تيمور .. واعتمد أساساً على الجواهر السنية لعبد الصمد
الأحمدي..

(د)

* ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد ت ٨٠٩.
١٧ - الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين. مخطوط في مجلد بالدار تحت
رقم ١٥٢٢ تاريخ .. ورغم أنه مختصر إلا أنه معاصر يعبر عن عقلية العصر.

(ذ)

* الذهبي : شمس الدين بن محمد ت ٧٤٨.
١٨ - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام .. مجلد ٣١، مخطوط بالدار

تحت رقم ٤٢ تاريخ، ولا أدل على أهميته من نقل المؤرخين منه. إلا أن الأجزاء المخطوطة في الدار ضائعة أو متفرقة..

(د)

* الرجائي : أبو الفتح المقدسي الرجائي .. من رجال القرن التاسع.
١٩- العقد المفرد في حكم الأُمرد أو المنازعة في حكم المطاوعة .. رسالة مخطوط بالدار تحت رقم ٤٠ مجاميع تيمورية رقم ٥ في المجموعة .. وهي عن الشذوذ الجنسي لدى الصوفية.

* الرشيدى : محمد بن اسماعيل بن محمود بن محمد.
٢٠ - الألفاظ المكفرة. مخطوط رقم ١٠٣ مجاميع تيمورية رقم ٣ في المجموعة.. وكتبها سنة ٨٩٢ ويمثل في تلك الرسالة تطرف الفقهاء في الإنكار علي انحلال الصوفية العقائدى.

(ز)

* الزركشى : بدر الدين من رجال القرن التاسع،
٢١ - زهر العريش في احكام الحشيش (مخطوط بالدار تحت رقم ٨٣ مجاميع تيمورية رقم ٦ في المجموعة) عن انتشار الحشيش بأثر الصوفية..

* زكريا الأنصارى : من أعلام القرنين التاسع والعاشر ..
٢٢ - تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين. مخطوط رقم ١٣٤ مجاميع تيمورية رقم ١ في المجموعة وهو يسجل الطواعين وبعض أخبارها في العصر المملوكى.

(س)

* السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ .. ومخطوطاته التى استفاد منها البحث على نوعين : كتب ورسائل :

(أ) الكتب :

٢٣ - كوكب الروضة، تاريخ تيمورية ٥٢١ بدار الكتب، فرغ من كتابته سنة ٨١٥.

٢٤ - تاريخ قايتباي، مخطوط بالدار رقم ٦١ تاريخ.

(ب) الرسائل :

٢٥ - الأساس فى مناقب بنى عباس : مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ تيمورية رقم ٨ فى المجموعة.

٢٦ - الأسفار عن قلم الأخطار : مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع تيمورية رقم ١٠ فى المجموعة.

٢٧ - أحياء الميت بفضائل آل البيت، مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ مجاميع تيمورية رقم ٧ فى المجموعة.

٢٨ - إنباء الأذكيا بحياة الأنبياء، مخطوطة ضمن مجموعة ١١ مجاميع تيمورية رقم ١١ فى المجموعة.

٢٩ - أكام العقيان فى احكام الخصيان، مخطوطة ضمن مجموعة ١٣٩ مجاميع تيمورية رقم ٥ فى المجموعة.

٣٠ - الانتصار بالواحد القهار (فى وضع الحديث) مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠٢ مجاميع تيمورية رقم ٢٠ فى المجموعة.

٣١ - بذل المجهود فى خزانة محمود (عن استعارة الكتب) مخطوطة ضمن مجموعة ١٣٩ مجاميع تيمورية رقم ٢٣ فى المجموعة.

٣٢ - بلوغ المارب فى قص الشارب، مخطوطة ضمن مجموعة ١ مجاميع تيمورية رقم ٢ فى المجموعة.

٣٣ - أسئلة السلطان قايتباي، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٥٥ مجاميع تيمورية رقم ٥٦ فى المجموعة.

٣٤ - تحفة العجلان فى فضل عثمان، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع تيمورية رقم ٣ فى المجموعة.

- ٣٥ - حسن المقصد فى عمل المولد، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع
تيمورية رقم ٦ فى المجموعة.
- ٣٦ - حصول الرفق بأصول الرزق، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠٩ مجاميع تيمورية
رقم ٦ فى المجموعة.
- ٣٧ - الدرر فى فضل عمر، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع تيمورية رقم ٥
فى المجموعة.
- ٣٨ - حياة الأنبياء، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع تيمورية رقم ١١ فى
المجموعة.
- ٣٩ - الروض الأتيق فى فضل الصديق، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ مجاميع
تيمورية رقم ١ فى المجموعة.
- ٤٠ - رشف الزلال من السحر الحلال، مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ مجاميع
تيمورية رقم ١٤ فى المجموعة.
- ٤١ - الرسالة السلطانية، مخطوطة ضمن مجموعة ١٣٩ مجاميع تيمورية رقم ١٩
فى المجموعة.
- ٤٢ - شقائق الأترج فى دقائق الفنج، مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ مجاميع تيمورية
رقم ١٤ فى المجموعة.
- ٤٣ - الفتناء على القشاش : مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠٢ مجاميع تيمورية. رقم
٤ فى المجموعة.
- ٤٤ - عمل اليوم والليلة مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ تيمورية، رقم ٦ فى
المجموعة.
- ٤٥ - العجاجة الزرعية فى السلالة الزينية، مخطوطة ضمن مجموعة ٤٢ تيمورية
رقم ٦ فى المجموعة.
- ٤٦ - الفاشوش فى أحكام قراقوش، مخطوطة ضمن مجموعة ١٣٩ تيمورية رقم
٢٤ فى المجموعة.

- ٤٧ - الطرثوث فى فوائد البرغوث، مخطوطة ضمن مجموعة ١٣٩ تيمورية رقم ٢٦ فى المجموعة.
- ٤٨ - القول الجلى فى فضل على، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ تيمورية رقم ٤ فى المجموعة.
- ٤٩ - القول الجلى فى تطور الولى، مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ تيمورية رقم ١١ فى المجموعة.
- ٥٠ - كشف الصيانة عن مسألة الاستنابة، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ تيمورية رقم ٥ فى المجموعة.
- ٥١ - ما رواه السادة فى الإتكاء على الوسادة، مخطوطة ضمن مجموعة ٢٠١ تيمورية رقم ٧ فى المجموعة.
- ٥٢ - المنحة فى السبحة، مخطوطة ضمن مجموعة ٧٢ تيمورية رقم ٤ فى المجموعة.

(ش)

* الشرنوبى : أحمد.

- ٥٣ - طبقات الشرنوبى، نقلها عنه الإمام أحمد البلقينى، وتقول دائرة المعارف أن الشرنوبى توفى سنة ٩٥٠ هـ. ويقول فى طبقاته أنه اجتمع مع الأولياء سنة ٦٧٠ فوق سطح الكعبة (الطبقات ٦، ٧). واعتقد بصحة ما قالته دائرة المعارف. وهى مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦.

* الشبلى : بدر الدين محمد ت ٧٦٩.

- ٥٤ - أحكام المرجان فى أحكام الجان، مخطوط بالدار تحت رقم ٢٤١٢ تاريخ، جمع بين الفقه والأخبار.

- * الشعرانى : عبد الوهاب أبو المواهب (٨٩٨ - ٩٧٣ هـ).
- ٥٥ - ارشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء، مخطوط بمكتبة القاهرة رقم ١٥٣٥٩.
- ٥٦ - القول المبين لدليل لبس الخرفة والتلقين. مخطوط بمكتبة القاهرة رقم ١٥٣٥٩.
- ٥٧ - المنن الصغرى : الدرر واللمع فى بيان الصدق فى الزهد والورع، مخطوط بالدار رقم ٩٢١ تصوف طلعت.
- * الشطنوفى : على بن يوسف بن جرير ت ٧١٣.
- ٥٨ - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب السادة الأخبار من المشايخ الأبرار ٢ ج فى مجلد، مخطوط بالدار رقم ٤٥٠٦ تاريخ شمة. حسن بن على بن على (من رجال العصر العثمانى).
- ٥٩ - مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين. مخطوط بالدار تحت رقم تصوف ١٠٩٥ تصوف طلعت.

(ص)

- * الصاغاتى : أبو الفضائل حسن بن محمد فى القرن التاسع.
- ٦٠ - رسالة فى الأحاديث الموضوعة. ١٢٢ مجاميع تيمورية بالدار. آخر رسالة فى المجموعة، جمع فيها الأحاديث الموضوعة المتداولة فى القرن التاسع.
- * الصفدى : صلاح خليل بن أبيك ت ٧٦٤.
- ٦١ - أعيان العصر، مخطوط مصور من ٦ أجزاء بالدار تحت رقم ١٠٩١ تاريخ الموجود ج ٦ قسم ١، قسم ٢، ج ٩ قسم ١، قسم ٢.
- وبلاحظ أن الأقسام السابقة بمجلداتها الأربعة مصورة عن النسخة الموجودة فى تركيا، وتوجد نسخة مصورة من الدار عن مخطوط الأسكوريال ووضعت تحت رقم

(١٠٩١ تاريخ) على أن هذه النسخة قد تعرضت لبعض الشخصيات التي تعرضت لها النسخ السابقة مع اختلافات ليست فقط في الخط وإنما في إيراد المعلومات، وعلى سبيل المثال ترجمة ابن دقيق العيد في نسخة استانبول (٣٠٩/٢/٦) تختلف عن نظيرها في نسخة الاسكوريال (الوحة ٢٦) ويبدو أن النسخة الموجودة في الاسكوريال هي الأصلية بما فيها من توقيت وترك الفراغ وسرعة الخط. وقد عرض المؤلف لأعيان عصره مع الاهتمام بالنواحي الأدبية والأشعار، خصوصاً حين ترجم للمعاصرين له.

* الصيرفي : على بن الجوهري الصيرفي (٨١٩ - ٩٠٠).

٦٢ - نزهة النفوس والأبدان. مخطوط بالدار تحت رقم ١١٦ تاريخ م ١٢٨٦١ ح الجزء الأخير الذي لم يحقق وقد توقف سنة ٨٥٠ حيث انتهى العيني في عقد الجمان، ولم يؤرخ بعد ذلك للمعاصرين اكتفاءً بتاريخه الآخر إنشاء الهصر أما في نزهة النفوس فقد نقل عن العيني والمقريزي دون أن يضيف.

(ع)

* عبد الباسط بن خليل (٨٤٤ - ٩٢٠).

٦٣ - الروض الباسم في حوادث العصر والتراجم ٤ ج في ٤ مجلدات، مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٢٤٠٣ تاريخ تيمور.

٦٤ - ابن العراقي : ولي الدين أبو زرعة بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي.

٦٥ - الذيل .. وهو ذيل على تاريخ والده الذي ذيل على ذيل العبر للحفاظ الذهبى، وابتدأ فيه التأريخ بسنة مولده ٧٦٢، ويهتم فيه بتاريخ الشام وهو مخطوط بالدار تحت رقم ٥٦١٥ تاريخ.

* ابن عطاء السكندري.

٦٦ - تاج العروس. رسالة مخطوطة في مجاميع تيمورية رقم ٢٠٩ رقم الرسالة ١.

* العلوى : خالد بن عيسى بن أحمد ابراهيم.

٦٧ - رحلة العلوى.. مخطوطة بخط مغربى (صعب القراءة) تحت رقم ٤٠٠ جغرافيا بالدار وقد ابتدأ رحلته فى ١٨ صفر ٧٣٦ فى طريقه للحج وسجل مشاهداته فى مصر.

* العينى : بدر الدين ٧٦٢ - ٨٥٥.

٦٨ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان. مخطوط مصور بالدار تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ٨٢٠٣ ح. واعتمد البحث على المجلد الذى ابتدأ سنة ٦٥٦ : سنة ٨٥٠ ويقع فى ١٥ مجلداً موجودة بالدار وهى فى دور التحقيق.. وفى تاريخه للسنوات الأخيرة كان مختصراً على غير العادة فى الحوليات.

(ف)

* ابن فارس : أبو اللطيف خادم الوفائية (من القرن العاشر).

٦٩ - المنح الإلهية من مناقب السادة الوفائية .. مخطوط بالدار رقم ٨٧٤ تاريخ تيمور..

* الفقى : من رجال القرن العاشر ..

٧٠ - تاريخ واقعة السلطان القورى والسلطان سليم.. مخطوط بالدار رقم ٣٧٦

تاريخ تيمور . واعتمد على تاريخ ابن زنبيل الرمال.

* ابن قاضى شهبه : أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر ت ٨٥١.

٧١ - الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، تاريخ مصور فى ٧ مجلدات بالدار تحت رقم

٣٩٢ تاريخ، تراجم للأشخاص والحوادث ومع اهتمام أكثر بالشام.

(ك)

* الكتبى : ابن شاكى : صلاح الدين محمد ابن أحمد ت ٧٦٤.

٧٢ - عيون التواريخ، الموجود منه مجلدات مصورة بالدار تحت رقم ١٤٩٧ يهتم

فيه بأخبار الشام مع إيراد الأشعار لمن يترجم لهم.

* مجهول.

- ٧٣ - تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور (قلاوون). حوادث ٦٨١ -
٦٨٩ مجلدان مخطوط بالدار تحت رقم ٢٢٦ تاريخ تيمور.
٧٤ - شرح صلاة ابن مشيش .. رسالة فى مجموعة رقم ١٢٠ مجاميع تيمور رقم ٣
فى المجموعة.
٧٥ - مناقب أبى العباس بن وفا. مخطوط بالدار تحت رقم ١٧٨٥ تاريخ تيمور.
٧٦ - مناقب السيوطى. لم يعلم مؤلفها ومنقولة عن رواية الشيخ يحيى الدين
المالكى. مخطوط بالدار تحت رقم ٥٦٧ تاريخ.
٧٧ - مناقب القطب الأمثل سيدى محمد بن أحمد الفرغل. مخطوط بالدار تحت رقم
١٧٢٩ تاريخ تيمور.

* ابن محسن : أبو الصلاح على الصعيدى الشاذلى.

- ٧٨ - تعطير الأنفاس بمناقب أبى الحسن وأبى العباس. فرغ من جمعة ١١١٠
مخطوط بالدار رقم ٣٥٧ تاريخ تيمور.

* أبو المحاسن : ابن تغرى بردى.

- ٧٩ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى. مخطوط فى خمسة أجزاء بالدار تحت
رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور. وهو قصر على التراجم.

* مرعى الحنبلى : ت ١٠٣٣.

- ٨٠ - نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين.. مخطوط فى
مجلد بالدار تحت رقم ٣٠٣ تيمور. وهو تاريخ مختصر ينقل عن السابقين.

* المقدسى : مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد المقدسى.

- ٨١ - نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين. فرغ من كتابته
سنة ١١٤٢ هـ، مجلد مخطوط بالدار تحت رقم ٢٠٧٦ تاريخ، وهو منقول
حرفياً عن تاريخ مرعى الحنبلى السابق فى مواضع كثيرة ويبدو فيه ميل

صاحبه للخلفاء العباسيين بالقاهرة.

* المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (٧٦٦ - ٨٤٥).

٨٢ - حل لغز الماء .. رسالة فى مجموعة رقم ٣٣ مجاميع تيمورية رقم ٥ فى المجموعة.

* المقرئى.

٨٣ - ٤ ج فى ٤ مجلدات، مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٥٣٧٢ تاريخ، ومن الصعب قراءة خطه وهو يترجم فيها لشخصيات مصرية أو أتت لمصر قبل وأثناء العصر المملوكى.

* المنأوى : عبد الرؤوف ت ١٠٣١.

٨٤ - الطبقات الكبرى .. مخطوط بالدار تحت رقم ١٥٨٩ تاريخ تيمور.

٨٥ - الطبقات الصغرى. مخطوط بالدار تحت رقم ٤٧٦ تاريخ تيمور.

(ن)

* النورى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، عبد الذامم البكرى ت ٧٣٣.

٨٦ - نهاية الأرب : الأجزاء ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١. مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٥٤٩ معارف. كان يتهرب من التاريخ المباشر لعصره خوفاً وتسلقاً للناصر محمد بن قلاوون كما يظهر فى الجزء الأخير ..

* النورى : محمد بن قاسم بن محمد ت ٧٧٥ هـ.

٨٧ - الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية جزءان فى مجلدين، مخطوط مصور بالدار تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ وجمع فيه بين التاريخ والفقه والتصرف والمعارف العامة.

(ى)

* اليمنى : محمد الشبللى : من رجال القرن الحادى عشر.

٨٨ - السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر. مخطوط مصور بالدار تحت رقم ١٥٨٦ تاريخ..

ثالثاً : المصادر المطبوعة

(أ)

* الأبيهي : شهاب الدين محمد بن أحمد ٧٩٠ - ٨٥٠ .
١ - المستطرف في كل فن مستظرف ٢ ج المكتبة التجارية الكبرى . مطبعة
الاستقامة ١٣٧٩ .

* الأدنوي : جعفر بن ثعلب بن جعفر ت ٧٤٨ .
٢ - الطالع السعيد في أخبار نجباء الصعيد . المطبعة الجمالية ١٩١٤ ، وتحقيق
سعد محمد حسن طبعة سنة ١٩٦٦ .

* ابن إياس : محمد بن أحمد . من مخضرمي الدولتين المملوكية والعثمانية .
٣ - بدائع الزهور ط بولاق الطبعة الأولى ١٣١١ هـ . ج ١ ، ج ٢ حتى سنة ٩٠٦
وبتحقيق محمد مصطفى الجزء الرابع (٩٠٦ - ٩٢١) نشر جمعية
المستشرقين الألمان ١٩٧١ . وتحقيق محمد مصطفى الجزء الخامس (٩٢٢ -
٩٢٨) الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦١ ، وحقق محمد مصطفى أيضاً ما طبع
في مطبعة بولاق نشره في الجزء الأول في قسمين من بداية الكتاب حتى سنة
٨١٥ هـ ١٩٧٤ ، الجزء الثاني (٨١٥ - ٨٧٣) ونشره ١٩٧٢ .

* ابن أبيك الداوداري : أبو بكر بن عيد الله (معاصر للناصر محمد بن قلاوون) .
٤ - الدرر القاهرة في سيرة الملك الظاهر . وهو الجزء التاسع من كنز الدور وجامع
الغرر تحقيق هانس أرفست ، أروبر رويسر نشر سامي الخانكي . مطبعة لجنة
التأليف والترجمة ١٩٦٠ .

(ب)

* ابن بطوطة :

٥ - رحلة ابن بطوطة ٢ ج الطبعة الثانية مطبعة التقدم.

* البقاعي : برهان الدين البقاعي (٨٠٩ - ٨٨٥).

٦ - تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي.

٧ - تحذير العباد من أهل العناد. تحقيق وتعليق عن الرحمن الركيل الطبعة الأولى ١٩٥٣.

* البهاء زهير : بهاء الدين زهير بن محمد بن علي.

٨ - ديوان البهاء زهير نشر مكتبة المليجي. الطبعة الأولى ١٣٢٢.

* البوصيري : شرف الدين محمد بن سعيد ت ٦٩٤.

٩ - ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني. نشر الباهي الحلبي الطبعة الأولى ١٩٥٥.

(ت)

* ابن تيمية : الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت) ٧٢٨ هـ.

١٠ - الصوفية والفقراء : مكتبة المنار. المطبعة الأولى ١٣٢٧.

١١ - مجموعة الرسائل والمسائل. المطبعة العامرية الطبعة الأولى ١٣٢٣.

١٢ - أحاديث القصاص تحقيق محمد الصباغ.

(ج)

* الجوزي : زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي

١٣ - المختار في كشف الأسرار طبع دمشق ١٣٠٢.

* ابن الجوزي : الحافظ جمال الدين عبد الرحمن ت ٥٩٧

١٤ - تلبس إبليس، مطبعة النهضة ١٩٢٨، المطبعة المنيرية.

(ح)

* ابن الحاج : محمد بن محمد العبدري (ت ٧٣٧)

١٥ - المدخل : مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ٤ أجزاء ط ١٣٢٠ هـ،
المطبعة الشرقية.

* ابن حجر (العسقلاني) : أحمد بن علي محمد بن علي (٧٣٣ - ٨٥٢).

١٦ - إنباء الغمر ببناء العمر ٣ ج، تحقيق د. / حسن حبشى المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية (١٩٦٩ - ١٩٧٢).

١٧ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. الأجزاء ١، ٢، ٣، ٤، نشر دار
الكتب وتحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثامنة ١٩٦٦ والأجزاء الرابع
والأخير من طبعة دائرة المعارف العثمانية فى الهند ج ١ الأول ١٣٥٠ هـ.

١٨ - رفع الأصغر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد الحميد مراجعة ابراهيم
الإبيارى وزارة الثقافة ١٩٦١.

(خ)

* الخفاجى : عبده حسن راشد الخفاجى (العصر العثمانى).

١٩ - النفحات الأحمدية. الطبعة الأولى. مطبعة التقدم ١٣٢١.

* ابن خلدون : عبد الرحمن (ت ٨٠٨).

٢٠ - شفاء السائل لتهذيب المسائل. نشر وتعليق أغناطيسون اليسوعى بحوث

دراسات معهد الآداب الشرقية رقم ١١ الطبعة الكاثولوكية بيروت.

٢١٠ - المقدمة : المكتبة التجارية ومطبعتها. مصطفى محمد.

(د)

* الدسوقي : ابراهيم ت ٦٦٩

٢٢ - الجوهرة : مراجعة طه عبد الرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية

١٩٧٢، ومكتبة الجمهورية.

* ابن دقماق : ابراهيم بن محمد ت ٨٠٩.

٢٣ - الإنتصار لواسطة عقد الأمصار. ٥ أجزاء، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية
ببولاق ١٣٠٩.

* الدلجى : أحمد بن على (شهاب الدين، ويقول عنه السخاوى فى كتابه التبر المسبوك
: عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشى الدلجى ت ٨٤٥.
٢٤ - الفلاكة والمفلوكون. مطبعة الشعب ١٣٢٢.

* الدميرى : كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى ٨٠٨.
٢٥ - حياة الحيوان الكبرى ٢ ج مطبعة الاستقامة ١٩٦٣، المكتبة التجارية.

(ذ)

* الذهبى : شمس الدين محمد بن قايماز التركمانى ت ٧٤٨.
٢٦ - تذكرة الحفاظ، المجلد الرابع طبع حيدر أباد بدون تاريخ.
٢٧ - دول الإسلام ٢ ج، الطبعة الثانية. الطبعة العثمانية بالمكن ١٣٦٥.
٢٨ - العبر فى خبر من غير. تحقيق د. صلاح الدين المنجد ٥ أجزاء نشر التراث
العربى بالكويت ١٩٦٦.

(ز)

* ابن زنبيل الرمال :
٢٩ - تاريخ السلطان نعيم مع قنصوه الغورى. طبعة ١٢٧٨.
* ابن الزيات : شمس الدين محمد بن الزيات ت ٨١٤.
٣٠ - الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القراقتين الكبرى والصغرى. المطبعة
الأميرية ١٩٠٧.

(س)

* السبكى : تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ت ٧٧١.
٣١ - طبقات الشافعية. الكبرى ٦ ج. الطبعة الأولى.

٣٢ - معبد النعم ومبيد النقم، على هامش تفريغ المهج. طبعة الخانجي بدون تاريخ، طبعة لندن ١٩٠٨.

* السخاوي : الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبي بكر (٨٣١-٩٠٢).

٣٣ - الدليل على رفع الأصغر تحقيق جودة هلال، محمد صبيح، تراثنا، التأليف النشر ١٩٦٦.

٣٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مطبعة ومكتبة القدس (١٣٥٣هـ-١٣٥٥).

* السخاوي : نور الدين علي بن أحمد بن عمر (ت ٩٠٠).

٣٥ - تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاعات المباركات، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية ١٣٠٢ على هامش الجزء الرابع من نفع الطب للمقري.

* السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن ت ١١.

٣٦ - أنيس المجلس طبع ١٣٠٢.

٣٧ - بشرى الكتيب بقاء الحبيب. ونشر الباهي الحلبي الطبعة الأولى ١٩٦٠.

٣٨ - تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية، تحقيق عبد الله الغماري ١٩٣٤.

٣٩ - تنوير الفلك في رؤية النبي والملك مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨.

٤٠ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ط ١٢٩٩.

٤١ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة : ٢ ج الطبعة الأولى المطبعة الأدبية ١٣١٧.

٤٢ - نظم العقيان في أعیان الأعيان تحقيق فيليب حتى نيويورك ١٩٢٧.

(ش)

- * الشاب الظريف : شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني (٦٦١-٦٨٨).
- ٤٣ - ديوان الشاب الظريف : تحقيق شاكِر شكر. ط. العراق : ١٩٦٧.
- أبر شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥.
- ٤٤ - الباعث في الإنكار على الحوادث، تصحيح محمد فؤاد منقارة الطرابلسي، المطبعة المنيرية ١٣٧٤ - ١٩٥٥.
- * شاهين الظاهري : غرس الدين خليل.
- ٤٥ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. تصحيح بولس راويس طبع باريس ١٨٩٣.
- * الشحنة : محب الدين محمد بن الشحنة (ولد سنة ٨٠٠).
- ٤٦ - الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، طبع وتعليق يوسف سرقيس، بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٠٩.
- * الشرييني : يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر.
- ٤٧ - هز القحوف في شرح قصيدة أبي شاذوف. المطبعة السعدية ١٢٨٩ بالأسكندرية، وطبعة بولاق ١٨٩٠.
- * الشعراني : عبد الوهاب أبو الذهب (٨٩٨ - ٩٧٣).
- ٤٨ - الأنوار في صحبة الأخبار، تحقيق عبد الرحمن عميرة، طلعت غنام، مجمع البحوث عدد ٦٤ سنة ١٩٧٣.
- ٤٩ - الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية. تحقيق عبد الرحمن عميرة طلعت غنام الطبعة الأولى ١٩٦٢.
- ٥٠ - آداب العبودية. الطبعة الأولى. المجلة الشرقية ١٣١٧.
- ٥١ - البحر المورود في المراثيق والعهد. المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨.
- ٥٢ - تنبيه المغفلين. مطبعة شاهين ١٢٧٨.
- ٥٣ - درر الغواص على فتاوى على الخواص. بهامش كتاب الإبريز. الطبعة

- الأولى، المطبعة الأزهرية ١٣٠٦ هـ.
- ٥٤ - الطبقات الصغرى. تحقيق عبد القادر عطا. الطبعة الأولى ١٩٧٠. مكتبة القاهرة.
- ٥٥ - الطبقات الكبرى ٢ ج المطبعة الشرقية ١٣١٥، طبعة صبيح.
- ٥٦ - الكبريت الأحمر. على هامش اليواقيت والجواهر. المطبعة الأزهرية. الطبعة الثانية ١٣٠٨.
- ٥٧ - كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان. نشر عبد الله عبد الرازق. الطبعة الأولى ١٣٥٦.
- ٥٨ - لوائح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية، على هامش البحر المورود.
- ٥٩ - لطائف المنن ط ١٢٨٨.
- ٦٠ - الميزان الخضرية طبعة قديمة فى مكتبة القاهرة تحت رقم ٢٩٥٩ عقيبات فى قاعة (ب).
- ٦١ - الوصية المتبولىة. المنح السنية على الوصية المتبولىة بدون تاريخ..
- ٦٢ - اليواقيت والجواهر. المطبعة الأزهرية الطبعة الثانية ١٣٠٨.

(ص)

- * الصمدى، خليل بن أبيك ت ٧٦٤.
- ٦٣ - شرح لامية العجم ٢ ج. طبعة ١٢٩٠.
- ٦٤ - نكت الهميان فى نكت العميان. طبعة الجمالية ١٩١١.
- ٦٥ - الوافى بالوفيات. نشسر ريتتر ١٩٣١ والنشريات الإسلامية ١٩٤٩، ١٩٥٣.
- * ابن الصيرفى : على بن داود الجوهري الصيرفى (٨١٩ - ٩٠٠)
- ٦٦ - إنباء الهصر بأنباء العصر. تحقيق د. / حسن حبشى. دار الفكر العربى ١٩٧٠.
- ٦٧ - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى دار الكتب (١٩٧٠ - ١٩٧٣).

(ط)

* الطوسى : أبو نصر،

٦٨ - اللمع تحقيق عبد الحليم محمود ط ١٩٦٧ القاهرة.

* ابن طولون : شمس الدين محمد بن أحمد (٨٨٠ - ٩٥٣).

٦٩ - مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان (تاريخ ابن طولون). تحقيق محمد

مصطفى. القسم الأول (٨٨٤ - ٩٢١) والقسم الثانى (٩٢٢ - ٩٢٦)، وزارة

الثقافة (١٩٦٢، ١٩٦٤).

(ظ)

* ابن ظهيرة :

٧٠ - الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة. تحقيق مصطفى السقا، كامل

المهندس - وزارة الثقافة ط دار الكتب ١٩٦٩.

(ع)

* ابن عبد الظاهر : عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر.

٧١ - الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية (سيرة

الأشرف خليل) طبعة ليبسك ١٩٠٢.

* ابن عطاء السكندرى :

٧٢ - التنوير فى إسقاط التدبير. المطبعة الحمديّة ١٣٢١.

٧٣ - الحكم العطائية، ملحقة بكتاب إيقاظ الهمم لابن عجيبة. مطبعة الجمالية

١٩١٣ الطبعة الثانية.

٧٤ - لطائف المنن المطبعة البهية ١٣٢٢ الطبعة الأولى مطبعة السعادة.

* ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩

٧٥ - شذارات الذهب فى أخبار من ذهب. الأجزاء ٥ : ٩، نشر مكتبة القدس

١٣٥١.

* عبد الصمد الأحمدي :

٧٦ - الجواهر السنية والكرامات الأحمدية. ألف الكتاب سنة ١٠٢٧ طبعة ١٢٨٧.

* العيدروس : أبو بكر بن عبد الله : من علماء القرن العاشر.

٧٧ - النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعي، الطبعة الأولى ١٩٧٠.

* العيدروس : محبى الدين عبد القادر بن عبد الله المهندي ١٠٣٨.

٧٨ - النور السافر فى أخبار القرن العاشر. تصحيح رشيد الصفار بغداد ١٩٣٤.

* العيني : بدر الدين (٧٦٢ - ٨٥٥).

٧٩ - الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر. تحقيق هانس ارنست : نشر

البابى الحلبي ١٩٦٢.

٨٠ - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهم شلتوت

مراجعة د. / زيادة. دار الكاتب ١٩٦٦ - ١٩٦٧.

(غ)

* الفزالي : (ت ٥٠٥)

٨١ - احياء علوم الدين، المطبعة العثمانية. و. . اشكالات الاحياء، على هامش

الاحياء.

* الفزى : نجم الدين ت ١٠٦١

٨٢ - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، الجزء الأول فقط المطبعة الأمريكية

ببيروت ١٩٤٥.

(ف)

* ابن الفارض : عمر ت ٦٣٢ :

٨٣ - ديوان ابن الفارض : مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

* أبو الفدا : المؤيد اسماعيل أبو الفدا ت ٧١٤

٨٤ - تاريخ ابو الفدا : ٤ ج المطبعة الشاهانية بالقسطنطينية ١٢٨٦.

* ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (٧٣٥ - ٨٠٧).

٨٥ - مجلدات ٧، ٨، ٩ القسم الأول والقسم الثاني. تحقيق قسطنطين رزق،
نجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكية ببيروت ١٩٣٦ - ١٩٣٩.

(ق)

* القاشاني (كمال الدين عبد الرازق) ت ٧٣٥ :

٨٦ - اصطلاحات الصوفية : تحقيق د. / كمال جعفر، الهيئة العامة للكتاب
١٩٨١.

* القشيري : عبد الكريم بن هوزان القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥).

٨٧ - الرسالة القشيرية. تحقيق د. / عبد الحليم محمود، محمود الشريف، دار
الكتاب الحديث.

* القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢٢.

٨٨ - صبح الأعشى : ١٤ جزء المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣.

* ابن قيم الجوزية،

٨٩ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف : تحقيق حامد الفقي.

* عبد الفتاح أبو غدة مكتب المطبوعات الإسلامية ١٣٩٠، ١٩٧٠، ١٩٩١، ٧٥١.

٩٠ - إضاءة اللفهان من مصائد الشيطان تحقيق حامد الفقي ج ٢ دار العدل
بالإسكندرية.

(د)

* الكتبي : محمد بن شاعر بن أحمد. ت ٧٦٤

٩١ - فوات الوفيات. تحقيق محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة ج
١٩٥١.

* ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت ٧٧٤.

٩٢ - البداية والنهاية ج ١٣، ج ١٤ مطبعة السعادة ١٣٥٨، طعة بيروت ١٩٦٦.

(ل)

* اللخمي : على بن محمد الاشبيلى اللخمي.
٩٣ - سيرة سليم، كتبه سنة ٩٢٣ تحقيق هانس ارنست. عيسى البابى الحلبي
١٩٦٢.

(م)

* أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ٨٧٤.
٩٤ - النجوم الزاهرة. الأجزاء (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦)،
(١٩٣٨ - ١٩٧٢)، ج ١٣ تحقيق فهم شلتوت، ج ١٤ تحقيق فهم شلتوت
وجمال محرز ج ١٥ تحقيق على طرخان، ج ١٦ تحقيق الشيال، فهم شلتوت.
٩٥ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى : نشر دار الكتب. الجزء الأول
بتحقيق أحمد يوسف نجاتى ١٩٥٦.
٩٦ - منتخبات من حوادث الدهور، حررها وليام بيير. ١٩٣٠ طبعة باريس.

* مجهول :

٩٧ - تاريخ السلاطين المماليك من (٦٩٠ - ٧٤١هـ) والمؤلف معاصر للناصر
محمد بن قلاوون نشر زير ستين ليدن ١٩١٩.
* المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (٧٦٦ - ٨٤٥).
٩٨ - إغاثة الأمة بكشف الغمة. نشر زيادة د. / الشيال. لجنة التأليف والترجمة
والنشر ١٩٤٠.
٩٩ - تجريد التوحيد المفيد : علق عليه وصححه طه الزينى الطبعة الأولى
١٣٧٣، المطبعة المزينة بالقاهرة.
١٠٠ - الخطوط المقرئية ٤ ج مطبعة النيل بمصر ١٣٢٦ هـ، ١٣٢٤، مطبعة بولاق
١٢٧٠.
١٠١ - السلوك لمعرفة دول الملوك : الأجزاء ١، ٢ ، بأقسامهما تحقيق محمد
مصطفى زيادة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الأجزاء ٣، ٤ بأقسامهما

تحقيق د. / عاشور (١٩٧٠ - ١٩٧٢).

١٠٢ - فضل آل البيت. تحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور. دار الاعتصام المطبعة الثانية ١٩٧٣.

* المناوي : عبد الرؤوف ١٠٣١

١٠٣ - الكواكب البدرية (الطبقات الكبرى) الجزء الأول المطبعة الأولى تصحيح محمود حسن ربيع ١٩٣٨.

(ن)

١٠٤ ابن نباتة : جمال الدين بن نباتة المصري ت ٧٦٨.

١٠٤ - ديوان ابن نباتة. الطبعة الأولى مطبعة التمدن ١٣٢٣ - ١٩٠٥.

(و)

١٠٥ ابن الوردي : زين الدينمرت ٧٥٠ هـ

١٠٥ - تاريخ ابن الوردي : تتمه المختصر في أخبار البشر، مطبعة الوهبة بمصر ١٢٨٥.

(ي)

* اليافعي : عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي ٧٦٨.

١٠٦ - فضل مشايخ الصوفية على هامش الكرمات للنبهاني مطبعة دار الكتب العربية.

١٠٧ - روض الرياحين في حكايات الصالحين. المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٧.

١٠٨ - مراة الجنان وعبر الیقطان ٤ج. بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٠.

رابعاً : المراجع المطبوعة المنشورة

(أ)

* أبو العلا عفيفى :

١ - التصوف الثورة الروحية فى الإسلام : دار المعارف ١٩٦٣.

* أحمد أمين :

٢ - حياتى : مكتبة النهضة المصرية. الطبعة السادسة ١٩٧٨.

٣ - قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٣.

(ت)

* التفتازانى : (أبو الوفا غنىمى)

٤ - ابن عطاء السكندرى وتصوفه، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى

١٩٥٨.

٥ - مدخل إلى التصوف. دار الثقافة طبعة ١٩٧٤.

* تيمور أحمد :

٦ - الأمثال العامية : الطبعة الأولى ١٩٤٩، الطبعة الثانية ١٩٥٦.

(ث)

* شعلان ابراهيم أحمد :

٧ - الشعب العربى فى أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

* الشوكانى محمد بن على ت ١٢٥٠ :

٨ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ٢ ج الطبعة الأولى ١٣٤٨.

* الشيبى (مصطفى كامل) :

٩ - الصلة بين التصوف والتشيع، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧١.

١٠ - الفكر الشيعى والنزعات الصوفية مكتبة النهضة ببغداد ١٩٦٦.

(ط)

* الطويل : توفيق :

١١ - التصوف فى مصر فى العهد العثمانى مكتبة الاداب بالجماميز

١٩٤٦.

(ع)

* عاشور/ سعيد عبد الفتاح :

١٢ - السيد أحمد البدوى، دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ أعلام العرب الطبعة الثانية.

* عبد الباقي / محمد فؤاد :

١٣ - المعجم المفهرس للقرآن الكريم طبعة كتاب الشعب.

* عبد الحليم محمود :

١٤ - أبو العباس المرسى. أعلام العرب عدد ٨٤ / ١٩٦٩.

١٥ - الشاذلى أعلام العرب عدد ٧٢ / ١٩٦٧.

(ق)

* قاسم غنى :

١٦ - تاريخ التصوف فى الإسلام. ترجمة صادق نشأت. مكتبة النهضة المصرية

١٩٧٠.

(د)

* كلوت بك :

١٧ - لمحة عامة إلى مصر ترجمة محمد مسعود ٢ ج مطبعة أبى الهول.

* الكوهن/ الحسن بن محمد بن قاسم الشاذلى :

١٨ - طبقات الشاذلية، الطبعة الأولى ١٣٤٧.

(ل)

* لين بول :

١٩ - سيرة القاهرة ترجمة حسن وعلى ابراهيم حسن، الطبعة الثانية مكتبة النهضة.

(م)

* ماير :

٢٠ - الملابس المملوكة، ترجمة صالح الشيبى، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢.

* متولى، أحمد فؤاد :

٢١ - الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركبة والعربية المعاصرة له. دار النهضة ١٩٧٦.

(ن)

* نيكلسون/ ارنولد :

٢٢ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه، ترجمة وتعليق أبو العلا عفيفى ١٩٤٧.

صدر فى هذه السلسلة

- ١- مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢،
١٩٩٤.
- ٢- على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.
- ٣- ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.
- ٤- التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.
- ٥- غارات أوروبا على الشواطىء المصرية
فى العصور الوسطى،
د. عالية عبد السميع الجزورى، ١٩٨٧.
- ٦- هؤلاء الرجال من مصر ج ١،
لمى المطيعى، ١٩٨٧.
- ٧- صلاح الدين الأيوبي،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.
- ٨- رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧.
- ٩- صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧.
- ١٠- توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمد فوري، ١٩٨٧.
- ١١- مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكري القاضى، ١٩٨٧.
- ١٢- هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . نبيل راغب، ١٩٨٨.
- ١٣- أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية
تاريخية،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٨، ط ٢،
١٩٩٤.
- ١٤- مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى
إلى قيام الدولة الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.
- ١٥- المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨.
- ١٦- فصول من تاريخ حركة الإصلاح
الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور
الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د . حلمى أحمد شلبي، ١٩٨٨.
- ١٧- القضاء الشرعى فى مصر فى العصر
العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.
- ١٨- الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمد، ١٩٨٨.
- ١٩- مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.
- ٢٠- دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩:
المراسلات السرية بين سعد زغلول
وعبد الرحمن فهمى،
د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.
- ٢١- التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى
ج ١،
د . توفيق الطويل، ١٩٨٨.

- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر، جمال بدوي، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج٢، ٢، إمام التصوف في مصر: الشعراي، د. توفيق الطويل، ١٩٨٨
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)، د. نجوى كامل، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الإسلامي والغرب، تأليف: هاملتون جب وهارولد بروين، ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة، د. سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج١، تأليف: ألفريد ج. بئر، ترجمة: محمد فريد أبرحيد، ١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢، تأليف: ألفريد ج. بئر، ترجمة: محمد فريد أبرحيد، ١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عهد الإخشيديين، د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموقفون في مصر في عهد محمد على، د. حلمى أحمد شلى، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية، شكرى القاضى، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢، لمسى المليمى، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية، د. خالد معمر الكرمى، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢، د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠
- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة، عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب ج٢، تأليف: هاملتون بروين، ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن، تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر العثمانى، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)، د. جميل عبيد، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨، د. عبدالنعم الدسوقى الجميلى، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية، د. رفعت السعيد، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور، محمد شفيق غريال، ط٢، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية، إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، في العصر العثمانى، د. محمد عفيفى، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج١، تأليف: وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشى، ١٩٩١
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧)، ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١

- ٤٧- تاريخ القضاء المصري الحديث،
د. لطيفة محمد سالم، ١٩٩١.
- ٤٨- الفلاح المصري بين العصر القبطي
والعصر الإسلامي،
د. زبيدة عطا، ١٩٩١.
- ٤٩- العلاقات المصرية الإسرائيلية
(١٩٤٨-١٩٧٩)،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
- ٥٠- الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
(١٩٤٦-١٩٥٤)،
د. سهير أسكندر، ١٩٩٣.
- ٥١- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار
بالمجلس الأعلى للثقافة، في إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.
- ٥٢- مصر في كتابات الرحالة والقناصل
الفرنسيين في القرن الثامن عشر،
د. إلهام محمد علي ذملي، ١٩٩٢.
- ٥٣- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة
المماليك الجراكسة،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي، ١٩٩٢.
- ٥٤- الأقباط في مصر في العصر العثماني،
د. محمد عفيفي، ١٩٩٢.
- ٥٥- الحروب الصليبية ج٢،
تأليف: وإليم الصوري ترجمة وتعليق: د.
حسن حبشي، ١٩٩٢.
- ٥٦- المجتمع الريفي في عصر محمد علي:
دراسة عن إقليم المنوفية،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٢.
- ٥٧- مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.
- ٥٨- أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة،
د. إبراهيم عبدالله السلمي، ١٩٩٣.
- ٥٩- الرأسمالية الصناعية في مصر، من
التصوير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،
د. عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.
- ٦٠- المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٣.
- ٦١- تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث،
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.
- ٦٢- هؤلاء الرجال من مصر ج٣،
لمسى المطيعي، ١٩٩٣.
- ٦٣- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ
مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين
سزور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:
د. عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.
- ٦٤- مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة
والافتراء: دراسة وثائقية،
د. محمد نعمان جلال، ١٩٩٣.
- ٦٥- موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
(١٨٩٧-١٩١٧)،
د. سهام نصار، ١٩٩٣.
- ٦٦- المرأة في مصر في العصر الفاطمي،
د. نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣.
- ٦٧- مساعي السلام العربية الإسرائيلية:
الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار
بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم
التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، في
إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر: د. عبد العظيم
رمضان، ١٩٩٣.
- ٦٨- الحروب الصليبية ج٣،
تأليف: وإليم الصوري
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ١٩٩٣.
- ٦٩- نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية
(١٨٨٦-١٩٥١)،
د. محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤.

- ٧٠- أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف :أ.س. توتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط٢، ١٩٩٤.
- ٧١- مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة: د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو، ١٩٩٤.
- ٧٢- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية
فى العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
- ٧٣- تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
- ٧٤- تاريخ الطب والصيدلة المصرية، ج١، فى
العصر الفرعونى،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
- ٧٥- أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى
الأول،
د. سلام شافعى محمود، ١٩٩٥.
- ٧٦- دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى
(زمن الإحتلال البريطانى)،
د. سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥.
- ٧٧- الحروب الصليبية ج٤،
تأليف : وليم الصبرى، ترجمة وتعليق: د.
حسن حبشى، ١٩٩٤.
- ٧٨- تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.
- ٧٩- تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى
القرن التاسع عشر،
تأليف : فريد دى يونج، ترجمة : عبد الحميد
فهيمى الجمال، ١٩٩٥.
- ٨٠- قناة السويس والتنافس الاستعمارى
الأوروبى (١٨٨٢-١٩١٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.
- ٨١- تاريخ السياسة والصحافة المصرية من
هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزى ميخائيل، ١٩٩٥.
- ٨٢- مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى
إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط٢، ١٩٩٤.
- ٨٣- مذكراتى فى نصف قرن ج١،
أحمد شفيق ناشأ، ط٢، ١٩٩٤.
- ٨٤- مذكراتى فى نصف قرن ج٢ - القسم
الأول،
أحمد شفيق ناشأ، ط٢، ١٩٩٥.
- ٨٥- تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية
(١٩٣٤-١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥.
- ٨٦- تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية
الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،
د. أحمد الشربيني، ١٩٩٥.
- ٨٧- مذكرات اللورد كليرن، ج٢، (١٩٣٤ -
١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د.
عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.
- ٨٨- التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى
المصرية،
عبدالحمد توفيق زكى، ١٩٩٥.
- ٨٩- تاريخ الموانئ المصرية فى العصر
العثمانى،
د. عبدالمعبد حامد سليمان، ١٩٩٥.
- ٩٠- معاملة غير المسلمين فى الدولة
الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.
- ٩١- تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحمد فهيمى
الجمال، ١٩٩٦.
- ٩٢- الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية
(١٩١٩ - ١٩٣٦)،
ج٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره
د. علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ - ١٩٨٧
د. أحمد فارس عبدالمعتم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن).
د. سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية.
تأليف: دليوب هيرز؛ ترجمة: عبدالمعتمد فهمي الجمال.
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤.
سليم النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥.
سليم النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ١.
د. البيومي إسماعيل الشرييني.
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) ج ٢.
د. البيومي إسماعيل الشرييني.
- ١١٢ - إسماعيل باشا صدقي
د. محمد محمد الجوادى.
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د. عز الدين إسماعيل.
- ١١٤ - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨)،
د. نبیه بیومی عبدالله، ١٩٩٦.
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٥٤ - ١٩٤٦)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.
- ٩٥ - مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد: د. عبد العليم رمضان
- ٩٦ - عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤف أحمد عمرو.
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصرى في النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية،
د. محمد سيد محمد.
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى - الرومانى) ج ٢،
د. سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار،
أ. د. محمد إبراهيم بكر، أ. د. إبراهيم نصحي،
أ. د. فاروق القاسمى، أعدها للنشر: أ. د. عبد العليم رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى،
اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ج ٣ .
أحمد شفيق باشا .
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨)
- عبد الرزاق إبراهيم عيسى
١١٨ - النظم المالية في مصر والشام
د. البيومي اسماعيل الشربيلي
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يرميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج٦
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوي
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في
نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج٧
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج٨
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)
إبراهيم محمد محمد إبراهيم .
- ١٢٨ - معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوي .
- ١٢٩ - الدين العام (وآثره في تطور الدين المصري)
(١٨٧٦-١٩٤٣)
د. يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين في مصر
(١٩٨٧-١٩٩٧) .
سمير فريد .
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ م .
ترجمة/ د. عبدالرؤف أحمد عمر .
- ١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر ج١ .
د. ماجدة محمد حمود .
- ١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر ج٢ .
د. ماجدة محمد حمود .
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط
عفمانى للدارندلى .
بقلم/ عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى .
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية
(في ضوء وثائق الجيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) د. محاسن
محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى
والإرهاب في مصر
السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول
من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥ هـ /
١٨١١ - ١٨٤٨ م
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك .
لطفي أحمد نصار
- ١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن ج٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩ .

- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثاني والأول ق. م
د. منيرة محمد الهمشري
- ١٤٤ - كشف مصر الأثرية في عهد الخديوي اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
- ١٤٥ - النظام الإداري والاقتصادي في مصر في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)
د. منيرة محمد الهمشري
- ١٤٦ - المرأة في مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
- ١٤٧ - حسن البنا... كيف .. ولماذا؟
د. رفعت السيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزي
ترجمة / نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد العلى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. عليا عبد السميع الجنزوري
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى
د. عليا عبد السميع الجنزوري
- ١٥٥ - عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ - ١٨٨٣ م)
د. عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية الجزء الثالث
في العصر الإسلامي
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية الجزء الرابع
في العصر الإسلامي والحديث
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نواب السلطنة المملوكية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
الجزء الثاني
د. محمد فريد حشيش
- ١٦١ - السيف والمار في السودان
تأليف / سلاطين باشا
- ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ - ١٩٥٣ م)
د. تمام همام تمام
- ١٦٣ - مصر والحركة الفرنسية
المستشار / محمد سعيد العشماوى
- ١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأثرية بجامعة القاهرة ٢٠٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
- ١٦٥ - التعليم والتغير الاجتماعي في مصر (في القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم
- ١٦٦ - مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ

- مصر)
السيد يوسف
- ١٦٧- الحركة العلمية والأدبية في القسطنطينية منذ الفتح
العربي إلى نهاية الدولة الأتلية
د. صفى على محمد عبد الله
- ١٦٨- مؤرخون مصريون من عصر المماليك
يسرى عبد الغنى
- ١٦٩- مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى
نهاية عصر الفاطميين (٢١- ٥٦٧هـ / ٦٤٢-
١١٧١م)
- د. صفى على محمد عبد الله
- ١٧٠- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك
(٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧م)
- مجدى عبد الرشيد بحر
- ١٧١- تاريخ الحامية الأتلية في مصر
القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت
- ١٧٢- تاريخ أهل الدمة في مصر الإسلامية
(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)
الجزء الأول
- تأليف / فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٣- تاريخ أهل الدمة في مصر الإسلامية
(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)
الجزء الثاني
- تأليف / فاطمة مصطفى عامر
- ١٧٤- مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع
ق.م
- د. أحمد عبد الحليم دراز
- ١٧٥- محمد توفيق لسيم باشا ودوره في الحياة
السياسية
عادل إبراهيم الطويل
- ١٧٦- الملاحة النيلية في مصر العثمانية
١٥١٧- ١٧٩٨م
- د. عبد الحميد حامد سليمان
- ١٧٧- سياسة مصر العسكرية
- أراء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم
- ١٧٨- العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى
في القرن الثامن عشر
د. سحر على حنفى
- ١٧٩- دور الحماية العثمانية في تاريخ مصر
(١٥٦٤- ١٦٠٩ م)
- د. عفاف مسعد السيد العبد
- ١٨٠- الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة
السويس
نقلم / د. عبد العظيم رمضان
- ١٨١- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد
ج١)
- ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حنبلى
- ١٨٢- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد
ج٢)
- ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حنبلى
- ١٨٣- شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة
- ١٨٤- المنوية في القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق
- ١٨٥- تاريخ مدينة أطروم تحت الحكم المصري
١٨٢٠- ١٨٨٥م
- د. أحمد أحمد سيد أحمد
- ١٨٦- العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام
والتصوف
د. أحمد صبحى منصور

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد: التصوف عقيدة وتاريخا	١١
ماهية التصوف: تعريفات التصوف	١٣
المفهوم الحقيقي	١٥
اشتقاقات التصوف	١٨
مصادر التصوف	٢٠
بداية التصوف وانتشاره: بين الزهد والتصوف	٢٥
بداية التصوف	٢٩
انتشار التصوف فى العالم الاسلامى	٣٢
سيطرة التصوف على العصر المملوكى	٣٧
الاسباب الأولى: مراحل العقيدة الصوفية وتطورها فى مصر المملوكية	٤٥
مدخل: تعقيب على آراء الباحثين فى عقائد التصوف	٤٨
الفصل الأول: المرحلة الأولى للعقيدة الصوفية: من بداية التصوف فى القرن الثالث الهجرى إلى وفاة الغزالى ت ٥٠٥ هـ	٥١
مدرسة الجنيـد	٥٨
الغزالى وعقيدة التصوف	٦٣
عقيدة التصوف فى الاحياء	٧٢
تعقيب على الغزالى ووحدة الوجود	٧٥
الفصل الثانى: المرحلة الثانية من بعد الغزالى الى ابن عربى، ت ٦٢٨ هـ	٧٧
مدخل	

الموضوع	الصفحة
ازدهار التصوف فى عصر الغزالى	٧٨
ازدهار التصوف بعد عصر الغزالى	٨٢
ابن عربى ووحدة الوجود فى كتاب الفصوص	٨٧
ابن الفارض قرين ابن عربى فى مصر	٩٨
الفصل الثالث: وحدة الوجود و صراع الصوفية من اتباع ابن عربى مع الفقهاء فى القرنين السابع والثامن الهجريين	١٠١
أولاً: فى القرن السابع	١٠٣
ثانياً: وحدة الوجود و صراع الصوفية مع اتباع ابن عربى من مع الفقهاء فى القرن الثامن: ابن تيمية	١١٥
آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء فى القرن الثامن	١٢٣
آثار حركة ابن تيمية على خصومه الصوفية	١٢٧
الفصل الرابع: وحدة الوجود و صراع الصوفية مع الفقهاء فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين	١٣٩
أولاً: فى النصف الأول من القرن التاسع	١٤١
فى النصف الثانى من القرن التاسع حرة البقاعى سنة ٨٧٥	١٤٤
بعد موت البقاعى سنة ٨٨٥	١٥٤
فى القرن العاشر: الشعرانى ممثل الفقه والتصوف	١٥٧
طبيعة الشعرانى بين التصوف والفقه	١٥٧
هجومه على معاصريه من الصوفية	١٥٨
النهى عن مطالعة كتب الاتحاد الصوفية	١٥٩
تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين	١٦١
الشعرانى يشيد بأساتذته الاتحاديين	١٧٠

الموضوع	الصفحة
الشعرانى يقول بالاتحاد الصوفى	١٧١
الفصل الخامس: المرحلة الثالثة للعقيدة الصوفية: رفض الاسلام	
صراحة	١٧٩
مدخل	١٨١
السطح الصوفى فى العصر المملوكى طريق لنيل الاسلام	١٨٤
الصوفية رافضو الاسلام شيوخ المرحلة الثالثة، فى القرن الثامن،	
الباجرى	١٩١
اتباع الباجرى	١٩١
ابن البقلى	١٩٣
ابن اللبان	١٩٤
ادعاء النبوة	١٩٥
الصعود للسماء	١٩٦
فى القرن التاسع: طوائف الأعاجم	١٩٦
الحروفية أو التسمية	١٩٧
ادعاء الصعود للسماء	١٩٩
ادعاء الألوهية فى الريف	٢٠١
يارب سلم الحيلة بتكلم	٢٠٢
حوادث الردة بين العامة والممالك	٢٠٣
شيوخ التكفير	٢٠٤
الباب الثانى تقديس الولى الصوفى فى مصر المملوكية	٢٠٩
مدخل	٢١١
الفصل الأول: ولي الله فى الاسلام من خلال القرآن الكريم	٢١٢

الموضوع	الصفحة
معنى ولى الله وصفاته الاجمالية	٢١٢
تحليل لصفات الولي فى القرآن: صفات عمومية	٢١٤
صفات عرضية	٢١٧
صفات غيبية لايعرف حقيقتها إلا الله تعالى	٢٢٥
المؤمن لا يدعى الولاية	٢٢٨
هل يوجد ولى حى بمفهوم الاسلام	٢٢٩
الفصل الثانى: تقديس الولي الصوفى فى مصر المملوكية	٢٣٣
مدخل، تزكية الولي الصوفى	٢٣٥
تأليه الولي الصوفى	٢٤٣
ملاحم تأليه الولي الصوفى: الدعوة الى الايمان بالولي الصوفى.....	٢٤٤
أسماء وصفات الالهية للولي الصوفى	٢٤٨
الولي الصوفى بين السماء والأرض	٢٥٤
الولي الصوفى لا يأكل ولا ينام ولا يختلط بالبشر	٢٥٧
تقديس كلام الولي الصوفى	٢٦٠
اسناد علم الغيب للولي الصوفى	٢٦١
ادعاء التصرف للولي فى ملك الله تعالى	٢٦٩
ملاحم تأليه الولي الصوفى فى علاقة المريد بشيخه	٢٨٢
حب المريد لشيوخه حب تأليه	٢٨٣
عدم اشراك المريد بشيخه	٢٨٦
عبودية المريد لشيوخه	٢٨٩
تفضيل الولي الصوفى على الأنبياء	٢٩٣

الموضوع	الصفحة
فى العصمة	٢٩٤
فى الشفاعة	٢٩٥
الصوفية يفضلون الولى الصوفى على الله تعالى	٢٩٧
المقصود بالعبادة والتقديس هو الله جل وعلا وهو الولى ولا ولى سواه	٣٠٦
الصوفية أولياء الشيطان	٣٠٧
الفصل الثالث: أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم	٣١٦
أولاً: أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: بين القطب وأعوانه:	
القطب	٣١٦
الخضر	٣١٩
المجاذيب	٣٢١
أرباب الأحوال	٣٢٣
أصحاب النوبة	٣٢٤
أصحاب الوقت	٣٢٦
ثانياً: مهام الأولياء: الحملات	٣٢٦
النظرة	٣٢٩
ثالثاً: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى	٣٣١
دراسة فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى	٣٣٦
مروجو الكرامات	٣٤٠
تهرب المتصوفة من الاتيان بكرامة	٣٤٢
أصناف من أساطير الكرامات: علم الغيب	٣٤٥
	٤١٧

الموضوع	الصفحة
التصريف	٣٤٧
انتحال صفات الله	٣٤٨
كرامات ما بعد الموت	٣٥٠
الطى	٣٥١
التطور	٣٥٢
فى قراءة القرآن	٣٥٢
رؤية الله سبحانه والملائكة والعرش	٣٥٣
الأسد	٣٥٤
الذهب	٣٥٥
الطعام	٣٥٥
كرامات تافهة	٣٥٦
الخاتمة	٣٥٩
المصادر	٣٧٦
صدر من السلسلة	٤٠٥

مطابع المينة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٦٢٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 6991 - 9

هذا العمل العلمى «العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف» الذى كتبه الدكتور أحمد صبحى منصور، وهو عالم ومفكر إسلامى مشير للمجدل، وله بحوث عديدة فى التاريخ الإسلامى اتسمت بقوة الحجة والبحث والإطلاع والتوفيق.

والكتاب الذى بين أيدينا يشكل مراجعة من الباحث على كتابه: «التصوف والحياة الدينية» دعمها بالرجوع إلى بدايات التصوف التاريخية والعقيدية والفكرية، وحذف منها بعض الفصول، وأضاف إليها ما يحتاج إليه من أبحاث تضمنتها رسائله للدكتوراه التى نوقشت، خصوصاً فيما يتصل بعلاقة الصوفية بالفقهاء، وبعض النواحي العقلية والاجتماعية. وقد حرص على توثيق كل ما كتبه بالمصادر الأولية، التى يستطيع أن يرجع إليها القارئ للتحقق من الأمانة العلمية للباحث فى محاولته التعرف على التصوف وعقائده ورسومه، وتحديد الفجوة بينه وبين الإسلام الصحيح من خلال القرآن.

